الرحلة الأميركيّة

1912

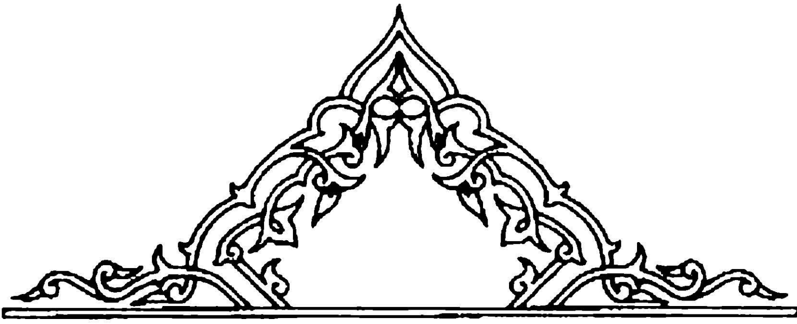
الأمير محمّد علي باشا

حرّرها وقدّم لها: علي أحمد كنعان

ارتياد الآفاق ١٢


دار السويدي للنشر والتوزيع


المؤسسة العربية للدراسات والنشر



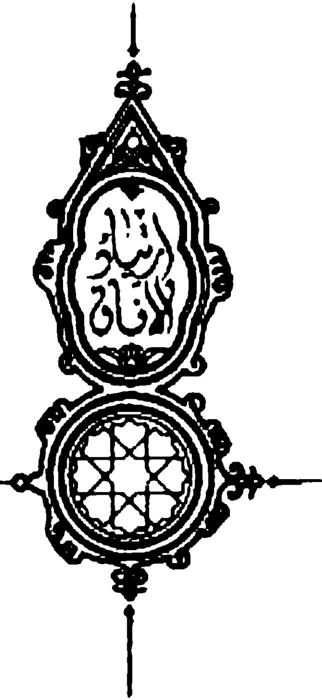
الرحلة الأمريكية

1912

الأمير محمد علي باشا

حررها وقدم لها: علي أحمد كنعان



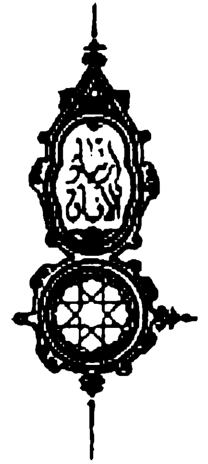


يشرف على هذه السلسلة :

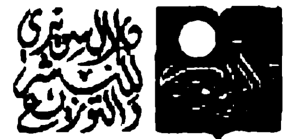
نوري الجراح

الرحلة الأمريكية

1912



الرحلة الأميركية ١٩١٢/ أدب رحلات
الأمير محمد علي باشا / مؤلف ، [حرّرها وقدّم لها :علي أحمد كنعان]
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤





دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي ، ص. ب : ٤٤٤٨٠
الإمارات العربيّة المتّحدة ،
هاتف : ٦٣٢٢٠٧٩ ، فاكس : ٦٣١٢٨٦٦

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E-mail : mkayyali@nets.com.jo

تصميم الغلاف : منير الشعراني / مصر
الصفّ الضوئي :
القرية الإلكترونيّة / أبو ظبي + المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
التنفيذ الطباعيّ :
رشاد برس / بيروت ، لبنان

ISBN 9953-36-604-7

« . . . هذا والذي استغربته أني رأيت كثيراً من السيدات راكبات عربات صغيرة مقفلة تمشي بقوّة الكهرباء ، وهنّ اللاتي يحرّكنها بأنفسهن بدون سائق يقودها بلا خوف ولا وجل ، فقلت إذ ذاك : إن الأمريكيين الذين أمهاتهم أمثال هؤلاء السيدات الممتلئات نشاطاً وثباتاً وقوة جنان جديرون بما نالوا من الصيت الطائر في جميع أنحاء العالم ، فأكثر أخلاق الولد وعوائده مكتسب من أمه ، فالأمم ترتفع بارتفاع المرأة فيها وتنحطّ بانحطاطها . . .»

من نص الرحلة ص 70

« . . . وقد كنّا رأينا قبل أن نصل إلى هذه البلدة بمحطتين هؤلاء الهنود وعرفناهم من سيماهم ، بالرغم من تغيير ملابسهم واستبدالها بالملابس الأوربية ، فإن ألوانهم وسحنتهم كانت ناطقة بجنسهم وأصلهم . أما نساؤهم فوضعهنّ الخمر على رؤوسهنّ كان سبب تمييزهنّ والالتفات إليهن . هذا وقد لاحظنا أن الجهة التي يسكن فيها هؤلاء الهنود التعسون رطبة وبها كثير من المستنقعات المسببة للأمراض التي تفتك بهم ، وتقلل من عددهم عاماً بعد عام . أما أراضيهم فليست مزروعة كما يرام ، وهم يستعملون من فقرهم أدوات الزراعة القديمة ، فلا يجنون ثمرة أتعابهم إلا بكلّ مشقّة . . .»

من نص الرحلة ص 104



تَهْدُفُ هذه السّلسلةُ بَعْثَ واحد من أعرق ألوانِ الكتابةِ في ثقافتنا العربية ، من خلال تقديم كلاسيكيّاتِ أدبِ الرّحلةِ ، إلى جانب الكشف عن نصوصٍ مجهولةٍ لكتاب ورحّالة عربٍ ومسلمينَ جابوا العالم ودوّنوا يوميّاتهم وانطباعاتهم ، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخَبِروهُ في أقاليمه ، قريبةً وبعيدةً ، لاسيما في القرنين الماضيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النُّخب العربية المثقفة ، ومحاولة التعرّف على المجتمعات والنّاس في الغرب . والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرةِ الاستشراق والمستشرقين الذين ملأوا دروبَ الشّرقِ ، ورسموا له صوراً ستملأ مجلدات لا تُحصى عدداً ، خصوصاً في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية ، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم ، ومن منطلق المستأثر بالأشياء ، والمتهيء لترويج صور عن «شرق ألف ليلة وليلة» تغذّي أذهان الغربيين ومخيّلاتهم ، وتُمهّدُ الرأي العام ، تالياً ، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق . ولعل حملة نابليون على مصر ، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية ، هي النموذجُ الأتمُّ لذلك . فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي لتؤسس للظاهرة الاستعمارية بوجهيها العسكري والفكري .

على أن الظاهرة الغربية في قراءة الآخر وتأويله، كانت دافعاً ومحرضاً بالنسبة إلى النخب العربية المثقفة التي وجدت نفسها في مواجهة صور غربيّة لمجتمعاتها جديدة عليها، وهو ما استفز فيها العصب الحضاري، لتجد نفسها تملك، بدورها، الدوافعَ والأسبابَ لتشدّ الرحال نحو الآخر، بحثاً واستكشافاً، وتعود ومعها ما تنقله وتعرضه وتقوله في حضارته، ونمط عيشه وأوضاعه، ضاربة بذلك الأمثال للناس، ولينبعث في المجتمعات العربية، وللمرة الأولى، صراع فكري حاد تَسْتَقْطَبُ إليه القوى الحيَّةُ في المجتمع بين مؤيد للغرب موالٍ له ومتحمِّسٍ لأفكاره وصياغاته، وبين معادٍ للغرب، رافض له، ومستعدٍّ لمقاتلته.

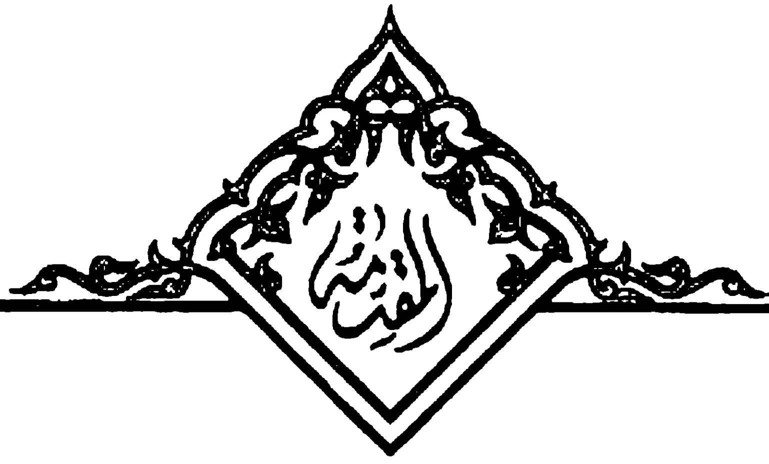
وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين، عَبْرَ رسم صور دنيا لهم، بواسطة مخيّلةٍ جائعةٍ إلى السِّحري والأيروسيِّ والعَجائبيِّ، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغربِ والعالم، كما سيتَّضحُ من خلال نصوص هذه السلسلة، ركّز، أساساً، على تتبع ملامح النهضة العلميّة والصناعيّة، وتطوّر العمران، ومظاهر العصرنة ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق. لقد انصرف الرّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات، مدفوعين، غالباً، بشغف البحث عن الجديد، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط، من باب الفضول المعرفي، وإنما، أساساً، من بابِ طَلَبِ العلم، واستلهام التجارب، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث، واقتفاء أثر الآخر للخروج من حالةِ الشّللِ الحضاريِّ التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها. هنا، على هذا المنقلَب، نجُد أحد المصادر الأساسية المؤسِّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته، وهي نظرة المتطلّع إلى المدنيّة وحداثتها من موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة، المتحسّر على ماضيه التليد، والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية.

إن أحد أهداف هذه السّلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم، هو

الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكّل عن طريق الرحلة ، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرّحالة ، والانتباهات التي ميّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار . فأدب الرحلة ، على هذا الصعيد ، يشكّل ثروةً معرفيّةً كبيرةً ، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار ، فضلاً عن كونه مادة سرديّة شائقة تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى ، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكّرُ بها .

أخيراً ، لابد من الإشارة إلى أن هذه السّلسة التي قد تبلغُ المائة كتابٍ من شأنها أن تؤسس ، وللمرة الأولى ، لمكتبة عربية مستقلّة مؤلّفة من نصوص ثريّة تكشف عن همّة العربيِّ في ارتيادِ الآفاقِ ، واستعداده للمغامرة من بابِ نَيل المعرفةِ مقرونةً بالمُتعةِ ، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في أربع جهات الأرض وفي قارّاته الخمس ، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالمه ، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء ، وغيرهم من الرّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية .

محمد أحمد السويدي



I

أول ما يلفت الانتباه في هذه الرحلة أنها جاءت أشبه ما تكون بالمغامرة في ظرف عصيب ، إذ كان الأمير محمد علي في باريس يتهيأ للقيام بها يوم تلقت العاصمة الفرنسية نبأ الكارثة البحرية التي حلت بالباخرة العملاقة تيتانيك وأدت إلى غرقها في 14 أبريل/نيسان 1912 ، إثر اصطدامها بجبل ثلجي وهي في أقصى سرعتها . لكن أخبار الكارثة ، بما رافقها من مخاوف وأهوال ، لم تكن لتؤثر على عزم الأمير أو تضعف من إيمانه القوي بقوله تعالى : ﴿إذا جاءَ أَجَلُهُم فَلا يَستأْخِرُون ساعةً وَلا يَستَقْدِمُون﴾ فبدأ رحلته في موعدها المحدد وهو الأول من مايو/أيار من السنة ذاتها ، أي بعد أسبوعين من وقوع الكارثة المروِّعة .

لم تكن هذه رحلة الأمير الأولى ، بل كان قد عاش سنين طويلة في أوربا دارسا وسائحا ، كما ساح في بلاد الشام والصين واليابان . لذلك نراه يقارن بين ما يشاهده في العالم الجديد وما شاهده من قبل في تلك البلدان . ويبدو أن إعجابه بأوربا ونمط الحياة الأوربية وتقاليد المدنية في ربوعها وقيمها الحضارية أعمق وأوسع مما رآه وخبره وصادفه في أميركا الشمالية .

بدأت الرحلة بالقطار من باريس إلى ميناء شربورغ على شاطئ بحر المانش . ومن هناك انطلقت الرحلة البحرية إلى العالم الجديد . وقد اضطرت

الباخرة الألمانية التي سافر محمد علي على متنها أن تأخذ طريقها إلى الجنوب بعيدا عن الخط الذي سلكته «تيتانيك» قبل نحو عشرين يوما ، لكنها حين تقترب من أحد جبال الثلج أو ينتشر الضباب ويلوح الخطر ، تبرز هواجس المسافرين وتساؤلاتهم المتوجسة خيفة . ولم يكن الأمير في منأى من ذلك ، فنراه يلوم نفسه قائلا : «ما الدّاعي لتركي أوربا الجميلة والمخاطرة بالحياة في هذه الأسفار البعيدة؟» لكن رحالتنا سرعان ما يتغلب على هذه الحالة العارضة بالصبر والإيمان وحب الاستطلاع والمغامرة وتلبية لنداء المجهول .

II

استمرت رحلة الأمير في أميركا الشمالية نحو شهرين ونصف الشهر ، بدأت في نيويورك وانتهت فيها ، بعد أن قطع آلاف الكيلومترات . ويمكن أن نضيف إلى ذلك مدة أسبوعين قضاهما عبر المحيط الأطلسي ذهابا وإيابا . ويبدو أن شلالات نياغارا وشواطئ ألاسكا ومناجم الذهب والفحم ومزارع الأثرياء وبقايا قرى الهنود الحمر وعبور الصحارى والبحيرات وصعود الجبال هي من أهم المعالم التي شاهدها رحالتنا واستمتع بالاطلاع على ملامحها واجتلاء محاسنها في تجواله الطويل هناك ، وتحمل متاعب شتى لا تخلو من أخطار في سبيل ارتياد أمكنة جديدة وتأمل ما أبدع الخالق وما صنعته يد الإنسان في تلك الأرجاء .

الأمير يعشق الطبيعة ويميل إلى السكينة والتأمل ، وينفر من ضوضاء المدن الصاخبة ، لذلك نراه يعرب عن ضيقه بما لقيه في نيويورك فيقول : «إني ممن يحبُّون الهدوء والسكون ، ولذا أعشق جمال الطبيعة ، وكثرة الحركات في المدن العظيمة لا تروقني . فما أراه الآن في نيويورك من الحركة المدهشة جعلني أسأم الإقامة بها . وإني أشعر بنفسي كأنما وُضعت في مصفحة أسطوانة جوفاء من الداخل والخارج ومعي جملة من قطع الحديد ، وقذف بي في شارع منخفض فصرت أتدحرج ، ولا قوّة لي أن أمنع هذا السير السريع وأتخلص مما أنا فيه . . .»

وربما كان فضول المخبرين ورجال الصحافة من الأمور المزعجة التي ضاق بها الرحالة وحاول تجنبها ، لذلك سافر تحت اسم مستعار هو رستم بك . ومن المؤكد أن هذا التنكر أسهم أيضا في حمايته من مضايقات المتطفلين واللصوص وقطاع الطرق في بلد تمرح الجريمة في ربوعه على مداها ، انسياقا وراء أهواء أصحابها وانفلات

حرياتهم . ورغم ذلك حاول بعضهم أن يقتحم عليه عزلته متوسلين إلى ذلك بذرائع شتى . لكن الأمير لا تنطلي عليه تلك الحيل وهو حريص على حذره من لقائهم والخوض معهم سواء في الشؤون الشخصية أو العامة ، وبخاصة السياسية منها . ولا ينسى أن يعرض لنا بعض تلك النماذج التي صادفته وتخلص منها بلباقة ، فيقول إثر التقائه بأحدهم :

« . . . وبما أن للأمريكيين مصالح كثيرة في مصر ، فيودّ أن يعرف من أخبارها شيئاً حتى يكتبه في جريدته ليفيد قراءها . فاعتذرت له ببعدي عن المسائل السياسيّة ، وفهّمته أني لم أحضر إلى أمريكا لأي غرض سياسي ، بل كل ما أقصد السياحة ، فلم أرد الكلام معه في هذا الموضوع ، لقبوله التفسيرات الكثيرة التي تتوسع فيها الجرائد على حسب ما تهوى ، ولما في ذلك من التعرّض لعدم استحسان بعض المشتغلين بهذه المسائل ، فيكثر القيل والقال والأخذ والرد . وربّما ينسب إلى حديثي ما لم أقله ، فمالي ولهذه الشؤون المقلقة التي ليس وراءها جدوى . . .»

III

يمتاز رحالتنا بشدة الملاحظة وشغفه بالتفاصيل ، فضلا عن ثقافته الواسعة وتحصيله العلمي في جامعات أوربا وخبرته الطويلة في تلك البلاد . وهو لا ينسى أن يطلع القارئ على كل ما يمر به ، خلال تجواله ، من مشاهد ومعالم ومظاهر جديرة بالذكر والإعجاب وما يجول في خاطرته من أفكار وصفية وتعليقات نقدية . وهو يدرك جيدا أنه ليس سائحا عاديا همه إضاعة الوقت الفائض عن حاجته ، إنما هو رحالة مفعم بحب العلم والاستكشاف ودقة الاستقراء والموازنة بين ما يختزن في ذاكرته وما يختبره في مواقع رحلته . ولعل هذه الصورة الانتقادية لأثرياء أميركا تبين بعض تلك المزايا المعرفية الدقيقة والطريفة التي يتمتع بها :

« . . . وبما أن الأغنياء في أمريكا كثيرون ، فوجودهم في بلادهم لا يوجّه الأنظار إليهم . كذلك السيدات المثريات الشهيرات بجمالهن يذهبن أيضاً إلى أوربا ، فتكتب عنهن الجرائد وتفتح أمامهن الأبواب ، وتتسابق إلى معرفتهن أصحاب الألقاب الضخمة ، فتنشرح صدورهن وتحلو لهن الإقامة بتلك الديار التي يجدن فيها كل أسباب السعادة والهناء . فالفرق ، إذاً ، عظيم بين وجودهن في أمريكا الواسعة التي لا تشعر بمقدارهن لكثرة أمثالهن وبين وجودهن في أوربا ، موضع الإجلال والاحترام

التي تسطع أنوارهن فيها ، ويظهرن في سمائها كأنهن الأقمار .»

إن محمد علي يرصد كل ما يراه بعين الباحث المخبري الذي يسجل أدق التفاصيل التي قد يمر بها غيره دون أن يلتفت إليها أو تجتذب انتباهه . وهو يترك للقارئ فسحة للمشاركة في متعة المشاهدة والاستنتاج . إن الغرب ، حتى في أميركا ذاتها ، كان ينظر إلى اليهود نظرة تكبر واستعلاء مشحونة بالكراهية والاحتقار . ويبدو أن هذه النظرة العنصرية لم تتغير إلا بعد اغتصاب فلسطين وإبرام عقد التحالف بين الاستعمار والصهيونية . ويكفي أن نتأمل هذه الحادثة التي ذكرها الأمير في رحلته لنتبين سماحة نظرته إلى الآخر ولهفته الإنسانية على ذلك الطفل الذي تعرض لحادث طارئ وكيف ينظر أبناء ذلك الغرب العنصري إلى مواطنيهم من اليهود الذين يسميهم الكاتب إسرائيليين :

« . . . وفي الطريق مرّت السيارة في شارع ضيّق جداً به كثير من الأطفال ، فصدمت السيارة طفلاً ألقته على الأرض ، ولكن لحسن الحظ لم يصب بضرر ، فاجتمع علينا حجم غفير ، وكثر الصياح والعويل حولنا . واقترب منّا شرطيّ وأخذ يسأل السائق ويكتب مذكّرة في دفتره الصغير عن الحادثة . وقد تكلّم معنا أحد المشاهدين باللغة الفرنسية ، وقال لنا : مالكم والمرور من هذا الحيّ الضيّق الذي يسكنه الإسرائيليُّون؟ فأجبته : إننا غرباء ولا نعرف الطرق ، ومع ذلك فالحادثة صغيرة لا تستوجب الندم ، مادام الطفل لم يحصل له أقل أذى . . .»

ومع ذلك ، فإن الطبيعة على اختلاف مشاهدها وتجلياتها هي التي تسترعي اهتمام رحالتنا أكثر من سواها . وهو حريص على أن ينقل إلى قارئه صورة واقعية وفنية جميلة عن كل ما يشاهده في تجواله . فلنتابع وصفه لبعض ما شاهده في إحدى الحدائق ، إذ يقول :

« . . . ثم قادنا إلى مكان الجاموس الوحشي ، ولاحظنا ذكراً منفصلاً عن باقي الجاموس ، وهو كبير الجسم تدلُّ هيئته على القوّة والبطش ، فأخبرنا الحوذي أن السبب في وضعه على انفراد شراسته ، وقد أخبرنا ببعض طبائع هذه الحيوانات المتوحشة ، ومن أعجب أمورها أنّه إذا كثر إيذاء أحدها لغيره يتفق سائرها على مطاردته إلى أن يهلك ويذهب فريسة توحشه ، فكأن هذه الحيوانات أرشدها الله إلى معرفة أن القوّة مهما عظمت تبيد أمام اتحاد الضعفاء ، وإن في ذلك لعبرة لقوم يعقلون . . .»

لعل الأمير قرأ في أوربا شيئا عن المآسي والمظالم التي فرضها المهاجرون الأوربيون

على سكان البلاد الأصليين في ذلك العالم الجديد الذي يقوم بزيارته والاطلاع على طبيعة أرضه وأحوال أبنائه ، وهو يروي في هذه الرحلة ما شاهده عيانا في تلك البلاد فيصف بعض تلك الأحوال قائلا :

« . . . إن الجهات التي بها معادن أو التي أرضها خصبة هي من حقوق أولي اللون الأبيض ، أما الأراضي المجدبة أو التي بها مستنقعات فهي من نصيب الهنود أو المكسيكيين . . . » وفي زيارته لإحدى الجزر يتأمل بحسرة منازل سكانها من أبناء البلاد الأصليين ، وينقل إلينا هذه الصورة التي تؤكد وقوفه إلى جانب المظلومين :

« . . . وقد رأينا حالة الهنود الذين يسكنونها فهي أيضاً محزنة ، وأظن أن الجنس الأبيض المتمدّن حكم على هذا النوع من بني الإنسان بالفناء ، فترك الأمراض القاتلة تفتك بهم ولا راحم يرحمهم ، لأنهم في نظره لا فائدة في وجودهم على ظهر الدنيا . . . »

IV

إن رحالتنا أمير عربي من مصر التي كانت تشكل في ذلك الحين ، رغم استقلالها الفعلي منذ أيام محمد علي باشا الكبير ، جزءا من الإمبراطورية العثمانية . وهو لا ينسى هذا الانتماء ، بل يعتز به ويذكر قارئه في أكثر من موضع بالقيم والأمجاد والمثل العليا التي كانت تتمتع به أمتنا في تاريخها العتيد . ويبدو جليا أن الاتجاه القومي لم يتبلور بعد ، وليس في كلمات الأمير ولا كلمات السوريين المهاجرين إلى العالم الجديد أي إشارة إلى ذلك ، بل إن الرابطة التي يؤكد عليها الرحالة في أكثر من موضع هي الربطة الشرقية والعثمانية .

ومع ذلك ، نرى بوضوح أنه يقف ضد الدستور العثماني ، فهو أمير محافظ يميل إلى أن تبقى الأمور على حالها ، دون أن يطرأ عليها أي تغيير . وفي الأيام الأخيرة من رحلته يتلقى دعوة من القنصل التركي لحضور حفلة الدستور ، فيعتذر عن حضور الحفلة متذرعا بالسفر ، لكنه يقول : «لو كنت في نيويورك لما حضرت هذه الحفلة ، لأنّي لا أرى موجباً لإقامتها . فإذا كنّا مسلمين يلزمنا قبل كل شيء احترام الخليفة لأنّه أمير المؤمنين . . . »

وفي نيويورك ، وخلال الأيام الأولى من إقامته هناك ، يلتقي الأمير بعدد من أعضاء الاتحاد السوري ، فلا ينسى أن يذكرهم بوطنهم وأهمية أن يستمر ارتباطهم به

وضرورة العودة إليه قبل أن تبتلعهم الغربة ، فيقول :

« . . . وبهذه المناسبة ، رجوتهم أن يحافظوا على جنسيتهم وأن لا يغترّوا بمدنية وارتقاء وثروة أمريكا فيميلوا إليها ويتجنّسوا بجنسيتها ، فبلادنا محتاجة إلى أبنائها الأعزاء . ومهما بلغت البلاد الأخرى ، فإن الشرق هو مهد العلوم والمعارف وأصل المدنية ومنبع النور . . .»

وفي ختام الرحلة ، أقام له الاتحاد السوري في نيورك حفلة تكريم ألقيت فيها قصائد وخطب عديدة أشادت بمكانة الأمير وأسرته ومكانة مصر بين أبناء العرب المهاجرين . وقد تحدث الأمير في تلك الحفلة فأكد من جديد على أهمية الوطن وضرورة حمايته من الأطماع الاستعمارية التي بدأت بانتزاع الامتيازات من الدولة العثمانية السائرة في طريق الانهيار . إن استشراف آفاق المستقبل قبل وعد بلفور ومعاهدة سايكس/بيكو بسنوات يدل على بصيرة نافذة واستقراء علمي ساطع لكوارث التاريخ قبل وقوعها . يقول الأمير :

« . . . إن بلادنا الواسعة فيها من الخيرات مالا يقلُّ عن هذه البلاد ، والدليل على ذلك طمع الشعوب في التقرّب إلينا لابتزاز هذه الخيرات ، وليس تقرّبهم حبّاً لنا ، بل طمعا في ثروتنا المكنوزة التي لا نشتغل لاستخراجها . فأنتم يا إخواني السوريين أحقُّ من هؤلاء الأجانب الذين ينالون الامتيازات الكثيرة ويبتزّون أموالنا ، ونحن عن ذلك غافلون . إن طريقة الاستعمار ليست خافية عليكم ، فبعد أن يحصل الأجانب على هذه الامتيازات بأيّة طريقة كانت يصبحون أرباب السيادة ، فأخاف أن تضيع البلاد بهذه الواسطة ، وكفانا ما فقدناه حتى الآن . فلنحافظ على البقيّة الباقية من وطننا العزيز . . .»

V

سوف يلحظ القارئ كذلك مدى كبرياء الأمير وإحساسه العالي بوطنه وحبه لشعبه وأمله الكبير بإنجاز التقدم المرتجى على أسس «شرقية» متينة ، وإن بدا في بعض الأحيان متأثرا بنظرة الغرب العنصرية للسود والسودانيين معا . ويبدو في بعض الأحيان متناقضا في موقفه ولا غرابة أن نراه متمسكا حتى بالأزياء والمظاهر الشكلانية التي تميز رعايا الدولة العثمانية عن الغربيين ، وهو يعرب عن ذلك بجلاء واعتزاز في حفلة التكريم المذكورة آنفا ، إذ يقول : « . . . وقد كنت ورفيقاي مرتدين

طرابيشنا حتى نجعل للحفلة صبغة وطنية رسمية . . .»

وبما يلفت الانتباه أيضا اهتمامه بالجمال الأنثوي وضيقه بندرة الحسان اللواتي صادفهن مقارنة بمن رآهن في أوربا ، ناسيا أن مكانته الاجتماعية وحرصه الأمني كانا يفرضان عليه أن يتحرك داخل دائرة محدودة ، برغم المسافات الطويلة التي قطعها في رحلته . وإذا كان جمال نسوة شيكاغو قد نال إعجابه ، فإن تشبههن بالرجال أثار استياءه ، فهو لا ينسى أنه «شرقي»! لكن تعليقه النقدي على ما يرى لا يخلو من طرافة ، وربما كان بعيدا عن واقع الأمر لأن الجمال غير محصور في بلد معين ، ولأن معايير الحسن نسبية والمزاج الشخصي ليس حكما منصفا دائما . يقول الرحالة :

« . . . إن المسافرين معنا كانت أشكالهم غريبة ، ولم نرَ سيّدة واحدة من الأمريكيات جميلة كالتي يراها الإنسان في أوربا أو في مصر . وبالجملة ، كان الجميع من رجال ونساء كالصور التي تصورها الجرائد الهزلية المضحكة . فهذه الوجوه ذكرتني سياحتي باليابان وكوريا .»

ولعل أهم فكرة مبتكرة أوردها الأمير في رحلته هو تقديره أن الآسيويين هم أول من اكتشف تلك القارة قبل كولمبس بزمن طويل . وهو يؤسس بذلك لعديد من الدراسات المعاصرة التي تؤكد ذلك بالدلائل الملموسة التي ما زالت ماثلة للعيان في الصناعات التقليدية التي يتناقلها الشعب من جيل إلى جيل . وقد توصل إلى هذه الفرضية المدهشة من خلال المقارنة بين ملامح شعب الويغر في منغوليا الذين شاهدهم خلال رحلته في الصين وملامح الهنود الحمر في أميركا .

ورحالتنا هذا هو الأمير محمد علي (1875 - 1955) بن محمد توفيق بن إسماعيل ، نجل إبراهيم باشا وحفيد محمد علي الكبير . بدأ تعليمه في مصر وتابع تحصيله في سويسرا ، وكان يجيد اللغات الفرنسيبة والإنكليزية والتركية ، وقد قام برحلات عديدة في الشرق والغرب . آلت إليه ولاية العهد مرتين : الأولى في عهد شقيقه عباس حلمي ، والثانية قبل أن يرزق فاروق ولدا . وبعد قيام ثورة يوليو سنة 1952 لم يلبث في مصر إلا قليلا ثم غادرها إلى سويسرا . توفي في لوزان ودفن في القاهرة .

VI

أمضيت مع الأمير في رحلته هذه فترة ممتعة لا تخلو من متاعب . وأول هذه

المتاعب أن رحالتنا يترجم الأسماء الجغرافية عن الفرنسية . ونظرا لأن الرحلة إلى أميركا الشمالية ، الناطقة بالإنكليزية ، فقد اعتمدت على معجم «ويبستر» في تدقيق لفظ معظم تلك الأسماء ، مشيرا إلى ذلك في الهامش . ومن الأمور التي تثير الالتباس استعمال بعض الكلمات العامية مثل (زنط) في اللباس ، والتعريب الحرفي مثل تحويل «فبريكات» إلى فاوريقات ، وما شابه ذلك . وربما كانت كلمة (جنادل) التي استعملها الكاتب بمعنى «شلالات» هي أشد الكلمات إبهاما والتباسا . فالجنادل تعني الصخور ، وليس ثمة من علاقة بين الصخور والمياه المتساقطة من مكان مرتفع ؛ وهذه الكلمة البعيدة عن الصواب تتكرر مرارا ، ولم أغيرها بل اكتفيت بإشارة إلى ذلك في الحاشية ، لأني حافظت على النص الأصلي للرحلة كما هو منشور في القاهرة سنة 1913 ، ولعل الحواشي المرافقة لهذا النص ، وهي كلها من إعداد المحرر ، سوف تفي بالغرض . وخلال عملي في هذه الرحلة ، رأيت أن أستخرج كل ما هو خارج متنها فأصنفه في ملاحق مستقلة سترد في آخر الكتاب . وقد تضمنت هذه الملاحق مقدمة الرحلة ووقائع حفلة التكريم والخطب والقصائد التي ألقيت في تلك الحفلة .

وقبل الختام ، أرى من واجبي أن أشير إلى جهد الرحالة في استنباط واختيار كلمات عربية مناسبة في ترجمة بعض الآلات الحديثة كالتلفون ، مثلا ، الذي كانوا يطلقون عليه في أوائل القرن العشرين كلمة «المسرة» قبل أن تشيع كلمة «الهاتف» ، وكذلك الأمر في بعض الآلات الموسيقية وآلة التصوير التي يسميها «مصور شمسي» ويوضحها بالكلمة الأجنبية (فوتوغراف) هكذا ، بين هلالين . ويمكن أن نضيف كلمات أخرى كالمصاعد وجوازات السفر . . وما إلى ذلك ، كان له فضل السبق في اختيار ما يقابلها في العربية ، وإن آثر أن يردفها بصيغتها الحرفية : «أسانسورات» و «باسبورتات» . . . إلخ . وهذه المصطلحات ، على قلتها ، تدل على الجهود الحثيثة الأولى التي بذلها الأساتذة من علماء اللغة وأدبائها في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لترجمة مئات من تلك الكلمات المتعلقة بالأدوات والمخترعات الحديثة ونقلها إلى العربية .

وإلى جانب هذا الجهد اللغوي المشكور ، يبدو أن الكاتب مولع بالزخرفة في أسلوبه كقوله : « . . ولم يمضِ علينا كثير من الزمن حتى أخذت السماء تبكي رذاذ دموعها .» وقد تستهويه هذه اللعبة البلاغية فيبالغ في التكلف والاصطناع ، كقوله :

« . . أخذت الشمس ترسل على تلك الثلوج أشعة نظرها الحارّة فتذيب فؤادها ، فتبكي دموعاً كاللآلئ تساقط فتجتمع فتكوّن مجرى صغيراً ينحدر في تهائم الأرض . . . » لكن هذه العبارات التي يجنح بها القلم نحو الصنعة البلاغية والتكلف في التقاط الصور المجازية لا تقلل من أهمية الرحلة ، وقد سعيت إلى شرح وتوضيح ما رأيت أنه قد يثير اللبس أو الغموض في أذهان الشباب الذين لم يستكملوا بعد تحصيلهم العلمي .

ولعل هذا التباين في الأسلوب يعيدنا إلى ما قاله الزركلي في أعلامه : « . . وكان يكتب « مذكرات » موجزة عن مشاهداته في رحلاته ، ثم يعهد بها إلى بعض كتاب العربية فيصوغونها ويضيفون إليها ما يتصل بها من مقتبسات ومترجمات . . . » لكن هذه الإشارة لا تبغي أن تنكر الجهود المشكورة التي بذلها الرحالة ، وليس لها أن تقلل من قيمة رحلاته أو تطمس شيئا من أهميتها ، وبخاصة أن كبرى دور النشر في العالم تكلف أدباء متميزين للإشراف على مخطوطات الكتب المعدة للنشر لتصويب تحريرها وتدقيقها وإخراجها بالصورة المثلى .

قطع الأمير آلاف الكيلومترات برا وبحرا في رحلته هذه ، قبل عصر الرحلات الجوية . ولا ريب أن وسائل السفر في الماضي كانت مضنية ، لكن القارئ لن يشعر بذلك لأن متعة القراءة ومواكبة محمد علي في رحلته ومشاهداته سوف تغطي على التعب وتلغي المسافات . ولقد حاولت جهدي في تحرير الرحلة ، وتذييل صفحاتها بالحواشي اللازمة لإيضاح ما غمض أو التبس من كلماتها ، وتدقيق الأسماء الكثيرة الواردة فيها ، كما قمت باستخلاص كشاف حضاري يضم فهارس الآيات والأحاديث والأعلام والبلدان والأسواق والنبات والحيوان . . إلى آخر بنود التصنيف المعتمد في سلسلة « ارتياد الآفاق » . وإذا صادف القارئ أي تقصير أو خلل فالمسؤولية تقع على عاتق المحرر وحده ، فمن لا يعمل لا يخطئ ، ومقاربة الصواب ستظل طموح كل من يعمل بجد وصدق .

علي كنعان

أبو ظبي في 8 / 12 / 2002

مسار الرحلة

باريس - شربورغ - نيويورك - ألباني - أوتيكا - سيراكوز - روشستر - بوفالو - شلالات نياجارا - كليفتون - شيكاجو - جولييت - أتافا - لا سال - مولين - أيووا سيتي - كولورادو - كنساس - بويبلو - ألبوكيرك - جالوب - مانيويليتو - أدامانا - وينسلو - ويليامس - جراند كانيون - سنت برناردينو - جلاندورا - سان جابريل - بسادينا - لوس أنجلوس - سنتا بابارا - ديل مونتي - سنتا كروز - سان فرانسيسكو - شلالات يوسميت - العودة إلى سان فرانسيسكو - (بجانب نهر سكرامنتو) - سالم - بورت لاند - سياتل - (إلى ألاسكا) - فكتوريا - كيتشيكان - تريدويل - سكاجوي - هاينس - دافيدسون جلاسييه - بطرسبرج - فرانجيل (رانجيل) - أولد كاسان - فانكوفر - بانف - تورنتو - كالجاري - ريجينا - براندن - وينيبج - بورت وليامز - تورنتو - (بحرا) شارلوت - كليتون - بروكويل - (في نهر سان لورنت) - بريسكوت - مونتريال - ألباني - نيو يورك -

العودة . . .

ديباجة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

إن السياحات الكثيرة التي قمت بها بِقَارّة أوربا في أول نشأتي ، منذ كنت في السادسة من عمري ، مكّنتني من رؤية كل مهم في هذه البلاد . ولذا فكرت في تغيير وجهتي إلى البلاد الأخرى ، خصوصاً أن أوربا صارت الآن قريبة إلينا ، والطريق إليها أصبحت سهلة ، والمغرمين بزيارتها كثيرون . فابتدأت في سنة 1909 ميلادية أن أسيح في بلاد اليابان ، لأرى شيئاً جديداً من مناظر طبيعيّة بديعة ومصنوعات دقيقة ، ولأقف على سرّ تقدّم اليابانيين ووصولهم إلى هذا المجد الشامخ . ولله الحمد وفقت إلى غايتي ، وقدّمت لأبناء وطني الأعزّاء نتيجة رحلتي بقدر ما استطعت ، وما رأيت . وهنا أستميح نظر القارئ الكريم أن أذكر أهم الأسباب التي دعتني لتحمّل هذه المشقّات العظيمة في القيام بهذه السياحات : إن هناك تآليف كثيرة عن جميع بلاد الدنيا ، وقد اطّلعت على كثير منها ، ولكنّي أعتقد أن رؤيتي الشيء بنفسي أنفع من قراءته في الكتب . فمهما كان الوصف جميلاً فإنه لا يؤثّر في النفس تأثير المنظر البديع ، عند ما يقف الإنسان أمامه ، ويشعر

بقدرة الخالق العظيمة وجمال الطبيعة .

إن ميلي الغريزيّ للسياحة ، واعتقادي بما شرحته للقرّاء ، جعلاني أوجّه سياحتي هذه السنة إلى الولايات المتحدة وكندا والاسكا ؛ وبالجملة ، إلى الجهة الشمالية لأمريكا . وإنّي آسف جداً لعدم تمكّني من السياحة في مكسيكا ، لكثرة الثورات الداخلية فيها ، ولعدم اتساع الوقت لزيارة كل ما ذكرته آنفاً ، والتعريج عليها بعد ذلك . وممّا يزيد أسفي مشابهتها للبلاد الشرقية ، وحرماني من رؤية أمثال عساكرنا السودانيين الأشداء فيها ، وقنال بناما القريب إليها والذي سيفتح في هذا العام .

ولما قرّرت السفر إلى الجهات المذكورة قبل ، اتفقت مع كوك وقرّرت السفر على الباخرة (كرون برنسيس سيسيل) في أول مايو ، أي قبل دخول فصل الحرّ الشديد بأمريكا . وهذه الباخرة تابعة لشركة (النورد تشر لويد) الألمانية . ولمّا وصلت إلى باريس ، أخذت أعدّ العدّة لهذا السفر . وكنت أتردد على محل كوك لأقرّر خطة السياحة النهائية . وقد ساعدني الحظ ووفقت لعمل برنامج السياحة بمساعدة المستر بروكر ، أحد رؤساء محل كوك الذي رأيت فيه الكفاءة العظيمة ، فلم نترك أعجوبة أو منظراً جميلاً يستحق الزيارة في الدنيا الجديدة إلا وقرّرناه في خطة سياحتنا التي تستغرق ثلاثة شهور . وبينما كنا نعلّل النفس بقرب السفر ، وننتظر بفارغ صبر يوم قيامنا برحلتنا الجميلة ، حدثت فاجعة غرق أكبر باخرة في العالم ، وهي التي تسمى «تيتانيك» التابعة لشركة «ويت ستار لاين» ، أثناء سفرها لأول مرة من إنجلترا إلى أمريكا . وكانت حمولتها 64,000 طن وسرعتها 21 عقدة ، وسبب غرقها مصادمتها في الساعة الثانية عشرة مساء بجبل من الثلج «آيزبرج» عائم على وجه الماء . وقد فصّلت الجرائد الأوربية ، كيف كانت المصادمة وحصول الغرق تفصيلاً مسهباً لا داعي لإعادته الآن في رحلتنا ، إلا أننا نقتصر من ذلك على ذكر ما رأيناه مهمّاً ويستحق المدح والإعجاب . إن عدد الركاب الذين كانوا في التيتانيك لا يقل عن 2,005 شخص . كان من المستحيل نجاتهم جميعاً بواسطة الستة عشر زورقاً التي كانت بها ، ولذا ابتدئ بإنقاذ النساء والأطفال أولاً ، ثم نزل بعض الرجال في المحال الباقية من هذه الزوارق . وكان من بين الراكبين في الباخرة الكولونيل «أستور» ، ياور المستر «تافت» رئيس الجمهورية السابق ، وهو من أصحاب الثروة التي تقدر بمبلغ 750 مليون فرنك . وكان قد تزوّج في إنجلترا بممثلة اشتهرت بجمالها الرائع ، وكان عائداً

بعد أن قضيا «شهر العسل»[1] في مصر في فصل الشتاء الماضي . فبدل أن يسرع إلى النجاة بنفسه أظهر شهامة ومروءة ، وصار يساعد السيّدات والأطفال على النجاة ، وفضّلهم على نفسه .



مثل أعلى للإخلاص

والذي أثّر في نفسي كثيراً منتهى الإخلاص والصداقة التي أظهرتها السيّدة «أستور»[2] لزوجها الذي كان معها في هذه الباخرة ، وهو المشهور بثروته التي لا تقل عن 250 مليون فرنك ، فإنها لما دعيت لمفارقة الباخرة كغيرها من السيدات أبت نفسها الشريفة أن تفارق زوجها ، وأجابت الربّان الذي كان يدعوها إلى النجاة بنفسها قائلة : «إن الخمسين سنة التي أمضيتها مع زوجي المحبوب بين السعادة والشقاء لا تسمح لي اليوم بأن أفارقه في وقت الشدّة ، فأنا أفضّل الموت معه على أن أعيش لحظة واحدة بعده .» فمات الاثنان المسنّان متعانقين بعد قبلة الوداع الأخير ، وأضافت السيدة أستور إلى صحيفة الإخلاص أكمل مثال له ، يستحق أن يدوّن بالذهب وينشر في العالم ، ليكون عبرة ومثلاً لمحبّي المروءة والشهامة والإخلاص .

إن هذا الضرب من الإخلاص ، قلّما يوجد له مثال بين الرجال والنساء . وهل لنا أن نؤمل ، بعد أن أبدت هذه السيدة أمام العالم أجمع هذا المثال للإخلاص الكامل ، أن هذه الروح الطاهرة ستسري بين النفوس في أكثر الأسرات حتى تقوّي صلات المحبّة بين أفرادها ، وبذلك تسود الألفة بين أبناء البشر؟

أما أسباب الغرق ، فهي الاعتقاد بأن هذه الباخرة الكبيرة متينة جداً ، ولا سبيل إلى أن تغرق . ولذا أمر ربّانها بأن يسرع في السير بآخر قوّة باخرته ، حتى يقطع المسافة بين إنجلترا وأمريكا في مدّة أقل ممّا تقطعها باقي بواخر العالم ، فتأخذ التيتانيك الشهرة وتفوز بالسبق . ولكن ، يا للأسف ، خاب الظن وكانت العاقبة

---

(1) الصحيح ليس «شهر العسل» وإنما هو الاحتفال باليوبيل الذهبي (الذكرى الخمسين) لزواجهما ، كما سنرى لاحقا .

(2) Madeline Astor ورد اسمها في النص خطأ (ستورس) . و تصريح هذه السيدة هنا يؤكد ما ذهبنا إليه في الهامش السابق .

وبالاً . لقد أسرعت السفينة ، ولكن ماذا كانت العاقبة؟ تصادمت بذلك الجبل الهائل ، ولشدّة سرعتها لم يمكن تحويل سيرها وإيقافها دفعة واحدة ، فذهبت هباء منثوراً .

إن هذه الحادثة أخذت دوراً هائلاً في باريس ، حتى كنّا من الصباح إلى المساء لا نسمع إلا أخبار غرق التيتانيك . إن حصول مثل هذه الفاجعة لمما يثني الهمم عن السياحات . فكم من صديق كان ينصحنا بالرجوع عن عزمنا . ولكن ، ولله الحمد ، أنا ورفيقاي مسلمون مخلصون لله ولدينه الحنيف ، نعتقد أن لكل أجل كتاباً ، فيقيننا بالله زادنا توكلاً عليه ، فلم ننثن عن عزمنا . وكنت كلما سئلت : هل أنت مسافر؟ قلت نعم .- أفلست خائفا؟ لا . إن الله قادر أن يحميني من الأذى ، وهو الحي الذي لا يموت .

إني لا أريد أن أخفي عليك ، أيها القارئ ، مقدار ما كان من تأثري من سماع كل هذه الأخبار المزعجة التي لا تطمئن القلوب لها . نعم ، إني كنت أشعر بسرور لأني سأرى أشياء جديدة ، لم أرها أثناء سياحاتي الماضية . إلا أني ، في الحقيقة ، كنت أشعر بأن هذا السرور يكون عندي أعظم ، بعد أن أتم هذه الرحلة وأعود سالماً إلى بلادي العزيزة . ولما لم يبقَ لنا سوى 24 ساعة على ميعاد السفر ، ذهبت إلى كوك وتسلّمت جواز السفر ، ووقّعت على حسابي عندهم ، وأخذت منه دفتر شيكات لأخذ ما يلزمني من النقود بأمريكا . وقد أخبرت بأن الشركة اعتنت بي كثيراً ، وأعدت لي أحسن محل بالباخرة «كرون برنسيس سيسيل» . وقد أخبرني أيضاً محل كوك أنه سيمر على محل سكننا اليوم ، (30 أبريل سنة 1912) الساعة 8 ونصف مساء ، من هو مكلف بأخذ أمتعتنا الثقيلة لإرسالها مباشرة إلى الباخرة حتى لا نتعب ، وقد حصل ذلك . وبما أننا غداً صباحاً سنقوم الساعة 9 والدقيقة 50 من محطة «سان لازار» ، ويلزمنا أن نكون مبكّرين إلى المحطة ، فضّلنا أن نبادر إلى النوم حتى يكون لنا من الراحة ما يساعدنا على تحمّل مشاق السفر ، إن شاء الله تعالى .

الانطلاق

أول مايو سنة 1912

أصبحنا بخير مستعدين للسفر بالقطار المعد للمسافرين بـ (النورد تشر لويد) . ولما أرسلنا في طلب سيارتين من ذوات العدّاد «تاكس» ، أخبرنا أن اليوم عيد الفعلة وقد اشترك معهم سوّاقو السيارات ، فاضطررنا إلى استحضار عربتي أجرة ، ركبت في الأولى مع الصاغ خيري ، والثانية مصطفى بك رضا ومعه الأمتعة الخفيفة . ولما وصلنا إلى محطة «سان لازار» وجدنا في انتظارنا المسيو «لوموان» ، مدير محل كوك بباريس والمستر «بروكر» الذي ساعدنا في تنظيم خطة السياحة ، وتكلمت عن كفاءته سابقاً . وإنما حضرا ليكونا على علم من إعداد غرفة Compartiment خصوصية لنا ، ويعرفا أنحتاج إلى أيّ شيء آخر يمكنهما تأديته لنا . وقد وجدنا أيضاً أحد عمّال شركة (النورد تشر لويد) في انتظارنا ، وأخبرنا أنه موفد من قبل الشركة ليخبرنا أنها أعدت كل ما يلزم لنا في الباخرة ، وأمرت سائر عمالها بأن يعملوا كل ما يريحنا ويسرّنا . والذي زاد سروري هو رؤيتي صديقنا القديم عثمان بك غالب في المحطة . حضر ليشيعنا ، فشكرنا له هذا الإحساس الشريف ، ولا شيء يفرح الغريب أكثر من رؤية أحد مواطنيه ، خصوصاً إذا كان من أولي مودّته . مكثنا بضع دقائق مع هؤلاء المشيعين ، إلى أن سمعنا التنبيه بتحرّك القطار ، فصافحناهم جميعاً وشكرناهم كثيراً ، وأسرعنا إلى محالنا التي أعدّت لنا ، فكان معنا عدد عظيم من الأمريكيين المختلفي الخلقة والهيئة .

تحرّك القطار من باريس حيث كانت الساعة 9 والدقيقة 50، وبعد وصولنا إلى محطة «أشير» Achere ، أي بعد أن سرنا مقدار 45 دقيقة ، انكسرت القاطرة ، واضطررنا أن نمكث ، بهذه المحطة 35 دقيقة ، إلى أن أحضرت قاطرة أخرى صغيرة ، وسارت بنا سيراً بطيئاً جداً كسير قاطرات البضاعة ، فكان ذلك سبباً في تأخرنا ساعة عن ميعاد وصولنا إلى «شربورغ»(3) . أوصلنا القطار إلى الرصيف ، فوجدنا نقالتين خصوصيتين للمسافرين على الباخرة «كرون برنسيس سيسيل» ، الأولى للأمتعة والبريد ، والثانية للركاب . وبعد أن نزلنا وانتظرنا هنيهة ، سارت بنا النقالة إلى الباخرة المذكورة التي كانت بعيدة عن الرصيف لكبر حجمها . ولما قربنا منها وجدنا باخرة أخرى إنجليزية أقل منها حجماً ، اسمها «فيلادلفيا» ، قريبة من باخرتنا وتابعة «للترانس أطلانطيق» ووجهتها أيضاً أمريكا ، ولكنّها تسافر بعدنا بعشر دقائق .

---

(3) Cherbourg ميناء فرنسي يقع على شاطئ بحر المانش .

وصلنا إلى الباخرة «كرون برنسيس سيسيل» ، فإذا هي عظيمة ذات أربع مداخن كبيرة ، كأنها قرية عامرة ، أهلها فرحون مستبشرون تظهر عليهم علامات السرور والابتهاج . فلاقتنا هذه الجموع المستأنسة بصياح الحبور ، ولسان حالها يقول : أهلاً وسهلاً بباقي أفراد أسرة هذه المدينة الفخمة . صعدنا على ظهرها فسمعنا نغمات موسيقى رجالها المطربة فخفّفت عنّا آلام السفر ، وشكرنا الله إذ دخلنا في زمرة هؤلاء المسرورين . ولم تمضِ هنيهة حتى قدم إلينا مفتّش الشركة ومعه ربّان الباخرة . وبعد التعارف حضر رئيس الخدم وأخبر أن غرفنا معدّة تحت أمرنا ، فذهبنا معه إليها ووجدنا ما اختاره لي جميلاً أنيقاً ، يستحق الإعجاب بنظافته وكامل معدّاته .

إن هذه المقابلة أثّرت في نفسي تأثيراً حسناً جداً ، خصوصاً بعد أن سمعنا أنه كلّما قربنا من أمريكا كانت الخدمة غير منتظمة . والحقيقة أن الإنسان لا يجد في هذه الباخرة ما يشكو منه ، فإن جميع الخدم في غاية الأدب ينتظرون أي إشارة لتأدية طلبات المسافرين .

إني لم تسمح لي الفرصة بزيارة أكبر بواخر الاطلانطيق حتى يظهر لي الفرق بين الباخرة التي سافرنا عليها وبين هذه البواخر ، ولكنّي أظنّ أنه لا يمكن أن تكون سفينة أحسن ولا أبدع نظاماً مما اختارها الله لنا ، وساقنا حظنا إلى السفر عليها .

إن الباخرة «كرون برنسيس سيسيل» حمولتها 20.000 طن ، وقوة آلتيها اللتين تسيّرانها 54.000 حصان ، وطولها 706 أقدام ، وعرضها 72 قدماً ، وارتفاعها 44 قدماً ، وبها ستّ طبقات : تسع 520 مسافراً في الدرجة الأولى ، ومثلها الدرجة الثانية ، وعدداً عظيماً آخر في باقي الدرجات . أضف إلى ذلك 700 من الملاحين ، وغيرهم من عمّال السفينة . والذي يظهر قوتها العظيمة أنها تحرق كل يوم حمولة سبعين عربة فحم ، ووزن العربة الواحدة 10 أطنان . ولا تسل عن سرعتها ، ففي أيام الصحو عند ما يكون البحر هادئاً تقطع 23 عقدة في الساعة . أما الخدم فعددهم 190 سفرياً و14 طبّاخاً و7 خبازين ، وقد علمت أن الخبز الذي يُعطى لسائر الركاب ، ومن ضمنهم المستخدمون والملاحون والمهاجرون ، هو الخبز السميذ(4) «الخاص» النظيف لا الجراية(5) ، وذلك من مدّة سنتين .

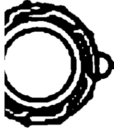
---

(4) السميذ أو السميد : الدقيق الأبيض .

(5) الجراية : ما يناله الجندي أو العامل من طعام يومي محدود .

وبالجملة لا يسعني إلا الإعجاب بهذه الباخرة ، والثناء الجميل على القائمين بخدمتها ، إذ إن الإنسان يشعر بمجرد وصوله ومكثه ردحاً من الزمن بها بالنظام الألماني ، ومراعاة تنفيذ الأوامر الصادرة من كبراء مديري حركاتها إلى التابعين لهم .

بعد أن استرحنا ، حضر رئيس الخدم وأخبرنا أنه مرسل من قِبَل القومندان ليعرض عليّ مأوى آخر أبهى وأوسع مما أنا فيه ، وهو ما يدعى عندهم «المسكن الإمبراطوري» ، وهو مشتمل على عدّة حُجَر : منها واحدة للأكل ، وأخرى للمقابلة ، وحجرة نوم بلوازمها ، من حمّام ومحل راحة وغيرهما ، فقبلت ذلك مع الشكر وانتقلت إليه ، فوجدت أن الاسم ينطبق على المسمى ، وهو يؤجر على ما سمعت بمبلغ 400 جنيه في السفرة الواحدة . فأرسلت بطاقة باللغة الألمانية للقومندان ، أشكره على هذا اللطف والاعتناء بي ، وأظن أن هذا كان أقل ما يستوجبه كرم فعله ، لا سيّما أنه قدّم لي هذا المسكن بدون أن يكلّفني بدفع الفرق ، بل كان ذلك من باب الأدب وحسن المعاملة .



قبطان السفينة

سارت الباخرة بنا تحرسها عناية الله في نحو الساعة السابعة مساء ، وبعد ساعتين حضر عندي قومندانها ليزورني ، فوجدته رجلاً في نحو العقد السادس من عمره ، في غاية الأدب والرزانة ، تظهر عليه علامات الهيبة والوقار والشجاعة ، فأعدت شكري إليه شفاهاً ، وقدّمت إليه الصاغ خيري ومصطفى بك ، فمكث معنا مقدار ما سمح له وقته ، فودعناه بمثل ما قابلناه به .

لمّا حلّ ميعاد العشاء استفهمت هل من الضروري لبس «الاسموكين»[6] ، فأجبت أن ذلك ليس ضرورياً ، خصوصاً في هذه الليلة حيث أن حضورنا كان متأخراً . نزلنا للعشاء ، وقد حجزت لنا سفرة صغيرة على أتم نظام . أما المطعم فكان في الطبقة الثالثة بعد مسكننا ، وهو حجرة رحبة تشغل كل اتساع الباخرة وهي مرتّبة ومنظّمة تنظيماً أنيقاً يعجبك كل ما فيها ، لا سيّما لونها الأبيض الناصع ، وكثرة

---

(6) Smoking(بالفرنسية) : لباس الرجال الرسمي ، وهي تتكرر بضع مرات في النص . ولأنها تعني بالإنكليزية (تدخين) فقد سبب الالتباس باستعمالها بعض المواقف الطريفة مع الأمير .

الزهور الموضوعة على الموائد التي تسر النظر، ويذهب حسن روائها بتأثير حركة الباخرة. وأما المآكل فإنها لذيذة .واللحوم يُؤتى بها من أمريكا، وأنواع الأسماك من إنجلترا والفواكه، وأنواع الخضر من فرنسا، وقد تلذّذنا من جودة الخبز. وبالجملة، المآكل جميعها حسنة. ولذا يفضل الأمريكيون السياحة في البواخر التابعة لشركة النوردتشر على غيرها، لما يلاقونه من الراحة في المأكل والمشرب والخدمة والمسكن. وكانت الموسيقى تشنّف آذاننا وقت العشاء، ومن الساعة 9 مساء تدار[7] البيانو بالكهرباء، وهي من أتقن الآلات وأجودها حتى إن الإنسان لا يجد فرقاً بينها وبين التي يديرها أبرع المفنين[8] في البيانو. ويستمرّ هذا العزف مقدار ساعة من الزمن في الردهة الكبرى الوردية اللون. وهناك بيانو أخرى عادية في وسط هذه الردهة. وقد لاحظنا رسم البرنسيس[9] ولية عهد ألمانيا معلقة على حائط الردهة بطولها الطبيعي، وهي التي سُميت هذه الباخرة باسمها. وبعد أن انتهينا من العشاء، عدنا إلى مكاننا وأمضينا ليلة جميلة لهدوء البحر.

ضخامة السفينة ونظامها

وفي صباح اليوم الثاني (2 مايو) بعد أن ارتديت ملابسي، أخذت أستريض على ظهر الباخرة. ولأصور لك مقدار اتساعها، أذكر أني طفت في أحد مماشيها خمس مرات فوجدتني قطعت ميلاً إنجليزيّاً. أما الممشى الذي في الطابق الأعلى فمغطّى من كل جهة بألواح من زجاج، سهلة الإقفال والفتح وعددها 196، حتى إذا كان الهواء شديداً والبرد قارساً أقفلت هذه الشبابيك، وإلا فتحت؛ وهذا يسهل الاستراضة للراكبين. كذلك من أراد أن يستريح، يمكنه أن يستلقي على أحد الكراسي المعدّة لذلك بدون أن يتأذى منه المستريضون، ولا خوف عليه من تأثير البرد ولا من ابتلاله بالماء. ولتكميل أسباب الراحة، قد خصّص لكل جهة من هذا الممشى خادمان لتأدية الطلبات تحت رئاسة ثالث. وقد لاحظنا أيضاً غير هؤلاء الثلاثة اثنين من الملاحين بملابسهما النظيفة للحراسة، وبأيدهما المكانس أو قطع من

(7) هكذا وردت في النص لأن المؤلف يرى أن البيانو مؤنث، باعتباره (آلة).

(8) المفن (بكسر الميم وفتح الفاء) : اسم فاعل، أي الفنّان.

(9) Princess : الأميرة.

القماش لإزالة أي قذر يجدانه . وملخّص ما كان في يومنا هذا هو ما يأتي : من الساعة 7 صباحاً إلى الساعة 10 الفطور ، ويمكن الراكب أن يتناوله في المطعم ، أو على ظهر الباخرة ، أو في غرفته ، وهو مشتمل على أنواع اللحوم ، على اختلافها من بارد وشواء ، وبيض وسمك وغيرها .

في الساعة العاشرة تقدم الحساء[10] ومعها ساندويتش باللسان العجالي[11] أو الكافيار- من الساعة 10 ونصف تعزف الموسيقى يوماً في الجهة اليمنى ، ويوماً في الجهة اليسرى ، بالتناوب من هذا الممشى الذي وصفته . هنا رأينا طائفة المهاجرين الفقراء الذين يذهبون إلى أمريكا في طلب الرزق من كل جنس ، يغتنمون فرصة عزف الموسيقى ويرقصون على نغماتها ، ليخفّفوا عنهم آلام فراق أوطانهم . وقد رأينا في صباح هذا اليوم جملة بواخر ذاهبة إلى أمريكا أو راجعة منها . وأظن أن التسلية الوحيدة للمسافرين في المحيط الاطلانطيقي ، الخالي من الجزر ، هي رؤية مرور البواخر بكثرة ، يخاطب بعضها بعضاً بالتلغراف اللاسلكي .

والغداء يبتدئ من الساعة 12 إلى الساعة 2 بعد الظهر ، ويقدم للمسافر كشف عام به كل الأنواع التي بالمطبخ ، فله أن يختار ما يشاء منها . وأيضاً يقدّم له كشف صغير Menu يعدّه رئيس السفرة ، فإن وافقه يأمر بالسفري المكلف بخدمته أن يقدّم له غداءه ، على حسب هذا الكشف الصغير ، وإلا طلب ما يريد من الكشف العام .

إن المسافرين معنا كانت أشكالهم غريبة ، ولم نرَ سيّدة واحدة من الأمريكيات جميلة كالتي يراها الإنسان في أوربا أو في مصر . وبالجملة ، كان الجميع من رجال ونساء كالصور التي تصورها الجرائد الهزلية المضحكة . فهذه الوجوه ذكرتني سياحتي باليابان وكوريا .

والحاصل أن جميع المسافرين كانوا أمريكانيين ، ولم يكن بالسفينة غيرنا من أبناء الأمم الأخرى ، وكلهم كانوا من أرباب الأشغال وأغلبهم إسرائيليون[12] . وقد لاحظنا أيضاً بينهم أسرات مرتدية ملابس الحداد ، ونظنّ أنهم أقارب المنكوبين في حادثة غرق التيتانيك .

---

(10) هكذا وردت في النص بالتأنيث ، مع أن «الحساء» مذكر .

(11) عجال (جمع عجل) : ولد البقرة ، والمقصود : لسان بقري .

(12) (إسرائيليون) : صار لها مفهوم سياسي بعد اغتصاب فلسطين ، والمقصود في النص أنهم يهود .

ومن الساعة 3 مساء إلى الساعة 6 يعزف مرة ثانية البيانو الكهربائي في الردهة الكبيرة . وهناك جملة ألعاب أخرى على ظهر الباخرة لقضاء الوقت . هذا غير ما هنالك من المحال التي يمكن للمسافر أن يستريح أو يتمّم أشغاله فيها كالمحلين المخصصين للتدخين وحجرة المكاتبات . ويوجد أيضاً مكتب للتلغراف اللاسلكي ، ومطبعة معدّة لطبع أخبار العالم لتوزع علينا كل يوم قبيل الساعة 4 مساء بشكل مجلة ، وهذا من بدائع هذا العصر الجليل .

يبتدئ العشاء في الساعة 6 مساء وينتهي في الساعة 9. ولأجل أن نتبع النظام ارتدينا «الاسموكين» ، وعلى هذا الترتيب أمضينا ولله الحمد يومنا بعد أن ختمته بلعب الدومينو مرتين مع مصطفى بك ، وافترقنا للاستراحة ونحن مسرورون .

يوم 3 مايو:

وفي اليوم الثاني من سفرنا ، دعاني القومندان لأشاهد ما يقومون به من الأعمال لتجربة أدوات النجاة التي تستعمل في حالة الخطر «كفانا الله شرّه» . وكان الجوّ هادئاً والبحر ساكناً . وتكون هذه التجربة عادة في الساعة 5 مساء . فصحبني الصاغ خيري وصعدنا إلى غرفة القومندان التي بأعلى الباخرة ، وتجاور مصدر الأوامر ، فقابلنا بكل ترحيب وأخذ يسرد علينا معلوماته الغزيرة . وقد أطلعنا على خارطة الطريق القديم الذي كانت تتخذه البواخر قبل حادثة التيتانيك . وأظهر لنا الفرق بينه وبين الطريق المتبع الآن ، فإذا هو يزيد مسافتنا 200 ميل عما كانت قبل ، حيث إنه أخر الطريق عن أصله بمقدار 60 ميلاً إلى الوراء . وهذا للابتعاد بقدر الإمكان عن مقابلة الثلوج السابحة على وجه الماء «آيزبرج» التي تسبب المصادمات . وقد أراني أيضاً جملة بارومترات لمعرفة مقدار ضغط الهواء ، والمكان الذي توجد فيه الباخرة ، وهي مختلفة الأنواع ، منها ما هو خاص بالنهار والشمس ، ومنها ما هو خاص بالليل والنجوم . وقد أرانا أيضاً التلفون الخاص بالمنارات السابحة في البحر الذي له آلتان موضوعتان في مقدمة الباخرة . وكذا عنده عداد كهربائي على اليمين ، وآخر على الشمال ، لمعرفة مقدار الدورات التي تدورها كل آلة من الآلتين المذكورتين . فالقومندان بذلك يمكنه أن يعرف في كل لحظة سرعة هذه الآلات وانتظامها ، بدون أن يتحرّك من مكانه . وعنده أيضاً تلغراف مورس ، وبالجملة كل الاختراعات الحديثة عنده . وبعد ذلك خرج بنا من هذا المكان ، وأرانا آلة لها يد يحركها فتدق الأجراس عند السوّاقين في

قاع الباخرة ، وهي علامة الخطر ، فيأخذون حذرهم ويخرجون من أمكنتهم للنجاة . والغريب أن قاع الباخرة مقسّم إلى 19 قسماً ، كل قسم له باب محكم يقفل في مدّة 30 ثانية على التدريج وبطريقة ميكانيكية . وعند القومندان لوحة بها نمر هذه الأبواب ، فكلّما أقفل باب أضاءت النمرة بنور كهربائي علامة أنه محكم الإقفال .

وقد ذكرت قبلاً مقدار ما تحرقه الباخرة كل يوم من الفحم . فهذا المقدار العظيم يشغل جزءاً كبيراً من الباخرة في قاعها . وهو موضوع في جملة محال فكلّما فرغ محل من الفحم ، ملئ من ماء البحر حتى لا تفقد الباخرة موازنتها . فكل هذه الترتيبات مدهشة وعظيمة ، ولكني لا أقدر أن أقول إنها تمنع الخطر دائما . فكم من تلف صغير جرّ مصيبة عظيمة ، وما الأمر إلا بيد الله . ومع ذلك ، إني أعجب جداً من جميع هذه الترتيبات المحكمة الوضع والسريعة التنفيذ . ويزيد إعجابي جداً محافظة جميع الضباط والملاحين على تنفيذ الاوامر بغاية الدقّة والضبط . وقد تحقّقت أن احترام الرؤساء عندهم من أهم واجباتهم ، وهذا هو السرّ الوحيد لنجاحهم في جميع أعمالهم العظيمة .



أكياس البريد

وبعد أن أتممنا رؤية جميع هذه الآلات العجيبة ، عدنا إلى غرفة القومندان وتسامرنا معه قليلاً ، ثم انصرفنا من عنده شاكرين له حسن اعتنائه بنا ، مبدين له إعجابنا بما رأيناه . وقد قال لي أثناء المحادثة إن الشركة تنفق في كل رحلة 600.000 مارك أي 750,000 فرنك أو 30,000 جنيه إنجليزي في الذهاب والأوبة .

هذا ، ولما كانت أسرع السفن هي التي تتخذ بريداً (بوسته) كانت المسابقة بين الشركات مستمرّة . وقد أخبرني أن الشركة تأخذ على كل كيس بوسته 40 فرنكا في كل سفرة ، وفي فصل الشتاء وأيام الأعياد يصل عدد الأكياس من 4,000 إلى 5,000 كيس . وقد تنقل السفينة ، في بعض الأحيان ، مقادير كبيرة من الذهب أو الفضة من أمريكا إلى أوربا أو بالعكس . وقد أخبرني القومندان أنه نقل مرّة ما مقداره 11,000,000 جنيه من الذهب إلى بنك روتشلد بإنجلترا ، وفي هذه المرة أرسلت معه مركبا لخفارته . ولمّا وصلوا إلى ميناء بورتسموث كانت بانتظارهم باخرة بها جملة من رجال الشرطة لمقابلتهم والمحافظة على هذا المبلغ الجسيم ، فليتأمل القارئ عظمة التجارة التي تنقل بهذه البواخر . أمسينا والحالة أخذت تتغير فشعرنا بالاهتزاز ، وقد

أخبرنا أن الحرارة ستبتدئ من غد . وفي أثناء سيرنا تقابلنا مع باخرتين ، إحداهما أشارت إلينا بأن الجو غير معتدل والضباب مالئ الفضاء ، وهذا ما يخشى منه كثيراً . ولكنّا لما أصبحنا يوم 4 مايو لم نجد أثراً لهذا الضباب ، بل كان الضوء متلألئا ، رغماً من السحاب المخيم علينا والمطر المنهمل فوق رؤوسنا . أما حالة البحر فكانت في هياج مستمر ، وهنا عرفنا الفرق الهائل بين السياحة في البحر الأبيض المتوسط وبينها في المحيط . ومع ذلك كنت مطمئنا لأني علمت من الملاحين أن هذه الحالة آمن كثيراً من حالة وجود الضباب الذي يسبّب الأخطار ، أما رفقائي فكانوا مرضى .

فهذه التغييرات أيقظت في نفسي حب الاستطلاع والسؤال عن حالة البحر في فصل الشتاء ، فاستفهمت وعلمت أنها تكون أحياناً سيئة جداً حتى حدث مرّة أن اقتلع البحر حجرة القومندان وأخذ معه الزوارق المعدّة للنجاة ، ويومئذ لم تتمكن الباخرة من قطع أكثر من 120 ميلاً في 24 ساعة ، وهي تقطع عادة 540 ميلاً ، فابتهلت إلى الله أن لا يرينا شيئاً من ذلك .

انطوى هذا اليوم الصعب ، والحمد لله ، وذهبت للنوم متأخراً عن عادتي فكيف يكون الإنسان هادئاً والسفينة تمرُّ بنا إذ ذاك على تيار «جولف استريم»[13] الهائل الذي تبلغ سرعته أحياناً 21 عقدة في الساعة . وإذا أضيفت إليها 10 عقدات أخرى ، سرعة الهواء في هذا الموقع ، بلغت سرعة الماء والهواء 31 عقدة ، وهي كافية جداً لتحطيم أعظم مركب . ولكن لم تبلغ سرعة الهواء أكثر من سبع عقدات أثناء هذه الليلة ، وذلك من فضل الله علينا .

يوم 5 مايو:

في صباح ذلك اليوم أخذت الحالة في الهدوء قليلاً وصفا أديم السماء ، وقد أخبرنا أننا نستطيع أن نخاطب اليوم نيويورك بواسطة التلغراف اللاسلكي . ولقد صادفنا في سيرنا ذاك اليوم باخرة من شركة «كونارلين» وسبقناها .

فبعد ما قضينا هذه الليلة وصلنا إلى المكان الذي يكون فيه تيار «الجولف استريم» خطراً ، فإنه نقطة ملتقى الثلوج والأهوية الباردة التي تهبّ من جهة الـ«نِرْ نوف»[14]

---

(13) Gulf Stream : تيار الخليج .

(14) معناها : الأرض الجديدة ، وهي مقاطعة في كندا .

Terre Neuve ، وهذه الثلوج يتكوّن أصلها في الجهات الشمالية حيث توجد هناك على حالة هائلة ، ثم تنفصل بتأثير الحر قطع عظيمة منها وتنحدر متّبعة التيارات إلى الجنوب كأنها الجزائر ، وأحيانا تكون مرتفعة عن وجه المياه كجبل عالٍ ، ومن هنا سُمّيت باسم آيزبرج «Isberg» وهي كلمة ألمانية معناها جبل من الثلج .

ومما رأيته صعباً جداً عمل الملاحين الذي ملأ فؤادي شفقةً عليهم ، وقد طرأ بفكري في تلك اللحظة أن ألوم نفسي قائلاً لها : ما الدّاعي لتركي أوربا الجميلة والمخاطرة بالحياة في هذه الأسفار البعيدة؟ نعم إن الإنسان وقت الشدّة تجيش نفسه وتطرأ عليه هذه الأفكار ، وما أسرعه إلى تذكر أهله وخلانه ووطنه . ولقد مرّت هذه الخيالات والأفكار عليّ كلمح البصر ، وشعرت بأن لساني يردّد كلمات كثيرة ، فانتبهت إليها فإذا هي دعوات وتضرّعات إلى الله أن يرجعنا سالمين ، ويردّنا إلى أصدقائنا ووطننا العزيز الذي كلّما رأيت تقلّبات الجوّ ازداد حنيني وشوقي إليه . فأين سماؤنا الرائقة وشمسنا الذهبية وهواؤنا العليل؟ وأي مسافة شاسعة تحول بيننا وبين مصر ، مهد المدنية ومنبع العرفان؟ كفى يا لساني الآن ، فإن شعوري أجلُّ من أن تحيط بوصفه عبارتك .

إني أسمع بعض الراكبين معنا يغنّون ويعزفون على البيانو ، فما أشجع قلوبهم! أهذا وقت السرور والجو عابس ، والباخرة تلعب بنا كالرّيشة في مهبّ الرياح؟ ولكن سبحان من بيده تصريف الرياح وتسكينها .

محنة مصطفى بك

لله الحمد والشكر في هذا المساء أخذ الجو يعتدل ، وبينما كنا على ظهر الباخرة رأينا زميلنا مصطفى بك كأنه يزحف إلينا ، يمشي الهُوَيْنَا مصفرّ الوجه ، محدودب الظهر ، مرتجف الأعضاء ، تظهر على وجهه علامات الخوف الشديد ، فأسرعنا إليه لنسأله عمّا دهاه ، وعن طول غيابه عنّا ، لأنه لم يخرج من حجرته مدّة 45 ساعة . فشرع يقصُّ علينا ما جرى له ، ويصوّر لنا كيف كانت حالته خلال المدّة الشديدة ، كأبرع مشخّص يمثّل دوره في مسرح التمثيل . وقد كنا معجبين بمهارته ووصفه الآلام التي اعترته ، فقال : شعرت بألم شديد برأسي ، فألقيت نفسي على سريري لعلّي أجد في ذلك مخرجاً مما ألمّ بي ، فلم تزدد الحالة إلا سوءا . أريد الصياح ، فلا أجد لنفسي قوة . فسلّمت أمري إلى الله ، وصرت أكابد ما أكابد وأذوق مرّ العذاب ألواناً ،

حتى جعلت كل ما على السرير فوقي وحشرت في الجوانب بعض الوسادات لأمنع اصطدامي بالحائط . ولكن ماذا يفيدني ، وأنا العليل البائس والضعيف اليائس ، فكل حركة كانت تقلبني ، وكل هزّة تكاد تذهب بروحي . حاولت النوم فلم أستطع إليه سبيلا ، فأغمضت عيني حتى لا أرى تحرّك ما أمامي من الأشياء ، فصارت أذناي تسمع صوت الأمواج الهائلة وقعقعة العدد . وما زاد شقائي إلا حرماني لذّة الطعام والشراب ، فإني لم أقدر أن أتناول شيئاً طول هذه المدّة . أما اليوم ، فقد ثاب إليّ بعض قوتي حتى استطعت أن أرتدي ملابسي شيئاً فشيئاً ، إلى أن كشف الله عني ما نزل بي من كرب ، فخرجت الآن من الظلمات إلى النور ومن الضيق إلى السعة . فهدّأنا روعه ، ولمّا قرب ميعاد العشاء نزلنا إلى غرفتي ، وتناولنا ما لذّ لنا وطاب ، ثم افترقنا للراحة والنوم .

يوم 6 مايو:

أصبحنا والباخرة تمخر في عباب البحر بسرعة مدهشة ، والمطر يهل مدراراً والجو عابس ، فصرت أسأل من كل ضابط عن الحالة فكان جوابهم إن الحالة تطمئن فلا الضباب يحدق بنا ولا هواء الجنوب يعصف علينا . ولقد وضعت الحواجز التي توضع عادة لمنع سقوط الأواني على الموائد وقت الفطور ، فسألت رئيس السفريين هل البحر هائج حتى تضعوا هذه الحواجز ، فكان جوابه مقلقاً لأنه أخذ يبالغ في ما نحن فيه . ولقد يتصور البعض أن السياحة في المحيط لذيذة ، ولا يشعر الإنسان بهيجان البحر لكبر البواخر ، ولكن هذه الفكرة غير حقيقية لأنه لا بدّ للبحر أن يتلاعب بأكبر باخرة كيف يشاء ، وما على المرء إلا أن يتصوّر اتساع المحيط الهائل ونسبته إلى حجم الباخرة ، حتى يحكم بصحّة ما قلته ، وما هي إلا ألعوبة على سطحه .

إن أسرار الطبيعة هائلة ومدهشة ، فمهما وصل الإنسان من الرقي لا يمكنه أن يحيط بجميعها . ولكن البحث وحبّ الاستطلاع من مزايا الإنسان ، فتراه محبّاً لمعرفة ما خفي عليه . وفكري أن تنوير العقول لا يتم إلا بالسياحات ، فإنها تعلّم الإنسان كل شيء ، وتظهر له الأسرار وما وصل إليه أقرانه المتمدّنون من الرسوخ في العلم وكثرة المكتشفات والمخترعات ، فيأخذ لنفسه ما حلاله . وبذلك تزداد معارفه ، وترتفع مكانته ، ويكون على بيّنة من الأمور .

إن أتعاب السفر تزول ، إذا استفاد الإنسان منها باكتساب ما ينقصه من

المعارف . فإن لذّة تثقيف العقول لا يعلوها لذّة ، فما أكبر سرور النفس عند وقوفها على مجهول .

إن الله تعالى خلق الطبيعة في أجمل خلقة وأحسن تكوين ، فما من شيء إلا وكان لوضعه حكمة عظيمة . لقد تأذينا من تيار (الجولف استريم) ولكن لولاه لما وجد مخلوق من بني الإنسان في أيرلندا وإنجلترا والجزء الشمالي من فرنسا ، بل كل القسم الشمالي من أوروبا .

لاحظنا أثناء سفرنا هذا أن المحيط يتغيّر في كل وقت ، فبينما نراه هادئاً ينقلب هائجاً ، وبينما نرى السماء صافية نرى المطر يهطل مدراراً ، وبينما الرياح ساكنة تهب دفعة واحدة فلا تبقي ولا تذر . اليوم رأينا باخرة وجهتها نيويورك ، وهي قريبة منّا حتى كأنها هي وسفينتنا قطاران يمشيان على طريق حديدي واحد ، فوجود الضباب يحجب النظر ومنه تحصل المصادمات . هذا وإن سائر البواخر الذاهبة إلى أمريكا لها طريق واحد ، وكذلك التي تعود فهذه في الجنوب وتلك في الشمال .

فما أشدّ سرور السائحين عند ما تلاقي باخرتهم باخرة أخرى ، فمثلهم إذ ذاك كمثل تائه في ظلام ليل حالك في وسط أجمة هائلة ، فيمنّ عليه الله بملاقاة صديق له . فهل يتصوّر مقابلة أحسن وقعاً على النفس من هذه المقابلة الجميلة؟ هنا شعر الراكب أنه ليس وحيداً ، فيذهب عنه الخوف قليلاً ، ويطمئن قلبه بوجود الباخرة الأخرى بجانبه . وإذا حصل لا قدّر الله خطر ، فباب الأمل في النجاة مفتوح لقرب هذه الباخرة منه .

ففي الساعة العاشرة ونصف عزفت الموسيقى كالعادة ، وعند الثانية عشرة ونصف أمكننا جميعا أن نتناول الغداء بحجرة السفرة لتحسن الحالة . وبعد ذلك مشينا قليلاً على ظهر الباخرة ، وشعرنا بزوال الأمواج ، وسكون البحر وسرعة الباخرة العظيمة .

وبعد ذلك أرسل إليّ القومندان من يرجوني أن أصوّر معه بالمصوّر الشمسي «الفوتوغراف» ، فلم يسعني إلا قبول طلبه ، لما رأيته منه من عظيم عنايته بي ، وضربت موعدا لذلك يوم الثلاثاء ، أي غداً الساعة 5 مساء .

وبينما نحن في الردهة نسمع البيانو ، أتت إلينا الجرائد اليومية وبها أخبار آخر ساعة ، فوقع نظري على تصريحات المسيو «جيليوتي» في المجلس عند أخذ رودس بدون مقاومة . فأثّر عندي هذا الخبر تأثيراً شديداً ، ولا يمكنني وصف الحزن الشديد

الذي اعتراني حينئذ . ولو أن حصول ذلك الاغتصاب الجديد كان منتظراً من وقت إلى آخر . ومن رأيي أنه من العار ترك هذه الجزر تذهب بدون مدافعة . وإني أفضّل ضياع بعض البوارج التي عندنا في سبيل الدفاع عن هذه الحالة المحزنة ، وإلا فما الدّاعي لعدم بيع[15] طرابلس ، إذا بلغ الإهمال إلى هذا الحد في هذه الجزيرة الجميلة؟ حقيقة إني مصري ، ولكنّي مسلم أولاً ، وشرقي ثانياً . فضياع مثل هذه الدرر يحزنني ، فما أشد آلامي عند رؤيتي ضياع مجد الشرق وعظمته شيئاً فشيئاً . مرّت على أفكاري هذه الأحوال المظلمة ، فاسودّت الدنيا في عيني ، وشعرت بحرج الموقف وجعل اليأس يستولي على نفسي ، لولا أملي في الله واعتقادي بيقظة الشرقيين الذين لا يتركون بلادهم تذهب أمام أعينهم وهم عنها ساهون .

فشدّة هذا التأثير جعلتني أقلّب في فكري تاريخنا العظيم والأدوار الكبيرة التي شغلناها في المجتمع الإنساني ، فزاد أملي بالله لأنه هو القادر وحده أن يُرجع إلينا مجدنا السابق بمعونته أولاً ، ثم باجتهادنا وتعاضدنا واتفاق كلمتنا واتحاد وجهتنا ، فترتفع رؤوسنا ويذهب عنّا الذل والمسكنة والعار . فصوت الموسيقى في مثل هذه الحالة ليس إلا نغمة محزنة ، أخذت تذكّرني جميع المصائب المحدقة بنا واحدة فواحدة فزادت أشجاني ، فلم أطق صبراً على سماعها ، فأسرعت إلى الخروج حيث أكون منفرداً أناجي الله تعالى في أمرنا ، وادعوه أن يوفّقنا إلى ما فيه نجاحنا ، فكأن الفضاء غير المتناهي أخذ يضيق شيئاً فشيئاً ويحصرني فيه .

الاستعداد للنزول

تصفّحت ثانياً الجريدة ، فإذا نحن على بعد 675 ميلاً من منار «امبراواز» القريب من نيويورك ، وقد قطعنا لغاية اليوم 3277 ميلاً من الطريق ، وكان أملي الوصول إليه في الساعة السادسة من مساء اليوم ، وفي التاسعة منه إلى أرصفة شركة النورد تشر ، إذا كنّا لم نصادف هذه العوائق التي أخّرتنا . ومع ذلك إننا نحمد الله كثيراً لوصولنا إلى هذه البقعة سالمين ، رغماً ممّا قاسيناه وتكبّدناه من عصف الرياح وتقلّبات البحر وتغيّرات الجو . ذلك الذي جعلني أكره السياحات الطويلة في البحار .

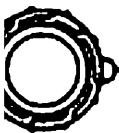
---

(15) لا أدري كيف يرى الأمير أن رودس أهم من طرابلس ، إلا إذا كان مغزى عبارته الاستنكار والسخرية المرة .

أخذ الركاب يجهّزون أمتعتهم لتأميلهم أن يصلوا إلى نيويورك في صباح الغد ، ولكن ليس الأمر بيدهم بل بيد الله .

إني لست متحققا من الوصول غداً ، ولا يمكنني الثقة بالشيء قبل وقوعه خصوصاً في الأسفار ، ولذا لا أرتاح إلا إن وصلت إلى نيويورك ونزلت في النزل . فمتى رأيت اليابسة ووضعت قدمي عليها ، أقول حقيقة تم السفر في البحر وأحمد السُّرى .

قبل حلول ميعاد العشاء رأينا على ظهر الباخرة عدداً عظيماً من الملاحين ، فظننّا أنه ربما كان الغرض الاستعداد للتمرّن على طرائق إطفاء الحريق أو طرائق الإسراع في تجهيز أدوات النجاة . ولكن لا هذه ولا تلك ، بل كان الغرض إعداد مرقص للسائحين والسائحات الذين طفح السرور على وجوههم ، فأرادوا أن يرقصوا طرباً ويتمايلوا جذلاً ، فرفعت الكراسي وأعدّ محل على ظهر الباخرة لذلك . ثم أحضرت جملة من الأعلام المختلفة الألوان ، وعلقت بشكل بديع ، يتخلّلها مصابيح جميلة متلألئة بالأنوار الكهربائية . وقد أحسنوا تنظيم هذا المحل حتى صار يشبه سرادقا مقفلاً من كل جهة . فلم يمكني أن أتصوّر لِمَ هذا السرور ، مع أن الزمن الباقي لوصولنا هو 24 ساعة ، ونحن ما زلنا في عرض البحر ، ولسنا بعيدين عن الأخطار . أفما كفاهم الأيام الماضية التي كنا نرقص فيها ، بالرغم منا لكثرة اهتزاز الباخرة من هياج البحر؟ وكان الأولى أن يبتهلوا إلى الله ليتمم نعمته عليهم ، ويوصلهم إلى نيويورك سالمين . أما أنا فنزلت إلى غرفتي وتناولت مع رفيقيّ العشاء ، وقد أرسل إليّ القومندان دفتره الخاص بتدوين أسماء الذين سافروا معه ، لأكتب فيه ما رأيت منه ليكون تذكاراً عنده . فكتبت فيه باللغة العربية أني أشكره لحسن عنايته بنا ، ولما لقيناه من جميع أعوانه من الاعتناء الزائد بنا ، ودعوت له أن يكافئه الله على خدماته الجليلة لنا وللذين سافروا معه . ووضعت على هذا اسمي ، وقد وقع على ذلك أيضاً رفيقاي خيري ومصطفى . وبعد ذلك لعبت دوراً من الدومينو ، ثم أوى كل منا إلى مضجعه ، فصلّيت لله ودعوته طالباً حسن الختام .



يوم الثلاثاء 7 مايو:

هببنا من نومنا على صفير الباخرة المزعج ، فما لبثت أن علمت أننا محاطون بالضباب ، وهذا ما كان ينقصنا من عجائب الاطلانطيق وتقلّباته التي طالما حدّثت

عنها في مواضع مختلفة من رحلتي هذه . فكأن المحيط شقّ عليه أن لا يرينا منظراً من مناظره المخيفة ، فأسرعت وارتديت ملابسي وصعدت على ظهر الباخرة ، فوجدت أنه يستحيل أن يرى الإنسان من أمامه وشممت رائحة السمك التي في بعض الأحيان كنت أشمها بمنيل الروضة بمصر وقت نقصان النيل ، ولكن هنا هذه الرائحة تأتي من السمك المشهور وجوده قريباً من نيويورك .

فشعرت بمقدار الخطر المحدق بنا . إن شدّة الرياح وتلاطم الأمواج واهتزاز الباخرة أخفّ عندي من وجود هذا الضباب . وإننا نحمد الله أن لم يأتِ هذا اليوم العصيب إلا في آخر أيام السفر ، لا قبل الوصول بثلاثة أيام كما أُخْبرنا . إن رؤية الضباب تؤثر في الاعصاب ، وتقبض الصدر . والغريب أن الباخرة تصفر كل دقيقة ، ولكنّنا كان يخيل إلينا أن تلك الدقيقة التي بين كل صفير وآخر هي خمس دقائق ، ولذا أخرجنا ساعاتنا لنعلم المدّة بين كل صفيرين فوجدناها دقيقة . وعلمنا أن تقديرنا لأول كان من ناحية الوهم الذي سلّطته ساعة الشدّة على عقولنا ، ولا عجب . فما أطول أوقات الشدائد على منتظري انفراجها .

إنه بمناسبة وجود الضباب بين لي القومندان الاختراع الجليل الذي ينبئ عن قرب باخرة في وقت لا يمكن بالنظر ، ولا بأعظم نظّارة أن تشاهدها . وهذا الاختراع عبارة عن الأجراس المنبئة بوجود بواخر قريبة . في مقدمة الباخرة يوجد جرسان من هذا الاختراع ، واحد من جهة اليمين ، والآخر من جهة الشمال ، وعند ما تقترب أي باخرة يدق الجرس الذي من جهة هذه الباخرة . وبهذه الطريقة يعرف القومندان من أي جهة يأتي الخطر فيبتعد عنه ، وعلى ما قيل لي إن هذه الأجراس تنبئ من بعد ميلين ، وقد ركبت في باخرتنا من منذ أربع سنوات .

وقد أُخبرت أننا سنمر على سفينة واقفة في عرض البحر ، وهي مستعملة كمنار ومنها تعلم المسافة الباقية لنا . وعلى ما علمت ، يلزمنا إحدى عشرة ساعة منها للوصول إلى نيويورك .

نحن الآن في الساعة 9 صباحاً ، فلا يمكننا أن نرى هذه الباخرة «المنار» لشدّة الضباب ، ولكنّنا كنا نؤمل سماع صفيرها «لأنها تصفر أيضاً مثل باخرتنا وقت الضباب» . والذي كان يخيفنا كثيراً هو قيام بواخر (البوستة)[16] في ظُهر هذا اليوم

---

(16) البوستة Post : البريد .

من نيويورك ، ويبلغ عددها العشرين ، فهذا العدد العظيم سنصادفه في طريقتنا . ولمّا كان الجزء الباقي من الطريق تطرقه البواخر الغادية والرائحة ، فالخطر عظيم لوجود هذا الضباب ، والإنسان لا يشعر بالخطر إلا إذا كان محدقاً به .

جاءت الساعة العاشرة والجو لم يزل على حاله ، وسرعة الباخرة أنقصت إلى ربع السرعة الأصلية ، ولم نمر على الباخرة «المنار» . في هذا اليوم لم نشاهد أحداً يستريض على ظهر الباخرة على حسب العادة خوفاً من الرطوبة ، فذهبنا إلى الردهة لسماع صبية كانت تعزف على البيانو ، ومكثنا إلى نحو الساعة الثانية حتى أخذ النور يضيء والضباب ينقشع . فخرجنا إلى ظهر الباخرة لنرى ماذا تمّ ،فإذا نحن أمام هذه الباخرة «المنار» ، فسررنا جداً وابتدأ الاطمئنان يدخل قلوبنا . وأطلق للباخرة سرعتها الأصلية ، فلم يبق لنا إلا مسافة إحدى عشرة ساعة للوصول إلى نيويورك ، أي كالمسافة التي بين الاسكندرية ورودس . وبعد أن تناولنا الغداء لعبت أيضاً دوراً من «الدومانه» . وفي نحو الساعة الخامسة حضر عندنا المصوّر يدعونا أن نذهب إلى القومندان للتصوير ، فذهبت إليه مع الصاغ خيري فوجدناه في انتظارنا باشًا مسروراً هادئاً كعادته ، فصرت أصوّر له مقدار تخوّفنا مما كنا فيه ، فأجابني أن الأجراس المنبهة أنبأته بقرب باخرة المنار على بعد سبعة أميال ، وقد سمع صفيرها على بعد خمسة أميال ، فهنّأته بدقة حسابه ومقدرته العظيمة وكثرة معارفه . وبعد أن فرغنا من التصوير دخلنا معه إلى غرفة ، فصار يشرح لنا آلة أخرى بواسطتها يعرف عمق ماء البحر ، وهي آلة غير تلك الآلة المستعملة في كل البواخر التي هي حبل طويل ذي عقد ، طول ما بين كل عقدة وأخرى معلوم ، وفي منتهى هذا الحبل قطعة ثقيلة من الرصاص ، فتلقى هذه القطعة بقوة فتغوص في الماء فعدد العقدات الغائصة يدل على مقدار العمق ، ولكن هذه الآلة لا تصلح إلا وقت السير البطيء وهي مستعملة كثيراً في المراكب الحربية . أما هذه الآلة الجديدة فهي مباينة للتي شرحتها ، وهي صالحة لإظهار العمق في وقت سير الباخرة بأكبر سرعتها ، أي 23 ميلاً في الساعة ، ولأهميتها أصفها للقارئ بالتقريب .

في مؤخر الباخرة أسطوانة ملفوف عليها حبل دقيق من الصلب طويل ، وفي نهايته قطعة عظيمة ثقيلة من الرصاص ، بينها وبين الحبل أنبوبة مقفلة من الجهة العليا ، ومن الجهة السفلى يمكن فتحها ، فتوضع داخل هذه الأنبوبة أنبوبة أخرى من الزجاج ملونة بلون أحمر يزول سريعاً بالماء ، ثم تقفل الأنبوبة الحديدية . وفي أسفلها

توجد فتحات صغيرة لإمكان دخول الماء فيها وهي محكمة حتى إن الهواء الموجود بالأنبوبة الحديدية لا يمكن خروجه . وبعد ذلك يدلى الجميع في البحر بواسطة إدارة الأسطوانة التي يقف بجانبها أحد الضباط ، وبيده عصا دقيقة من الحديد . فهذه الآلة تسقط عمودية في قاع البحر ، وحيث إن الهواء الذي في الأنبوبة لا يمكنه الخروج ، فكلّما نزلت الآلة في الماء ازداد ضغط الماء على الهواء المحبوس في الأنبوبة فينقص حجمه من هذا الضغط ، ولا يزال كذلك إلى أن يشعر الضابط بوصول قطعة الرصاص إلى قاع البحر . وهذا يظهر له من حالة الحبل المصنوع من الصلب ، فيوقف بعصاه الحديدية الإدارة ، وبعد ذلك تسحب إلى الأعلى . فالماء الذي دخل في الأنبوبة الحديدية بواسطة الضغط ، أزال جزءاً من اللون الأحمر الملونة به الأنبوبة الزجاجية . ومعلوم عندهم طول الأنبوبة الزجاجية فيُقاس الباقي منها ، أي الذي لم يذهب لونه . وبحساب خاص عندهم ، يمكنهم معرفة عمق البحر . أما مخترع هذه الآلة المفيدة فيدعى «طومسون» ، وقد كان يعمل هذا المقاس كل ربع ساعة في وقت الضباب ، حتى يتأكد القومندان من الموقع الذي تمرّ منه الباخرة .

جيش الصحافة

جاء المساء وذهبنا للعشاء ، وإذا كل الراكبين يسرعون إلى الخارج فقمنا لنرى ماذا جدّ ، وإذا نحن أمام منار «إمبرواز» القوي القائم في أول مدخل بوغاز نيويورك . وبعد أن وقفنا قليلاً للاطلاع عدنا لنتمم عشاءنا ، ثم افترقنا على أن نكون على استعداد تام غداً الساعة 6 صباحاً .

رست الباخرة على محل الحجر الصحي ، وحيث أن وصولها كان ليلاً فقد أجّلت عيادة الطبيب للغد الساعة 6 ونصف صباحاً لعدم وجوده . قمت مبكّراً الساعة 5 صباحاً «يوم الأربعاء 8 مايو» وارتديت ملابسي ، فكنت على استعداد بعد نصف ساعة من قيامي من النوم . وفي نحو الساعة 7 و 30 دقيقة تحولنا للدخول في الميناء ، ويلزمنا 30 دقيقة لنصل إلى الرصيف المخصّص للشركة . وقد لاحظت أن عمّال المكس كانوا في الباخرة للقيام بواجباتهم . أما مخبرو الجرائد فلا تسل عن عددهم ، فإنهم أتوا أيضاً ليتنسّموا أخبار القادمين ويملأوا بها أعمدة جرائدهم الكبيرة ، وهم يتسابقون إلى ذلك فيبتدئون بالاطلاع على كشف أسماء الراكبين في الباخرة ، وإذا وجدوا اسماً بينهم من أسماء المشهورين يجتهدون في مقابلة صاحبه . وقد يمرّون

على غرف الباخرة التي من الدرجة الأولى ليعرفوا من بها ، ولهم طرق غريبة في استنشاق الأخبار من الملاحين أو من الخدم أو من الضباط أو من المسافرين أنفسهم . فإذا علموا أن القادم من أرباب المصارف المشهورة يسألونه عن قصده هل له مشروع مالي جديد ، وما هي آراؤه في الحالة المالية في السنة الحاضرة . وإذا كان من كبار أمة يسألونه عن سبب زيارته لأمريكا ، ثم يستدرجونه بحيلهم في الكلام ، ويأخذون عمّا يدور بينهم بعض مذكّرات ويتوسّعون فيها بعد ذلك ، ويدرجونها بكل سرعة في جرائدهم . وإني أرى أنهم مضطرون إلى عملهم هذا ، وإلا فما الذي يملأ هذه الجرائد العظيمة التي لا تقلّ إحداها عن ثماني صفحات؟ فكان من نصيبي أحد هؤلاء المخبرين ، وهو شيخ عتيق في صنعته بارع فيها ، وهو مخبر جريدة «ورلد World» المشهورة بنيويورك . ولعلمي أن مثل هؤلاء المخبرين يلزم الاحتراس من لسانهم ، فلم أردّه خائباً ، بل قابلته وتحادثت معه على قدر ما يستطاع من الاختصار . وبعد ذلك طُلبنا لنمر أمام مفتش المهاجرين ، وكان يسلم إلى كل واحد منّا ورقة حمراء صغيرة ، بها اسمه ولقبه وبعض إيضاحات أخرى ، وهي مجعولة لمعرفة شخصية القادم . فيقدّم السائح هذه الورقة لأحد المستخدمين المنوطين بذلك ، فيسأله عن اسمه وعن المدة التي سيقيمها في أمريكا ، ويطبق أجوبته على الورقة التي كتبت أولاً عند النزول في الباخرة ، وهي التي تسمّى جوازاً (باسبورت) .

هنا يلزمني أن أقول شيئاً عن هذه الورقة . إن الأسئلة التي بها كثيرة جداً ، منها ما هو مستعمل في جميع جوازات (باسبورتات) العالم ، ومنها ما لم أره إلا في بلاد أمريكا كالأسئلة الآتية : هل أنت متزوّج بأكثر من واحدة؟ هل سبق أن أصبت بمرض معدٍ وما هو؟ ما هي حالة صحتك الآن؟ هل أنت كامل الخلقة ، ولا توجد بك عاهاتٌ؟ ما سبب مجيئك إلى أمريكا ، وما هي المدّة التي ستمكثها فيها؟ ما هو مقدار ثروتك؟ ما هو الموجود معك الآن من النقود؟ أي جهة تقصد الإقامة فيها؟ وهكذا مما لا أتذكّره لكثرته ، فتأمّل أيها القارئ مقدار هذه الشدّة . ولو كان مثل هذا (الباسبورت) في بلادنا لهاجت علينا الأفكار ، قاتل الله الأغراض .

ذهبنا في صحبة رئيس الخدمة إلى رئيس ديوان المكس ، فعرفنا أنه وصلته أوامر من مركز الرئاسة التابع لها بواشنجتون بأن لا يفتح حقائبنا ، فشكرته على ذلك وأبديت له سروري من هذه المعاملة الحسنة .

وفي أثناء ذلك كانت الباخرة ترسو رويداً على الرصيف ، وقد شاهدنا كثيراً من

الرجال والسيِّدات والأطفال ، وبيدهم جميعاً الأعلام المختلفة ينتظرون القادمين من الأقارب والأحبّاء ، فكنّا نرى علامات البشر والسرور بحسن القدوم بادية عليهم ، حتى إن بعض السيدات كنَّ يرسلن القبلات من بعيد إلى أقاربهن وأصحابهن .
رست الباخرة فاشتدّت المزاحمة على الخروج ، أمّا نحن فكنّا منفصلين عن هذا الجمع لنرى مدخل البوغاز الجميل ، ولا عجب فإنه يستحق الالتفات إليه والإعجاب به . ورغماً من انهمار الأمطار كان المنظر بديعاً جدّاً ، فالبواخر الراسية أو الذاهبة أو القادمة كانت لا تُعد ولا تُحصى ، كذلك الأرصفة التسعة التابعة لشركات مختلفة .
أما المنازل الشامخة ذات العشرات من الأدوار المصنوعة من الحديد ، فكانت تستلفت أنظارنا فنتعجّب من عظمتها . وبدأنا نشعر بكبر هذه البلاد ووصولها إلى الغاية القصوى في صناعة الحديد . وقد دلّنا ذلك على أن هذا المعدن رخيص في هذه البلاد ، حتى إنه يصنع منه كل شيء . وبعد ذلك نزلنا نقابل القوامندان ، فودّعته مكرّراً الشكر .

السيارة المنقذة!

ولما أردنا النزول بعد أن هدأت الحالة قابلنا أحد رجال كوك ، وهو شاب ألماني تظهر عليه علامات الذكاء والسرعة في تأدية وظيفته ، فأخبرنا أنه قادم لخدمتنا مأمور بالقيام بكل حاجاتنا ، فأوصلنا إلى سيارة أعدّها لنا في طريق كان يتسابق إليه مخبرو الجرائد ، فكم وكزوا هذا المسكين وكم توعّدوه بالشر لعدم مساعدتهم في إيقافنا لمحادثتهم . ولمّا ركبنا السيارة أعطى اسم النُّزُل سرّاً للسائق حتى لا يسمعه هؤلاء المخبرون ، واستأذن منّا في إحضار المتاع ويلحقنا .

أما نحن فكنّا لا نعرف أين نذهب فتركنا أمرنا للسائق الذي أسرع في السير إلى أن وصل إلى باخرة معدّة للتعدية من الشاطئ الذي نحن فيه ، وهو يسمى «ن . جرسي N. Gersay»[17] ، إلى الشاطئ الآخر الواقعة عليه نيويورك . وكان أمامنا جملة من العربات والسيارات ، فأخذت كل عربة مكانها في الباخرة ، ونحن أخذنا مكاننا أيضاً بسيارتنا . وقد لاحظنا أنه يوجد ثماني بواخر للتعدية إلى جهات مختلفة من نيويورك . أما نحن فأخذنا الباخرة التي توصلنا إلى طريق نمرة 32 ، وهنا

---

(17) الصحيح أن تكتب N. Jersey

يمكن أن أذكر أن الأمريكيين لهم طريقة جديدة استحسنتها في ترتيب شوارعهم ، وهي أنهم يختطُّونها كلّها موازياً بعضها لبعض ، وليس لها أسماء بل منمّرة[18] . فمدينة نيويورك يخترقها 162 شارعاً كلّها يوازي بعضها بعضاً ، وهذا غير نيويورك القديمة الباقية على حالتها ، فشوارعها لا تزال تُسمّى بأسمائها القديمة .

مررنا أثناء سيرنا على جملة من الطرق ، وقد لاحظنا أنها ليست بالغة الغاية في النظافة ، بل هي كطرق سائر الميانى[19] في النظافة . ولكن الذي يستلفت النظر هو شدّة الزحام ، وعدد العربات الكبيرة المحمّلة بضائع التي تجرّها خيول عظيمة الخلقة من كل جنس . وعلى ما أُخبرنا أن نيويورك جامعة من جميع أجناس البشر ، وكذلك الحيوانات والعربات والسيارات الآتية من بلاد مختلفة . أما منازلها ودكاكينها فإنها على حسب الترتيب الإنجليزي ، ومن كثرة دخان المعامل والمداخن يراها الإنسان سوداء ، وهي على الجملة ليست نظافتها كما يرام .

وصلنا إلى نزل «بلمونت Belmont» فطلبت لنا غرفاً فأعطيت لنا في الدور الثالث عشر ، وصعدنا إليها وقربنا من منافذها فشاهدنا المنظر بديعاً جداً ، حتى إننا كنّا نرى الأشخاص كالنمل من كثرة الارتفاع . كذلك كنّا نتصوّر الترمـوايات العديدة كأنها اللعب الصغيرة التي تكون في أيدي الأطفال . ولكننا لعدم تعودنا مثل هذه الأمكنة المرتفعة ، كما نستصعب وجودنا فيها ، لاسيما أن النجاة لا تكون متيسّرة لمن فيها ، إذا حدث حريق كالقريب من سطح الأرض ، ففضّلت أن أختار غرفنا في الدور العاشر . ولكن حركة الترموايات الكبيرة مقلقة جداً ، ففهمت السبب في إعطائنا الأدوار المرتفعة ، وعلمت أن فكرة الحريق يلزم إبعادها عن خيالنا .

إن عدد سكان نيويورك يبلغ ثلاثة ملايين نفس ، وهي تعدُّ بعد لوندرة[20] أكبر مدينة تجارية في العالم ، وهي في الحقيقة عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية ولو أن واشنجتون هي مركز الحكومة الرسمي وعاصمتها . ولكن عدداً هائلاً مثل سكان مدينة كنيويورك محتاج إلى بضائع وأشياء أكثر من غيرها ، ولذا ترد التجارة إليها من كل صوب بفكرة أنها تروّج وتباع .

---

(18) منمرة (عامية) : مرقمة ، وهي ماخوذة من الفرنسية : numeroرقم .

(19) الميانى : وردت هكذا في النص ، والصحيح : «المواني» ، لأن جمع ميناء موانٍ وموانئ .

(20) Londres (بالفرنسية) : لندن .

لغاية ظهر هذا اليوم لم ننتقل من النُّزُل وكنا ننتظر متاعنا ، وبعد حضوره أبدلنا ما علينا من الملابس ، ونزلنا إلى قاعة الاستقبال لمقابلة المسيو يانغ Youngمدير محل كوك في نيويورك ، فأريته برنامج سياحتنا ففهمت منه أنه يعلم ذلك قبل مجيئنا ، فعرض علي أن يدخل بعض تحوير فيه .

لما حان ميعاد الغذاء ذهبنا إلى غرفة الأكل ، ولَمّا كان نُزُل بلمونت من أحسن فنادق نيويورك ، كنّا ننتظر أن نرى فيه ما يروقنا ، ولكن خاب ظننا ولم يعجبنا خدّامه . وإني أرى فرقاً عظيماً بين فنادق أوروبا الكبيرة وبين هذه في النظام ووضع الغرف والترتيب العام والخدمة والنظافة .

هنا كل شيء كبير هائل : المنازل بها فوق الخمسين طبقة ، وعدد غرفها يزيد عن الألف ، ولكنّها صغيرة تشبه حجر البواخر . نعم إن في بعضها عشرة مصاعد «أسانسورات» للصعود والنزول ، ولكن ما الفائدة إذا كان النظام غير كامل؟ ومن الغريب في أمر هذه الفنادق أن هناك إذناً عامّاً بالخروج والدخول والجلوس في رَدَهَاتها وصالوناتها ، فنرى أناساً من كل الطبقات في رَدَهَاتها ، يجلس أيّ إنسان في المحل الذي يريده : يدخن كيف يشاء ، يحرّر خطاباته ، ويضرب مواعيد مقابلة فيها لأصحابه وهكذا . وقد عرفنا أن هذا التساهل إنما هو لإيهام الوافدين من أوربا أو من بلاد أجنبية أخرى أن حركة هذا الفندق عظيمة والإقبال عليه كثير . وهذا من باب الإعلان والنشر ، فتسمع من أصحابه مثلاً أن عدد الواردين إليه لا يقل عن 2,000 نفس في كل يوم .

ولكن ، هل هذا العدد العظيم يقيم فيه؟ لا . إذاً ، هذه الطريقة هي من ضمن طرق الإعلانات التي برع فيها الأمريكيون . وقد لاحظنا أنه إذا حضر زائر وأراد مقابلة أي شخص بالفندق ، فما عليه إلا أن يذكر اسمه واسم من يريد مقابلته إلى مركز الإدارة الذي يعطي الاسمين إلى أحد الغلمان فيدور في الردهات منادياً بهذين الاسمين ، فخيّل إلينا أننا في إحدى الأسواق أو في أحد المحال التجارية التي يُباع فيها بالمزاد العلني .

إن السماء كانت تمطر ، ولكنّي لم أرد أن أطوي سجل يومي بدون أن أرى شيئاً جديداً ، فطلبت من المسيو يانج مدير محل كوك إرشاداته ، فأشار علي أن نمتطي سيارة ونذهب إلى الرياض العامة في أعلى البلد ، ثم نزور الأماكن العظيمة المشيّدة في نيويورك ، فوافقناه على هذه الفكرة . ورجوته أن يأمر لنا بإعداد سيارة «ليموزين»

ويحدّد الأجرة مقدّماً ، ويزود السائق بما يلزم من المعلومات . وقد حدّدنا ميعاد الاستراحة الساعة الثالثة بعد الظهر . هنا كل شيء غالٍ ولا يسمع الإنسان إلا الدولارات ، وأجرة السيارة في الساعة الواحدة 5 دولارات ، أي خمسة وعشرون فرنكاً .

ضوضاء نيويورك

صعدنا إلى غرفنا لنستريح قليلاً حتى يأتي ميعاد الاستراضة ، فلم أتمكّن من ذلك لوجود تليفون بحجرتي ورغبة الكثيرين من مخبري الجرائد وأصحابها وغيرهم في مقابلتي . وإن سكت جرس التليفون ، كان يأتي أحد الخدم حاملاً بطاقة يطلب صاحبها مقابلة . وهكذا إلى أن وردا لي أخيراً ظرفان ، أحدهما يحتوي على رسالة من كاتم أسرار جمعية الاتحاد السوري بنيويورك بإمضاء عبّاس أبي شقرة ، والآخر يحتوي على بطاقة المسيو قيصر صبّاغ ، فمضى الوقت ولم أذق للراحة طعماً . وأتت الساعة الثالثة ، وإذا جرس التليفون يدق وقائل يقول لي إن السيّارة في انتظاركم ، فأسرعنا بالنزول بواسطة المصعد (الأسانسور) الذي يلزمني أن أصفه قليلاً ، ليعلم القارئ مقدار الصعوبات التي تكبّدناها . إن هذا المصعد يهبط بالإنسان بسرعة رائعة تذهب بالعقل وتؤثّر في الأعصاب كذلك في صعوده ، فإنه يرتفع دفعة واحدة فيهتز الراكب اهتزازاً شديداً يسبّب في بعض الأحيان فقد الموازنة ، فيا لله إذا تكرر الصعود والهبوط جملة مرار . وبالاختصار ، ركبنا السيارة وذهبنا إلى مدير محل كوك بشارع (برودي) Broadway ، وهو أطول شارع بنيويورك ، طوله نحو 13 كيلو متراً ، فوعدنا بإرسال دليل يرشدنا إلى كل ما نريده .

إني ممن يحبّون الهدوء والسكون ، ولذا أعشق جمال الطبيعة ، وكثرة الحركات في المدن العظيمة لا تروقني . فما أراه الآن في نيويورك من الحركة المدهشة جعلني أسأم الإقامة بها . وإني أشعر بنفسي كأنما وُضعت في مصفحة أسطوانة جوفاء من الداخل والخارج ومعي جملة من قطع الحديد ، وقذف بي في شارع منخفض فصرت أتدحرج ، ولا قوّة لي أن أمنع هذا السير السريع وأتخلص مما أنا فيه .

عدنا من محل كوك لنتمم استراضتنا ، فذهبنا من الشارع نمرة 5 [21] وهو أجمل

(21) معروف اليوم بـ (الشارع الخامس) .

شارع بنيويورك ، به أعظم وأكبر المحال التجارية إلى (السنترال بارك) Central Park ، وهو متنزه جميل في وسط المدينة كمتنزه (هايد بارك) بلوندره . ومنه إلى شاطئ نهر «الهدسون» الذي أعجبتني جداً المناظر الجميلة التي به ، خصوصاً المنازل الخصوصية فإنها مشيّدة تشييداً يقتاد أعنّة الحَدَق[22] إليها . ولم نقطع من هذا الشاطئ 4 كيلو مترات حتى رأينا تمثال الجنرال جرانت ، فاستمررنا ونحن مسرورون بهذه الاستراضة اللطيفة إلى واشنجتون بارك ، وهو مستراض آخر وعلى ربوة منه مدرسة العميان والصم والبكم . أما الجسور وعظمتها ودقة صنعتها وارتفاعها وطولها ، فلا تسل عنها ، مدهشة وكثيرة ومن أحسنها جسر واشنجتون . هذا وقد رأينا أثناء سيرنا بنايات هائلة ومدارس عديدة ، وقد لفت نظرَنَا كِبرُ الجامعة الأميركانية وحسن موقعها وجمال بنائها . ولكن لا عجب من ذلك إذ إننا في بلاد المليارات ، والمشهور عن أغنياء أمريكا الغيرة الشديدة والمنافسة حتى في الهبات العلمية . وبما أن جامعتهم حديثة بالنسبة لباقي جامعات الأمم الأوربية ، لا بدع أن اختاروا من كل جامعة ما رأوه جميلاً ومفيداً ووضعوه في جامعتهم ، ولا بدّ من أن تكون أرقى بكثير من أشباهها بأوربا وغيرها . ولا يخفى أن الذهب الوهّاج يسهل الصعوبات ويجعل كل شيء ممكناً ، فبثروتهم الهائلة يحضرون الأساتذة الماهرين والمخترعين المشهورين لأنهم لا يضنون بدفع أجور عالية تحث المجتهدين فيهم .

عدنا إلى الفندق في الساعة السادسة مساءً مسرورين من كل ما رأيناه ، ولقد استغربنا كثيراً لقلّة رجال البوليس خصوصاً في الأنحاء المتطرّفة . ولا بدّ أن نيويورك لا تخلو من قطّاع الطرق واللصوص كسائر المدن الكبيرة . ولمّا دخلت غرفتي وجدت فيها باقة من الورد الأحمر الجميل ، مكلّلة بشريط أحمر من الحرير ، مكتوب عليه بالقصب جمل الترحيب بحضورنا من نادي السوريين بنيويورك .

المدينة القديمة

تناولنا العشاء وافترقنا للنوم طلباً للرّاحة مما لَحِقَنَا من التعب ، وفي صباح الخميس ، 9 مايو ، الساعة 9 و 30 دقيقة ، حضر عندنا المسيو يانج ومعه الدليل ، فنصَحَنا أن نذهب إلى المدينة القديمة لمعرفة الفرق بينها وبين الجديدة ، ثم إلى

(22) العيون ، والمقصود أن جمالها يجتذب الأنظار .

البورصة وإلى مركز التجارة ، فقبلنا مشورته . فأمر الدليل أن يخاطب أحد سماسرة البورصة تليفونياً ، يرجوه أن ينتظرنا ليأخذنا معه إلى البورصة التي لا يمكن زيارتها إلا بواسطة أحد سماسرتها ، لأنه ألقيت من مدة قنبلة مفرقعة بيد أحد الفوضويين في داخلها ، ومن وقتها حصل التشديد في قبول دخول غير المعروفين . فافترقنا على أن يعود المسيو يانج بعد الظهر ، وركبنا سيارة للذهاب إلى الأماكن التي ذكرها لنا . وفي الطريق صادفنا زحاماً شديداً ، ولا يمكن الإنسان أن يتصور عدد الماشين وعدد العربات المختلفة الأنواع ، وإني لا أذكر زحاماً يشابه هذا الازدحام إلا في بعض الأحياء الكبيرة بلوندرة .

مررنا في الطريق على المكتبة التي أهدى أرضها المستر أستور أحد أصحاب المليارات ، وقد قدِّر ثمن تلك الأرض بمبلغ 200,000 جنيه . أما بناؤها العظيم فقد تكفَّل به المستر كارينجي من أكابر الماليين ، فتركناها واستمررنا في طريقنا إلى أن وصلنا إلى المباني العظيمة (كالماديسون سكوير) و(ساحة الاتحاد Place de l` Union) ، وقوس النصر لجورج واشنجتون ، وبرودوي Broadway وقربنا من البورصة . وما كنا نرى على يميننا وشمالنا وأمامنا إلا مباني هائلة مركَّبة من 40 إلى 50 طبقة ، وأغلبها فيه شركات التأمين ، وأكبر المحال التجارية أعظم المصارف . ومن دلائل الحيل التي برع فيها أهل تلك البلاد أن أصحاب البيوت ذات الأدوار الكبيرة يجتهدون في اختيار أشهر موقع ، ويبنون منازلهم فيه بجوار المنازل الصغيرة حتى يظهر الفرق بينهم وبين الآخرين . فوقفنا أمام أحد المصارف ، وذهب الدليل لاستحضار من سيدخلنا البورصة ولم يغب عنّا إلا قليلاً ، وحضر ومعه رجل في سن الشيخوخة فعرّفنا بنفسه ، وأخبرنا أنه صديق المستر لونج الذي كان قاضياً عندنا في المحاكم المختلطة بمصر . وركب معنا إلى وُل استريت «Wall Street» فوقفنا أمام البورصة ، ورأينا على بعد بضعة أميال منها زحاماً شديداً ، فإذا هو مجمع السماسرة الفقراء الذين يبيعون بعض أوراق على قدر حالهم . وقد علمنا أنه لا يمكن أن يُعدّ سمساراً في البورصة إلا من كان مساهماً فيها بمبلغ لا يقل عن ألفي جنيه . فدخلنا فيها وصعدنا بالمصعد إلى الدور الثاني ، فاخترقنا طرقه ودخلنا من باب أوصلنا إلى طنف «بلكون» يُطِلُّ على ساحة عظيمة الاتساع مملوءة من المخلوقات ، فلا يرى الإنسان إلا رجالاً تموج في هذه الساحة ، وأوراقاً صغيرة كاسية وجه الأرض ، وغلماناً مرتدية ملابس مخصوصة للبورصة تجري وبيدها أوراق لتوصلها إلى أشخاص ، ومكتباً كبيراً للتلغرافات ،

ولوحتين كبيرتين إحداهما على اليمين والأخرى على الشمال ، تظهر منها نمر السماسرة المطلوبين والذين أعطوا عطاءً . وبالجملة ، إن هذه البورصة تشبه خلايا النحل من كثرة العالم والجلبة التي فيها وفي أثناء ذلك حضر شريك الذي كان معنا وسلّم علينا ، وبعد ذلك خرجنا وكلّنا يعجب من هذه الحالة ، وشكرنا من أدخلنا .

ذهبنا بعد ذلك إلى محل ماكينات سنجر ، وإذا هو بناء مرتفع جداً عدد طبقاته 42، فدفعنا أجرة الدخول وقدرها 50 سنس (10 قروش) عن كل شخص . وصعدنا إلى أعلى دور في هذا البناء ، فانكشف أمامنا المنظر العام لمدينة نيويورك . لكن مما أسفنا له أن الجوّ كان عابساً مُكْفَهِراً والأمطار تهطل مدرارا ، ولولا ذلك لملأنا أعيننا من ذلك المنظر البديع ، والشمس تسطع على رؤوس هذه الجبال التي ابتناها الإنسان ليسكن فيها ويجعلها لنفسه مأوى . ومع ذلك لم نحرم من رؤية جسر (بروكليس)[23] ولا جزيرة المهاجرين ولا الثكنات الحربيّة ولا العدد العظيم من الأرصفة التي من ضمنها الرصيف الذي رست عليه باخرتنا . والجملة أمكننا أن نرى المدينة وأطرافها المتّسعة وشوارعها المتوازية التي يقطع بعضها بعضاً ، فرسمت تلك الرؤية في خيالنا منظراً بديعاً جداً . ربما يظن القارئ أن الاثنين والأربعين طبقة مملوءة مكينات ولكن لا . إن هذه العمارة ملك للمسيو سنجر له فيها محال على قدر احتياجه والباقي مؤجَّر ليكون مكاتب لأشخاص آخرين .

وقد سبق أن شرحت للقرّاء كثرة افتتان الأمريكيين في طرق الإعلان والنشر . وما بنى المسيو سنجر هذا البناء العظيم المرتفع إلا ليوجّه الأنظار إليه والى تجارته - وعند نزولنا أعطيت لنا رسوم نيويورك على سبيل التذكار .

وصلنا إلى الفندق قبيل الظهر فأسرعنا لتناول الغذاء ، لأننا كنّا حدّدنا ميعاداً للخواجه قيصر صباغ الساعة 2 و 30 دقيقة بعد الظهر ، وميعاداً آخر لبعض أعضاء نادي الاتحاد السوري الساعة 3 . فعند الساعة الثانية وربع حضر الأول فوجدته لطيفاً وهنّأته لنجاحه في أعماله حيث إنه يملك ويدير محلاً تجارياً للتفصيل والخياطة من أكبر المحلات بنيويورك . ولا شكّ أن شرقياً يصل إلى درجته ، وينجح بين ثلاثة ملايين من الأنفس في بلاد هو غريب عنها ، يستحق المدح والثناء والفخر . فجلسنا نتجاذب أطراف الحديث عن مدينة نيويورك ، وكنّا لم ننسَ أثناء الكلام أن نذكر

---

(23) الصحيح : بروكلين Brooklyn ، وليس (بروكليس) كما وردت في النص .

بلادنا الشرقية العزيزة . لم يمضِ علينا وقت كبير حتى حضر أحد الخدم ومعه بطاقة أحد تجار اليونان بالإسكندرية ، فالآداب تقضي عليّ بمقابلته خصوصاً لاهتمامه وإظهار ميله إليّ ، فقابلته وجلس معي قليلاً وانصرف بعد ما علمت منه أنه يتاجر في أمريكا في بذر القطن المصري الذي يُسمّى نوبارياً ، فشجعته على ذلك وقلت له إننا نشتري جملة أشياء من الخارج فيلزمنا أن نبيع للبلاد الأخرى بعض حاصلاتنا ، حتى لا نحرم من الكسب ولو كان قليلاً . إن البلاد العظيمة ما وصلت إلى درجتها إلا باجتهاد سكانها ، ولا تعدّ غنية إلا بثروة أفرادها . فيا حبّذا لو ألهم الله الأمم الشرقية الالتفات إلى موارد الثروة ومزاحمة الأمم الغربيّة في كل ما يعود عليها بالسعادة والهناء . هذا ما أتمناه للشرق ، وفقنا الله إلى ما فيه صلاحنا وفلاحنا .

أتت الساعة الثالثة وحضر ستة من السوريين من أعضاء الاتحاد السوري ، بينهم طبيب وصحافي الأربعة الباقون تُجّار ، فكوّنّا حلقة عربية وأطلقنا لأنفسنا عنان النطق بلغتنا الشريفة مظهراً لهم سروري من إهدائهم لي الأزهار الجملية . ثم دار بيننا الحديث في جملة موضوعات مختلفة ، وقد علمت منهم أن لهم ست جرائد تطبع باللغة العربية ، فزادني هذا الخبر سروراً لانتشار هذه الجرائد في أمريكا ، لعلمي أنها تأتي بحوادث وأخبار الشرق فلا ينسى المهاجرون أوطانهم ، ويكونون دائماً على علم بما وصلت إليه بلادهم من السعادة أو الشقاء . وبهذه المناسبة ، رجوتهم أن يحافظوا على جنسيتهم وأن لا يغترّوا بمدنية وارتقاء وثروة أمريكا فيميلوا إليها ويتجنّسوا بجنسيتها ، فبلادنا محتاجة إلى أبنائها الأعزاء . ومهما بلغت البلاد الأخرى ، فإن الشرق هو مهد العلوم والمعارف وأصل المدينة ومنبع النور .

إن هذه المقابلة جعلت الرابطة بيننا وبينهم قويّة حتى إننا افترقنا أصدقاء ، فودّعتهم شاكراً لهم شريف شعورهم ، داعياً لهم بالتوفيق .

دعاني الخواجه قيصر صباغ لأن أتناول العشاء معه في مطعم فرنسي شهير للمسيو (مارتن) فقبلت دعوته ، وانصرف مع إخوانه على أن يعود إلينا قبل العشاء . وبعد خروجهم حضر المستر «يانج» ومعه تذاكر السفر ، وقد فهّمني السبب في تعديل خطّة السياحة فتسلمتها منه وانصرف أيضاً لأشغاله . ولمّا صعدت إلى غرفتي ، وجدت بها باقة من الزهور مرسلة من الخواجه قيصر صباغ ، وعدداً عظيماً من بطاقات مخبري الجرائد ، وقطعاً من الجرائد اليومية التي بها ذكر قدومنا إلى نيويورك . فصمّمت على الخروج ماشياً لأجل الرياضة والراحة والابتعاد عن الفندق ولو قليلاً ،

حتى أتجنب مقابلة هذا الجيش العرمرم .

خرجنا ومشينا في شارع نمرة 5، وإذا بالأمطار تتساقط علينا ، فعدنا على أعقابنا مسرعين إلى الفندق . وعند الساعة السادسة ونصف حضر الخواجه قيصر صباغ فذهبنا معه ماشين إلى المطعم ، فوجدت أنه في أحسن المواقع وأن الإقبال عليه عظيم ، فلم أستغرب لكثرة الواردين عليه ، حيث أن الطعام في باقي المطاعم الأمريكية ليس جيداً . وقد علمت أن المسيو مارتن يدفع كل سنة عشرين ألف جنيه إيجاراً ، ويصل في بعض الأيام دخله إلى 2,000 جنيه . فجلسنا حول السفرة التي أعدت لنا ، بين زهور جميلة منضودة على المائدة ، وشجيرات خضراء متفرّقة في مواضع مختلفة . من حسن الاتفاق أن الذي كان قائماً بخدمتنا وقت الأكل تونسي يتكلّم باللغة العربية ، فهذه المصادفة الجميلة جعلتني مسروراً .

انتهينا من العشاء وافترقنا للراحة والنوم ، لأننا سنسافر غداً صباحاً الساعة 8 و 30 دقيقة بعد أن أرسلنا إلى المحطة - وكانت أمام الفندق - حقائبنا الكبيرة لترسل إلى شيكاجو .

مغادرة نيويورك

أصبحنا في يوم الجمعة ، 10 مايو ، مبكّرين . وبعد أن تناولنا طعام الإفطار ، ذهبنا مع باقي متاعنا إلى المحطة نحو الساعة 7 و 30 دقيقة ، فاخترقنا الطريق الفاصل بين الفندق والمحطّة التي يشتغلون لتتميم بنائها ، وهي تسمّى «المحطّة المركزية الكبرى» . والظاهر أن أكبر مساهم فيها هو المستر ويندربلت . وقد نزلنا إلى نفق تحت الأرض للوصول إلى الرصيف الواقف عليه قطارنا . أما تذاكرنا فكانت معنا ، وبما أنها تذاكر جملة محطات سننزل فيها فكانت طويلة كالحبل ، يفصل منها كلّما اقتضى الحال التذكرة اللازمة Billet circuaire .

رتّبنا أمتعتنا في الصالون الصغير المعد لنا في العربة Compartment وإذا بالمستر يانج قد حضر لوداعنا ، وللسؤال عمّا إذا كنا في احتياج لأي شيء ليؤديه لنا ، فرجوته أن يبعث بشكري للمستر ف . كوك ويقول له إني لا أنسى الخدمات الجليلة التي قام بها مستخدموه ، فإنهم جميعاً اجتهدوا في عمل كل ما يسرني .

أتت الساعة 8 و 30 دقيقة فودّعنا المستر يانج فتحرّك القطار ، وقد لاحظنا أن الفرّاشين الذين كانوا سودانيين مرتدون ملابس بيضاء نظيفة .

تركنا المحطة وسار بنا القطار مخترقاً نيويورك ، فكنّا أشبه براكبي قطار النفق (المترو) Metro نمرُّ بين أبنية وعلى جسور «كباري» إلى أن وصلنا إلى منازل العمّال التي بعضها بجانب بعض على الجهتين . وكنّا نلاحظ أنهم ينشرون ثيابهم المغسولة على حبال سوداء فوق السطح أو بين البيوت كالطريقة المتّبعة في إيطاليا ، ولا عجب فإنهم إيطاليون .

وفي نيويورك 300,000 عامل إيطالي . وقف بنا القطار خارج نيويورك ، وإلى هنا كان قائد عرباتنا قاطرة تمشي بالكهرباء ففصلت عنّا ، وأتى بقاطرة بخارية عظيمة بدلها ، وهذه ستمشي بنا ساعتين وثلاثة أرباع الساعة بدون أن تقف على محطة .

ابتدأنا نشاهد المناظر الجملية ، فكان طريقنا على شاطئ (الهدسون) Hudson وهو نهر جميل واسع به ألوف من الزوارق والبواخر . فكم مررنا على جسور ، وكم رأينا معامل عددها لا يحصى . وقد ذكّرتني هذه المناظر بمناظر البوسفور الجميل لأنها تشبهها في وجوه كثيرة ، حتى إن الاتساع في بعض الجهات يكاد يكون واحداً . وكان قطارنا يطوي الأرض طيّاً ، وكنّا نمرّ على بلاد كثيرة ولكن ليس في ذلك شيء خارق للعادة ، فإنه كقطاراتنا السريعة التي تسير بين مصر والإسكندرية . تركنا محلنا وذهبنا إلى آخر عربة في منتهاها جزء مكشوف كالطنف[24] Observation car به كرسيّان مختصّان لمن يريد الإشراف على المناظر . ولكن كثرة الدخان والقتام المتصاعد من السرعة تجعل الجلوس في هذا المحل غير مستطاع . وصلنا إلى (ألباني) Albany عاصمة مقاطعة نيويورك ، وعدد سكانها 95,000 ، وهي واقعة على الشاطئ الغربي لنهر (الهدسون) في ملتقى مصب النهرين (إيري) Erie و(شامبلان) Champlan وهي بلدة قديمة هولندية وتجارتها البيرة والأخشاب . وإلى هنا كان المنظر بديعاً ، حيث كنّا دائماً على شاطئ نهر الهدسون وقد مررنا على جملة معامل بعضها متروك والبعض الآخر يشتغل . ولفت نظرنا معامل الآجرّ الكبيرة التي تصنع للبنايات الهائلة بنيويورك ، وبعد هذه البلاد أخذنا ننظر بعض الروابي .

اجتياز ألباني

وأخذ القطار يتبع طريقاً به منحنيات ، فتغيّر المنظر وصار يشبه مناظر شمال ألمانيا

---

(24) الطنف : سقيفة فوق الباب ، أو إفريز من الحائط يمتد خارج البناء كالشرفة .

أو بوهيميا . أما منازل الفلاحين التي مررنا عليها فإنها مصنوعة من الخشب وملوّنة بألوان مختلفة ، ولكن اللون الأحمر والأخضر هما اللونان السائدان المختاران عندهم . والمنظر العام لهذه المنازل من بعد يشبه المنازل النورفيجية[25] أو السويسرية ، ولكن لا يوجد بينها ما يسمّونه باللغة الفرنساوية «شاليه Chalets» .هذا ، وهؤلاء الفلاحون يشبهون الهولنديين والألمانيين والسويسريين والنمساويين ، ولم أرَ فرقاً بينهم يميزهم عن هذه الأجناس .

إن الإنسان يشعر وقت السفر والنقل بين أرجاء تلك البلاد بمقدار اتساع الولايات المتحدة ، ويرى أن صدرها يتّسع لكثير من المهاجرين غير من نزحوا إليها لملء فضائها العظيم ، وزرع أراضيها الواسعة التي لم تمسّها إلى اليوم يد الزرّاع .

قربنا من بلدة (أوتيكا) Utica فرأينا كثيراً من قطعان البقر ، ولكنّه صغير الجسم ضئيله لا يماثل بقرنا أو بقر أوربا في جمال الهيئة وامتلاء الجسم . أما هذه البلدة فعدد سكّانها 60,000 وهي مركز تجارة الجبن الأمريكي . وأثناء سيرنا كنّا نرى من جهة اليمين والشمال كثيراً من المستنقعات وبعض أراض مزروعة ، ولكن يظهر عليها أنها ليست جيّدة التربة ، ولم يشاهد مقاطعات زراعية كبيرة ولا طرقاً منتظمة ، بل كلّها غامرة من هطل الأمطار . فالفقر إذاً ضارب أطنابه في هذه الجهة ، وأظن أن الاعتناء بالطرق الزراعية في أمريكا مهمل جداً ، ولا يرى الإنسان بها أمثال طرق فرنسا مثلاً ،المعتنى بها تمام الاعتناء .

وصلنا بعد ذلك إلى (سيراكوز) Syracuse التي يبلغ عدد سكانها 100,000 نسمة ، وهي واقعة على شاطئ بحيرة أونونداجا «Onondaga» ويخترقها قنال (إيري) Erie وقريب منها جملة ملاحات يراها الإنسان بعد خروجه من المحطة .

أما هذه البحيرة فيبلغ طولها عشرة كيلو مترات ، ويستخرج منها كل سنة ما قيمته مليون دولار من الملح . وقد رأينا بها جملة معامل للفخار ، ومجموع تجارتها يقدّر بثلاثة ملايين دولار كل سنة .

بعدنا عن هذه المدينة بقليل وإذا نحن في وسط مزارع ، وكنّا نرى بين وقت وآخر طيورا ذات ألوان بديعة تسرّ الناظرين .

قربنا من (روشستر) Rochester البلدة الكبيرة الشهيرة بمصنوعاتها ، وكنت أسمع

---

(25) النورفيج (باللفظ الفرنسي) : النرويج .

عنها لشهرتها بصناعة آلة التصوير الشمسي المعروفة بالـ (كوداك) . وعدد سكانها يبلغ مائة وتسعين ألف نسمة ، وهي واقعة بالقرب من بحيرة (أونتريو) Ontario وبها معامل للجعة والأقمشة والأحذية وآلات التصوير الشمسي وغير ذلك ، ويخترق وسطها نهر يسمى (جنيزي) Genesu [26] فيكون بها شلالاً ارتفاعه 29 متراً .

أما تجارتها فتبلغ خمسة وسبعين مليون دولار كل سنة ، وشركة آلة التصوير (الكوداك) رأس مالها 35 مليون دولار . هنا لم يبقَ لنا إلا محطة بفالو Buffalo التي يقف عليها قطارنا ، فلمّا قربنا منها تغيَّر الجو وصار مائلاً إلى السواد من كثرة الدخان المتصاعد من مداخن المصانع الكثيرة . فلمّا دخلنا محطّتها وجدناها كبيرة ، وبها مئات من الخطوط الحديدية . وهنا يجدر بي أن أذكر شيئاً عن الطريق الحديدية الأمريكية .

إن لكل قاطرة بخارية جرساً عظمياً يدقّه أحد السوّاقين عند الدخول أو الخروج من محطة ، أو عند ما يقطع الخط الحديدي ممراً . والسكك الحديدية تخترق شوارع بعض المدن كمدينة روشستر وبوفالو فيستمع فيها الإنسان دق الجرس الآذن بالمسير . وقد لاحظنا أن قطارات البضائع طويلة جداً ، أمّا المحطّات فجلها لم يعتن ببنائه ، وليس به زخرفة . مثلاً ، محطة بوفالو الكبيرة ليست إلا مظلة تشغل مسطحاً عظيماً من الأرض ، ولا يوجد بها أرصفة ولا محال الاستراحة والانتظار . وللخروج منها يمر الإنسان على جملة خطوط ، فإذا كانت هذه حال تلك المحطة الكبيرة ، فكيف إذاً تكون بقيّة المحطّات .

إن اسم مدينة بوفالو آتٍ من اسم بوفل[27] وهو حيوان كان يأتي إلى بحيرة إِري Erie ليشرب منها ولمّا كان هذا النوع من الحيوان كثيراً جداً في هذه البقعة سمّيت البلدة باسمه ، وهي ثاني بلدة كبيرة في مقاطعة نيويورك يبلغ عدد سكانها 400,000 نسمة وهي واقعة على بحيرة إِري Erie على بعد 32 كيلو متراً من جنادل نياجارا ، وفيها قتل الرئيس ماكينزي بيد أحد الفوضويين لما كان بها معرض سنة 1901 ، وبحيرة إِري Erie هي الفاصل بين حكومة كندا والولايات المتحدة ، وطولها 402 كيلو

---

(26) هكذا ورد اسم النهر في النص ، والصحيح Genesee

(27) Buffalo الجاموس .

متراً وعرضها يختلف ما بين 50 و 100 كيلو متر ، وأكبر عمق لها 37 متراً ، وهي متّصلة ببحيرة هورون Huron ببوغاز[28] ديترويت ريفر River Detroit وبحيرة أونتاريو بجنادل[29] نياجارا ، وما أكثر الكهرباء بها المتولدة من تيار تلك الجنادل . ومع ذلك لا يستغنى فيها عن الوقود ، فإن عدد المداخن التي بها لا يحصى ، والدخان المتصاعد منها ينعقد في الجو فيكوّن سحباً مظلمة فوقها .

تركنا قطارنا لنأخذ قطاراً صغيراً آخر أو (منيبوس) يوصلنا إلى نياجارا بعد ساعة . وبعد ركوبنا وجدناه مشحوناً بالركّاب ، وبعد قليل تحرك بنا ببطء فرأينا على شمالنا البحيرة العظيمة التي لا يمكن للناظر أن يرى شاطئها الآخر . ثم وصلنا إلى (نياجارا فولس) Niagara Falls ونزلنا بمحطتها . وفي الحقيقة ، لا يقدر الغريب أن يعرف أهو في المحطة أو خارجها ، لأن القطار أحياناً يقف في الداخل وأحياناً في الخارج ، وعلى أي حال قد تركناه . ولمّا كنّا لم نتحرك عشر ساعات متوالية ، أثناء هذا السفر ، فضّلنا المشي قليلاً على الأقدام حتى الفندق الذي سننزل به ، حيث هو قريب جداً منّا . وأوّل خاطر يطرأ على القادم[30] على هذه البلدة الصغيرة أن يُخيّل إليه أنه في إحدى بلدان أوروبا الشهيرة بمنابع المياه ، لأنها خالية من الزخرفة ، والسكون مخيم عليها ، فداخلنا السرور العظيم وشعرنا بالفرق الجلي بينها وبين مدينة نيويورك الكثيرة الحركة والضوضاء - وصلنا إلى الفندق ، فإذا هو من نوع البانجالت الهندي Bangalt indien ومحاط بطنف فيراندا ، ومشرف على شوارع متّسعة كلّها مرصوفة بالإسفلت ، وأمامها كنيسة كبيرة ، وبجانبها جملة من المنازل الصغيرة الجميلة المصنوعة من الخشب أو من الأجر ، مرتّبة ترتيباً أنيقاً تشبه المنازل الصغيرة الجميلة المصنوعة أيضاً من الخشب التي على شاطئ البسفور[31] .

---

(28) البوغاز : المضيق أو المصب .

(29) Niagara Falls : (شلالات نياغارا ، والجنادل (الصخور) لا معنى لها هنا ، ولعلها خطأ في الترجمة) .

(30) الأصح أن نقول : « يطرأ للقادم إلى هذه البلدة . . . »

(31) البوسفور : مضيق يفصل بين البحر الأسود وبحر مرمرا الذي يفصل البر الآسيوي عن البر الأوربي في تركيا .

صعدنا لنرى غرفنا التي أعدت لنا ، ولمّا كان باقياً على غروب الشمس نحو ساعتين ونحن نريد الحركة ، نزلنا ثانياً لنمشي الهوينا في الشوارع القريبة من الفندق ، فصادفنا في الطريق مؤجر عربات فعرض علينا سيارته لزيارة الجنادل[32] وكل المناظر التي تستحق أن يراها السائح ، على أن تكون الأجرة خمسة دولارات في الساعة ، فقبلنا شروطه على أن يحضر صباح غد الساعة 9 و 30 دقيقة إلى الفندق . واستمررنا في طريقنا في الشارع الذي على شمال مسكننا ، وصرنا نسمع خرير مياه الجنادل الساقطة إلى أن وصلناإلى حديقة صغيرة بديعة على شاطئ النهر ، ونحن مُعجَبون بانحدار المياه الصافية ، فصرنا ننتقل من مكان إلى مكان ويستوقفنا كل منظر جميل فتمتلئ قلوبنا يقيناً بجلال قدرة الخالق وبديع صنعه ، فلم نشعر إلا ونحن بالقرب من جنادل (شلالات) نياجارا الهائلة .

هنا وقفنا خاشعين أمام القدرة الإلهية نعجب من جمال النظر ، وقد طال بنا الوقوف ولا نعلم لذلك سبباً إلا أننا سحرنا من عجيب ما رأينا ، وذهبت أفكارنا في عالم آخر لم نعهده من قبل حتى خيل إلينا أن ما نراه إن هو إلا أضغاث أحلام ، كأن الطبيعة أرادت أن نتصوّرها بجلالتها وعظمتها ، ولم ننتبه من ذلك الخيال الذي ملك أفئدتنا إلا وقد أرخى الظلام سدوله وتوارت الغزالة[33] بالحجاب عن أعيننا . فالتفتنا بعضنا إلى بعض قائلين ماذا جرى لنا وقد طال بنا الوقوف ونحن عن ذلك غافلون ، فصمّمنا على العودة بالرغم منّا وقلوبنا متعلّقة بذلك المنظر الذي ملأها عجباً . ولكن ما الحيلة وكل شيء له نهاية ، وتلك سنة في خلقه ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾[34] .

إن المكان الذي نحن فيه الآن تابع لحكومة الولايات المتحدة ، ولأجل أن نعود من غير طريقنا ذهبنا إلى شارع آخر يدعى الشارع الكبير Grande Rue وعلى جانبيه يرى الإنسان جملة من الدكاكين الكبيرة يعرض فيها بطاقات البريد (الكرت بستال)

---

(32) Falls : شلالات ، ولأن الفعل يعني : سقط وجندل أرضا ، فقد حدث التباس بالترجمة في ذهن المؤلف .

(33) الغزالة : الشمس .

(34) الأحزاب : 62 ، الفتح : 23.

وصور مناظر الجنادل ، وبعض مصنوعات جلديّة من صناعة الهنود الأمريكان ذوي اللون الأحمر ، مرسوم عليها صورة إحدى نسائهم أو أحد رجالهم بالزيّ الوطني . ومن معروضاتها أيضاً ملابس مختلفة وحراب وآلات أخرى مستعملة عندهم ، وكذا يجد الإنسان فيها عدّة أشياء مصنوعة من الحجارة التي يعثرون عليها في تلك الجنادل . وقد أتقن صنعها (كأساور وعقود ومشابك وأزرار وغير ذلك) . ولون هذه الحجارة أبيض ناصع ، وهذا الشارع مخصوص لزائري نياجارا .

وصلنا إلى الفندق وقصدنا المطعم الذي ليس به ما يستحق الذكر غير أن خدّامه من السود ، فاخترنا من المطعم ما استحسناه . وبعد ذلك صعدنا إلى غرفنا للنوم مبكرين ، حتى تنال أنفسنا حظها من الراحة فتقوى على احتمال متاعب الغد .

أصبحنا في يوم السبت 11 مايو سنة 1912 وكانت الساعة التاسعة صباحاً ، حضرت (سيارة) أمام الفندق فلم ننتظر نصف الساعة الباقي على موعد الاتفاق حتى لا نعود متأخّرين ، وتوكّلنا على خالقنا وركبنا فيها فسارت باسم الله بسرعتها العادية ، فمررنا على شارع بفالوBuffalo الذي به مصنع بسكويت كبير ، ثم على الحديقة التي زرناها البارحة متّبعين انحدار المياه ، فرأينا جزيرة المعز التي يصلها بالحديقة الصغيرة جسر ، وقد سمّيت بهذا الاسم لأن مالكها كان يربّي فيها معزاً . وقد اشترتها الحكومة الأمريكية بمليون دولار لتجعلها مستراضاً عامّاً ، ومساحتها 32 هكتاراً وبها كثير من الأشجار والنباتات . ومنها خرجنا إلى اليمين لنذهب إلى جزيرة القمر Luna Island وهي جزيرة صخريّة صغيرة واقعة بين جندل أمريكا وجندل كندا .

ومن هنا يرى الإنسان جندل أمريكا بكل عظمته وجلاله . ولّما كان الجو صحواً والشمس زاهية ، رأينا تحت هذا الشّلال قوس قزح بألوانه المختلفة الجميلة ، ثم ذهبنا لرؤية ثلاث الجزر التي في وسط النهر المرتبطة بعضها ببعض بجسور من حديد وهذه الجزائر تسمى Les Trois Soeurs .(35) ومن مكاننا يشاهد السائح عظمة واتساع البحيرة ويرى كندا . ثم من بعد هذه الجزائر الثلاث ينقسم النهر إلى فرعين ، ثلاثة أعشار مائه تسقط من جندل أمريكا ، وسبعة الأعشار الأخرى تسقط من جندل

---

(35) Les Trois Soeurs (بالفرنسية) : الأخوات الثلاث .

كندا . ولحسن الحظ استمرَّ نور الشمس فرأينا مثالين آخرين لقوس قزح ، وقد علمنا أن هذا المنظر الجميل لا يبدو إلا في الصباح عندما تبزغ الشمس ويكون الجو رائقاً . فالواقف على الجهة التي نحن بها الآن تكون الشمس وراءه ، من العجب أن هبوط الماء من علو إلى أسفل يحدث عنه في ما بين الشاطئين أشبه بالبخار أو الضباب الرائق تتخلله أشعة الشمس فيبدو من ذلك نصف دائرة ذات ألوان مختلفة من بنفسجي وأزرق وبرتقالي وأحمر وغيرها كأنها قوس قزح .

تركنا مكاننا وذهبنا إلى الجسر المعلّق هناك لنمر على أراضي كندا ، وهذا الجسر هو الفاصل بين حكومة الولايات المتحدة وحكومة كندا .

وقفنا أمام خُصَّين (كشكين) صغيرين تابعين لحكومة إنجلترا ودفعنا رسم المرور ، وبعد ذلك اتخذنا طريقنا إلى أن عبرنا هذا الجسر . ولا يلبث عابر هذا الجسر ، أن يصل إلى نهايته الأخرى ، حتى يشعر بوجوده في حكومة أخرى أكثر نظاماً وأحسن ترتيباً . أول ما يصادف متنزه الملكة فكتوريا الواقع على شاطئ الجندل ، وهو متنزَّه قد بلغ من حسن النظام غايته ، وبه للملكة تمثال محكَم الصُّنع . ومن عجب ما رأينا أن أشجار هذا المتنزه لم تكن مورقة ، مع أن أشجار سائر الجهات كانت مورقة ، وهذا ناشئ من كثرة الرطوبة وشدّة البرد . وقد علمنا أن أشجار ذلك المتنزه إنما تورق بعد أشجار سائر الجهات الأخرى نحو أربعة أسابيع .

أما طول المتنزَّه فيبلغ أربعة كيلومترات ، ورأينا جندل كندا الذي يطلق عليه اسم «نعل الحصان» لأنه يشبه تمام المشابهة Fer à cheval .

أما رشّاش المياه الناشئ من سقوطها فإنه يصعد حتى يوازي قمّة الجندل ، وقد قدّر ارتفاعه بمائة متر ثم تقذفه الرياح على الشاطئ ، ولذا أخضل الرشاش سرابيلنا ونحن في السيارة فاضطررنا أن نبتعد عنه . ووقفنا أمام خص (كشك) معد للنزول منه إلى حيث يرى السائح الجندل عن كثب ، ودخلنا فيه فإذا هو كدكان بيع وشراء ، فتسابق إلينا جماعة من طلاب الربح ، فمنهم من يريد أن يبيعنا من معروضاته ، ومنهم من يريد أن يصوّرنا ، كل ذلك لابتزاز دولارات السائحين ، ولكنّا تركناهم وشأنهم ولم نُعِرهم التفاتاً . وبعد أن دفعنا الرسوم المقرّرة ، أُدخلنا إلى غرفة معلّق بها سرابيل من القماش المشمّع للوقاية من الماء ، وتحتها صندوق كبير مقسم إلى جملة عيون به أحذية مختلفة ، وهي أيضاً متّخذة من الجلد المشمع ليختار منها الزائر ما يوافقه . فشرع كلٌّ منا يختار حذاءين على قدر رجليه ، ثم تقدّم إلينا شخص وأعطى

لكل واحد منا (بنطلوناً) فلبسناه ، وبعد ذلك صار يلبسنا (سترة بزنط)[36] لتغطية رؤوسنا ، فما أغرب أشكالنا حينما تبدلنا بزينا هذا الزي الجديد . إن هيئتنا التي تبدلت كانت تضحكنا كثيراً فإننا صرنا نشبه الملاحين ، وقد لبسوا أمثال تلك الأردية وقت هطل الأمطار . وكان معنا بعض السائحين والسائحات الذين ارتدوا مثلنا هذه الملابس . وبعد ذلك ذُهب بنا إلى المصعد (الأسانسور) الذي هوى بنا مسافة 50 متراً تحت الأرض ، فوصلنا إلى نفق مضاء بالأنوار الكهربائية كالنفق الذي يتخذ لاستخراج المعادن ، ومشينا فيه إلى أن وصلنا إلى فرجة يشاهد منها الإنسان الجندل من جانبه ، فأعجبنا منظره وهالنا أمره ، ثم ذهب بنا إلى مكان آخر أبعد من السابق فإذا نحن تحت مسقط الماء فما أشدّ تأثر الإنسان في هذا المكان .

السيدة المغامرة

إن المقادير العظيمة من المياه التي تسقط من ارتفاع هائل بسرعة مدهشة تُحدِث أصواتاً مزعجة تخفق لهولها القلوب ، فسبحان القادر على كل شيء .

إننا لم نجرؤ على الاقتراب من المياه المتساقطة مخافة البلل ، والذين دفعهم حبّ الاستطلاع إلى الاقتراب منها ما كان نصيبهم إلا أنهم غمروا بها فارتدّوا على أعقابهم نادمين . وهنا يجدر بي أن أذكر ما حكي لنا أن سيدة تدعى تيلور Tylor صنعت لنفسها تابوتاً على هيئة أسطوانة جوفاء ، فدخلت فيه بعد ما اتخذت فيه وسائل الحيطة حتى لا تموت من عدم الهواء ، ثم ألقى بها في اليم لتسقط من أعلى هذا الجندل العظيم الارتفاع الذي يُسمَّى نعل الحصان . وقد كانت الجماهير المحتشدة على شاطئي النهر وعلى مقربة من الجندل لا يحصى عددها ، وكلّهم موقن بأنها لا بدّ أن تفقد حياتها ، إن لم يكن بسبب اصطدامها بحوائط تابوتها لسقوطها من علوّ هائل فوق الصخور المنتشرة أسفل الجندل ، كان هذا الموت محققاً من كثرة الحركة ودوران التابوت بالسرعة العظيمة التي يرتجُّ لها المخ فتذهب الحياة . وبينما هم في هَرْج ومَرْج وجدال في ما عسى أن تكون عاقبة هذه المجازفة المهلكة ، رأوا على بعد من أسفل الجندل تابوتاً يطفو تارة ويغمره المياه أخرى ، وهو يسير متّبعاً سير الماء . فصاحت هذه الجموع ظهر التابوت ، فهل هي على قيد الحياة؟ وبعد أن انتُشِل التابوت وفُتح أمام

---

(36) الزنط (بضم الزاي وسكون النون : عامية دارجة في مصر) : غطاء للرأس ؛ ولم أعثر على مصدرها .

الأطبّاء الذين كانوا على استعداد لإسعاف هذه السيدة وقت الضرورة رأوها حية ولكن لا حراك بها ، فكانت جسداً هامداً وإن كمنت فيها الحياة فلا شعور ولا إدراك فحملت إلى ملجأ الإسعاف وما أفاقت مما غشيها إلا بعد ثمانية أيام .

إن هذه الجرأة مدهشة جداً وأعدّها من باب الجنون وقد كتبت عنها الجرائد وتحدّث بحادثتها كل رائح وغادٍ من أهل أمريكا فهي حادثة غريبة تتناقلها الألسن وتحكي لكل من يؤم الجنادلَ .

تمّت زيارتنا وصعدنا إلى حيث كنّا لنخلع ما علينا ونعود إلى هيئتنا الأصلية ، ولم نستغرق في هذا الزيارة أكثر من عشر دقائق . تذكّرت كل ما قيل لنا ممّا يختصّ بهذا المكان ، فقد ذكر لنا أن الوصول إلى ما تحت جندل نعل الحصان يستغرق 20 دقيقة ، وقد هولّوا لنا في الكلام عن أصوات المياه وقالوا إنها تؤثر في الآذان أسوأ تأثير ، فلابدّ للذاهب من أخذ قطن معه ليضعه في أذنه حتى لا يصاب بصمم ، فلم نُعِر أقوالهم التفاتاً لعلمنا ما جبل عليه بعض الأمريكيين من التهويل . وقد قلنا في ما بيننا إذا كان الأمر يحتاج إلى مثل ذلك ، فلابدّ أن الموكلين بحراسة هذا المكان عندهم كل ما يلزم . أما ما سمعناه من صعوبة الوصول إلى ما تحت نعل الحصان ، وأن الزائرين يلزمهم أن يتماسكوا بعضهم ببعض حتى لا تزلق الأرجل فشيء كثير ، والحقيقة أن كلّه كلام باطل لا صحّة له .

ركبنا سيارتنا واستمررنا في طريقنا ، فرأينا عمارة جديدة كبيرة أُخبرنا أنها ستكون مطعماً ، ثم مررنا بعد ذلك أمام بناء شاهق نظيف جداً ، به الآلات المولّدة للكهرباء التابعة لحكومة كندا ، إلى أن وصلنا إلى نبع ماء حار ، وهو أيضاً أعجوبة من عجائب الدنيا الجديدة .

إن هذا النبع واقع بالقرب من الباب الجنوبي للمتنزّه ، فأسرعنا بالنزول من مركبتنا للدخول في الخص (الكشك) الصغير المحيط به . وبعد ذلك أُدخلنا إلى غرفة صغيرة من الخشب في هذا الخص ، في وسطها حوض صغير به ماء يغلي . وقد صحبنا أحد مستخدمي هذا المحل فابتدأ يشرح لنا باللغة الإنجليزية ما معناه :

إن هذا المنبع كشفه الهنود[37] الأمريكيون (ذوو اللون الأحمر) من نحو مائة سنة ، وماؤه كبريتي حارّ مفيد جداً لأمراض الروماتزم ، وقد يخرج منه غاز قابل

(37) الهنود الحمر : سكان القارة الأصليون ، قبل الغزو الأوربي .

للالتهاب ، ولتحقيق ذلك أجرّب أمامكم التجارب الآتية :

قبل أن يبتدئ تجاربه أقفل الباب حتى صارت الغرفة حالكة الظلام ، وأخذ أنبوبة دقيقة ووضعها وسط الحوض في ثقب فيه ، ثم أدنى عوداً ملتهباً من فم الأنبوبة فالتهب الغاز بشدّة . ورأينا اللهيب قسمين ، قسماً أزرق وآخر أحمر ، فقال لنا : إن الإنسان يمكنه أن يضع يده أو منديله على هذا القسم الأزرق دون أن تحترق يده أو منديله . وقد حقق هاتين التجربتين أمامنا ، فلم يمس يده ولا منديله أدنى ضرر . وقد أردت أن أجرّب بنفسي ذلك فوضعت يدي على هذا القسم الأزرق ، فلم أشعر بشيء مطلقاً . ولكن حذار من الاقتراب من اللهيب الأخر ، فإنه شديد الحرارة جداً . وبعد ذلك رفع الأنبوبة من مكانها فصرنا نرى الماء يغلي . ثم أشعل مشعلاً وقربه من سطح الماء فالتهب وارتفعت النار ارتفاعاً عظيماً ، وشعرنا بالحرارة الزائدة . ولّما أراد إطفاءها أرجع الأنبوبة إلى مكانها فاحتبس الغاز عن الماء ، ولم يكن له مخرج إلا فم الأنبوبة فانطفأت . ثم قدّم لنا في قدح قليلاً من ماء هذا النبع ، فذقته ولم أجد له طعماً أو رائحة قويّة كماء نبع حلوان . ثم ألقى ما في القدح وأشعله بكبريت ، فهبّ الغاز من القدح كأنه كان به الكحول . وقد ذكر لنا أن هذا الماء مفيد جداً للمرضى بالروماتزم . ولولا أن مقداره قليل لكان مورد ثروة عظيمة ، ولانتشر في العالم للتطبّب به . وقد علمنا أن في ضواحي هذه الجهة بعض منابع أخرى من هذا النوع .

إن سرورنا من رؤية هذا النبع ومن التجارب التي شاهدناها يعدل سرورنا من رؤية الجنادل فخرجنا معجبين بما شاهدناه ، واتخذنا طريق المزارع لنصل إلى مجرى Whirlpool الشديد . وعبرنا الجسر الثاني المعلق ، فلم يرقنا نظام هذه المزارع . ولاشكّ في أن من شاهد مزارع أوروبا المنسّقة تنسيقاً بديعاً لا يمكنه أن يشهد إلا بما شهدنا . وقد صادفنا في طريقنا كثيراً من أشجار الفواكه ، وقد قيل لنا أن الفلاح يكتسب من الفدّان الواحد المزروع فيه هذه الفاكهة من 10 إلى 15 جنيهاً في السنة . هذا ولا تسل عن الطرق الزراعية التي اخترقناها وحالتها فإنها رديئة جداً ، فكثرة الأمطار طمست معالمها وجعلتها غير صالحة للسير فيها بسهولة .

أما بلدة كليفتون Clifton التي مررنا عليها أيضاً ، فإن بطرقها آلافاً من المصابيح الكهربائية ، فيظن الناظر إليها أن تلك الطرق قد زيّنت بتلك المصابيح لأمر ما ثم لا تلبث أن تزول . ولكن في الحقيقة هذه الزينة البديعة دائمة إلى ما شاء الله .

وصلنا إلى المجرى السريع المذكور، ولمشاهدته يلزم الدخول أيضاً في خص (كشك) يشبه بهواً لأخذ مكان في عربة تنزل إلى الأسفل حتى شاطئ النهر، وأجرة دخول كل شخص (50 سنس). وقد أسرع إلينا كالعادة من يريد أن يرسم صورنا فلم نقبل، فأخذنا مكاننا في هذه العربة ونزلنا إلى الشاطئ، فدهشنا من قوة المياه المنحدرة من هذا المجرى وسرعتها. وقد قيل لنا إنه إلى الآن لم يُستَطَع تقدير قوتها. والغريب أن ماء النهر ساكن بعد الجندل، ويستمرُّ هذا السكون إلى مسافة كيلو مترين، ثم ينعطف النهر فجأة فيحدث من انعطافه هذا زاوية قائمة فيكون دوامات هائلة، سببها تلاطم المياه في الصخور ومصادمتها للشاطئ الشمالي. وبما أن النهر من طبيعته منحدر، فقوة الاندفاع وكثرة المصادمات هي المسبّبة لهيجان النهر الذي نراه من المكان الذي نحن فيه الآن. وقد قُدّر عمقه في هذه الجهة بخمسة عشر متراً. وقد حُكي لنا أن الكابتن ويب Webb الإنجليزي، أشهر شهير في العالم في السباحة وهو الذي عبر المانش سابحاً، أراد أن يعبر من هذا المكان متّبعاً مجرى المياه، فألقى بنفسه في اليم ولكن قوّته لم تساعده على المكافحة، فابتلعته المياه وذهبت به إلى حيث شاءت، فما كان نصيبه إلا الموت. هذه عاقبة من يلقي بنفسه إلى التهلكة، إن هي إلا عظة لقوم يعقلون.

في هذا الموقف العظيم ألقيت نظرة عامة على كل ما رأيته من عجائب هذا النهر، فتجلّت أمامي قدرة الخالق بجلالها، فسبحان القادر على كل شيء.

كيف لا يُدهش الإنسان وتملكه الحيرة من هذه المناظر التي، بينما يراها بديعة جميلة، يملأ حسنها نظره فتقرّ بها عينه وينشرح لها صدره، إذ يراها هائلة تخفق لرهبتها القلوب وترتاع من هولها النفوس. إن خرير المياه تطرب له الآذان، وصفاءه تقرُّ به العيون، فإذا وجّه الإنسان سمعه إلى هذه النغمة الطبيعية المستمرّة، ووجّه نظره إلى هذا الصفاء البلّوري، ينشرح قلبه ويرتاح ضميره. ولكنه لمّا يتأمل كيف تنحدر المياه بشدّة إلى هوة لا يقل عمقها عن مائة متر، وهذه الهوة محصورة بين حائطين عظيمي الارتفاع، يشعر بالمهابة فيستصغر نفسه ويشهد أن الإنسان ما زال ولن يزال ضعيفاً أمام هذه العظمة وهذا الجبروت.

إن مكاننا ورؤيتي هذين الحائطين الهائلين جعلاني أذكر للقارئ مثلاً آخر من أمثلة الجسارة النادرة التي ظهرت أثناء زيارة جلالة ملك إنجلترا إدوارد السابع لكندا،

عند ما كان ولياً للعهد . وقت زيارة جلالته لهذا المكان ، كان هناك أحد المشهورين في الألعاب الرياضية Equilibriste المدعو المسيو بلوندين Blondin الفرنسي الجنس ، فوضع له من الشاطئ إلى الشاطئ الآخر حبل على ارتفاع مائة متر فوق هذا المجرى السريع ، فمشى عليه حاملاً رجلاً على أكتافه أمام جلالته من إحدى ضفتي النهر إلى الأخرى . وقد طلب من جلالته أن يركب في عربة صغيرة بعجلة واحدة من الأمام ثم توضع على الحبل المعلّق فيمشي بها ويدفع أمامه بمن فيها ، فلم يجبه جلالته إلى ما طلب لما فيه من الخطر العظيم . ولكن المسيو بلوندين المذكور أبى إلا أن يظهر براعته فربط منديلاً على عينه حتى لا يرى الحبل ووضع الرجل الذي مرّ به أولاً وهو محمول على أكتافه في هذه العربة ومشى به على هذا الحبل آمناً مطمئناً إلى أن وصل إلى الشاطئ الآخر للنهر . فما أجسره وما أبرعه في صنعته ، إنه أعجب الحاضرين وأدهشهم حتى صار يومه يوماً مشهوداً يذكر لكل السائحين كتاريخ حادثة من أهم الحوادث . أردنا العودة لتناول الغداء بالفندق ، فركبنا سيارتنا وأمرنا السائق أن يعود إلى حيث أتى بنا ، وما نحن عن محل إقامتنا بعيدون . إننا ننظر أراضي الولايات المتحدة أمامنا على الشاطئ الآخر الذي رأينا به المحل الكبير المعد لتوليد الكهرباء التابع لهذه الحكومة ، وهو بناء لا يعجبك منظره ولكنّه عظيم النفع ، حيث تنبعث منه الكهرباء إلى بعد مائة وخمسين ميلاً إنجليزياً .

مررنا على الجسر الفاصل بين الحكومتين ، وبعد قليل وصلنا إلى الفندق وإننا رأينا كل ما يستحق المشاهدة في نياجارا ، ولم تبقَ لنا فائدة ننتظرها من البقاء بها . أردنا الذهاب إلى شيكاجو حتى لا يضيع وقتنا سدىً ، ولكنّا رجعنا فتذكرنا أن غداً يوم الأحد ومحل كوك سيكون فيه مقفلاً ، فذهابنا لا يفيدنا شيئاً كثيراً ، فرجعنا عن عزمنا متّبعين الخطّة المرسومة لنا من محل كوك ، وعلى حسبها يكون السفر غداً إلى شيكاجو .

ابتدأت الأمطار تسقط بعد ظهر هذا اليوم ، فحمدنا الله إذ تمّمنا زيارتنا في وقت صحو رأينا فيه كل المناظر على حالتها الطبيعية الجميلة . ولمّا كانت الإقامة بالفندق مملّة أردنا الاستراضة ، فمشينا في وسط تلك البلدة الصغيرة العاطلة من الزخارف ، إلا أن الصدور فيها منشرحة ، فأخذنا نمشي الهوينى مخترقين شوارعها ، نقف تارة بعد أخرى أمام بعض الدكاكين لنرى ما فيه ، كل ذلك لنقضي الوقت . أتى المساء فعدنا لتناول العشاء ، وبعدما أكلنا ما لذّ وطاب صعدنا إلى غرفنا ونمنا في راحة إلى الصباح .

ابتدأنا يومنا (يوم الأحد 12 مايو) باستراضة قليلة ، وكان الجوّ مظلماً والسماء تهدّدنا بأمطارها . ولم يمضِ علينا كثير من الزمن حتى أخذت السماء تبكي رذاذ دموعها ، فرجعنا على أعقابنا إلى الفندق ، لأكتب مذكراتي عن سياحتي . وجلسنا في الطنف (الفيراندا) أمام الكنيسة حيث نرى الغادين منها والرائحين إليها . وبقينا على هذه الحالة إلى أن حان وقت الغداء ، وبعده أحضر لنا صاحب الفندق بواسطة دليلنا دفتراً معداً لتقييد أسماء الكبراء الذين يفدون على فندقه . ولمّا كنّا مسرورين بما لقيناه من الراحة قبلنا طلبه ، خصوصاً أنه وامرأته بلغا من العمر أكمله ، وهما يؤدّيان واجبات الخدمة بكل ما في وسعهما لكل قادم عليهما . خرجنا بعد ظهر هذا اليوم نقصد الاستراضة ، فسمعنا من بعد نغمات موسيقى فقصدنا نحوها حتى نرى لأي سبب تُعزف . ولمّا وصلنا إليها وجدناها كالموسيقى التي تُعزف في المواسم (الموالد) . ولمّا سكتت نهض رجل وابتدأ يلقي خطابة ، فظن رفيقنا خيري أن تلك الخطابة ربّما كان موضوعها الانتخابات ، حيث إننا الآنفي ميعاد انتخاب رئيس الجمهورية . وظنّ رفيقنا الآخر مصطفى أنها الإعلان عن محل تجاري ، كما يعمل في بعض الأحيان في مصر . ولكنّ الحقيقة أن هذه الفئة تمثّل جيش السلام Armée de Salut ، وقد شبّهنا هذا الموكب بالصور الهزلية . ومن رآه خصوصاً بعد أن تمّت الخطبة وتحرّك للمسير ، لا يسعه إلا أن يشاركنا في حكمنا ، فإن على رأسه رجلاً كان يحمل علماً وقد بلغ من العمر أرذله ، يمشي الخَيزَلَى[38] وهو محدودب الظهر تظهر عليه علامات الضعف الشديد ، وبين صفوفه أطفال لا يبلغون الحول العاشر ، ينفخون في أبواق كما شاءوا وشاءت لهم معارفهم القاصرة في هذا الفن الجميل ، ووراءهم ست سيدات مرتديات ملابس مخصوصة لجيش السلام ، بينهم امرأة نَيَّفت على الستين ، ولابدّ أن تكون زوجة هذا الشيخ الخرف الحامل لواء السلام .

قربت الساعة الخامسة فعدنا مسرعين إلى الفندق ، والسماء تمد إلى الأرض من الأمطار حبالاً ، لنتناول عشاءنا في منتصف الساعة السابعة ، حتى نكون على أهبة السفر بالقطار الذي يتحرّك من نياجارا في الساعة 8 و 5 دقائق . وفي منتصف الساعة الثامنة اعتمدنا على الله وخرجنا للسفر ، بعد أن ودّعنا صاحب الفندق ، ووصلنا إلى

---

(38) الخيزلى : مشية هادئة متثاقلة .

المحطّة قبل الميعاد . وبما أن ذلك اليوم كان يوم بطالة ، رأينا عدد الغادين والرائحين أكثر منهم في باقي الأيام . أما الداخل إلى هذه المحطّة فلا يرى إلا ساحة كبيرة بها مقاعد للمسافرين ، وفي وسطها صنبور ماء للشرب بجانبه قدح واحد لعامّة الناس . وبهذه الساحة أيضاً جرّة صغيرة للتلفون ، لمن يريد المكالمة به مجاناً .

انتظرنا مقدار ربع ساعة ، ثم أخذنا نبحث عن قطارنا الذي سنسافر فيه فوجدناه مستعداً ، فركبناه وقد أخذت مكاني في غرفة صغيرة طلبت من قبل أن تكون خاصّة بي . أما رفيقاي فأخذوا مكانهم مع باقي المسافرين في (البولمن كار) . وما أتت الساعة الخامسة صباحاً من يوم الاثنين 13 مايو حتى كنّا مرتدين ملابسنا ، ففتحنا إحدى النوافذ لنرى ما نمرّ عليه فإذا نحن على شاطئ بحيرة مشيجان العظيمة الاتساع التي تشبه البحر بأمواجها المتلاطمة . استمرّ القطار في السير بنا بجوار هذه البحيرة مدّة من الزمن ، ثم لمحنا دخاناً متصاعداً من جملة مداخن مصانع على بعد عشرين دقيقة من مدينة شيكاجو ، فما أكثر الخطوط الحديدية في هذا المكان ، إنها متشعبة إلى شعب كثيرة تذهب إلى جهات مختلفة . أما الحركة العامّة للقطارات الغادية والرائحة إلى هذه المدينة فعظيمة ومدهشة . ومن غريب ما رأينا أيضاً ميناء كبيرة على هذه البحيرة ، بها جملة منارات كالتي توجد في البحار العظيمة .

في شيكاغو

وصلنا والحمد لله إلى محطة شيكاجو فنزلنا من قطارنا وذهب بنا إلى عربة عامّة (أمنيبوس) لتوصلنا إلى الفندق الذي كنّا نظن أننا منه على بعد شاسع ، ولكن لم يمضِ على سيرها أكثر من ثلاث دقائق حتى وصلنا إليه وهو واقع على أكبر شارع واسمه شارع مشيجان Avenue Michigan على مقربة من المستراض العام الكبير Grand Park ، فدخلناه فإذا هو أيضاً ذو خمس عشرة طبقة ومن أكبر فنادق شيكاجو وأبدعها نظاماً ، وإحدى جهاته تشرف على بحيرة مشيجان .

وقد تُسمّى مدينة شيكاجو بمدينة الأهوية[39] لاشتدادها فيها ، وهي تأتي من جهة البحيرة ، وهي أكبر مدينة تجارية وصناعية بعد نيويورك في الولايات المتحدة . وهي مركز تجارة الحبوب وقد بنيت على مستنقعات ومنازلها لا تزال صغيرة غير أنه

(39) المقصود : مدينة الرياح ، ويبدو ضعف الترجمة واضحا .

ابتدئ في جعلها كبيرة ذات أدوار عديدة وذلك للمنافسة بينها وبين نيويورك ، فكلّما هدم بيت صغير أقيم على أنقاضه آخر ذو أربعين أو خمسين طبقة ، ومن العجب أن الأمريكيين لا يحبّون أن يكون لهم منازل خاصّة بهم حتى لا يدفعوا ضرائبها ولا أجرة الخفر ولا غيرهما مما يدفعه الملاك ويفضّلون السكن بالإيجار ولو في الطابق الثلاثين أو الخمسين .

وقد كان ينتظرنا في الفندق كالعادة أحد مخبري الجرائد ، فرأيت أن أقابله أيضاً وتحادثت معه قليلاً ، ثم حضر مدير محل كوك وأظهر لنا أنه على استعداد تام لخدمتنا فشكرناه . ولما كنّا عازمين على ألا نقيم في هذه المدينة أكثر من يوم واحد بادرنا كل الأماكن اللازم زيارتها فصحبنا عامل كوك وجلنا في الشوارع المهمّة ومررنا على المحال التجارية الكبيرة مثل (البون مارشه) Bon Marché و(اللوفر) Louvre اللذين بباريس ومثل (الأرمي أند نافي) Army and Navy الذي بلوندره ، والذي استلفت نظرنا في هذه المحال التنسيق وحسن النظام ، وأن كل ما يختص بالسيدات محصور في أمكنة خاصّة به واللاتي يبعنه سيدات أيضاً ، والذي يختصّ بالرجال في أمكنة أخرى ويبيعه رجال . وليس ذلك النظام متّبعاً في المحال التجارية الكبيرة بفرنسا التي يرى بها الإنسان البائعة بجوار البائع ، وربما تبيع السيدات ما يختصّ به الرجال ويبيع الرجل ما تختصّ به السيدات ، وربما ترى بائعاً يلبس سيدة قفازاً وهكذا . أما نظافة هذه المحال ، فحدّث عنها ولا حرج فإنها في منتهى الكمال ، وقد لاحظنا أن الجزء المخصّص للروائح العطرية في هذه المحال كبير جداً . وهذا ما دلّنا على أن الأمريكيين مغرمون بها كثيراً ، ولم أستغرب ذلك ، لأننا لما كنّا في الباخرة كانت معنا سيدة من أسرة غنية في صحبة زوجها ، والاثنان كانا مرتديين ملابس الحزن . فرغماً من ذلك كانت هذه السيدة تدهن بالعنبر العبق الرائحة الذي كان يُلزم الإنسان أن يهرب قبل أن تقترب منه خوفاً من تأثيره الشديد . وقد ذكّرني ذلك صديقنا القديم زبير باشا ورائحته العطرية الشديدة ، وقد كنت مندهشاً كيف يتيسّر لزوجها أن يقيم معها في غرفة واحدة دون أن يتأثر من هذه الرائحة الشديدة . وهذا أمر لم أفهم له علّة إلا أن العادة تصيّر الصعب سهلاً بل قد تحول السم دواء .

ثـــم خرجنـا من هذه المحال لزيارة دار المحافظة وباقي مراكز إدارة ولاية (إلينوي) Illinois التابعة إليها Chicago شيكاجو ، فوجدناها جميلة وعظيمة وخرجنا منها إلى إدارة البريد الهائلة . ثم ذهبنا إلى البورصة وهي مركز بيع جميع أصناف الحبوب :

ولشهرتها يجدر بي هنا الإشارة إلى مجمل وصفها ليكون للقارئ إلمام بها . دخلناها وصعدنا إلى مكان مرتفع به كراسي معدّة للزائرين ، فأخذ كل منّا مجلساً فرأينا ما يستحق الذكر . إنها تشبه بورصة نيويورك ، حيث يجتمع في بهوها أربعة أو خمسة جموع من التجّار والسماسرة الذين يصيحون بكل قواهم ، ويشيرون إشارات مختلفة تدل على قبو البيع أو رفضه . ووراء كل جمع كاتب سرّ يبدو عليه كمال المقدرة والنشاط المدهشين فإنه يقيّد في لمح البصر أسماء الذين قبلوا البيع ومقدار ما باعوا وما اشتروا . وهنا تقتاد أعنة الفكر حالة المشترين والبائعين وصعود الأثمان وهبوطها في كل لحظة ، ومن الغريب أن آخر الأسعار ترسل بواسطة آلة كهربائية بها سير متحرّك يسير برقعة كتب فيها السعر فيوصلها إلى الطرف الآخر من البهو المعد لذلك . وقد لاحظنا في شمال هذا البهو ستّين من عمّال التلغراف يرسلون الأسعار النهائية بالتلغرافات إلى جميع أنحاء أمريكا ، فإذاً بورصة شيكاجو هي التي تضع وتحدّد أثمان الحبوب لسائر الولايات المتحدة ، ولا أغالي إذا قلت إنها ربما تحدّدها لجميع أنحاء الدنيا .

خرجنا من البورصة للذهاب إلى الفندق حيث أن ميعاد الغداء . وبعده استأجرنا سيارة لزيارة المدينة وحدائقها والمحل الذي كان قد أقيم فيه المعرض . وقد كان بودّي رؤية مذبح (سلخانة) شيكاجو الشهير ، لولا أن نصحني أصدقائي بعدم الذهاب إليه لفظاعة المنظر ولكراهة الروائح التي تنبعث منه . خرجنا من الفندق نحو الساعة الثالثة بعد الظهر متّبعين شارع مشيجان Michigan لزيارة حدائق واشنجتون وقد لاحظنا أثناء سيرنا أن الشوارع المهمة نظيفة ومعتنىً بها أكثر من شوارع نيويورك . فمررنا على المحطة التي أتينا منها وصرنا نبتعد عن منظر البحيرة ، أي أننا بعد هذه المحطة غادرنا الرصيف وسرنا مخترقين شارعاً كبيراً لا يرى الإنسان على جانبيه إلا محال تجارية للسيارات . وظنّي أن هذا الشارع هو مركز تجارة السيارات في الولايات المتحدة .

هذا والذي استغربته أني رأيت كثيراً من السيدات راكبات عربات صغيرة مقفلة تمشي بقوّة الكهرباء ، وهنّ اللاتي يحرّكنها بأنفسهن بدون سائق يقودها بلا خوف ولا وجل ، فقلت إذ ذاك : إن الأمريكيين الذين أمهاتهم أمثال هؤلاء السيدات الممتلئات نشاطاً وثباتاً وقوة جنان جديرون بما نالوا من الصيت الطائر في جميع أنحاء العالم ، فأكثر أخلاق الولد وعوائده مكتسب من أمه ، فالأمم ترتفع بارتفاع المرأة فيها وتنحطّ

بانحطاطها .

وصلنا إلى حديقة واشنجتون ، فرأينا في مدخلها تمثال جورج واشنجتون واخترقناها فأعجبنا جمالها ونظامها ، ومنها ذهبنا إلى حديقة جاكسون Jackson Park وهي ثاني حديقة لا تقل عن الأولى في نظافتها وترتيبها . وقد رأينا بها ساحات عظيمة مقسّمة إلى جملة ملاعب كملعب التنس Tennis وكرة القدم والجولف Golf وبها بحيرة للتجذيف في فصل الصيف ، وفيها أقيم المعرض الكبير .

إن هاتين الحديقتين على مقربة من بحيرة مشيجان ، وفي الثانية رأينا حوضاً به أربع سفن من الخشب يزعم الأمريكيون أنها تمثّل المراكب التي كشف بها كرستوف كولومب أمريكا . وظنّي أن هذا زعم باطل .

إن استراضتنا هذه كانت في جنوب المدينة ، والمنازل التي مررنا عليها رأيناها على أحسن حال من النظافة ، غير أننا لم نمرّ بمساكن الصنّاع والفعلة حتى يكون حكمنا عامّاً فشهادتنا هذه لما رأيناه بأعيننا . ذهبنا من هذا الطرف إلى الطرف الآخر الشمالي للمدينة لرؤية حديقة لينكولن Lincoln Park ، ومررنا أثناء سيرنا على حديقة جرانت Grant Park التي بها تمثال هذا الجنرال . وقد رأينا أيضاً مدرسة الفنون الجميلة ، ثم عبرنا نهر شيكاجو Chicago River ومنه وصلنا إلى شمال المدينة ، فاقتاد نظرنا ما رأيناه من حسن النظام وبديع الترتيب في شارع كبير أجمل من الشوارع التي رأيناها ، واسمه شارع الملياردير وهو في الحقيقة بالغ غاية النظافة ومعتنى به جداً . وقد علمنا أن هنا منازلَ أصحاب المليارات الفاخرة المحكمة البناء التي بها المصابيح الكهربائية الكبيرة على اختلاف أشكالها البديعة ، فلا يخلو منها هناك مكان حتى الطرق الفاصلة بين هذه القصور الأنيقة .

وصلنا إلى حديقة لينكولن Lincoln Park فإذا بها أيضاً بحيرة متّصلة ببحيرة مشيجان ، فرأينا فيها جملة زوارق تسير بالبنزين أو بدونه . وجدنا بهذه الحديقة مكاناً خاصّاً لنباتات البلاد الحارّة ، فنزلت من السيارة لإلقاء نظرة على هذه النباتات ، وقد كان بجوارها حديقة للحيوانات فلم أتمكن من زيارة الأخيرة لانهمار الأمطار ، فعدت مسرعاً إلى سيارتنا فركبت فيها وسارت بنا . ولما كانت هذه العربة ليست مقفلة فهي من ذوات الغطاء (الكبود)[40] شعرنا بالبرد الشديد ، وخيّل لنا أننا في طريق الأهرام

---

(40) كبود : تعريب لفظي للكلمة الإنكليزية capped .

وقت اشتداد البرد في فصل الشتاء ، حتى إن رفيقنا مصطفى بك استغرب من هذه الحالة ، خصوصاً أن مدينة شيكاجو ليست على جبل ، وأننا في شهر مايو الذي لا ينتظر فيه برد مثل ما نشعر به الآن . اشتدّ المطر وزمجر الرعد ، فرأينا الصنّاع (من نساء ورجال) الذين يخرجون من مصانعهم يسرعون ويهرولون ليلحقوا الترامو ايات التي توصلهم إلى منازلهم ، وعلى رؤوس بعضهم مظلات والبعض الآخر لفّوا جرائد على قبعاتهم ، كل ذلك لاتقاء الماء . أما نحن فأسرعنا في السير حتى وصلنا إلى فندقنا . ولما كان باقياً على ميعاد العشاء نحو ساعة ، وكان ينتظرنا عامل كوك الذي كلفته بإحضار تذاكر القطار المعد للنوم Billet de nuit de Pullman التي لم آخذها من نيويورك ، (فتوجهت إليه)[41] ورأيت المتنزهات والشوارع بها في غاية النظافة . وجرى بنا الحديث إلى ما رأيته في نياجارا ، خصوصاً نبع المياه الحارّة القابل للالتهاب ، فقال لي إنه لا يؤمن بصحة هذه الأعجوبة ويظن أنها مصنوعة ، فلم أستغرب ذلك في مثل هذه البلاد . أما فكري الخاص في هذه المسألة ، فما كنت أجرؤ على التصريح به ضد الرأي العام الذي يعتقد تمام الاعتقاد بصحّتها ، فلمّا وجدت لي شريكاً في اعتقادي صرّحت أنا كذلك بأني لا أعتقد بصحة هذه الأعجوبة لمخالفتها للحقائق العلمية .

حدائق ومسلخ

إن مدينة شيكاجو على ارتفاع 179 متراً عن سطح المحيط الاطلانطيقي و450 متراً عن سطح بحيرة مشيجان ومساحتها 520 كيلو متراً مربّعاً وعدد سكانها يبلغ مليوني نسمة ، وقد قيل لنا إنه لا يوجد بين هذا العدد أكثر من 350,000 من الأمريكيين القدماء ، أعني الذين أصلهم إرلانديون أو هولنديون أو سويديون Suédois أو دينمارقيونDanois وهؤلاء السكان ينقسمون كما يأتي :
700,000 ألماني و 200,000 إرلاندي و80,000 اسكانديناوي Scandinévios و 100,000 بولوني و90,000 بوهيمي Bohémiens و 10,000 إنجليزي إيقوسي[42] Anglais Ecossais و40,000 من العبيد والبقي من أجناس مختلفة . قد يُتكلّم فيها

---

(41) هذه العبارة غير موجودة في النص ، لكن السياق اقتضى إضافتها ليستقيم المعنى .

(42) إقوسي أو إيكوسي (تعريب لفظي عن Ecoss الفرنسية) : اسكوتلاندي .

بأربعين لغة ، وبها جرائد كثيرة تطبع بلغتين وتؤدّى الفرائض الدينية هناك بثلاثين لغة ، فهي إذاً بلدة يسكنها خليط من أجناس شتّى ، وقد لاحظت بها كنيسة روسية . هذا وقد رأيت بها كثيراً من التماثيل ، ففي حديقة البحيرة تمثال الجنرال جوهن لوجان John le Logan وفي حديقة لنكولن Lincoln Park تمثال الرئيس لينكولن Lencoln ، وبها أيضاً جامعة كبيرة رأس مالها 10 ملايين دولار ، تبرّع من هذا المبلغ المثري الشهير المستر روكلفرRockfiller بسبعة ملايين دولار ، وليس هذا عليه بكثير فإنه أكبر غني في العالم ، ومعظم ثروته آتية من استخراج زيت البترول . أما عدد تلاميذ هذه الجامعة فيبلغ خمسة آلاف طالب . وبهذه المدينة مكتبة عظيمة تُسمَّى باسم من أسَّسها المستر نيوبري Newberry بها 300,000 مجلّد . وقد ذكرت قبلاً أني لم أزر مذبحها ، ولكن هذا لا يمنع من أن أذكر عنه شيئاً مما علمته لأهميته ، فإن مساحته 200 هكتار وبه 40 كيلو متراً مربّعاً تغمرها مياه للشرب . وقد يحتوي على 75 ألفاً من البقر و30 ألفاً من الخنازير و50 ألفاً من الضأن و5,000 حصان . ولا يستغرب القارئ ذبح هذا النوع الأخير ، فإن في أوربا كثيراً من الفقراء يأكلون منه . فمثلاً في النمسا بعض جزّارين لا يبيعون إلا لحوم الخيل ، وقد يعلنون عن ذلك في إعلاناتهم التجارية . فالأمريكيُّون أولى من أولئك بأكل تلك اللحوم لأنهم أكثر الناس تهافتاً على جمع الثروة والبحث عن الدرهم بأي وسيلة ، فأي مانع يمنعهم من التجارة في هذه اللحوم؟ ربما يدهش القارئ أكثر ، إذا قلت له أن لحوم هذه الحيوانات تخلط أحياناً مع باقي لحوم الحيوانات الأخرى ، ومن ذلك الخليط تكون اللحوم المحفوظة ، وهل يعرف أي خيول تذبح؟ الخيول المسنّة التي طال عليها القدم ولم تعد تصلح للاشتغال . إن الأمريكيين لا يحبون أن يتركوها تموت أو تعدم بدون أن ينتفعوا بها ، ففي شبابها يسخرونها حتى تفقد قواها ثم يذبحونها ويتاجرون بلحومها . وقد يرد على هذه المذابح كل سنة من 3 إلى 4 ملايين من البقر ، ومن 7 إلى 8 ملايين من الخنازير ، ومن 3 إلى 4 ملايين من الضأن ، و100,000 حصان . ويقدّرون ثمن هذه الحيوانات التي تذبح بتلك المذابح بمبلغ 300 مليون دولار .

أكتفي الآن بما ذكرت عن مدينة شيكاغو بما أن ميعاد العشاء أزف .

بعد أن تعشّينا بادرنا إلى النوم ، وقد عزمنا على ترك هذه المدينة غداً إن شاء الله في منتصف الساعة العاشرة صباحاً ، ولكنّي بعد أن بدلت ملابسي خطر لي أن أكتب قليلاً في رحلتي عن حالة المدينة ليلاً وعن أمور رأيناها ولابدّ من ذكرها . أما

حالة هذه المدينة ليلاً فإنها تسرُّ الناظرين بأنوارها الساطعة المتلألئة ، إذ ليس بها كثير من أمثال المنازل الشامخة ذات الطبقات الكثيرة التي شاهدناها في مدينة نيويورك ولا تساع شوارعها العظيمة .

تلك الأمور التي لاحظتها هي:

إن نساء مدينة شيكاجو وبناتها يظهر عليهنَّ الجمال ، ولكنّي أنكر عليهنَّ كل الإنكار تمثلهن بالرجال يركبن الدراجات التي تسير بالبترول (الموتوسيكلات) . وكنّا نرى أحياناً سيّدة ورجلاً أو فتى وفتاة راكبين على دراجة واحدة من هذا النوع . أما اللاتي يتنزّهن بالعربات الكهربائية أو السيارات على اختلافها ويقدنها بأنفسهنَّ فعددهنَّ لا يحصى . والذي لفت نظري ، أكثر من كل ذلك ، أن الصبية منهنَّ تخرج في الشوارع والرياض والطرق إلى أن تبلغ الخامسة والعشرين من عمرها وهي لابسة حلّة قصيرة Jupe court عارية الساقين حتى يظهر لها زوج فتغيّر زيّها هذا . إن هذا في نظري ، ونظر كل شرقي لا يزال محافظاً على آدابنا الشرقيّة العالية ، تبرج ممقوت له من سيئ العواقب ما لا أريد أن أجاهر به . أما اختلاط الطالبين والطالبات في مدرسة واحدة ، فأظنه أيضاً لا يلائم الطبيعة البشرية التي لا تسلم مّما يشينها إلا إذا جعلت لها دائرة من الحدود لا تتعدّاها . فالحريّة الإنسانية يجب أن يكون لها حدّ تقف عنده ، وإلا استحالت إلى حريّة العجماوات السائمة في بواديها . وإلى هنا أترك الحكم في ذلك للقارئ فليحكم بما يشاء . هذه ملحوظاتي أبديتها وأختمها بكلمة أنصح بها إخواني الشرقيين : حافظوا على عوائدنا وتقاليدنا ، وعلّموا المرأة ما يؤهلها للقيام بشؤون منزلها وواجبات زوجها وتربية أطفالها ، فإن في ذلك فخرنا وسعادتنا وراحة ضميرنا ، والله يهدينا الصراط المستقيم .

مغادرة شيكاغو

أصبحنا والشكر لله في الرابع عشر من شهر مايو ، وما أتت الساعة السابعة حتى كنّا على أهبة السفر فتركنا غرفنا ونزلنا لندفع الأجور . ثم خرجنا من الفندق الساعة الثامنة ، وركبنا سيارة إلى المحطّة التي سنسافر منها ولم تكن قريبة من الفندق كالتي وفدنا منها ، وعند وصولنا إليها وجدنا القطار حاضراً ، فصعدنا إلى عربتنا ووصلنا إلى المحال التي جعلت خاصّة لنا ، وهي أيضاً عربة Pullman غير أنه كان في هذه المرّة

بقطارنا عربة للأكل فاخرة ، ومحل للتدخين وآخر للمطالعة به جملة جرائد ، ومحل للحلاقة به حلاق سوداني ومحل لمسح الأحذية . وفي قطارنا آلة للتلفون يمكن اتصالها بآلة تلفون أيّ محطة يقف عليها القطار بحبل دقيق يحفظه خادم العربة الذي يقوم بذلك العمل كلما طلب منه ، وعلى شريطة الإسراع قبل أن يتحرّك القطار .

ما أخذنا مكاننا حتى مرّ علينا مفتش القطار وهو يبتسم إلي كأنه يعرفني ، وقد رأيت من سائر مستخدمي هذا القطار كل لطف وأدب ، وهذا الذي سرّني كثيراً . وبعد أن تحرّكنا حضر المفتش ومعه مساعده وطلب تذاكرنا بعد أن قدّم لنا واجبات الترحيب ، ثم أتى لي بدليل الطرق الحديدية فعلمت من كل ذلك أني معروف عندهم وقد وصلتهم أوامر خصوصية في شأني . بعد قليل أحضر إليّ سوداني بعض جرائد بها رسوم فأخذتها مع الشكر . وهنا أذكر للقارئ أن المشتغلين بالخدمة في الخطوط الأمريكية الشرقية كلّهم عبيد سودانيون ما عدا رئيس السفريين فهو من الجنس الأبيض وكذا السوّاقون والمفتشون والمعاونون فإنهم من الجنس الأبيض أيضاً ، وقد لاحظنا ذلك أيضاً في سائر فنادق نياجارا وشيكاجو حتى إن في بعضها رئيسهم أسود مثلهم ، وإني أفضّل البرابرة الذين عندنا على هؤلاء العبيد وسرعتهم وتأديتهم حق الخدمة بكمال الآداب مع الدقّة . بعد قليل حضر إلينا رئيس السفريين ليسألنا أنريد شيئاً غير الذي عندهم ليحضره من إحدى المحطّات الآتية ويعدّه لنا ، فزادني سروراً كل هذه الآداب وحسن العناية خصوصاً بعد ما قرأته عن أمريكا في المؤلفات التي يذكر فيها أن الأمريكيين لا يرعون للأجانب حقوقاً ، وأنهم في الجملة غليظو المعاملة لا يهتمّون براحة السائحين ، فما رأيته ولقيته من سائر العمّال والخدم جعلني أحكم بعكس ذلك .

إن الخط الذي نسير فيه الآن يُسمّى خط روك أيسلاند Rock Island وعند خروجنا من شيكاجو إلى ضواحيها لم ترقنا مناظرها ، بل هي كضواحي أكثر البلاد الكبيرة حيث منازل العملة والطبقة الفقيرة تكون عادة فيها .

وبعد أن تركناها ودخلنا مزارعها رأيناها جميلة ، فجعلنا ننعم أنظارنا فيها إلى أن أتينا بلدة جوليت التي عدد سكّانها 35,000 نسمة ، وقد سُمّيت باسم رحالة فرنسي ، وبها معامل كبيرة لعمل الجعة ولصناعة الصلب وتنانير[43] كبيرة لعمل

---

(43) تنانير (جمع تنور) : أفران .

الفحم الذي يسمى فحم كوك . هنا الأراضي الزراعية التابعة لهذه البلدة عظيمة الاتساع وعدد سكانها بالنسبة لأرضها الزراعية قليل بخلاف الجهات التي سبق مرورنا عليها وقد رأينا بها جملة مزارع كبيرة للفلاحة ولتربية الحيوانات .

وصلنا بعد هذه البلدة إلى أتافا Ottava وعدد سكانها 10,000 نفس ، وبها معمل للزجاج ، وهي واقعة على نهر فوكس Fox River ومنهـا إلـى بلدة لاسال La Salle 12,000 (نسمة) ودعيت باسم رحّالة فرنسي آخر ، وبها مصانع للزنك والسيمانتو[44] ، وفي ضواحيها خمسة مناجم لاستخراج الفحم الحجري ، وأراضيها خصبة ومبسوطة وتزرع فيها الحبوب . وقد مررنا على بعض مستنقعات وبعض مزارع لتربية المواشي .

هذا وقد لاحظنا أن فلاحي أمريكا يستعملون الخيول لا الثيران ، وربّما كان ذلك لأن الأولى أسرع من الثانية . ولا عجب فإن طبيعة الأمريكيين السرعة والحرص على الزمن . أما حالة البقر والثيران فليست جيدة .

وصلنا إلى بلدة مولين Moline وعدد سكانها 25 ألفاً ، وبها جملة معامل لقضبان الطرق الحديدية ولصناعة السلوك من الحديد . إن الوافد على هذه البلدة حالما يرى بيوت العملة يحكم بأنهم ليسوا على شيء من الثروة . أما من جهة أراضيها فإنها تشبه الأراضي التي سبق وصفها .

الساعة الآن واحدة ونصف بعد الظهر وقد كنّا ذهبنا قبل هذا الميعاد إلى عربة الأكل فوجدناه طيباً فأخذنا ما لذّ وطاب ، وعندما قربنا أن ننتهي منه وقف بنا القطار في محطة روك أيسلاند Rock Island التي بها 26 ألفاً من السكان ومصنع للسفن تابع للحكومة ، ثم وصلنا إلى دافمبور[45] Davemport وسكّانها 45,000 ، وهي في مقاطعة يوفا[46] Iowa واقعة في غرب المسيسبي وشهرتها أنها مركز الخطوط الحديدية المتشعّبة الذاهبة إلى الشمال والجنوب والشرق والغرب . وفي نحو الساعة الثالثة وصلنا إلى بلدة يوفا سيتي Iowa City وسكّانها عشرة آلاف نسمة وبها جامعة عظيمة تُسمّى باسمها .

---

(44) السمانتو : الإسمنت .

(45) دافنبورت Davenport

(46) هذا اللفظ الفرنسي غير معروف ، واللفظ الصحيح : أيووا .

وفي الساعة السادسة و 25 دقيقة وقف بنا القطار في محطة موان Moines وعدد سكانها 86,000 ، وهي عاصمة مقاطعة يوفا Iowa وواقعة على نهر الموان أيضاً Moines River ، أما منازلها فبديعة الشكل محكمة البناء ، وموقعها جميل .

أتت الساعة السابعة فذهبنا إلى المطعم للعشاء ، وفي أثناء ذلك كانت أسرتنا تعدّ . ومن الغريب أنه قيل لي قبل : إن هذه الجهات لا يسرك مناظرها ولا حالة مزارعها وفلاحتها . ولكنّي رأيت الأمر على عكس ما قيل لي ، فالمزارع أراها سارّة ، فيها جملة ضياع كبيرة مزروعة ، وقد أنبتت نباتاً حسناً ويظهر على سكانها آثار النعمة ، بما لهم من المنازل الكبيرة الجميلة التي بها إصطبلات لمواشيهم ومخازن لحاصلات أرضهم .

انتهينا من العشاء ولما قربت الساعة التاسعة افترقنا للنوم تاركين قطارنا يخترق هذه المقاطعة والمقاطعة الأخرى التي تُسمّى نيبراسكا Nebraska . هذا ، ولله الحمد طوينا ليلتنا في راحة ولم نشعر بهزّات القطار ، خصوصاً وقت وقوفه وقيامه من المحطّات كما كنّا نشعر بها ونتنبه مذعورين عند حضورنا إلى شيكاجو ، فكأن الله أراد أن يتمم نعمته علينا ، فألهم أيضاً السوّاق أن يتّقي كل ما يزعجنا ، وجعله لا يقف ولا يقوم دفعة واحدة ، فصرنا راضين عن كافّة المستخدمين حتى سوّاق القطار .

قمنا من مضاجعنا نحو الساعة خمسة ونصف صباحاً من يوم 15 مايو وإذا نحن في خلاء عظيم الاتساع ، فقرّرنا أن عدد سكان تلك البقاع قليل بالنسبة إلى أرضها الواسعة ، وذلك لبعد المنازل بعضها عن بعض ، وللمسافات الشاسعة بين كل قرية وأخرى . وفي نحو الساعة السابعة و 45 دقيقة وصلنا إلى محطة جودلاند Goodland ، وهي قرية صغيرة يبلغ عدد سكانها 1500 نسمة ، ولكنها على صغرها مشهورة بتجارة الحبوب وتربية الطيور الداجنة ، ففي أراضيها الواسعة يزرع القمح والشعير وغيرهما .

من بعد هذه القرية ابتدأنا نرى أرضاً مقفرة ، فكنّا لا نرى إلا فضاء واسعاً وقليلاً من البقر والخيل ترعى الكلأ الطبيعي .

في كولورادو

وقف بنا القطار في محطة ليمون Limon الصغيرة التي سكانها لا يتجاوز عددهم خمسمائة نسمة ، ولكن منها يتفرّع الخط الحديدي إلى فرعين : فرع يذهب إلى جهة

دينفر سيتي Denver City وفرع آخر إلى كولورادو وبويبلو Colorado et Pueblo وهذا الأخير هو الذي سنتبعه ونسير فيه ، فبقينا في عربتنا وفصلت باقي العربات الذاهبة إلى الفرع الثاني . وقبل تحرك قطارنا أقبل علينا جميع المستخدمين الذين لا يذهبون معنا ليحيُّونا تحية الوداع . وبعد لحظة التوديع بخمس دقائق تحرَّك بنا القطار إلى حيث وجهتنا .

نحن الآن في مقاطعة كولورادو ، وكنَّا نرى القطار الآخر الذي افترق عنَّا يسير على بعد منَّا ولم يغب عن نظرنا مدَّة ربع ساعة . وبعد مدَّة من الزمن ابتدأنا نرى بعض مرتفعات في هذا الخلاء وعليها الثلج الناصع البياض ، والمواشي تخرج في هذه الأراضي التي بها أيضاً بعض نقط بيضاء من هذا الثلج ، فتمشي بينها ترتع كيفما شاءت ، وحيث طاب لها المرعى .

في جهة الكنزاس Kenzas [47] قبل كولورادو ، كنا نرى على جانبي خط الطريق الحديدي كثيراً من عظام وهياكل الخيول . وقد عددنا أكثر من اثني عشر هيكلاً في مسافة قصيرة ، فعرفنا أن هناك أيضاً تترك الجثث إلى أن يفنيها الزمن .

ابتدأ الجو يعتدل والحالة تتحسن ، فإن الجبال الصخرية ظهرت لنا من بعد ، ونحن في هذا المكان في مستو مرتفع عن سطح البحر بثلاثة آلاف قدم . أما مناظر الثلوج فإنها بديعة ، لاسيّما وأن خلوها من الأوساخ والغبار أكسبها رواءً وزادها بياضاً . وقد أخذت الشمس ترسل على تلك الثلوج أشعة نظرها الحارّة فتذيب فؤادها ، فتبكي دموعاً كاللآلئ تساقط فتجتمع فتكوّن مجرى صغيراً ينحدر في تهائم[48] الأرض ، فيرسم على وجه البسيطة أشكالاً مختلفة . فسبحانك ، مبدع كل شيء .

إن رؤوس هذه الجبال معمّمة أيضاً بالبياض الذي أكسبها وقاراً ، وكنَّا نقرب منها رويداً رويداً . وما مضى ساعة وعشر دقائق حتى وقف بنا القطار في محطة كولورادو اسبرينج Colorado Spring . وقد كان في انتظارنا بوّاب الفندق الذي أسرع إلينا ، فسألناه عن مكان الفندق ، فأجابنا إنه لا يبعد عنا أكثر من مسافة خمس دقائق ، وهو أمامنا نستطيع أن نراه فلا داعي لعربة تذهب بنا إليه .

---

(47) الصحيح أن تكتب هكذا : Kansas

(48) التهائم (في لسان العرب) : الأرض المنحدرة إلى البحر .

هنا أذكر للقارئ أن كولورادو تطلق على بلدتين متجاورتين إحداهما تسمى كولورادو سيتي Colorado City وعدد سكانها 5000 نسمة ، وهي العاصمة القديمة لمقاطعة كولورادو ، والأخرى تسمى كولورادو اسبرنغ Colorado Spring وعدد سكانها 30,000 نسمة .

مشينا على أقدامنا فمررنا على فضاء صغير به بعض أشجار غير مورقة ، وبعده ظهر أمامنا بناء مشيّد ذو ست طبقات ، فإذا هو محط رحالنا . وصلنا إلى الفندق الذي يُسمّى أنتلر Antler فدخلناه ، واخترنا غرفنا في موقع حسن يشرف على الجبال . وقد كنا أعطينا وثائق حقائبنا للبوّاب المذكور ليأتي بها إلينا ، فلم ننتظره ، وسعدنا لننفض عنّا غبار السفر . ولم نستغرق في ذلك من الزمن إلا قليلاً لاشتداد جوعنا . ونزلنا مسرعين إلى المطعم حيث كانت الساعة اثنتين إلا ربعاً فأخذنا مكاننا وانتظرنا رحمة السفريين ، فإن هؤلاء الخدم على خلاف عادة أرباب الأعمال الأمريكانيين في غاية البلادة والكسل .

انتظرنا نصف ساعة حتى أتى لنا بالطعام فأكلنا وحمدنا الله ، وبعد ذلك خرجنا ومشينا في طرقات وأبهاء الفندق ، فأعجبنا حسن النظام . ثم أردنا الصعود إلى غرفنا لنغيّر ما علينا من الملابس ، فبدا لي أن أقصر أولاً شعري الطويل ، فذهبت إلى حلاق الفندق وفرغت من ذلك أيضاً . ثم صعدت إلى غرفتي للاغتسال ولتبديل ملابسي ، فأخذنا كلنا أولاً نقدم ملابسنا غير النظيفة التي غيّرناها أثناء سفرنا لتغسل ، حيث أنّا على حسب برنامج رحلتنا سنمكث في هذه البلدة خمسة أيام ، فعندنا إذاً من الوقت ما يسع ذلك . هذا وقد أخذت ملابسي الخارجية جميعها تكون غير لائقة ، لكثرة التنقل ولوضعها في العياب . ولا يخفى ما يحصل عادة أثناء هذه الرحلات للحقائب الكبيرة ، فإن الحمالين يلقونها كيفما شاءوا ، فحينما يفتحها صاحبها يرى عاليها سافلها ، فأعطيتها كلّها لمن يكويها . ثم دخلت الحمّام وما ابتدأت في فتح صنبور المياه حتى سمعت جرس التلفون يدق ، فأسرعت لأرى ما يراد مني ، فأخبرت أن أحد مخبري غازيت دي كولورادو يريد مقابلتي ، فقلت لمن يكلمني لا أستطيع ذلك الآن لأني قد أعددت نفسي للحمّام . وما انتهيت من عملي هذا حتى سمعت الباب يدق ، فذهبت لأرى ماذا جدّ أيضاً فإذا هو نفس مخبر الجريدة ، فاعتذرت له حيث أني لم أكن بملابس تليق بالمقابلة ، فذهب عني وتخلصت منه ولله الحمد .

ألقيت نفسي قليلاً على سريري طلباً للراحة وفي نحو الساعة الخامسة والنصف

طلبت بالتلفون أن يؤتى إليّ بملابسي (الاسموكين) فأجابني من يكلمني : حالاً يا سيدي - ولم يمضِ على ذلك برهة من الزمن حتى دق الباب ، فقلت : من بالباب؟ فأجابني صوت : أتريد يا سيدي لفائف تبغ كبيرة أو صغيرة . فاستغربت وقلت إني لا أدخّن ولم أطلب أبداً بائع التبغ - إني طلبت الاسموكين للبسها .

والحقيقة أنه قد التبس عليهم الأمر فإن كلمة اسموكين بالإنجليزية معناها تدخين ، وبما أن في كل ساحة فندق يوجد بائع دخان ، فبمجرد سماعه هذه الكلمة من أي سائح يسرع إليه ليقدم له من تجارته أعلاها . ولكنه رجع خائباً ولم يكتسب مني فلساً واحداً .

بعد ذلك صرت أعلل نفسي إلى أن دقّ الباب ثالث دقّة فقلت لا بدّ أنهم في هذه المرة قد أتوا لي بما أريد ، ففتحت الباب فماذا رأيت؟

رأيت سيدة تقول إني أصلح الأظافر ، فهل تريد أن تشرّفني بأن أؤدّي هذه الخدمة ، فشكرتها على تلطفها معتذراً لها عما تكبدته من التعب ، ذاكراً لها إني أصلحتها بنفسي الآن ، فذهبت إلى حالها . وأخيراً أحضروا لي ملابسي فارتديتها ، وكان في أثناء ذلك رفيقاي على استعداد أيضاً ، فنزلنا وذهبنا إلى مكتب الاستعلامات لنستفهم عمّا يلزم زيارته ، فأرشدنا أن نذهب إلى الكريستال بارك Cristal Park مع باقي السائحين ، وهو مكان في أعلى الجبل يصعد إليه بسيارة معدّة لذلك . فقرّ رأينا على اتباع هذه المشورة لمشاهدة هذا المكان .

مدينة الشمس

إن كولورادو اسبرنج أطلق عليها الأمريكيون اسم مدينة الشمس ، وقالوا ذلك لأن الشمس لا تغيب عنها أكثر من 40 يوماً في السنة ، أي أن جوّها دائماً صحو والمطر فيها قليل . ولكنّي لست على يقين من صدق ما قالوا ، وقد ذكرت هذا برحلتي بناء على أقوالهم . وأرى أن الأولى بهذا الاسم هي عاصمتنا ، فيمكننا إذاً أن نسميها مدينة الشمس الحقيقية .

إن المدينة التي نحن فيها الآن مرتفعة عن سطح البحر بستّة آلاف قدم ، وهي مبنيّة تحت الجبال الصخرية ، وبها شوارع كبيرة مغروس على جوانبها أشجار لم تورق إلى الآن . وقد سمعنا أن السماء أمطرت قبل حضورنا بيوم واحد بَرَداً تراكم بعضه على بعض حتى بلغ ارتفاعه فوق سطح الأرض أربعين سنتيّ متراً . أما أشجارها على

اختلاف أجناسها فإنها تتأخر في الإيراق ، ولكن هواءها جاف ومفيد جداً للمصابين بأمراض السل والصدر ، فهي لذلك مورد هؤلاء البائسين الذين يحضرون للسكنى فيها ، ويؤجّرون منازل صغيرة معدّة لهم في حي معلوم . ولقد كان حضورنا بهذه البلدة قبل ميعاد موسمها الذي يكون عادة في الخامس عشر من شهر يونيه ، وطالما سمعنا عنها كثيراً ، حتى قيل لنا إنه ممنوع كلية البصق في الطرق للمحافظة على الصحة ، ومن يخالف ذلك يعاقب بغرامة قدرها دولار . ولكنّا رأينا كثيراً من الناس ينتهزون فرصة عدم وجود الشرطة ، فيبصقون في الأرض تاركين آثارهم تدل عليهم مخالفين الأوامر والتنبيهات . وأما الألواح الصغيرة المعلقة في كل مكان ومكتوب عليها ممنوع البصق فلم تفد أيضاً ، ولم تبطل من الناس هذه العادة القبيحة التي تكون أحياناً سبباً في انتشار الأمراض الشديدة التي تذهب بحياة الإنسان . ختمنا يومنا وبعد العشاء افترقنا للنوم ، وفي اليوم الثاني ، الخميس 16 مايو ، في الساعة العاشرة صباحاً ركبنا السيرة مع باقي السائحين ، وعددنا نحو عشرين شخصاً ، للصعود إلى قمّة الجبل لرؤية الكريستال بارك . وسرنا في طريق خاص للسيارات التابعة للشركة التي احتكرت هذا الطريق ، ولا يمكن لأحد أن يصعد ويسير فيه الا بواسطتها ، وعلى سياراتها التي أعدتها لذلك . دفعنا أجرة هذه الزيارة دولارين عن كل فرد ، وصرنا كسائحي كوك كلّنا في سيارة واحدة ، ومعنا دليل شاب صغير واقف على سلّمها ، وظيفته أن يشرح لنا ما يقتضي شرحاً . فاخترقنا البلدة ووصلنا إلى كولورادو سيتي ، فلَفَت الدليل نظرنا إلى كوخ قديم ، وقال لنا : إنه أقدم منزل في هذه البلدة ، كان يسكن فيه القومندان المعيَّن من قبل الحكومة ، لما كانت هذه الجهة خالية من العمار[49] . هذا وقد كانت كولورادو تابعة لكنزاس Kansas التي كانت تحت أيدي الهنود أولي اللون الأحمر ، وبها معابدهم وآلهتهم . وقد رأت الحكومة الشدائد والأهوال في إخضاعها لاعتقاد هؤلاء الهنود بأن أراضيها مقدسة .

استمررنا في طريقنا مدّة من الزمن ، ثم أشار دليلنا إلى صخور عالية حمراء واقعة على مسافة من يمين الطريق ، وقال : إن هذا المكان يدعى حدائق الآلهة . وبعد ذلك مشت بنا السيارة إلى جهة الشمال ، ثم وقفت أمام باب كبير كان مغلقاً يسد الطريق ، ففتحه الدليل ومررنا منه ، ووراء هذا الباب الأرض التي فيها طريقنا ، وهي

---

(49) العمار (عامية دارجة) و الفصحى : عمران .

مملوكة لأحد الأمريكيين . وقد قيل لنا إن المدة التي أنشئت فيها هذه الطريق استغرقت سنة وعشرين يوماً ، وذلك لصعوبتها لأنها حجرية . هذا وقد مررنا على كثير من الصخور التي لها أشكال مختلفة تمثّل هيئة حيوانات أو طيور أو غيرها ، ولأجل أن يشغلوا السائح فلا يشعر بملل ، سمّوا كل شكل اسماً يوافق هيئته . فصار الدليل بين وقت وآخر يشير إلى صخرة قائلاً : انظروا هذه فإنها تشبه الأسد تمام المشابهة ، وهذه تشبه الضفدع ، والأخرى تحاكي (الرينوسيروس)(50) وهكذا ، فتتجه الأنظار إلى هذه الصخور . وصرنا نلاحظ ما يقوله رفقاؤنا الراكبون معنا ، فمنهم من تظهر عليه علامات الاستغراب والدهشة من انطباق الشكل على اسمه . أما نحن فكان همُّنا أن نسمع ما يقال ، ونرى ما يشار إليه ، فنتعقب أقوالهم ، ونحكم بعد المداولة بيننا ذاكرين أيهم أحق وأصدق قولاً ، وأقرب إلى العقل .

استمر بنا السير في هذا الطريق الذي يرتفع تدريجاً إلى أن وصلنا إلى عقبة كؤود ، وهي إحدى تلك الأشكال ، فوجدنا المرور منها صعباً ، فاضطر سائق السيارة أن يرجع قليلاً إلى الوراء منحدراً ، ثم يتقدم إلى الأمام محركاً السيارة إلى الاتجاه المراد السير فيه ، وهكذا إلى أن مرَّ من هذا المضيق الذي أزعج المرور منه بعض السائحين ، وذهب بالطمأنينة من نفسه ، خصوصاً مصطفى بك الذي لم يسبق له الصعود إلى أعالي الجبال ، فكان يرى الصعوبة أمام عينيه مجسمة . وقد قرأنا ذلك على هيئته ، وشفَّ عنه كلامه وحركاته الدّالة على عدم الاطمئنان .

هنا رأينا حفرة عملت لتكشيف معدن الذهب ، ولما وجدت النتيجة لا تفي بالغرض تركت .

استمر بنا الصعود إلى أن وصلنا إلى مكان آخر أصعب من الأول ، ولإدارة السيارة لتسلك الطريق المنعطف دفعة واحدة عمل لذلك (بلات فورم) يشبه الذي في بعض المحطات المعدّ لتحول اتجاه القاطرات (صينية تغيير اتجاه القاطرات) ، فتمت هذه العملية الصعبة ، ونحن لم نترك مكاننا . هنا ظهرت لنا مناظر مدينة مانيتو Manito الجميلة التي يبلغ عدد سكانها الألفين ، وبها كثير من منابع المياه المعدنية والغازية .

وفي أثناء سيرنا وجدنا بعض العملة يشتغلون في إصلاح الطريق وإزالة الثلج المتراكم عليها ، وفي منعطف منه قيل لنا : هنا (الجلالة والعظمة) ، حقيقة المنظر

---

(50) rhinoceros : كركدن ، وحيد القرن .

جميل ، ولكن لا أراه يستحق هذا الوصف .

وقفت بنا السيارة فلم تستطع السير ، فإن كثرة الثلج على الطرق منعتها . وفي أثناء ذلك نزل منها رجل ومعه آلة التصوير ، وصعد على ربوة في منعطف لتصويرنا ، فأخذ في إزالة ما يعوق السيارة ، وبعد جهد وعناء وُفّقنا إلى الاستمرار في السير ، وتركنا هذا المصور في مكانه . وقد صادفنا هذه العوائق ثلاث مرات ، وفي كل مرة نلاقي مشقّة في إزالة ما على الطريق من الثلج .

وصلنا بعد عناء شديد إلى ما يقرب من آخر قمة الجبل ، ولم يبقَ بيننا وبين آخر الطريق ، أي أعلى مكان فيه ، إلا نحو 40 متراً . ولكننا أيضاً في هذه المرّة وقفت بنا العربة وقوفاً تاماً ، رغماً من قوة آلاتها لتراكم الثلج أكثر مما صادفناه قبل ، فاضطر السائق أن يترك السيارة ويذهب للبحث عن فأس وغاب عنّا . وقد كانت أمامي سيّدة عجوز فسمعتها تقول : إني لا أشعر بجمال هذه المناظر فأتحدث به إلا من بعد نزولنا ووصولنا إلى أسفل الجبل سالمين . فعلمت أن ليس مصطفى بك هو الوحيد في شعوره وذهاب الطمأنينة من نفسه ، فقد شاركته هذه السيّدة في ما يجد . وطالما سمعناه يردد هذه الجمل بين شفتيه : إلى متى نصعد إلى قمم الجبال؟ وهل من فائدة تُنَال من وراء ذلك؟ إني أرى في عملنا هذا مخاطرة .

القمة 2400 متر

حضر السائق ومعه الفأس ، وأخذ يشتغل في فتح طريق للسيارة حتى نصل إلى غايتنا . ففتحت الطريق وصعدنا إلى أعلى قمّة في الكريستال بارك Cristal Park . هنا المنظر يستحق الإعجاب لجماله الرائع . فبالرغم من ذلك الارتفاع الهائل ، نحن في متّسع من الأرض لا يصعب على سيارتنا أن تدور فيه . فليتصور القارئ هذا المكان المستوي على قمة الجبل ، وكيف يكون حال السائح بعد تكبده الصعاب للوصول إلى هذه القمة الشاهقة ، خصوصاً حينما يرى نفسه في مكان آمن يرى آثار قدرة الله وجلال صنعه ، وأينما يوجّه نظره يشاهد من المناظر المختلفة ما تقر به عينه فينشرح به صدره .

بعد أن مكثنا قليلاً من الزمن في هذا المكان الرفيع ، أدار السائق سيارته للنزول بنا ، وقد تغيّر الحال وسهل الأمر بزوال عقبات الصعود . وقد وجّه دليلنا أنظارنا إلى صخرة سمّاها فيدي Fedie ويعني بهذا الاسم المستر روزفلت ، ونظن أن سبب هذه

التسمية مشابهة بينهما . وفي أثناء نزولنا صاح الدليل : النسر ، النسرا فسَرْعَانَ ما تحولت أنظار السائحين إلى الجهة التي أشار إليها ، باحثة عن هذا الطائر الشهير لرؤيته عن قرب . ولكن ماذا رأوا ؟ رأوا طرف غصن شجرة يابس يشبه النسر قليلاً ، فما أكبر مغالاتهم وما أوسع دائرة خيالهم .

لم يمضِ على مفارقتنا المصور أكثر من عشرين دقيقة حتى رأيناه ينتظرنا في الطريق ، فصعد إلى السيارة وبيده صورتان في غلاف لطيف ، وشرع يعرضهما على السائحين ، وهما اللتان صوّرهما عند صعودنا ، وفيها زميلنا مصطفى واقف وبيده كرة من الثلج . فما أسرعه في عمل الصورة إنه أدهش الحاضرين .

وقد كان مع هذا المصوّر دفتر لكتابة أسماء من يريد شراء عدد من صوره ، وكان يأخذ ثمن الصورتين نصف دولار ويعطي المشتري وثيقة تشهد بأنه تسلّم الثمن ، ويقيد في دفتره العنوان الذي يسهل معه أن يرسل الصور إليه ، وقد فعل وأرسلها اليوم التالي لهذه النزهة .

استمرَّ بنا النزول إلى أن وصلنا إلى سطح الأرض ، ومنه ذهبنا إلى الفندق نحو الساعة 1 و 30 دقيقة بعد الظهر . وقد مررنا في طريقنا على ثلاثة محال لتطهير الذهب المستخرج من بطون الأرض ، ولم تستغرق رياضتنا هذه أكثر من ثلاث ساعات ونصف في الذهاب والإياب ، مع أننا ارتفعنا ألفي قدم عن مدينة كولورادو اسبرنج . فبإضافة هذا الارتفاع إلى ارتفاع هذه المدينة ، نجد أننا كنّا على علوّ 8,000 قدم عن سطح البحر . والغريب أننا لم نشعر وقتئذ بشدة البرد ، وهذا ما جعلنا مسرورين من استراضتنا هذه .

لست ممن يبخسون الأشياء حقّها ولا ممّن ينكرون على الطبيعة جمالها ، ولكن كثرة سياحاتي في أنحاء العالم جعلت لي بعض القدرة على التمييز بين المناظر ، فتربَّت عندي مَلَكة ترشدني إلى مواضع النقص في كل مكان . إني أعرف أن كل جهة خصّها الله بمزايا توافق حالها وموقعها ، ولم يكن عزيزاً عليه سبحانه وتعالى أن يجعل الكون جميعه على حالة واحدة . فلحكمة يعلمها خلق جمال الطبيعة وفرّقه بإرادته على البقاع ، فهو ربُّ الكون يفعل به ما يشاء ، جلّت قدرته وتنزّه عن أن ينقد عمله ناقد . غير أنه لمّا كان لكل سائح أن يكتب ما رآه في رحلته وما استحسنه ، فلا أريد أن أحرم نفسي من إبداء ما يناجيني به شعوري أمام منظر . إني وفّيت هذا المكان حقّه من الوصف فلم أحط من قيمته ، وما أبديت ملحوظاتي الآتية إلا مضطراً

لذكرها بحكم تأدية الواجب على سائح وضع نفسه موضع الحكم العادل ، فأستميح القارئ في بيانها :

إن جبال هذه الجهة كثيرة ، وما أضاع بهجتها إلا أنها متقاربة بعضها من بعض لا تزيّنها الأشجار الكثيرة ، ولا تكسوها النباتات المختلفة تلك الحلة الخضراء . والناظر إليها لا يشعر بعظمة ارتفاعها لأنها مرتفعة في انحدار ، فذهب ذلك بكثير من عظمتها أمام الرائي ، فلم يترك منظرها في نفسي أثراً للعجب والاستحسان . فأين السكّان ومنازلهم الجميلة؟ وأين الحيوانات التي ترتع وتسرح في مراعي الكلأ؟ إنها خاوية قاحلة مجدبة ، أينما سرّح السائح نظره فيها لا يرى إلا فضاءً واسعاً وسكوناً موحشاً . وإنّي ممّن يفضّلون رؤية النسر يحلّق في هواء هذه الجبال عن[51] رؤية غصن يابس لا يشابهه إلا في خيال الأميريكيين الذي يخيل إليهم من العدم وجوداً ومن المباينة مشابهة .

هذا وقد كان بودّي أن أرى في ربوع هذه الجبال سكان أمريكا القدماء ، ببيوتهم القديمة وملابسهم المختلفة الألوان ، يسرحون ويمرحون في بداوتهم الأولى .

بعد وصولنا إلى الفندق ذهبنا توّاً لتناول الغداء ، فلم يؤتَ إلينا به قبل الساعة الثانية والنصف ، فأكلنا وصعدنا إلى غرفنا للراحة قليلاً . ولما كانت الإقامة في كولورادو اسبرنج لم ترقني كثيراً ، خصوصاً مدير محل كوك بشيكاجو أخبرني من قبل بأن إقامة أربعة أو خمسة أيام بها داعية إلى الملل ، فأسرعت إلى مكان يقصده طلاب السفر Agent de voyage وهو على الطريق أمام الفندق ، وسألت : هل يُستطاع تغيير ميعاد سفرنا وتقديمه إلى اليوم الثامن عشر من مايو ، بدل العشرين منه ، حتى نكتسب من الوقت يومين نقضيهما بكاليفورنيا على شاطئ البحر بين بساتينها النضرة وزهورها الشهيرة؟ . فأخبرني أحد العمّال أن القطار السريع (الإكسبريس) الذي أخذنا تذاكرنا للسفر فيه إلى (الجراند كانيون) لا يسافر من هنا إلا مرّة واحدة في الأسبوع ، فيلزمنا الانتظار إلى يوم 20 مايو . فإذا لم يكن بدّ من تعجيل السفر ، فليس أمامنا إلا القطار العادي الذي يقطع هذه المسافة (أي بين كولورادو اسبرنج والجران كانيون) في 38 ساعة ، وليس به عربة أكل ، ويلزم المسافر فيه أن ينتقل من قطار إلى آخر مرّات . ففضلت التعب على أن أمكث هنا بدون فائدة ، خصوصاً أننا لو

---

(51) الصحيح أن نقول : فضل على ، كما جاء في القرآن الكريم .

أردنا الاستراضة في متنزهاتها للزمنا الذهاب إليها قطع مسافة لا تقلّ عن 10 كيلومترات . فوعدني أن يرسل إشارة برقية إلى شيكاجو ودانفر Chicago et Danver ليكون على علم من وجود محال خالية بالقطار . فافترقنا على ذلك وذهبت إلى الفندق لكتابة رحلتي في غرفتي ، وإذا بأحد الخدم حضر وبيده بطاقة زيارة أحد السوريين ، فكلّفت مصطفى بك أن يذهب إلى هذا الزائر ويقابله ويعلمه بكل لطف أني الآن متعب ، وفي فرصة أخرى إن شاء الله أقابله . ولمّا اطّلع خيري بك على هذه البطاقة أخبرني أنه يعرف أخاه ، وهو أحد ضبّاط القسم الطبي بالجيش المصري ، ويظن أن صاحب هذا الاسم يكاتب أحياناً جريدة المقطم بمصر ، فقلت له : لك أن تذهب إليه لتعرف الحقيقة . وبعد ربع ساعة نزلت من غرفتي ، فوجدت رفيقي جالسين مع هذا الزائر ، فرأيت أن أقابله ، لا سيّما (أنه) أتعب نفسه بالحضور للسلام علي والسؤال عنّي ، فأشرت إلى زميلي أني مستعد لمقابلته . فحضرا به وقدّماه إليّ فعلمت منه أنه الآن موظّف حكومة بكولورادو اسبرنج . وقد رأيت منه ضعفاً شديداً وعجزاً عن أداء ما يريده باللغة العربية ، فكأنه نسي لغته الشريفة وقد صار يكلّمني باللغة الإنجليزية . أما معرفته اللغة الفرنساوية فقليلة ، وقد حكى لي أنه كان موظفاً بمصلحة الطرق الحديدية المصرية قبل بضع سنوات ، والآن أجل أمانيه العودة إلى بلاد الشرق التي يحنّ إليها ، فتكلّمت معه مدة عشر دقائق خصوصاً عن المعيشة الأمريكية وغلائها ، وعمّا نجده في بلادنا من أن قليلاً من الكسب يكفي لمعيشة أهنأ وأطيب من المعيشة في مثل هذه البلاد التي تحتاج إلى نفقات فادحة . وبعد ذلك انصرفت وتركت صديقي معه . ولمّا أتى ميعاد العشاء تناولناه . وبعد أن استرضنا عشرين دقيقة بجوار الفندق ، صعدنا وافترقنا للنوم .

بعيدا عن السياسة

وفي صباح يوم الجمعة ، 17 مايو ، حضر مخبر الجريدة الذي يريد بأي وسيلة مقابلتي ، فقابلته . وسألته عمّا يرغبه ، فقال لي إنه قرأ في جرائد نيويورك وشيكاجو كثيراً عنّي . وبما أن للأمريكيين مصالح كثيرة في مصر ، فيودّ أن يعرف من أخبارها شيئاً حتى يكتبه في جريدته ليفيد قراءها . فاعتذرت له ببعدي عن المسائل السياسيّة ، وفهّمته أني لم أحضر إلى أمريكا لأي غرض سياسي ، بل كل ما أقصد السياحة ، فلم أرد الكلام معه في هذا الموضوع ، لقبوله التفسيرات الكثيرة التي

تتوسع فيها الجرائد على حسب ما تهوى ، ولما في ذلك من التعرّض لعدم استحسان بعض المشتغلين بهذه المسائل ، فيكثر القيل والقال والأخذ والرد . وربّما ينسب إلى حديثي ما لم أقله ، فمالي ولهذه الشؤون المقلقة التي ليس وراءها جدوى .

انتقلنا من هذا الحديث إلى موضوع ري الأرض ، ولمّا أراد معرفة أي الطرق أوفى بالغرض وأنفع للزراعة أخبرته أني أبلغ من العمر نحو الست والثلاثين سنة ، وفي خلالها سمعت كثيراً عن أحوال الري ، ولا أعلم أي الطرائق المصرية أم الهولندية أم الأمريكية كانت أحسن نتيجة من غيرها . وظنّي أن كل بلدة ترى أن طريقتها أتم وأكثر اتقاناً من طرق البلاد الأخرى . وقد ضربت له مثلاً اختلاف أفكار المهندسين في هذا الموضوع ، وقلت له : كيف لي أن أحكم في هذا الموضوع ، والخصيصون به إلى الآن لم يهتدوا ويتّفقوا على طريقة واحدة؟ فإن كل مهندس يرى أفكاره وطرائقه في الري أحسن من أفكار الآخرين ، ولو أنهم في بلدة واحدة ، فما بال الطرائق المتعدّدة التي تتبعها البلاد المختلفة . وبعد ذلك رجوته ألا يكتب في جريدته ما دار بيني وبينه من الحديث ، ثم تكلّمت معه عن سياحتي وعمّا لقيت من حسن مقابلة الأمريكيين ، ولطفهم الذي جعلني أمحو ما علق بفكري من كل ما قرأته في الجرائد والمؤلفات الكثيرة التي طالما كتبت عمّا يلاقيه السائح من الصعوبات في أمريكا وغيرها . وقد أخبرته أني أفضل الأمريكي الساذج بأخلاقه السهلة على الأمريكي المثري صاحب المليارات الذي يتغلب عليه الكبر فيتيه عجباً . وقد أظهرت له ما أخذته على أمثال هؤلاء الأغنياء الذين يذهبون كثيراً إلى أوربا للإقامة فيها رغبة في الظهور ، فإن أموالهم الطائلة تجعلهم هناك من أصحاب المنازل الرفيعة حتى يُشار إليهم بالبنان ، فيلاقون من الاحترام والإكرام ما لم يحلموا به في بلادهم الواسعة التي بها كثير من أمثالهم مّمن يفوقونهم في الثروة . وإن كان لهم شيء من الشهرة في بلادهم ، فهي محصورة في دائرة أشغالهم بين من لهم ارتباط بأعمالهم ، فلا يعرفون بين الأمريكيين مواطنيهم إلا باسم (المستر فلان صاحب معامل كذا ، أو المستر فلان مالك أراضي كذا) . وبما أن الأغنياء في أمريكا كثيرون ، فوجودهم في بلادهم لا يوجّه الأنظار إليهم . كذلك السيدات المثريات الشهيرات بجمالهن يذهبن أيضاً إلى أوربا ، فتكتب عنهن الجرائد وتفتح أمامهن الأبواب ، وتتسابق إلى معرفتهن أصحاب الألقاب الضخمة ، فتنشرح صدورهن وتحلو لهن الإقامة بتلك الديار التي يجدن فيها كل أسباب السعادة والهناء . فالفرق إذاً عظيم بين وجودهن في أمريكا الواسعة التي

لا تشعر بمقدارهن لكثرة أمثالهن وبين وجودهن في أوربا ، موضع الإجلال والاحترام التي تسطع أنوارهن فيها ، ويظهرن في سمائها كأنهن الأقمار .

انتقل بنا الحديث إلى أحوال الجوّ وتغير الطقس ثم إلى أنواع الفواكه والخضر ، فقلت له في ذلك إن كل شيء في أمريكا كبير مجسم حتى فواكهها فإنها أكبر من فواكه البلاد الأخرى ، فكأن الطبيعة أرادت أيضاً أن تخرج من نباتها أثماراً تشبه أخلاق الأمريكيين المغرمين بكل شيء كبير . ولكن مع الأسف أراها حسنة المنظر قليلة الحلاوة ولذاذة الطعم . افترقنا بعد هذه المحادثة وذهب إلى حال سبيله مسروراً . أما نحن فعوّلنا على زيارة حديقة الآلهة Jardin des Dieux التي تبعد اثني عشر كيلو متراً ، فاستأجرنا سيارة وسرنا إليها مخترقين شوارع المدينة ، مارّين على كولورادو سيتي . وفي ابتداء الطريق الموصل إلى الكريستال بارك الذي سبق الكلام عليه سرنا إلى جهة اليمين ، وهناك أيضاً المدخل ملك خاص لأحد الألمان ، فوصلنا إلى حديقة غريبة الشكل صخورها منتشرة ومتفرّقة ، وكلّها ذات لون أحمر قاني كَلَوْنِ القرميد ، فكان لون السماء الأزرق الصافي وأشعة الشمس الذهبية المنبعثة على هذه الصخور تجعل المنظر بديعاً رائعاً . وقد أخذ سائق سيارتنا يقول لنا انظروا إلى هذه الصخرة إنها تشبه الجاموس الوحشي ، وإلى هذه فإنها تشبه السلحفاة ، وإلى الثالثة التي أمامنا إنها كجملين يتعانقان ، وإلى الرابعة البعيدة عنها قليلاً إنها تمثل امرأة إيرلندية وهي تغسل . وقد وصل به خياله أن نظر إلى صخرة وقال : ما أقرب الشبه بينها وبين أبي الهول ، إنها تشبهه من كل وجه . وأخيراً وصلنا إلى صخرتين قائمتين كهيئة باب يُسمُّونه باب حديقة الآلهة ، فقربنا من خص (كشك) هناك خرج منه شيخ أراد أن يبيعنا صوراً فوتوغرافية ، فسألته : هل أنت ألماني؟ فأجابني بالطبع . ولم أعرف سبباً لجوابه إلا افتخاره بعظمة ومجد أمّته وبالشرف الذي يلحقه بالانتساب إليها . وقد سألني هو أيضاً : هل أنتم فرنسيون؟ فأجبته : إننا مصريون . فظهر لي من هيئته أنه قد لا يعرف بلادنا وموقعها في الدنيا ، فاشتريت منه مجموعتين بهما مناظر حديقة الآلهة . وقد قال لي سائق السيارة : إن لهذا الألماني 40 هكتاراً من حديقة الآلهة ، وباقيها ملك لكولورادو اسبرنج ، وهو يكتسب من الصور التي يبيعها للسائحين . وبعد ذلك استمررنا في طريقنا وعاد السائق إلى ديدنه ، فأخذ يلفت أنظارنا إلى الصخور التي تشبه الأسد وغيره من الحيوانات ، إلى أن صرنا قريبين من بعض صخور غبراء اللون ، فجعل موقعها بين باقي الصخور الحمراء المنظر بديعاً . فلاختلاف أشكال هذه

الصخور وألوانها ، اعتبرتها الهنود القدماء ذات الجلد الأحمر حديقة الآلهة . هذا وقد لفت نظرنا في هذا المكان صخرة هائلة قائمة على طرف صخرة أخرى وهي مائلة إلى جهة الأرض ، فيُخيَّل إلى الناظر إليها أنها على وشك السقوط لضعف مركزها . وظنّي أنه إن حصلت زلزلة بهذه الجهة ، فلابدَّ أن تذهب بهذه الصخور .

خرجنا من زيارة هذه الحديقة وسرنا شمالاً فوصلنا إلى حديقة طبيعية ملك للجنرال بالمر General Palmer ، ففي مدخلها وجدنا خصّاً (كشكاً) للبوّاب ، وهي تستحق الزيارة لشدّة الاعتناء بها . وقد نظمها هذا الجنرال وأحكم تنظيمها لمّا كان قومنداناً لهذا الموقع ، وقد توصّل إلى اقتناء ثروة عظيمة تُقدَّر بالملايين . هذا ، وقد فاتني أن أذكر أننا قبل مدخل هذه الحديقة ، رأينا بناء صغيراً جعله الجنرال مدرسة لتربية أبناء مستخدميه .

إن هذه الحديقة تشبه باقي الأمكنة المجاورة لها ، فن بها صخوراً قائمة مكوّنة لأشكال مختلفة ، بعضها أحمر وبعضها الآخر أغبر ، غير أنها تزيد عن غيرها بوجود أشجار بين هذه الصخور ، ونبع صغير يجري ماؤه ، فاكتسبت جمالاً وزادت حسناً . وقد تصورناها بعد أن تورق أشجارها ، وحكمنا أنها لابدَّ من أن تكون آية في البهاء ، لاسيَّما أن القصر المشيَّد بها ، المتخذة أحجاره من صخور رصاصية اللون ، أبعد عنها وحشة العزلة والانفراد .

إن هذا القصر كان يسكنه الجنرال بالمر وقد تُوفي منذ سنتين ، ولم تفتح أبواب هذه الحديقة لعامة الزائرين إلا من ابتداء السنة الماضية . هذا وقد رأينا غير ما ذكر مصابيح كهربائية منتشرة بين الأشجار محكمة الوضع ، وأظن أنها إذا أُضيئت ليلاً تكون ذات بهجة فتسرُّ الناظرين . وقد ترك الجنرال ثلاث بنات : اثنتان منهنّ متزوجتان بأمريكا والثالثة تقيم الآن بمدينة لوندره .

بعد أن أتممنا زيارتنا بهذه الحديقة عدنا من طريق آخر مستوٍ يرى منه منظر المدينة ، ووصلنا إلى الفندق نحو الساعة الحادية عشرة والنصف ، فصعدنا إلى غرفنا لإزالة ما علانا من التراب ، ولنهيئ أنفسنا لتناول الغداء .

أثرياء وحالمون

ولما كنّا ننتظر مساء ماذا تَمَّ في شأن السفر فبعد الظهر لم نرد الابتعاد كثيراً عن الفندق ، واكتفينا بركوب عربة للرياضة داخل البلد التي وجدناها مستطيلة قليلة

العرض . وقد مررنا في وسط شارع عظيم على جانبه منازل (فيلا) صغيرة محكمة التشييد والتنظيم . وهذا الحي هو مسكن بعض الأغنياء ، أصحاب القناطير من الذهب التي اكتسبوها من استخراج المعادن . وقد علمنا أن أعظمهم ثروة يدعى المستر بورنس ، وقد كان في الزمن السابق (لمبجي) مشهوراً بإدمانه الخمر وإفراطه في سكره ، فساق إليه حظّه تكشيف منجم أكسبه هذه الملايين الكثيرة . نعم إن أغلب المعادن تمتلكها الشركات ، ولكن أكبر المساهمين فيها هم الأغنياء . والطريقة المتّبعة في أمريكا أن أي شخص يثبت للحكومة أنه صرف مبلغ 500 دولار ، أي مائة جنيه في البحث عن معادن أو غيرها وأتت هذه المباحث بفائدة ، تعطيه الحكومة في بقعة بحثه ما مقداره عشرة هكتارات . ولاشك أنّ الباحث ، إذا رأى فائدة من امتلاكه ما يجاور ما منحته الحكومة ، لا يلبث أن يشتري ما يراه نافعاً له منها بدون صعوبة . إن مدينة كولورادو اسبرنج مشهورة بمناجمها الغنية ، وقد كانت سبباً في إثراء كثير من المشهورين بالثروة في أمريكا ، ولكنّهم رغماً من ذلك لا يصرفون في إصلاحها شيئاً . وإن هم إلا رجال أعمال ، فكلّما زادت أموالهم اتسع مجال أطماعهم ، ولا همّ لهم إلا مضاعفة ثروتهم ، فلا يشتغلون إلا للجمع والادخار كأنهم خلقوا ليملكوا زمام الأموال . وقد بنى هنا المستر بورنس ملهىً صغيراً جميلاً ، لا للمنفعة العامّة ، بل لمّا سيدره عليه من الأموال عند افتتاحه .

هذا وقد رأينا بكولورادو اسبرنج طريقة غريبة لرشّ الشوارع ، وهي أن تمر عربة من عربات الترامواي وبها صهريج كبير مملوء ماء ، فترشّ الشارع على عظيم سعته . وقد لاحظنا أيضاً طريقة أخرى لتنظيم الشوارع وجعلها في مستو واحد بسرعة عظيمة ، وهي : عربة كبيرة تجرُّها عشرة أفراس ، وفي آخرها من الخلف محراثان من الحديد لقلب الأرض ، وهما موضوعان بميل حتى إذا مشت العربة زادت طبقة الأرض المزالة فتسقط على بساط دائر أيضاً يحمل الأتربة ويسير به إلى الأمام ،فتجتمع في مقدمة العربة . وهناك مجرى بارز على جانبها الأيمن تمجّ منه الأتربة المتراكمة ، فتأتي عربة صندوق تمشي تحت مصبّ هذا المجرى وتتبعها عربات أخرى مثلها . وكلما امتلأت الأولى أسرعت لتفريغ حمولتها وأخذت مكانها عربة أخرى ، وهكذا . . فتحرث الأرض وتزال طبقة من وجهها وتحمل الأتربة ، كل ذلك يتم في آن واحد . وقد رُبط في مؤخر هذه الآلة أربعة أفراس لحفظ الموازنة وجعلها تمشي على خط مستقيم . فتأمّل إلى أي غاية وصل استعمال الآلات المسهلة للأعمال ، حتى استخدمت في

تنظيم شوارع المدن . لازلنا في رياضتنا هذه داخل المدينة إلى أن أخذ المطر ينهمر . ولمّا كانت عربتنا مكشوفة ولم يكن معنا مطريات (شمسيات) نتّقي بها المطر ولا (ماكينتوشات) اضطررنا أن نضع أحلاس الخيل (أشلال) القذرة على رؤوسنا نتقي بها الأمطار . وكان منظر رفيقنا مصطفى مضحكاً جداً ، فإنه قبع في حلس (شل)[52] كما يقبع القنفذ في إهابه حتى اختفى ، فلم يبدُ منه إلا عيناه فتذكرت حالتنا وشبّهتها بحالة الفقراء بمصر عند هطل الأمطار ، وهم يضعون ثيابهم (جلاليبهم) على رؤوسهم . وكان بودّي أن تُرسم صُورنا ، ونحن على هذه الحالة حتى يكون عندنا أثر وتذكار لهذه الاستراضة . وعدنا مسرعين إلى الفندق على آخر سرعة الخيل .

ولما جاءت الساعة السادسة ذهبنا إلى مركز أسفار السائحين للسؤال عمّا تمّ في شأن تقديم ميعاد سفرنا ، فأخبرنا أنهم لم يجدوا محال خالية تكفينا . ومن عجيب أمرهم أنهم قبل أن يصلهم أخبار عن إمكان سفرنا ، وقبل أن يعلموا هل كنّا نقبل السفر بهذه الطريقة الصعبة ، أرسلوا إشارة برقية إلى شيكاجو أعلنوا فيها أننا استغنينا عن محالنا القديمة . فساءني هذا التصرف المدهش ، وسألتهم : كيف رأيتم أنه يتيسر لنا السفر ما دمنا ثلاثة ولم تجدوا إلا محلّين مع ما فيه من كثرة الانتقال من قطار إلى آخر؟ فطلبت إعادة محالنا القديمة إلينا ، فأخبروني بأنهم مضطرون إذاً إلى إرسال إشارة برقيّة أخرى إلى شيكاجو حالاً لإعادة محالنا القديمة . فتكدّرت من هذه الحالة ، إذ يجوز معها أن لا يتيسر لنا السفر في يوم 20 فنضطر إلى الإقامة بهذه البلدة إلى الأسبوع التالي ، فأين نقضي أوقاتنا إذا قدّر ذلك؟ ونحن من الآن أخذنا نشعر بالسأمة من الإقامة فيها . ولما رأوا استيائي من تصرفهم قالوا إنهم سيبذلون كل ما في وسعهم لإعادة محالنا إلينا . ورغماً عمّا بدا لي من اهتمامهم وتأكيدهم لم أطمئن ، ولم أثق باستطاعتهم إرجاع هذه المحال ، فعدت إلى الفندق مغموماً وجلست مع رفيقي في طنفها (فيراندتها) ، وإذا بسيدة صارت تقترب منّا فرأيت من هيئتها أنها ليست أمريكية ، وذلك لسواد عينيها وشعرها وميل لونها إلى السمرة . وقد أصاب ظنّي فإنها لما سمعتنا نتكلّم بلغتنا العربية ، جاءت إلينا مسرعة تخاطبنا بهذه اللغة الشريفة ، فعلمت من ألفاظها ولهجتها أنّها سورية . وكنت لا أتوقع أن أجد في كولورادو اسبرنج سيّدات سوريات ، فعلمت منها أنها تاجرة ، ولها محل تجاري في البلد ، وآخر في الفندق .فسألتها عن حالتها وهل تجارتها

---

(52) الشل وجمعها أشلال (عامية) وفصحاها : جل ، وجمعها جلال وأجلال .

رابحة ، فأخبرتني أنها تبيع في السنة بما يزيد عن الألف والخمسمائة جنيه ، ولكنَّها تشكو كثيراً من غلاء مطالب المعيشة ، فكل ما تكتسبه أو جلّه يذهب في نفقات معيشتها . وقد قالت إنها وفدت مع أسرتها إلى هذه البلدة ، حين بلغت الثانية عشرة من عمرها ، ولم ينسها طول غيبتها عن وطنها هذه المدّة لغتها الأصلية ، ولم تزل تحنُّ شوقاً إلى بلادها . أما والدها الذي يبلغ من العمر عتيًا ، فإنه لازال يتذكّر وطنه ، ويترقّب الفرص التي تمكّنه من العودة إليه . وقد رجتنا أن نزور دكّانها الذي بالفندق ، فأجبناها إلى ما طلبت ، فدخلناه ومكثنا به قليلاً ، فرأينا فيه ما تبيعه ، فشجعناها على عملها واستحسنًا فكرة والدها ، ورغّبناها في تحقيق أمنيته بعد أن تجمع من المال ما يكفيها للإقامة في سوريا ، وبعد ذلك عدنا إلى مكاننا .

ومن باب الفكاهة أذكر هنا حادثة يعلم منها القارئ أن في أمريكا كثيراً من الناس يعيشون ، وباب الأمل في الحصول على الثروة مفتوح أمامهم ، ولو كانوا من الإملاق بمكان عظيم . قرب منا بوّاب الفندق ، وهو إنجليزي الأصل ينطق وجهه بما هو فيه من الفقر المدقع وسوء الحال ، فأخبرنا أنه كان مستخدماً في الجندية ببلاد الهند ، ووفد على أمريكا من منذ أربع وعشرين سنة . فسألته ألم يحصل إلى الآن على الثروة الكافية ، ولماذا ترك بلاده وفضّل هذه الحرفة على غيرها ، وهلا يمكنه أن يشتغل بهذه المهنة في إنجلترا . فقال لي : عفواً يا سيدي إني مع مائة من أصحابي مشتركون في منجم ذهب ، وستسمع - إن شاء الله - في أول يناير سنة 1913 أن هذا البوّاب الحقير الذي يقف أمامك الآن له دخل سنوي يبلغ ستّة آلاف جنيه . وحينذاك يا سيدي أترك هذه البلاد وأذهب إلى وطني رجلاً من ذوي اليسار ، وأنسى كل ما رأيته في خلال السنين الطويلة التي مضت عليّ ، وأنا أتقلّب على ثرى الفقر . فقلت : إذا كنت واثقاً من بلوغ تلك الأمنية العظيمة وذلك المستقبل الباسم في وجهك ، خصوصاً بعد هذه المدة القليلة جداً ، فَلِمَ إذاً تبقى هنا بواباً مع أن في إمكانك أن تقترض من الآن ما يكفيك لمصروفك ، وتذهب إن أردت إلى بلادك حتى يأتيك دخلك العظيم ، فتسدد ما اقترضته ، وتعيش من الآن متلذذاً بثروتك؟ فأجابني : إني لا أود ترك مهنتي لأنّي أحبها وأعشقها ، ولولا أني في يناير سنة 1913 سأكون ذا ثروة طائلة ، ومن العار على الأغنياء أمثالي أن يحترفوا بحرفة البوابة لما تركتها أبداً . فعجبنا من شعوره الغريب ، ومن تلك الأماني الباطلة التي جَسّمها له الوهم حتى جعلها في نظره حقيقة ثابتة لا ريب فيها ، فبنى عليها ما بنى من سعادة مستقبله .

فتأمّل في الأمل ، وكيف يُسهِّل المعيشة ، ولولاه لما كان كثير من أمثال هذا التعس في أمريكا يطيقون الحياة التي كلّها شقاء .

أعلل النفس بالآمال أرقبها
ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل[53]

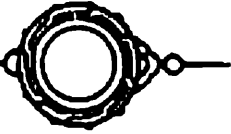
أتى ميعاد العشاء فذهبنا إلى المطعم ، وبعده صعدنا إلى مضاجعنا . وفي صباح يوم الجمعة 18 مايو سألنا من مكتب الاستعلامات هل بقي لنا شيء يهمنا زيارته ، فأشار علينا العامل الذي كان بهذا المكتب أن نذهب إلى (Sud Canyon, Nord Canyon et les 7 cascades) في ضواحي البلدة . ولمّا كان الذهاب إلى هذه الأمكنة وزيارتها يستغرقان أربع ساعات ، قررنا أن نغادر الفندق الساعة الثانية بعد الظهر للذهاب إليها . وقضينا الوقت الذي كان باقياً على الميعاد في شراء بطاقات البريد (كارت بوستال) وبعض جرائد أمريكية . ولمّا قربت الساعة الثانية عشرة ذهبنا لتناول غدائنا ، وفي الساعة الثانية أعدّ لنا عربة أمريكية ذات ثلاثة مقاعد يتلو بعضها بعضاً ، وكل مقعد يسع اثنين . فهي إذاً تسع ستّة أشخاص من بينهم السائق ، وقد كانت تشبه الشربان Charaban غير أن عجلاتها دقيقة كالطراز الأمريكي ، يجرّها فرسان ذهب الكبر بلونهما الأزرق الأصلي ، واستحال إلى أبيض ذي نقط حمراء . فتوكّلنا على الله ، وركبنا هذه العربة وسارت بنا . وقبل الوصول إلى الأماكن المهمّة ، كان يلزمنا أن نقطع ثلاثة أميال إنجليزية لنصل إلى مكان يُسمّى شيين Cheyenne به جملة من الأكواخ الصغيرة متجاورة كأنها الخيام ، وبها يقيم المصابون بداء السل . وقد علمت أن بعض أشخاص أصحاء يسكنون أيضاً هذه الجهة ، فلم أدر كيف يأمنون على أنفسهم من الإقامة في هذا المكان المملوء بالجراثيم الفتّاكة . أفلا يخافون العدوى ، خصوصاً على أولادهم الصغار الذين لا يميّزون بين النفع والضرر ، ولا يعرفون هذا المرض القاتل حتى يتّقوا شره؟

مررنا بعد ذلك على متنزه جميل به أراجيح وألعاب أخرى للتسلية كالجبال الروسية Montagnes Russes وغيرها ، ويقصده سكان المدينة أيام الآحاد للرياضة وقضاء الوقت في لهو ولعب . ولمّا قربنا من مدخل المضيق Entrée des deux Gorges رأينا إصطبلاً كبيراً به عربات كثيرة وخيل وحمير أعدت ليستأجرها الذين يريدون

---

(53) هذا البيت للمتنبي .

الرياضة في هذا المكان . وقد لاحظنا أن هذه الحمير لها وبر طويل كأمثالها في أوروبا ، وليست سريعة السير ، وما الغرض من ركوبها أيضاً إلا التمتع . هذا ، وقد صادفنا أثناء مرورنا ثلاث فتيات راكبات حميراً ، وهنا لا يليق بي أن أصف حالتهن ، وكيف كنّ على هذه الحمير .



صعود شاق

وصلنا إلى المضيق الجنوبيّ Sud Canyon فوجدناه جميلاً . وأخذنا نسير بجانب مجرى صغير ، ونمرُّ على أشجار شتّى وصخور كثيرة . وقد كان الطريق يضيق بنا تارة وينفرج أخرى ، إلى أن وقفنا أمام باب بجانبه خص (كشك) ، فسألت عن سبب وقوفنا ، فأخبرني سائق العربة أنه يلزم دفع 50 سنس[54] (نصف ريال) عن كل شخص ، لأننا من بعد هذا الباب سنسلك طريقاً مملوكاً لبعض الأهلين لا للحكومة . وقد حكى لي أن المجلس البلديّ لكولورادو أراد أن يشتري هذا الطريق وما يجاوره من الأراضي من أصحابها ليجعله متنزّهاً عامّاً ، ولكنّهم لمّا طلبوا 200,000 ريال ثمناً ، رأى المجلس ذلك الثمن كثيراً جدّاً فعدل عن الشراء . وقد علمنا أن عدد الزائرين كل سنة الذين يدفعون كل شخص نصف الريال يبلغون خمسة وسبعين ألفاً ، فهذا الدخل ولاشك عظيم جداً . بعد أن مررنا من الباب تجلّى أمامنا جمال هذا الموقع وبهاؤه ، ولو كنت مكان هؤلاء الملاك لما فرطت في هذا الكنز الثمين ، ولو دفع إليّ فيه ثمن عظيم . وبعد مسير خمس عشرة دقيقة وصلنا إلى جندل (شلال) على مقربة منه خص (كشك) يباع فيه بطاقات البريد (كارت بوستال) وأشياء أخرى . ولا يرى الإنسان هناك منظراً جميلاً إلا إذا رَقِيَ 100 درجة من سلّم خشبيّ ثابت يصل إلى قمة الجندل ، لا يقل عدد درجاته عن ثلاثمائة . فنزلنا عن عربتنا وذهبنا إلى هذا السلّم الذي كان في فضاء تحته رجل معه آلة تصوير ، وبجانبه حماران أحدهما أبيض والآخر أسود ، فلم نلتفت إليه ولا إلى حماريه لأن هذا لا يهمُّنا . وأخذنا نصعد فكنت أنا الأول ، ويتبعني خيري ثم زميلنا مصطفى بك ، فأسرعت في الرقيّ .

---

(54) وردت هكذا في النص أكثر من مرة ، وفي أستراليا ما زالوا يستعملون اللفظ ذاته . والصحيح سنت cent ويساوي 100/1 من الدولار .

ولصعوبة الصعود في هذا السلّم لقلّة[55] انحداره ، رأينا آخرنا يلهث تعباً يعاني في رفع قدميه كأنهما مثقلتان برصاص إلى أن وقفت مفاصله وخارت قواه ، فلم تساعده على الاستمرار ، فجلس على إحدى درجات السلّم خائراً هامداً مصفرّاً . وصار صدره يصعد ويهبط بسرعة من كثرة التنفس بخلاف خيري الرجل العسكري ، فإنه لقوّة جسمه لم تؤثر فيه صعوبة الرقيّ . أما أنا فحالة رفيقنا مصطفى أضحكتني كثيراً حتى ذهب الضحك بقوّتي ، فلم أقدر أن استمر . وعلى ذلك قعدنا قليلاً على دكّة من خشب موضوعة للاستراحة . ثم عاودنا الصعود إلى أن وصلنا إلى نهاية السلّم ، فرأينا حقيقة منظراً يستحق هذا التعب الشديد . فإن الماء كان صافياً ، والمكان كان محاطاً بالثلوج . وأينما وجّه الإنسان نظره لا يرى إلا جمال الطبيعة . وقد وجدنا قريباً من الجندل شجرة مرشوقة بعدد عظيم من بطاقات الزيارة لأولئك الذين وصلوا إلى هذا المكان ، فتركوها هناك تذكاراً وأثراً لتحمّلهم مشاق الصعود ووصولهم إلى منتهى السلّم . وبعد أن ملأنا أعيننا من مشاهدة هذه المناظر نزلنا إلى حيث أتينا ، ولكن النزول أيضاً كان صعباً لوضع السلّم عمودياً . فبعد الجهد الجهيد وصلنا إلى أسفله ، وركبنا عربتنا للذهاب إلى المضيق الشمالي . وفي الطريق كان يروقنا أيضاً المناظر الطبيعية اللطيفة .

ابتدأنا في دخول المضيق الشمالي N. Canyon ، وقد لاحظنا أنه ليس ضيّقاً كثيراً ، وصرنا نصعد تدريجيّاً . ولكن ذلك المضيق ، على ما فيه من بعض السعة ، لا تسلكه سيارة وهي آمنة من الخطر . ولذا لم تأذن الحكومة لسيارة أن تسلكه ، بل جعلته خاصّاً للعربات التي تجرُّها الخيل .

هذا ولشدّة الاحتراس ، ولئلا تحدث حوادث مكدّرة ، جعل طريق للصعود وآخر للنزول . وهذان الطريقان معلومان لكلّ الحُوذيين ، يتبعونهما بنظام مطرد حتى لا تتصادم عربتان أثناء السير .

وقد أنصفت الحكومة في ذلك ، إذ كيف يتسنّى لعربتين أن تسيرا متضادّتين في طريق ضيّق ، حتى لو أراد أحد الحُوذيين أن يدير عربته لما أمكنه ذلك . وقد استمررنا في طريقنا هذا صاعدين ، وكلّما توغلنا فيه حلا لنا المنظر وازداد جمالاً . وقد رأينا أيضاً جملة فُرَج في الطريق ، فتحها أولئك الذين يبحثون عن مناجم الذهب . ولّما

---

(55) الصحيح : لشدة انحداره ، لأن السلم شبه عمودي - كما سيرد بعد قليل .

قربنا من أعلى مكان وقف بنا سائق العربة ووجّه نظرنا إلى أسفل ، فرأينا سهلاً عظيم الاتساع فأعجبنا رؤيته من مكاننا ، لاسيّما أن ظل السحاب يجعله يشبه البحر الزاخر ، فمكثنا قليلاً نمتّع نظرنا بهذا المنظر الحسن . ثم استمررنا في طريقنا إلى أن وصلنا إلى خص (كشك) من خشب تسكنه امرأة عجوز تبلغ من العمر السبعين ويُسمّونها الكابتن جاك Capt. Jacques ، وقد قيل لنا إنها في هذا المكان من مدّة ثلاثين سنة وهي تبحث عن الذهب . والغريب أنها تعيش وحيدة في فصل الشتاء ، ويقيم معها خادمة أو اثنتان على حسب الضرورة في فصل الصيف ، لمساعدتها على خدمة الزائرين الذين يصعدون عادة على أرجلهم إلى هذا المكان . ولبعد المسافة يضطرون إلى قضاء نهار كامل في الصعود والنزول ، فيعرّجون على كوخ تلك العجوز ليشربوا قهوة أو يطعموا طعاماً مما أعدّته هي وخادمتاها لبيعه لهؤلاء الزائرين . من هنا يبتدئ طريق النزول ولانحداره أسرعت الخيل بعض الإسراع ، ومصطفى أخذ يصيح : يا رب ما هذا الشقاء؟ ألم نكن في غنىً عن كل هذه المخاطرات التي تروّعني وتملأ قلبي رعباً واضطراباً؟ ولقد كنّا نصادف مجاري ماء مختلفة بين كبير وصغير ، فكانت العربة تندفع فيها عابرة لها ، وهناك يحدث ارتجاج شديد يزيد اصفرار وجه زميلنا الذي كلّما حدث ذلك ونظر إلى أسفل فرأى الهوة الهائلة التي لا تبعد عن طريقنا بعض سنتمترات يصرخ قائلاً : يا رب ، سلّم ونجّنا من الخطر . لاشكّ أن خوفه هذا لم يكن إلا لأنه لم يرَ من قبل مثل هذه المناظر الرهيبة ، فصرنا نكلّمه حتى نشغله ونبعد عنه الخوف إلى أن نزلنا بحمد الله سالمين . وطريق النزول لم يكن به شيء يستحق الذكر لخلوه من كل جمال ورونق . وبعد نصف ساعة وصلنا إلى الفندق وقد استغرقت هذه الاستراضة أربع ساعات ونصفاً .

وفي مساء هذا اليوم ذهبنا لنستعلم عن أماكننا في عربة النوم ، لعلّنا نقف على ما يريح أفئدتنا ، ولكن عدنا مع الأسف بدون جدوى فلم يصل خبر عن ذلك . عدنا إلى الفندق وتعشّينا وصعدنا إلى غرفنا للنوم والراحة .

مغارة الرياح

وفي يوم السبت 19 مايو ذهبنا صباحاً إلى مكتب الاستعلام للسؤال عمّا تمّ في ما كلفناه به ، فأخبرنا أنه إلى الآن لم يصلهم الجواب ، فتكدّرنا عمّا تمّ من ذلك . وقلت لرئيس هذا المحل : ما العمل إذاً ونحن مصمّمون بعد الظهر على الذهاب إلى

مزار، وأنتم ربما تغادرون مكتبكم، فمن الذي يعلمنا إذا جاءكم خبر؟ فأجابني أن مكتبهم مفتوح إلى الساعة السادسة، وبمجرد وصول خبر يكتب به ويتركه لي في الفندق، فتركناه على هذا الوعد وذهبنا لنستأجر العربة التي كانت معنا بعد ظهر البارحة، وقابلنا السائق، وأخبرناه أن غرضنا رؤية المانيتو Manitou ووليام كانيون Williams Canyon ومغارة الأهوية[56] التي يطلق عليها اسم Winds Cave، واتفقنا معه أن يحضر إلينا نحو الساعة الثانية من بعد ظهر هذا اليوم. ثم عدنا إلى الفندق وجلست في مكان للكتابة في رحلتي إلى أن أتى ميعاد الغداء. وفي منتهى الساعة الثانية ركبنا عربتنا لهذه الاستراضة التي تستغرق ثلاث ساعات، فأخذنا أولاً الطريق التي أوصلتنا إلى حديقة الآلهة، بعد أن تركنا كولورادو سيتي، ولم تنعطف إلى اليمين أو الشمال بل سرنا إلى الأمام متّبعين الطريق الذي به ترام إلى أن وصلنا إلى قرية مانيتو Manitou، ومن العجيب أن هذه القرية يطلق عليها هناك اسم مدينة مع أن عدد سكانها لا يتجاوز سبعمائة نسمة. نعم إنه في فصل الصيف يأتي إليها كثير من السائحين والمرضى للإقامة فيها والاستشفاء بمياهها الغازيّة أو الحديديّة. ومع ذلك لا أرى أنها تستحق اسم مدينة لصغرها. هذا وقد رأينا فيها كثيراً من الفنادق. وكلّها بمقتضى الحال منظّمة لورود عدد عظيم من السائحين إليها. تركنا هذه المدينة أو القرية وذهبنا إلى مضيق ويليامس الذي به بعض أمكنة ضيّقة جداً لا تمرُّ منها العربة إلا بعد عناء شديد بين الصخور. وقد رأينا فيه كما في بقية المضايق بعض مجاري مياه صغيرة، واستمررنا في طريقنا إلى أن وقفت أمامنا عقبة كأداء لقيت الخيل الشدائد حتى اجتازتها، فوصلنا إلى خص فوقفت بنا العربة، وقال لنا السائق: هنا المغارة فإن أردتم فزوروها. ولما كنت قد رأيت كثيراً من أمثال هذه المغارة بل أجمل منها في بلاد النمسا وسويسرا لم أرد أن أضيّع الوقت في شيء لا يستحق قيمة رسم الدخول التي هي خمسة فرنكات عن كل شخص. وذكرت ذلك للحُوذي وسألته عن مقدار علمه بها، فأجابني أنه لا يعرف أهي أجمل من المغارات التي رأيتها أم تلك، ولكن كل سائح يزورها كان يخرج منها مسروراً، فاشتقت إلى رؤيتها وأخذنا تذاكر الدخول، وقيمة التذكرة الواحدة دولار. وهذه المغارة أيضاً ملك خصوصي، وقد رأيت الإقبال على زيارتها كثيراً، فهي إذاً مورد ثروة عظيمة.

---

(56) لعل ترجمة الاسم بـ «مغارة الرياح أو كهف الرياح» ستكون أدق.

ولما دخلناها استصحبنا دليلاً ليرشدنا ويشرح لنا ما يحتاج إلى شرح ، فقادنا إلى رحبة عظيمة مضاءة بالأنوار الكهربائية ، ومنها سرنا في دهاليز بعضها مرتفع وبعضها منخفض ، وقد رأينا فيها أشكالاً كثيرة . كما شاهدنا آثار المياه التي أظن أنها بشدة تأثيرها أحدثت هذه الفتحات ، ورسمت أشكالاً مختلفة ، منها ما يشبه الخفاش وغيره . والذي جذب نظرنا كثيراً وأعجبنا هي أشكال المرجان المتجمعة بكثرة ، والمنظمة تنظيماً بديعاً يجعل الإنسان يعظم قدرة الخالق . هذا عدا أشكال أثمار البحار المختلفة الدقيقة الصنعة ، المنتشرة في كل مكان ، فراقت لي هذه المناظر البديعة التي لم أرها من قبل في مكان آخر . وبعد أن أمضينا زمناً في التمتع برؤية هذه الأشكال الجميلة صعد بنا الدليل إلى سلّم ، فزرنا باقي المغارة المكوّنة من ثلاث طبقات بعضها فوق بعض ، وبه جملة غرف بين صغيرة وكبيرة . وقد كنا في بعض مماشي نضطر للانحناء حتى نستطيع المرور . وقد وجدنا في ركن من أركان هذه المغارة عدداً عظيماً من بطاقات الزائرين (كارتات) مرشوقة في حائطها تذكاراً لشدة إعجابهم بخلقة الإله . كذلك رأينا في حائط آخر جملة من مشابك السيدات التي ينظمن بها شعورهن مرشوقة أيضاً على زعم أن ذلك يجلب السعادة لهن . وقد استخلصنا من ذلك أن العالم مهما وصل من الرقيّ فلا يخلو من المعتقدات التي لا أصل لها ، وهي مختلفة باختلاف الأمكنة والأجناس . فإذاً لا محل للانتقاد على المصريين والمصريات الذين لهم بعض معتقدات تشبه ما رأينا آثاره في هذه المغارة . استغرقت زيارة هذه المغارة ومشاهدة كل ما فيها ثلاثين دقيقة . وإني أعتقد أنه لابدّ أن توجد في تلك الجهة بعض مغارات أخرى تشابهها ، وقد استدللت على ذلك من الفتحات الكثيرة التي رأيناها في جبل هذه الجهة .

أما فكري الخصوصي في هذه المغارة ، فإني مع ما رأيت فيها مما لم أره في غيرها ، أفضل عليها المغارة القريبة من Interlaken بسويسرا لاتساعها ، فإن طولها يبلغ نحو ثلاثة كيلو مترات ، وتجري المياه في جوفها وتكوّن بعض بحيرات تسرُّ الناظرين .

خرجنا من هذه المغارة ، وألقينا نظرنا من مكاننا المرتفع إلى ما حولنا ، فأعجبنا المنظر . وبعد ذلك توكّلنا على الله ، وابتدأنا في النزول إلى مانيتو Manitou فأمضينا عشرين دقيقة للوصول إليها ، وفي نحو الساعة الخامسة وصلنا إلى الفندق ، فأسرعت إلى مكتب الأسفار مع مصطفى بك فعلمت ما سرّني ، وهو أن محالنا في القطار خالية ، وقد أعدّت لنا . فحمدت الله على ذلك ، وعدت إلى الفندق للاستراحة ،

بعد ما اشتريت الجرائد لأقف منها على الأحوال والأخبار . هنا أستميح القارئ أن أذكر له حادثة بسيطة مضحكة ، جرت وقت ذهابنا إلى مكتب الأسفار . عندما وصلنا الفندق تركنا العربة وأحببنا أن نذهب إلى هذا المكتب راجلين . وقد كانت بيدي عصاي التي أتوكأ عليها ، وما كنت أعلم أن الأمريكيين لا يستعملون العصي . فصرنا كلّما مررنا على جماعة تراهم ينظرون إلينا بعين الاستغراب ، ويشيرون إلينا ضاحكين مقهقهين ، فأخذتنا الدهشة من ذلك ، ونحن لا نعلم أسباب هذا الاستغراب ، اللهم إلا إن كانت أشكالنا تخالف ما ألفوا أو هيئاتنا غير منتظمة في نظرهم . فصرنا نتساءل بيننا ، هل فينا ما يوجب هذا الضحك؟ . وأخيراً دقّقت النظر لعلّي أجد السبب فأزيله ، حتى لا نكون موضع التفاتهم ونظرهم وضحكهم ، فرأيت جميعهم لا يمسكون العصي . فبعضهم أيديهم في جيوبهم ، والآخرون قابضون على لفائف التبغ ، وليس بين جميع من في هذا الشارع أحد بيده عصا إلا أنا ، فعلمت السبب . ولكن كيف يتسنّى لي إزالته وأنا بعيد عن محل إقامتي ، فتركتهم وشأنهم غير ناظر إلى ضحكهم ، حامداً الإله أن السبب تافه لا يوجب هذا الالتفات الغريب . فماذا يضرنا لو أنّا في هيئة تخالف هيئاتهم أو على شكل لم يرد عليهم .

نحن في بلادنا لا ننظر إلى هذه الأشياء التافهة ، فكم يمرّ أمامنا غرباء بأزياء غريبة قلّما ننظر إليها أو نضحك منها . وأخيراً وجدت طريقة أخرجتني من هذا الموقف بأن جعلت عصاي وراء ظهري حتى تغيب عن أنظارهم . فما أشدّ استغرابهم لأدنى شيء . بعد أن واريت عن أعينهم ما أضحكهم أخذت أنا أيضاً أضحك من حالهم الغريبة .



حديقة القمر

أصبحنا في يوم الاثنين 20 مايو وهو يوم الراحة ، فأحضر لنا أحد خدام الفندق رسائلنا الواردة إلينا من مصر . وقد أخذت من بينها كتاباً مطولاً كتبه إلي من طرابلس صديقي طاهر بك ، ففضضناها وأمضينا وقتاً في قراءتها والردّ عليه . وقبل الغداء مشينا قليلاً أمام الفندق ، ثم عدنا إليه وأخذنا ما طاب لنا من الطعام . وبعد ذلك عدنا إلى تتميم الإجابة عن هذه الرسائل . وفي نحو الساعة الثالثة طلبنا عربة فركبناها للاستراضة ، وأمرنا سائقها أن يقودنا إلى جهة المضيق الجنوبي ، وإلى الشايين حيث يوجد أجمل متنزّهات البلدة . ولما وصلنا إلى المتنزّه العام وجدناه مملوءاً

بالمتنزّهين الذين كانوا يروّضون أنفسهم بألاعيب مختلفة ، كركوبهم الأراجيح ، ولعبهم كرة القدم وغيرها . وقد شاهدنا مسابقة بين كولورادو اسبرنج Colorado Spring ودنفر Denver في لعب الكريكيت ، وكان المشاهدون كثيرين جداً ينتظرون ، وقد نفذ برهم ليعلموا أيّ الفريقين يتغلّب على الآخر . وقد كان الحماس ظاهراً على الجميع . وإني ممّن يشجعون جميع الألعاب الرياضية ، لأنها في اعتقادي تؤدي إلى تقوية الجسم . ومادام الجسم سليماً فالعقل أيضاً سليم ، خصوصاً وأن هذه الألعاب توصل إلى نتيجة سامية ، وهي أن الإنسان متى شعر بقوة بدنه فإنه يعتمد على نفسه ، ويتربّى عنده الإقدام وهو أساس الفلاح . إننا ، معشر الشرقيين ، في بادئ أمرنا كنّا مهتمّين في أوقات فراغنا بجميع فنون الألعاب الرياضية ، وليس كل ضروب الألعاب الرياضية التي تشتغل بها الآن الفرنجة وغيرهم من مخترعاتهم ، فإن جلّها إن لم أقل كلّها قد سبقهم إليها العرب . وقد كان من زمن ليس ببعيد تخرج الشبان في متنزهات مصر ممتطين جيادهم يلعبون على ظهورها ، فاندثر أيضاً هذا اللعب وأصبحنا لا نرى خيولنا العربية الجميلة منتشرة في متنزهاتنا . فيالله كم نترك من عوائدنا المفيدة .

إننا تهاونا في كل شيء حتى في مسائل تسليتنا النافعة . إني لا أقصد بذلك أن نهتمّ بالألعاب ونترك أشغالنا الجديّة ، ولكنّي أنصح لأبناء وطني الأعزاء أن يعتنوا بأعمالهم النافعة كثيراً ، وأن يجدّدوا أوقات الفراغ ما فقدوه من إتعاب الفكر بالرياضة البدنية المؤدّية إلى الصحة وتمام العافية ، فنعم لهو البال المكدود . قبل أن نصل إلى هذه المتنزّهات ، مررنا في طريقنا على ما يُسمُّونه وادي[57] القمر (لونا بارك) Luna Park وقد كان الجمع هناك أيضاً عظيماً ، وحول كل لعبة عدد كبير من المشاهدين . فالأمريكيون ، على شدّة حرصهم على أوقاتهم الثمينة ، لا يبخلون على أنفسهم بما ينسيهم أتعاب الحياة في أيام البطالة . والحمد لله لم تحرم مصر أيضاً من وجود مثل هذا المكان . وإني لا أنتقد على الذين يذهبون إليه على شريطة المحافظة على آدابنا الشرقية العالية . عدنا بعد ذلك من طريق آخر غير الذي أتينا منه ويُسمّى برود مور Broad moor ، وعلى مرتفع منه فندق به كازينو لا يفتح إلا في فصل الصيف . وقد

---

(57) الترجمة الصحيحة : حديقة القمر ، وتعني في المصطلح الحديث (مدينة الملاهي) وسوف يتكرر خلل الترجمة في النص .

رأينا فيه بحيرة صناعية جميلة . والحق يقال ، إن موقع هذا الفندق صحي لجودة الهواء . وقد رأينا قريباً من هذا المكان منازل مشهوري الأغنياء ، وأخصُّ بالذكر أحدهم المدعو المستر بالدوين Baldwen فإنه صرف مليون دولار في بناء تريانون تشبّهاً بملوك فرنسا العظماء . ولكن أنّى له أن يصل إلى أمنيته وغابات فرساليا العظيمة الجميلة ومتنزّهاتها البديعة لا تحيط ببنائه الشائق الذي يشبه حقيقة من الخارج بناء فرساليا . إن مقدرته لم تمكّنه من الإحكام في محاكاة ما فعله أولئك الملوك ، بالرغم مما صرفه من القناطير المقنطرة من الذهب في تشييد قصره الخالي من مناظر فرساليا الفريدة . وقد رأينا أيضاً قصراً كبيراً لأحد مشهوري الأغنياء الذي لابدّ أن يكون قد صرف في بنائه مبلغاً جسيماً ، ولكنّه لم يفكر في حلية القصور وهي المتنزهات والحدائق . وفي نظري أن القصور العالية ، مهما وصلت من الإتقان فإنها لا تكمل إلا إذا كانت محاطة بهذه الحلي التي أراها متمّمة لجمالها .

هذا ما رأيناه في يومنا . ولا تسل عن عدد الكنائس في هذه المدينة ، فإنه لا يحصى . وقد لفَت نظرنا ، حين عودتنا إلى الفندق ، بناء محفل ماسوني جميل الشكل .

وصلنا إلى الفندق نحو الساعة الخامسة ، وأمضينا باقي نهارنا في الأخذ بأطراف الأحاديث بيننا .

أصبحنا في يوم الثلاثاء 21 مايو فباكرنا بالذهاب إلى مكتب الأسفار لأعلم هل حدث تبديل في نمر أسرّتنا والغرفة المخصصة لي ، ولكن ولله الحمد لم يحصل تغيير كبير إلا في سرير واحد أعطى لنا بدله . وبعد ذلك جلنا جولة في المدينة . ثم عدنا إلى الفندق وأخذنا مكاننا في طُنُفِهَا (فيرانده) ، فأتت إلينا التاجرة السوريّة التي تكلّمتُ عنها قبل ، وقدّمت لنا عدداً عظيماً من جرائد سوريا التي وصلتها في البريد الأخير ، وبينها جريدة من جبل لبنان . فشكرتها كثيراً ، وحمدت لها تمسّكها بحب بلادها ، وتعلقها بشؤون وطنها ، مشجعاً إياها أن تستمر على قراءة هذه الجرائد العربيّة ، حتى لا تنسى لغتها الشريفة المحبوبة .

بعد الغداء شرعنا نرتّب أمتعتنا . وبعد أن أتممنا ترتيبها سلّمنا الكبير من حقائبنا إلى بوّاب الفندق لتسفيره إلى لوس أنجلوس Los Angeles . ولمّا كان قطارنا يقوم في نحو الساعة السابعة والنصف مساءً سألنا ، هل يوجد به عربة أكل؟ فأخبرنا بعدم وجودها . فأوصينا أن تهيّأ لنا سفرتنا الساعة الخامسة والنصف . وقد بادرنا إلى

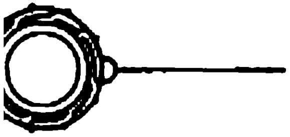
محل العشاء ، إذ في مطاعم هذه البلاد لا يقدَّم للإنسان مطلوبه إلا بعد نصف ساعة على الأقل من وقت جلوسه على المائدة ، فاحتطنا لأنفسنا حتى لا يضيع الوقت علينا . ولكن بعد ذلك حضر إلينا بوّاب الفندق ونصحنا أن نتناول عشاءنا في مطعم المحطّة (البوفيه) فقبلنا نصيحته لاسيّما وأن في ذلك تغييراً في الحالة ، ربما نقف منه على شيء جديد من العوائد التي لم نرها إلى الآن ، فألغينا أمرنا الأوّل . وفي الساعة الخامسة والنصف ، خرجنا من الفندق إلى المحطة راجلين ، بعد أن أوصينا بإرسال باقي أمتعتنا الخفيفة إليها قبل ميعاد السفر ، فوصلنا إليها بعد خمس عشرة دقيقة . وهذه المحطة تابعة لخطوط (سنتافيه) الموصلة إلى جنوب كاليفورنيا ، وهي غير المحطة التي أتينا منها . وقد وجدناها أنظف قليلاً من باقي المحطّات الأخرى ، فدخلنا المطعم فراقتنا نظافته أيضاً . وقد رأينا من يقوم بشأن الخدمة فيه خادمات مرتديات ملابس ذات رُواء . وأوّل ما وقع نظرنا عليه ترتيب ووضع أنواع الفطير والحلوى المختلفة الأشكال ، فطاب لنا النظر إليها وودنا أن نتناول شيئاً من كل نوع . فجلسنا بعضنا بجانب بعض ، وكل طلب ما اشتهاه ظاناً أنه سيتمتع بأحسن ما عملته أيدي طباخي أمريكا ، ولكن منظر هذه الأشياء كان أجمل من طعمها .

وبالاختصار فرغنا من عشائنا ، ولم يبقَ على ميعاد سفرنا إلا عشرون دقيقة . ولمّا حضر القطار أسرعنا لأخذ محالنا بعد أن رتّبنا حقائبنا ، وصرفنا الحمّالين بعد أن أعطيناهم أجورهم . تحرك القطار في ميعاده ، وكان ذلك في وقت الغروب ، فلم أرَ شيئاً يستحق أن يذكر في رحلتي . وأوّل محطّة وقفنا عليها كانت محطّة بويبلو Pueblo ، وهي مدينة عظيمة بها 40,000 نسمة ، وبها معامل عظيمة لأنواع الحديد الصلب والزهر ، وبها أيضاً بناء شاهق Mineral Palace سطحه مكون من 28 قبّة ، كلّها مرصّعة بأحجار كولورادو اسبرنج الجميلة الخاصّة بهذه الجهة . أما ضواحي هذه المدينة فإنها غنية بمناجم الفحم وغيره من باقي المعادن ، وقد رأينا Pueblo (بويبلو) ليلاً ، وهي مضاءة بالأنوار الكهربائية الساطعة ، تخترقها الشوارع المتّسعة المنظمة التي تكثر فيها حركة المركبات الكهربائية ، فشعرنا بكبرها وشهرتها .

وبعد أن غادرنا هذه المدينة أردنا النوم ، ولكن من أين تأتينا الراحة وكلّما يقف القطار أو يتحرك نشعر برجّة شديدة ، وصدمات يتلو بعضها بعضاً حتى يكاد الإنسان أن يقع من سريره . فما أصعب هذه الحالة ، خصوصاً إذا أغمض المسافر عينه ونام فإنه يقوم مذعوراً خائفاً ، وقد خيِّل إليه أن مصادمة حدثت . وأرى أن من حقّ المسافر

على هذا القطار ألا يدفع أجرة سريره لأنه لا يجد من الراحة ما يستحق هذه الأجرة .

وقد أيقنت وقت حدوث إحدى هذه الرجّات الهائلة أن قطارنا مال عن طريقه . ولم يذهب ذلك عن فكري وتطمئنّ نفسي إلا بعد أن رأيت أن قطارنا لم يزل مستمراً في سيره . وقد كنّا نتبع في طريقنا منحنيات كثيرة ، ففوق تلك الرجّات المتوالية كنّا نهتزُّ كأننا في باخرة تلعب بها أمواج البحر المتلاطم . وعربتنا كانت الأخيرة ، فكان اهتزازها أشدّ من اهتزاز سائر العربات . فتصور أيها القارئ حالتنا هذه ، فهل ترى فيها قليلاً من الراحة .



قرى الهنود البائسة

قمت يوم الأربعاء «22 مايو» مبكراً ، ولم تأتِ الساعة السادسة حتى كنت مرتدياً ملابسي ، وخرجت فوجدت صاحبيّ جالسين على استعداد في مكانهما . فسألتهما عمّا تمّ لهما في هذه الليلة ، فأخبراني أنّهما لم يذوقا طعم النوم ، وقد تسبب عن ذلك مرض مصطفى بك . وفي الساعة السابعة أعدّ الأكل في عربته فذهبنا إليها لتناول القهوة ، وصرنا نرى أنّنا نسير في أراضي مستوية يظهر على سكانها الفقر ، فإن منازلهم حقيرة مبنية بالطين تشبه منازل فقراء فلاحي مصر . فسألت عن أحوالهم ، فقيل لي إن أغلب سكان هذه الجهة من الفقراء .

وصل بنا القطار إلى ألبوكيرك Albuquerque وهي المحطة التي يتفرّع منها خطّان ، خط يوصل إلى تخوم مكسيكا ، والآخر إلى البازو El Paso وهناك تفصل العربات الذاهبة إلى هاتين الجهتين . وليس بهذه المدينة ما يستحق الذكر ، إلا أن السائحين ينتهزون فرصة وقوف القطار مدّة نصف ساعة ، فيذهبون إلى دكّان بجوار المحطّة به معروضات سكان أمريكا القدماء ، ويُسمّى المتحف الهندي . والذي يدل على أن هذه المدينة ليست كبيرة أن عدد سكانها لا يبلغ ثمانية آلاف نسمة . فنزلنا نحن أيضاً كسائر السائحين ، ورأينا نساء هؤلاء الأمريكيين الهنود جالسات على الأرض وأمامهن مصنوعات أيديهن معروضة للبيع . وقد كانت وجوههن الحمراء التي لا أثر عليها من الجمال مكشوفة ، وعلى رؤوسهنّ الخمر (الشيلان)[58] وفي أرجلهنّ

---

(58) الشيلان : جمع (شال) وهو رداء يوضع على الأكتاف ، والخمر : جمع (خمار) لغطاء الرأس تعبير أدق .

الأحذية ذات الساق . فألقينا نظرة إلى هذه المعروضات ، ثم ذهبنا إلى المتحف الهندي ، فوجدنا أنه يُباع فيه أنواع كثيرة من السجاجيد التي هي من عمل هؤلاء الهنود ، والأساور والأقراط المختلفة الأنواع ,بعضها مصوغ من نقود مكسيكا القديمة . وهذا غير أحجار هذه الجهات المرصّع بها الخواتم والدبابيس وغيرهما ، يشتريها الذين يريدون أن يقدموا هدايا لأصحابهم وأقاربهم بعد عودتهم من سياحتهم لتكون تذكاراً . فنظرنا كل هذه الأشياء ، ولم نأخذ منها شيئاً ، وقد استحسنّا بعض بطاقات البريد (كارت بوستال) فاشتريناها ثم عدنا إلى عربتنا . وما استقرَّ بنا الجلوس حتى حضر إليَّ أحد مخبري الجرائد ، وسألني : أيكم الأمير (البرنس) . فأخبرته أنّي أدعى خيري بك الياور المعيّن في خدمته ، أما دولته فقد ذهب ليستريح الآن ، ولا يريد أن يقابل أحداً من مخبري الجرائد حيث أنه تعب كثيراً من كثرة هذه المقابلات ، خصوصاً وقد قرأ ما يكتبونه عنه ، فوجد كثيراً منه مخالفاً لما صرّح به . فصار يسألني عمّا استحسنّاه إلى الآن في أمريكا ، وصرت أجاوبه مع تمام الاحتياط ، وأقول له إن هذه البلاد كبيرة جداً . فأخبرني أنه يعرف في هذه البلدة أحد السوريين ويدعى المسيو خوري ، وآخر تركيّاً اسمه سلمون Salamon يسكن إلبازو ، وهو ذو ثروة عظيمة ، ولابدَّ أن يكون هذا الأخير إسرائيلياً . ثم انصرف من عندي شاكراً حسن مقابلتي له ، معجباً بقوّتي في اللغة الإنكليزية حتى إنه ظنَّ أنّي درستها في إنجلترا ، فوافقته على ظنّه . وبعد أن تخلصت منه أسرعت إلى خيري بك وطلبت منه ألا يترك مكانه حتى يقوم بنا القطار . وقصصت عليه ما دار بيني وبين هذا المخبر ذاكراً أنّي استعرت اسمه ووظيفته ، وتكلمت مع ذلك المخبر كأني خيري . ولأجل أن يتمّ فصل التنكر هذا ولا ينكشف أمره ، طلبت من خيري ألا يخرج بل يبقى مستريحاً ، إذ لو خرج فلقيه المخبر لوجب عليه أن يحاكيني أمام ذلك المخبر كما حاكيته أنا من قبل ، وفي ذلك ما فيه من تكلف الظهور بغير الحقيقة . أما قطارنا فقد ملئ ببائعي البضائع الهندية وغيرهم من الذين وظيفتهم الإعلان وتشويق السائحين إلى زيارة الجراند كانيون Grand Canyon ، وقد كنّا رأينا قبل أن نصل إلى هذه البلدة بمحطتين هؤلاء الهنود وعرفناهم من سيماهم ، بالرغم من تغيير ملابسهم واستبدالها بالملابس الأوربية ، فإن ألوانهم وسحنتهم كانت ناطقة بجنسهم وأصلهم . أما نساؤهم فوضعهنّ الخمر على رؤوسهنّ كان سبب تمييزهنّ والالتفات إليهن . هذا وقد لاحظنا أن الجهة التي يسكن فيها هؤلاء الهنود التعسون رطبة وبها كثير من المستنقعات

المسببة للأمراض التي تفتك بهم ، وتقلل من عددهم عاماً بعد عام . أما أراضيهم فليست مزروعة كما يرام ، وهم يستعملون من فقرهم أدوات الزراعة القديمة ، فلا يجنون ثمرة أتعابهم إلا بكلٍّ مشقَّة . وقد رأينا لهم بعض مراعي لتربية الخيول ولكن جلّ المراعي هناك لتربية الماشية . وقد علمنا أن هذه الحيوانات ملك لكثير من التجار وليس هنود الأمريكيين إلا خدّاماً يحافظون عليها ويرعونها . ففي الحقيقة المكسب العظيم هو لأرباب الأموال من الأوربيين والأمريكيين ، وأما هؤلاء الهنود فلا يكتسبون إلا أجرتهم الضعيفة . وإذا أراد الإنسان أن يستفهم عن مقدار ثروتهم فإنها تقدّر بما يمتلكه الشخص من رؤوس الغنم والخيل كالعرب . أما وصف مراعيهم فإنها من النباتات الطبيعية التي أنبتتها الأرض . وقد رأينا خيولهم ترعى الكلأ النابت في وسط هذه المستنقعات ، وقد ظهر على وجه الماء أو القريب من تلك المستنقعات .

قام بنا القطار ونحن نسير الآن بجوار نهر الريوجراندي Rio Grande وهو نهر عظيم متّسع صل إلى مكسيكا ، جميل المنظر ، على شاطئيه كثير من أنواع الشجر المخضرّة . وبين وقت وآخر كنّا نرى في وسطه جزائر صغيرة لطيفة ، بها أيضاً نباتات وأشجار . وقد مررنا على جملة قرى صغيرة هنديّة كانت ظواهر أحوالها ناطقة بفقر أهلها وسوء حالهم . هنا أصف للقارئ حالة بيوت هذه القرى . إن أغلبها دور واحد ، ومن مميزاتها أن ليس لها أبواب للدخول فيها على سطح الأرض ، بل أبوابها في سقفها . ولكل منزل سلّم يصعد فيه صاحبه ليصل به إلى جوف منزله نهاراً ، ويرفعه مساء خوفاً على أنفسهم من أعدائهم . ولكن ماذا يفيدهم ذلك ، وهذه البيوت ليست مرتفعة فالفارس يمكنه أن ينزل بسهولة فوق سطحها .

إن هؤلاء الهنود لهم قبائل مختلفة ، ففي هذه الجهة التي نمرّ عليها قبائل الموكيس Mokis والزونيس Zunis والنفاجوس Navajos والأباش Apaches والبيماس Pimas . ولا يتصوّر القارئ أن هذه القبائل تكوّن مدناً عظيمة كبيرة ، فإنها تسكن متفرّقة في قرى صغيرة لا يكاد سكان كل قرية يبلغ مائة أسرة . وليس كما كنّا نسمع أن كل قبيلة لها رئيس يحكمها ويتصرّف في أتباعه تصرّف الحاكم المطلق ، فقد ذهب كل شيء مما كانوا عليه قديماً حتى الكثير من عوائدهم وزيّهم . وأصبح السائح لا يرى الهنود بملابسهم الغريبة ذات الألوان المختلفة ، ولا قبّعاتهم المنظمة المزدانة بريش الطيور الملونة أو المصبوغة بالألوان التي يستحسنونها . فقد ذهب كل ذلك وتغلّب الزيّ الأوربي على كل هذه الأزياء . والسائح إن أراد أن يرى شيئاً من

ذلك ، فلا يراه إلا بالطلب كحادثة تاريخية تُمثَّل فقط أمامه . فلله الملك ، وكل شيء زائل إلا هو سبحانه وتعالى .

إننا في طريقنا نمرُّ على كثير من القرى ، بعضها عامر بهؤلاء الهنود وبعضها بالمكسيكيين أو المهاجرين من البلاد الأوربية وغيرها . ولا يجد السائح صعوبة في تمييز هذه القرى بعضها من بعض . فكفاه أن ينظر إلى أبوابها حتى يعلم إن كانت للهنود أو لغيرهم . وكفاه أن يقرأ آيات الفقر على حال بعضها حتى يعرف إن كانت للمكسيكيين أو المهاجرين الأوربيين ، فإن الأخيرين أرقى بكثير وأنظف في أحوالهم ومعيشتهم ممّن عداهم . أما إذا أراد التمييز بينهم في الجنسية فلا صعوبة في ذلك ، فإن الهندي الأمريكي لونه أحمر ، ورأسه كبير ، وشعره أسود ، وقويّ البنية ، ومتوسط القامة . أما المكسيكي فإنه يشبه سكان صعيد مصر ، وإن كان أكثر منهم سمرة ، وأضعف جسماً ، ولا تظهر عليه القوّة مثلهم .

مررنا على بلدتي (إيسليتا ولاجونا) Islita, Languna المسكونتين بالهنود الأمريكيين ، وليس بها ما يستحقّ الوصف . ولأوضح للقارئ بعبارة أفصح أي جهة يسكنها عادة الأوربي المهاجر أو الأمريكي الفاتح أقول : إن الجهات التي بها معادن أو التي أرضها خصبة هي من حقوق أولي اللون الأبيض ، أما الأراضي المجدبة أو التي بها مستنقعات فهي من نصيب الهنود أو المكسيكيين . وكفى دليلاً على أن الإنسان مهما وصل من الرقيّ فإن الظلم لا يجتث من طبيعته :

والظلم من شيم النفوس ، فإن تجد
ذا عفّة فلعلّه لا يظلم[59]

وصلنا إلى ولاية (نوفيل مكسيك) Nouvelle Mexique التابعة أيضاً للولايات المتحدة ، وهي على حدود مكسيكا . وأغلب البلدان التي مررنا عليها لها أسماء إسبانية ، وليس ذلك بعجيب لأن الإسبانيين هم الذين كشفوا الدنيا الجديدة ، ونزحوا إليها لاستعمارها واستخراج معادنها المكنوزة في أراضيها .

أتى ميعاد الغداء فذهبنا إلى عربة الأكل ، فوجدنا رئيس الخدم وكذلك الطباخ ألمانيين . ولما كنّا لم نتلذذ من ابتداء حضورنا إلى يومنا هذا من أطعمة الأمريكيين وجدنا أن الغداء الذي قدّم إلينا على قلّة ألوانه كان مصنوعاً جيداً ، فأكلناه مع

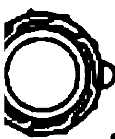
---

(59) هذا البيت من شعر أبي الطيب المتنبي في هجاء ابن كيغلغ .

اشتهاء ، فأثنيت على رئيس السفريين . وقبل أن نقوم من مكاننا شعرنا بشدّة الحرّ حيث كانت الشمس تلقي أشعّتها الذهبية على الصحاري والأودية التي نمرّ عليها فشبه لنا أننا في صيف مصر . وكانت المراوح الكهربائية تدور ولكنّها لا تتغلب على هذا الحر .

أتت الساعة الخامسة فرأينا على بعد مدينة تظهر عليها الثروة لكثرة المصانع بها ، فإن عدد مداخنها كان كثيراً جداً . وهذه المدينة تدعى (جالوب) Gallup وهي شهيرة بمناجم الفحم الحجري ، ومعتبرة مركزاً لمهام الحصن العسكري المعدّ للمدافعة ضد الهنود والمكسيكيين . وهي على بعد 40 كيلو متراً من هذا الحصن ، فهي إذاً متممة للموقع الحربي . ولما وصلنا إلى (مانويليتو) Manuelito دخلنا في أراضي أريزونا Arizona التي بها الجراند كانيون Grand Canyon وهي عبارة عن صحراء بها كثير من الصخور ذات الألوان المختلفة . وبعد ذلك مررنا على أداماناا Adamana وأرضها رمليّة لونها أحمر ، وبها أيضاً كثير من الصخور الحمراء والسوداء التي تشبه الفحم الحجري . وبما أن هذه الأراضي قاحلة ، فلا أثر للزروع بها . وكنّا نشاهد حيث يوجد نبع صغير من الماء منزل أسرة هندية واحدة ، فلم نصادف إذاً ما يستحق الذكر إلا كلب الوادي المنتشر انتشاراً هائلاً .

قربنا من بلدة (وينسلو) Winslow المعروفة بحصول واقعة حربية هائلة بها بين الأمريكيين والهنود الأباشي Apaches وفي هذه الواقعة الشهيرة أوشك الأمريكيّون يبيدون الهنود عن آخرهم . وقف قطارنا وألحقت به عربة للذين يذهبون توّاً إلى الجراند كانيون .



المضيق العجيب

ولما أتى ميعاد العشاء ذهبنا لعربة الأكل ، وفي أثناء العشاء نقل خادم عربتنا الزنجي الذي صحبنا من كولورادو اسبرنج أمتعتنا إلى العربة الجديدة ، وما أتممنا العشاء حتى كان كل شيء مرتّباً في محلّنا الجديد ، فلم نتعب إذاً في النقل ولا غيره ، بل ذهبنا إلى محالنا هادئين مطمئنين . وصلنا إلى (ويليامس) Williams نحو الساعة الحادية عشرة ، وقد كنّا متأخرين عن الميعاد الأصلي بنحو نصف ساعة . وهي بلدة صغيرة جدّاً ، شهيرة بقطعان البقر الذي صار وحشياً لبعد عهده برؤية الإنسان . هنا انفصل قطارنا عن عربتنا واستمرّ في مسيره إلى لوس أنجلوس في كاليفورنيا . أما نحن

فأمضينا ليلتنا في هذه العربة أمام محطة ويليامس لغاية الساعة الخامسة صباحاً من يوم الخميس 23 مايو . ثم ألحقت عربتنا بقطار صغير ليقودنا إلى الجراند كانيون .

فشعرنا في هذه الساعة بابتداء تحركنا ، وفي الساعة السابعة صباحاً من هذا اليوم ارتدينا ملابسنا ، وقد كان الجو صحواً ، والطقس معتدلاً ، حيث كنّا على ارتفاع 4,500 قدم فوق سطح البحر ، فصرنا نرى أننا نخترق وادياً عظيماً متّسعاً به كثير من الشجيرات ترتع فيه الألوف من الأرانب البريّة . وبعد قليل من الزمن وقف بنا القطار في محطة صغيرة جداً ، لم يكن بها إلا زرائب من الخشب بها كثير من الغنم ، فكان منظرها وهي مجتمعة في مكانها جميلاً . وبعد بضع دقائق قام بنا القطار فأخذنا ندخل في غابة كثيفة ، وبعد عشر دقائق من الساعة التاسعة وصلنا إلى جراند كانيون . فكأننا قطعنا المسافة بين محطة ويليامس والجراند كانيون في ثلاث ساعات وعشر دقائق .

إن الفندق الذي كنا نريد أن ننزل به على بعد خطوات من المحطة ، فنزلنا من عربتنا وقصدناه راجلين . ولكن قبل أن يصل الإنسان إلى هذا الفندق ، لابدّ أن يصعد على سلّم عالٍ متعب جداً ، وذلك لوضعه رأسياً ، فتسلّقناه واجتزنا هذه العقبة أيضاً . وبعد ذلك وصلنا إلى الفندق ، وهو منزل كبير مبني بالأخشاب ، يحيط به من كل جهة طنوف (فيراندا) ، فذهبنا توّاً إلى حجرة الأكل لنشرب قهوتنا . وفي أثناء ذلك حضر أحد رؤساء الفندق وأثبت أسماءنا في مذكّرته . وبعد أن انتهينا من الأكل ، أردنا رؤية غرفنا فقادونا إليها فإذا هي قليلة الزخرف ، ولكنّها نظيفة ومرتّبة . وقد أعجبنا حسن موقعها وجودة هوائها ، خصوصاً أننا لا نسمع فيها أيّ حركة تقلق راحتنا . ولا عجب في ذلك ، فإننا في خلاء واسع تحيط بنا الغابات الكثيفة الجميلة . ولابدّ أن السكون والهدوء ملازمان لهذا الموقع الخالي من المنازل وبني الإنسان إلا السائحين النازلين بهذا الفندق .

بعد أن استرحنا قليلاً من عناء السفر ، وتخلّصنا مما لحقنا من غبار الطريق ، وأبدلنا ما علينا من الملابس ، وخرجنا لنمتّعَ نظرنا بأكبر وأعظم أعجوبة في العالم على حسب قول الأمريكيين ، وقد يقولون عنها إنها الدليل القطعي على إثبات قدرة الخالق العظيم . ولكنّي ، ولله الحمد ، لم أحضر إلى هذا المكان لأقف على هذا الدليل حتى يزداد يقيني في الخالق جلّ وعلا ، فإني أعترف بهذه القدرة من ابتداء نشأتي الأولى . إذاً فلا محلّ عندي لزيادة إيماني برؤيتي هذه المناظر ، وما كنت لأنتظر هذا

اليوم حتى تتشبّع روحي بعظمة وجلال ربّ السموات والأرض .

إن موقع الفندق على ارتفاع 2,000 متر من سطح الماء ، ومعنى (جراند كانيون) Grand Canyon الحلق الكبير ، أو المضيق العظيم . ويبلغ طوله تسعة وأربعين وثلاثمائة كيلو متر وعرضه من 13 إلى 16 كيلو متراً وعمقه من 300 إلى 1,500 متر ، ويمرُّ بقاعه نهر يدعى كولورادو Colorado لا تزيد أعظم سعة له عن الستين متراً ، وفي أوقات فيضانه لا يزيد عمقه عن السبعين متراً .

إن الناظر إلى الصخور في ذلك المكان يجدها مكوّنة من عدة طبقات مختلفة الألوان والأشكال ، فيرشده ذلك إلى أن كل طبقة من هذه الطبقات قد كانت في أحد العصور السالفة هي وجهاً للأرض ، فتوارت بتراكم الثرى ، وخلفتها طبقة أخرى صارت بعدها وجهاً للأرض ، وهكذا إلى أن وصلت إلى الحالة التي هي عليها الآن . ومن ذلك يعلم المطّلع على تلك الصخور أن الأرض قد تكوّنت منذ عهد بعيد جداً . والذي كشف للإنسان عن هذا السر هو ما حدث من حوادث الثَّوَرَان الأرضيّة ، فهي التي ساعدته على الوقوف على هذه الحقيقة . ولولاها لبقيت تلك الحقيقة في ظلمة استتارها ، إذ ليس للإنسان قوة في الحفر توصله إلى تلك الأعماق السحيقة ، فذلك الانفجار الطبيعي هو الذي أحدث ما تراه من تلك الأشكال المختلفة . أما تلك الألوان المختلفة فوصفها على حسب ترتيبها الطبيعي من أعلى إلى أسفل هو ما يأتي :

الطبقة العليا لونها أغبر يليها طبقة ثانية لونها كلَوْن سابقتها إلا أنه يتخلّلها قطع بعضها أحمر وبعضها أبيض .

وهناك طبقات أخرى مختلفة الألوان بين أحمر قانٍ وأخضر ضارب إلى الصفرة وأحمر مشوب بسواد . ويتخلّل كل طبقة من هذه الطبقات قطع من الصخر حمراء صافية .

هذا وأول رحّالة كشف هذا المكان هو الماجور باول Pawell فإنه مشى بقارب صغير في نهر كولورادو الذي يجري في قاع هذا المضيق ، كما ذكرنا ذلك قبلاً ، إلى أن وصل إلى هذا المكان العظيم .

وقد رأينا طرقاً ضيّقة جداً تصلح فقط لمشي البغال والخيول لتنزل من هذه المرتفعات إلى عمق المضيق ، وهي في الحقيقة متعبة جداً ولكنها ليست خطرة . أما نحن فألقينا نظرة عامّة على هذا الموقع فاستكبرناه وأعجبنا به كثيراً ، وهو في الحقيقة يستحقّ الإعجاب لكبره وعظم عمقه . ولكنّنا مع ذلك لم نرَ سبباً لإجبار السائحين

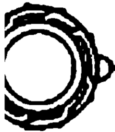
على قضاء يوم أو بعض أيام في هذا المكان ، وكان يكفي أن يمرّ الطريق الحديدي عليه ، فمن أراد النزول فيه نزل ، وإلا اكتفى برؤيته ومشاهدة عجائبه أثناء سير القطار .

إن الأمريكيين النبهاء لا يتركون باباً للكسب بدون أن يلجوه ، فجعلوا الطريق ينتهي بهذا المكان ، حتى يكون للفندق مورد ثروة من السائحين الذين يضطرون بطبيعة الحالة إلى التعريج والنزول فيه يوماً أو بضعة أيام . ولا تسل عن الإعلانات الكثيرة التي ينشرونها ، مشتملة على أساليب التشويق إلى رؤية هذا المكان لجلب الناس إليه . أما طرق هذه الإعلانات فنحن في غنىً عن بيانها لأن شهرتهم في ذلك تفوق كل شهرة . ولكي أصور لك أيها القارئ منظر هذا المكان أقول : ألق نظرك على جبلنا الجيوشيَ وما فيه من المغارات والأشكال التي وراءه ، ولا فرق إلا أن في بلادنا جبلاً واحداً (الجيوشيّ) وهناك من أمثاله مائة جبل . وأيضاً إنك ترى حيث تكون فوق أعلى قمة في الجيوشي أسفل الجبل على بعد 300 متر ، وهناك ترى أسفل الجبل على بعد 1,500 متر . نعم هذا الوصف هائل ولكن من يدري أنه لا يوجد أمثال هذا المنظر أو أجمل منه في بلاد الشيلي Chili والبرازيل Bresil وبيرو Perou وبلاد اليمن وغيرها .

إنه لا يزال إلى اليوم في قارة آسيا أمكنة غير معلومة حقّ العلم ، والله أعلم بحقيقتها ووصفها . وربّما كان بها من المناظر الغريبة ما يزرى بعجائب أمريكا ، فلا أجد سبباً قوياً جذب السائحين لزيارة هذا المكان إلا تأثير الإعلانات والافتنان في طرق النشر .

تركنا مكاننا وتوغّلنا في الغابة على شفير المضيق ، فاستدرجتنا رائحة الأشجار العطرية ، وأثرّ في أنفسنا الهواء النقي فلم نشعر بالتعب ، مع أننا استغرقنا ساعة ونصفاً في المسير للوصول إلى زاوية على طرف هذا المضيق . فصرنا نرى من هذا المكان نهر كولورادو من جهتين ، أي من جهة كل ضلع زاوية ، وقد خيّل إلينا أن ماءه عكر . وبعد أن مكثنا قليلاً بهذا المكان عدن إلى الفندق . وبالطبع هذه الرياضة جعلتنا نشتهي الأكل ، فذهبنا توّاً إلى حجرة السفرة حيث كانت الساعة الثانية عشرة والنصف . وهنا لا يختار الإنسان ما يريده من كشف المأكولات بل أنواع الأكل عامة لكل السائحين . فأكلنا باشتهاء عظيم ولم نشعر برداءة الطعام بل على العكس اتفقنا ، أنا ورفيقاي ، على أنه أحسن قليلاً من غيره . وبعد ذلك ذهبنا إلى غرفنا ،

فأقمنا بها قليلاً من الزمن طلباً للراحة . وفي نحو الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر ، خرجنا ثانية من الفندق لرؤية باقي المناظر . وقد قيل لنا قبل حضورنا إلى هذا المكان : حسب السائح أن يرى فندق التوفار El Towar ، الذي نحن به الآن ، وما حوله ، فإن ذلك يترك في نفسه صورة عامّة لمناظر الجراند كانيون . ولكننا بالرغم من ذلك أردنا أن نتوسّع ونقف على كل دقيقة يهمّ الوقوف عليها ، فاستفهمنا عن الأمكنة التي يذهب إليها السائحون ، فعلمنا أنهم يذهبون على عربة إلى المكان الذي كنّا فيه صباح هذا اليوم ويبعدون عنه قليلاً . ولأجل ذلك يلزمنا دفع ستة عشر دولاراً عن أنفسنا أي ما قيمته 80 فرنكاً ، فرأينا أن هذه القيمة باهظة ، خصوصاً وأننا مشينا تلك المسافة على أرجلنا بدون تكبّد تعب يذكر ، فعدلنا عن هذا الإسراف . ثم علمنا أن هناك استراضة أخرى على ظهور البغال والخيل للنزول إلى أسفل المضيق ، وتستغرق يوماً كاملاً . ولما كنا رأينا العائدين منها وجوههم حمراء محروقة من الشمس ظننّا أن لون الصخور الحمراء ناشئ أيضاً من قوة تأثير أشعتها المستمرة . وقد كانت حالتهم الجسمية يرثى لها ، فإن التعب الشديد كان بادياً عليهم ، فوفّرنا على أنفسنا هذا التعب ، خصوصاً وأمامنا صعوبات أخرى كبيرة لا بدّ من اقتحامها ، فقررنا أيضاً العدول عن هذه الرياضة الشاقّة استبقاءً لقوّتنا .



الآسيويون: المكتشفون الأوائل

بعد أن وقفنا على حقيقة الحال من جهة تلك المزارة وقررنا ما قررنا ، رأينا أمام الفندق على بعد بعض أمتار منزلاً يمثّل منازل هنود الأمريكيين ، والسلّم الخشبي موضوع على إحدى حيطانه للذين يريدون الصعود عليه ، والدخول في هذا المنزل من بابه الذي في سقفه . وقد رأينا أيضاً باباً آخر اعتيادياً عمل تسهيلاً للذين لا يستطيعون الصعود على السلّم ، حتى لا يحرم الشيخ أو الضعيف من الدخول فيه . وقد عرفنا أن هذا المنزل محل تجاري تديره شركة الفندق لمبيع مصنوعات الهنود . والدخول فيه مباح لعامة الناس بدون مقابل ، فدخلناه ورأينا فيه أنواعاً كثيرة من الأحجار الثمينة كالفيروز وغيره ، وعدداً عظيماً من السجاجيد الهندية الأمريكية ، وكثيراً من الأساور والأقراط من الفضّة ، وسلات مختلفة الشكل والحجم ، وملابس الهنود وقبّعاتهم ، وسروج خيولهم ، وأقواسهم وسهومهم ، وحرابهم وتروسهم ، وغير ذلك .

أما مدير هذا المحل فقد كان يظهر عليه النشاط ، وقد صحبنا وأخذ يشرح لنا ما نريد معرفته . وقد تبادلت الحديث معه إلى أن وصلنا إلى أصل هؤلاء الهنود ، فسألته عن رأيه في أصلهم ، وهل يعتقد أنهم خلقوا في أمريكا ، أو هم مهاجرون من بلاد أخرى . فأجابني أنه يرى أنهم أتوا من قارة آسيا ، فسررت من فكرته لأنها تطابق رأيي ، وقد صرّحت بها قبل زيارتي لأمريكا ودونتها في رحلتي اليابانية ، فإني لما رأيت في منشوريا اليورجوت[60] وقارنتهم بصور الهنود الأمريكيين التي رأيتها في بطاقات البريد (كارت بوستال) التي اشتريتها من (مكدن) علمت وقتئذ أنه لا بدّ أن تكون هنود أمريكا من هؤلاء اليورجوت ، ومن سكان شمال آسيا ، وليس ببعيد أنهم هاجروا إلى هذه البلاد في الزمن القديم من طريق كامتشكا[61] Camtchatka . وعلى ذلك الرأي يكون الآسيويّون هم البادئون في تكشيف أمريكا ، قبل كريستوف كولومب . ولكن لما كانت حالتهم وحشيّة ، ومعارفهم قاصرة ، واختلاطهم بباقي العالم معدوماً ، ولا توجد بينهم وبين الأوربيين مواصلات ولا مكاتبات ، فإن تكشيفهم لم يعلم به أحد . ومع ذلك لا يمكن تأييد هذا الرأي بإقامة برهان عليه من معلومات هؤلاء الهنود أنفسهم ، لأنهم لا يعرفون هم أنفسهم أصلهم ، ولا يدرون تاريخهم . فإذاً لا يمكن الإتيان ببراهين قاطعة على صحّة هذا الرأي إلا مثل هذا الاستنتاج الذي وصلت إليه أثناء زيارتي منشوريا ، ومقارنتي سكانها بأولئك الهنود الأمريكيين . والشيء الغريب الذي لفت نظري في هذه المعروضات وجود (رأس لجام) مكسيكي به رسم الهلال (وحديدته عربية) ، فقلت إن ذلك من مخلفات وآثار العرب ، فإننا نعلم أن الإسبانيين هم الذين أتوا أولاً وحاربوا مكسيكا . وبما أن إسبانيا كانت ملكاً للعرب ، وبعد نزعها من أيديهم ، لا بدّ وأن تبقى في إسبانيا آثارهم الحربية . والإسبانيّون الذين حضروا لفتح مكسيكا ربّما كان بينهم من أحفاد العرب ، أو من المعجبين بأدواتهم الحربية من أحضروا معهم هذه المخلّفات التاريخيّة ، وبعدها انتقلت من مكسيكا إلى هنا على أنها تحف تباع للسائحين . والذي أيدّ فكرتي هذه وجود سروج عربية بكامل أدواتها معروضة أيضاً للبيع ، وهي بلا شك من مخلّفات الأندلسيين المغاربة .

---

(60) الصحيح (ويجور) Uighur : وهم شعب تركي يعيش في منغوليا (منشوريا) .

(61) اللفظ الصحيح (كامتشاتكا) : وهي شبه جزيرة في شرق روسيا بين بحر بهرنغ وبحر أوخوستك .

وقد زاد استغرابي ما وجدته من المشابهة بين مصنوعات هؤلاء الهنود المتّخذة من القصب ومصنوعات السودانيين عندنا أو زنوج أواسط أفريقيا ، فأفكار الإنسان وأعماله ملائمة لما هو عليه من الرقيّ أو الانحطاط في الشؤون الاجتماعية . فلو أن طائفتين من بني الإنسان تشابهتا في رقيّهما وانحطاطهما فلا بدّ أن يتشابها في أعمالهما ، ولو تباعدت أوطانهما ، فإن حالة السودانيين الوحشية[62] لا تقلُّ عن حالة هؤلاء الهنود .

بعد أن أتممنا زيارتنا لكل غرف هذا المحل التجاري الأثري أردنا الانصراف ، فوقع نظرنا على كتابة مكتوبة في لوحة معلّقة على الحائط باللغة الإنكليزية علمنا منها أنه سيحتفل هذه الليلة بإقامة مرقص للهنود في الساعة الثامنة مساء من هذا اليوم ، فصمّمنا على أن نعود ثانية إلى هذا المكان حتى نرى شيئاً جديداً لم نره من قبل . فخرجنا وتنزّهنا قليلاً حول الفندق ، ثم رجعنا إليه لأكتب مذكّراتي عن رحلتي . ولمّا أتت الساعة السابعة انتقلنا إلى حجرة السفرة تناول عشائنا ، وما أزفت الساعة الثامنة حتى كنّا في منزل الهنود الذي سيقام فيه المرقص ، وقد سبقنا إليه كثير من السائحين . فنظّمت هذه الحفلة بأن وضعت الكراسي على هيئة نصف دائرة حول محل كافٍ للراقصين ، فتقدّم اثنان من الهنود إلى بهو هذا الميدان ، وفي يد كلٌ واحد منهما عصاً جوفاء صغيرة في طرفها كرة من الخشب بها قطع صغيرة من الأحجار (شخشيخة) حتى إذا هُزّتْ سُمعَ لها صوت يشبه تمام المشابهة صوت (شخشيخة الزنوج) ، فأخذا يرقصان ويصيحان بأعلى صوتهما كنباح[63] الكلاب ، وصارا يرفعان القدم الأخرى وهكذا .

فرقص الهنود أيضاً يشبه رقص زنوج أفريقيا إلا أن أصواتهم أكثر إزعاجاً . ولما انتهيا من رقصهما شرع مدير المحل يحذفهما ببعض قطع من النقود الأمريكية ذات الخمسة ، أو العشرة سنس حتى ينبّه السائحين إلى أن يحذوا حذوه ، فصار كل واحد منهم يلقي ما يريد ، والاثنان يسرعان إلى التقاط ما يُلقى إليهما .

انتهى دور هذين الاثنين فخرجا من المرقص ، وتقدّم بعدهما خمسة من الهنود

---

(62) يبدو أن طول إقامة الأمير في أوربا جعلته يتأثر بهذه الفكرة الاستعمارية العنصرية ، بلا تمحيص ولا إنصاف .

(63) لا أرى مبررا منطقيا لهذا الموقف المعادي وهذه القسوة في الانتقاد ، وهو أقرب إلى الشتيمة!

يتلو بعضهم بعضاً على صف واحد ، فصاروا يرقصون ويصيحون أيضاً كما يفعل الزنوج السودانيون . وبعد ذلك نثرت عليهم النقود فصاروا يلتقطونها ، ثم تركوا مكانهم ، فخلفهم امرأتان هنديّتان عاريتا الأقدام ، وعلى كتف كلتيهما قطعة من القماش ، وابتدأتا في الرقص أيضاً . ثم تبعهما بعد انصرافهما ثلاثة أطفال تمّموا حفلة الرقص . وفي كل مرّة كانت النقود تُلقى على الأرض ، والراقصون أو الراقصات يسرعون إلى التقاطها . أما الدفّ الذي كانوا يضربونه فهو كدلوكة السودانيين أيضاً ، فلم أهتدِ تمام الاهتداء إلى سرّ هذه المشابهات بين هؤلاء الهنود وسكان أواسط أفريقيا . وأعجب من كل ذلك في وجوه المشابهة أن معاملتهم في الزمن السابق كانت بأحجار الفيروز وأنواع الصدف وغيرهما ، فإن الأقراط والأساور المصنوعة من هذه الفصوص كانت تُباع بعدّة رؤوس من الغنم أو البقر أو الخيول . أما ملابسهم على كثرة ألوانها ، فإنهم يزينوها بأنواع الخرز الملوّن ، فكأن الخرز أيضاً كان له قيمة عظيمة عندهم كالزنوج .

هذه كانت حالتهم الأولى ثم صاروا يتدرّجون في تغيير هذه الأشياء بعد تكشيف أمريكا ووفود الأوربيين إليها ، وصاروا يصنعون من الفضّة أقراطهم وأساورهم وغيرهما ، ويغيّرون ملابسهم تدريجياً إلى أن وصلوا الآن إلى الارتداء بالملابس الأوربية على قاعدة أن المغلوب ولُوع بتقليد الغالب . بعد انتهاء هذه الحفلة عدنا إلى الفندق وافترقنا للنوم وموعدنا الصباح .

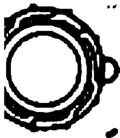
اجتمعنا في يوم الخميس 24 مايو حيث كان الهواء عليلاً والسماء رائقة ، فخرجنا من الفندق لنمتّع أنظارنا بتلك المناظر الغريبة ، فنرى السائحين الذين سينزلون إلى أسفل المضيق ، فذهبنا إلى المكان المعد لركوبهم فرأيناهم وعليهم ألبسة من الكاكي الأصفر أعدّها القائمون بإدارة الفندق لإيجارها للسائحين . فقد كان الرجال ببنطلوناتهم السواري[64] والتزالك[65] والسيّدات بحللهن (فساتينهن) الواسعة المصنوعة من هذا القماش أيضاً المعدّة للركوب ، فكان المنظر غريباً يجذب الأنظار ، إذ كنّا نرى رجالاً على ظهور البغال وحالتهم تظهر عدم اطمئنانهم من جهة

---

(64) السواري (جمع السارية) : الجماعة من الخيالة السائرة ليلا .

(65) التزالك : لم أتوصل إلى معرفة أصل هذه الكلمة ، ولم أعثر على مرجع لها ، ولعل المقصود بها (الصداري) .

دوابهم ، وسيدات بلغن سن الشيخوخة ويردن أن يظهرنَ مقدرتهنّ بتجشم هذه المشاق ، ورجالاً وسيدات بلغوا من عظم الجسم ما جعل بغالهم تنوء بهم ، وأطفالاً يلعبون فوق ظهور هذه الدواب ولا يجعلونها تستقرّ في مكان واحد . وبالجملة ، أمضينا بعض دقائق ونحن نرى كل هذا ولم نأسف على ضياع وقتنا سدى ، وبعد ذلك مشينا من هذا المكان إلى الأمام حتى وصلنا إلى محل فسيح قد ضرب به كثير من الخيام موضوعة بنظام كنظام المعسكرات للذين يفضّلون الإقامة بها من السائحين على السكني بالفندق ، وأظن أنّ أجرة المبيت في هذه الخيام أقلّ من أجرة الغرفة في الفندق .



أكواخ وعادات

عدنا بعد ذلك إلى الفندق لنعدّ متاعنا ، فقد صممنا على الرحيل عندما تمرّ خمسون دقيقة بعد الساعة السابعة . وبعد الغداء أردت أن أستريح قليلاً في غرفتي فاعتراني ألم شديد في رأسي لم أتخلّص من شدّته إلا نحو الساعة الثالثة والنصف ، ففضّلت الخروج في الخلاء لاستنشاق هواء الأجمة ، لعلّي أتغلّب على هذا الألم المتعب ، فصحبني رفيقاي ومشينا إلى أن قربنا من أكواخ الهنود الذين يشتغلون في الفندق أو في المحل التجاري الذي سبق الكلام عليه ، فرأينا امرأة تسلخ خروفاً معلّقاً أمام كوخه . ولّما أردنا الاقتراب منها لنرى ما تفعله دخلت في كوخها ، فتعمّدنا الاقتراب منها لنرى ما يحويه ذلك الكوخ الذي توارت فيه ، فأغلقت الباب في وجهنا ، فرجعنا بعد أن طال انتظارنا . ولكنّا عدنا ثانية للاقتراب من الأكواخ الأخرى المجاورة للكوخ الذي اختبأت فيه المرأة الهنديّة ، فكان نصيبنا أيضاً عدم الوصول إلى معرفة ما بداخلها . وكنّا كلّما نقرب من أحدها تسرع امرأة أوطفلة إلى إغلاق الباب في وجهنا ، فكأنهنّ لا يردن أن يقف أجنبيّ على أحوالهن الداخلية . إن هذه الحوادث ، ولو أنها في حدّ ذاتها تافهة جداً ، إلا أنها مرّت على نفسي المفعمة بحب المحافظة على العوائد القديمة ، فوجدت فيها مكاناً رحباً ، فشعرت وقتئذ بلذّة ذهبت بما كنت أشعر به من ألم الرأس . وربما يتصور القارئ أنّي من المتعصّبين الذين لا يودّون تحسين أحوالهم باختيار أحسن الطرق الموصلة إلى المدنيّة الحقّة ، وترك العادات العقيمة الداعية إلى التأخر ، التي يقول فيها الباحثون عن أسرار تأخر الأمم الشرقية إنها العقبات الحائلة دون وصول هذه الأمم إلى درجة التقدم العظيمة التي وصلت إليها

الأمم الغربية .

حاشا لله أن تكون تلك سبيلي ، وأنا العظيم الحب لبلادي ولكافة الشرق ، ولكن كثرة سياحاتي واختلاطي بالشعوب الراقية وغيرها ، وبحثي الدقيق في عاداتها ، جعلني أميّز بين النافع والضار منها . وطالما سمعت من المتمدنين الشكوى المرّة من عادات نحن نسرع إلى العمل بها تشبُّهاً بهم ، ولا نعلم نتائجها ، ولا إلى أين هي تسوقنا .

أترك هذا البحث الجليل الفائدة لحضرات علمائنا الأفاضل ، راجياً منهم أن يوجّهوا عنايتهم إليه عساهم يوفَّقُون إلى أنجع الأدوية لعلاج هذا المرض العضال الذي أخشى كثيراً عواقبه . غير أني أوجه أنظار القرّاء إلى عادة كان الشرقيُّون يتبعونها ، وكانت من أعظم وسائل نجاحهم .

إنّنا كنّا في الزمن السابق نعيش عيشة الخشونة بعيدين عن الانغماس في الترف ، ننفق ما يزيد عن حاجاتنا الضرورية في ما يعود على الأمة بالفائدة العامّة ، فلا الزخارف كانت تؤثر فينا ، ولا حب الظهور الكاذب كنا نميل إليه . لا نعمل إلا ما يجعلنا أمام غيرنا من الأمم مهيبين محترمين . كنّا نحافظ على آدابنا وأخلاقنا وعوائدنا الشرقية . فلنعد إذاً إلى ما يلائمنا منها ، وإن رأينا في بعضها ما يسبب تأخرنا ، فلنتركه بعد مشاورة ذوي الرأي منّا . إن المجال واسع جداً في هذا الموضوع ، وأرى أساسه الأخلاق فأسرعوا يا نجباء الأمّة إلى طرق هذا الباب ، والله يوفقكم إلى خير الأعمال .

نرجع إلى رحلتنا ، فبعد أن تركنا هذه الأكواخ عدنا إلى الفندق وجلسنا في أحد طنوفها (فيراندات) ننتظر حضور السائحين الذين ذهبوا صباحاً إلى أسفل المضيق . ولمّا أتت الساعة الخامسة ونصف رأيناهم قادمين ، ووجوههم محترقة من أشعة الشمس ، وتظهر عليهم جميعاً علامات التعب الشديد . وفي الساعة السادسة والربع ابتدأنا نتناول عشاءنا ، وما أتت الساعة السابعة والربع حتى كنا أخرجنا أمتعتنا ودفعنا حسابنا . ثم بعد ذلك توكّلنا على الله وذهبنا إلى المحطّة ، فأذن لنا في الساعة السابعة والنصف أن نأخذ مكاننا في عربة القطار . وقد كانت به عربتان للنوم ، إحداهما تذهب إلى كاليفورنيا والأخرى إلى جهة الشرق ، وعربة ثالثة اعتيادية للذين يذهبون فقط إلى محطة ويليامس Williams التي نصل إليها بعد ساعتين ونصف . وقد كان القطار مزدحماً جداً بالراكبين ، فتحرّك بنا ، وتخلصنا ولله الحمد

من الجراند كانيون الذي هو جميل وعظيم ، إلا أن بُعْدَه عن العالم وخلوّه من حركة الحياة جعلاني أتصور إذا كنت فيه أنّي لست في عالم الأحياء ، بل في مقابر نزورها ونحن خاشعون . فنفسي ولو كانت لا تحب كثرة الضوضاء والحركة ، ولكنها لا تميل أبداً إلى هذا السكون المحزن . ابتدأ الخادم الزنجيّ في إعداد أسرّتنا ، وبعد الساعة الثامنة مساء أخذنا نضطجع عليها لعلّنا ننام ونرتاح . وقد رأيت في أول مرّة على أحد الأسرة سيّدة وزوجها ، ولا أعلم كيف يتسنّى لهما أن يناما مع راحة وهدوء في سرير واحد ، لم يكن معداً إلا لشخص واحد .

تركت هذا لهما وصرت أغمض عيني متعمداً النوم ، ولكن من أين يأتي ذلك وأنا أفضّلُ النوم على كرسي طويل على أن أنام على سرير البولمن Pullman فإن الإنسان لا يمكنه أن يرقد على أحد جنبيه لأن كثرة التعاريج تسبّب شدّة الاهتزاز ، ووقوف القطار وقيامه دفعة واحدة يجعلان المسافر في فزع شديد . وقد شرحت حالة هذه القطارات قبلاً ، وما كرّرتها إلا لما لقيته من عدم الراحة التي جعلتني أتألّم وأشكو كثيراً منها . وأخيراً وجدت خير طريقة للذي رماه الدهر وسافر في هذه القطارات الليليّة أن ينام على ظهره أو على بطنه ، ويفرج رجليه بحيث يجعل إحداهما في حرف السرير والأخرى في الحرف الآخر ، كذلك يفعل بيديه . فبهذه الطريقة الوحيدة ، ربّما يأمن السقوط المنتظر في كل وقت . وفي النهاية أمضينا ليلتنا ، وما طلع فجر يوم الجمعة 25 مايو حتى أسرعنا لارتداء ملابسنا . ولما أتت الساعة السابعة والربع ، وهو ميعاد تقديم الفطور في عربات الأكل ، ذهبنا لنأخذ قهوتنا . ولكنّا رجعنا على أعقابنا لأنه قيل لنا إننا الآن في الساعة السادسة والربع ، والزمن هنا يتأخّر ساعة لأننا نسير جهة الغرب . وبعد انتظارنا أربعين دقيقة عدنا ثانياً إلى عربة الأكل ، فوجدنا الممشى مكتظّاً بالسيدات فلم نجرؤ أن نزاحمهن ونخترق صفوفهنّ ، فبقينا وراءهن . ولما استقرّ بنا الجلوس ألقينا نظرة على الجهة التي نمرّ فيها فإذا هي صحراء عظيمة الاتساع شكلها محزن لخلوّها من السكان ، فلا يجدر بإنسان أن يزعم أن جميع جهات كاليفورنيا جميلة . فقد أتت الساعة التاسعة ونحن ما زلنا نخترق صحارى قاحلة رملية ، بها صخور سوداء لا يرى الإنسان فيها شجرة واحدة زاهية ، بل كنّا نرى بين وقت وآخر بعض حشائش طبيعية ذابلة ، أظن أنها لا تصلح إلا مراعي للماعز . أما الماء فلم يكن له أثر هناك ، والمدن أو القرى قليلة جداً .

بعد ذلك أخذ قطارنا يخترق صحراء Mojave العظيمة وهي سهل مرتفع رملي ،

بها بعض بحيرات ملحة .

سبق أن قلت إننا نسير جهة الغرب ، ولو وجَّه الإنسان نظره شمالا لرأى جبالاً مرتفعة ، ولكنَّها بعيدة .

وصل بنا القطار إلى محطّة تدعى بغداد ، والقارئ لا يستغرب هذا الاسم فإن الولايات المتحدة لسعتها العظيمة ، وكثرة مدائنها استُعير لبعضها أسماء أعظم بلاد الدنيا . وأخيراً وصلنا إلى محطة بارستاو Barstaw فانقسم قطارنا إلى قسمين : قسم يذهب إلى سان فرنسيسكو ، والقسم الآخر إلى لوس انجلوس . وقد علمنا أن بهذه البلدة كثيراً من المناجم ، ورأينا بها عدداً عظيماً من المداخن التي تدلُّ على كثرة المصانع بها . وبعد أن أمضينا بهذه المحطَّة عشرين دقيقة سار بنا القطار ببطء ، فابتدأنا ندخل في مضايق مكتنفة بالجبال . وبعد ساعة عدنا إلى سهل عظيم الاتساع ، ولكن أرضه خصبة ، وبها كثير من أشجار البرتقال والفريز (توت إفرنجي) والكروم وأشجار فواكه أخرى . وقد أعجبني كثيراً تنسيق زراعة البرتقال ، فإن أشجاره كانت على خط واحد ومنفصلة بعضها عن بعض بمسافات عظيمة تمكِّن العربة من المسير بينها ، وذلك لتسهيل جني ثمار البرتقال . أما الأراضي التي بها هذه الأشجار فقد رأينا الاعتناء بحرثها عظيماً ، ولا يمكن أن يرى فيها الإنسان أثراً للحشيش . وقد جذب نظرنا طريقة ري هذه الأشجار فإنها لا تسقى كما نعرف بعمل حفرة حول الشجرة مباشرة ، بل تسقى بمرور قناة صغيرة على بعد من الشجرة ، أي في وسط المسافة التي بين الشجرتين . وقد استفهمنا عن السر في ذلك ، فعلمنا أن هذه الأشجار لكبرها وامتداد جذورها لا تنتفع من الماء إذا كان حول جذوعها مباشرة ، بل تنتفع منه إذا كان بعيداً عنها ، إذ يكون قريباً من جذورها . فبهذه الطريقة تأخذ الشجرة ما يكفيها من الماء ، ولا يحصل لها ضرر أبداً ، ولا خوف عليها من الغرق .

وصلنا إلى محطة سنت برناردينو St. Bernardino وهنا انقسم أيضاً قطارنا إلى قسمين : قسم يذهب إلى لوس أنجلوس بطريق River side والقسم الآخر يذهب إلى بسادينا Passadena ، وهي الجهة التي سنذهب إليها .

أما بلدة سنتا(66) برناردينو St. Bernardino فيبلغ عدد سكّانها ثمانية آلاف نسمة ، وهي تصدّر كثيراً من أنواع الفواكه . وقد ألقينا نظرة عامّة عليها ، فرأينا طرقها

---

(66) (سنتا Santa قديسة) تكررت أكثر من مرة ، كما وردت من قبل سنت Saint ، ولعلها أدق .

عظيمة ومتّسعة وحسنة النظام ، ومغروساً في جوانبها أنواع كثيرة من النخيل وغيرها . ومنازلها جميلة ومحاطة بحدائق ذات بهجة ، ولو أنها صغيرة ولكنّها منظّمة ومرتّبة . أما أنواع الزهور بها ، فحدّث عنها ولا حرج . فكلما وجّه الإنسان نظره لا يرى إلا أنواع الورد وزهوراً كثيرة أخرى مختلفة الشكل واللون بديعة جداً تسرُّ الناظرين .

مدينة الزهور والرياحين

أتى ميعاد الغداء فذهبنا إلى عربة الأكل وأخذنا مكاننا ، ولمّا كنّا في بلاد الزهور فقد تقدّم شاب وصار يقدّم إلى كل سائح قرنفلة جميلة ، وإلى كل سائحة باقة صغيرة أنيقة من الزهور بدون ثمن ، فصار كل واحد منّا يمتّع نظره بهذه الزهور البديعة ، ويشم رائحة القرنفل العطرية . ومن حين إلى آخر كنّا نلقي نظرنا فنرى الخلاء المملوء مزارع عظيمة لا يمكن الإنسان أن يضجر من رؤيتها ، وكلّما أنعم النظر فيها شعرَ بلذّةٍ وسرورٍ في نفسه . هنا حقيقة الحياة الطيّبة ، فإننا شعرنا بالفرق العظيم بين ما رأيناه وما نراه الآن . وقد ذكرت إذ ذاك لإخواني أنّي أفضّلُ الجمال مع حركة الحياة على الجمال الذي يُحَفُّ بالسكون المحزن . بعد أن انتهينا وأخذنا ما طاب لنا من الطعام عدنا إلى عربتنا ، وصرنا نخترق مزارع كبيرة من أشجار الزيتون . ولما وصلنا إلى جلاندورا Glendora رأينا بها أشجار الليمون بكثرة . كذلك سان جابريل San Gabriel فإنها شهيرة بصيد أسماك البقلاه والمرجان . وقد كان بجانب طريقنا طريق آخر زراعي ، عرضه يبلغ الأربعين متراً ومغطى بطبقة من القطران ، فأمضينا نحو عشرين دقيقة ونحن نسير بجانب هذا الطريق ، ونخترق حدائق بها أنواع الليمون والبرتقال واليوسف أفندي إلى أن وصلنا إلى بلدة بسادينا Passadena . وقد كنّا لاحظنا بين أشجار البرتقال في مماشيها أكواماً من البرتقال الذي تلف بالعفونة . ولا غرابة في ذلك إذا عرف القارئ مقدار ما يُصدّر كل سنة من نوع البرتقال فقط من هذه الجهة ، فإنه يبلغ 2,500,000 صندوق ، غير باقي الفواكه الأخرى .

قلت إننا وصلنا إلى بسادينا ، وهي مدينة يبلغ عدد سكانها اثني عشر ألفاً من النفوس ، وهي واقعة بسفح جبل في وادٍ خصب جداً ، فنزلنا من عربتنا نحو الساعة الثانية بعد الظهر ، وذهبنا توّاً إلى فندق ماريلاند Maryland الواقع في أحسن شارع في هذه المدينة . وقد أعدّ لنا فيها غرف فاخرة ، فأخذنا ننفض عنّا الغبار ونصلح حالنا . وبعد ذلك نزلنا منها لنطلب إعداد سيارة لنذهب بها إلى داخل هذه المدينة

الجميلة لنتمتّع برؤية ترتيبها وحسن نظامها . وقد كنا أرسلنا باقي أمتعتنا الثقيلة (الحقائب الكبيرة) إلى لوس أنجلوس ، على نيّة أننا لا نقيم بمدينة بسادينا أكثر من ليلة . ولكنّا لمّا أعجبتنا ظواهرها صمّمنا على أن نمكث بها أكثر من ذلك ، فسلّمنا (حوافظ) هذا المتاع الثقيل لبوّاب الفُندق ليقوم بما يجب لإرساله لنا ، ولم نلبث أن أفهمناه ما نريد حتى أتت السيارة التي طلبنا إعدادها من قبل ، فركبنا فيها وسرنا في وسط شوارع كلّها عظيمة وجميلة لا ندري أيّها أجمل من غيره ، فهي كالحَلْقة لا يُدرى أين طرفاها . والحق يقال إنها في منتهى النظام وكمال العناية والنظافة . وقد زُرع في جوانب هذه الشوارع المتّسعة على أبعاد متساوية ، وفي صفوف مستقيمة أنواع من النخيل Palmiers ومن المانوليا Magnolia ومن أشجار الفلفل Poivriers ومن الكافور . أما منازلها فقد بلغت من الجمال غايته ، فإنها كلّها عبارة عن فيلا Villa وقد قدّرنا اتساع هذه الشوارع بأربعين متراً وكلّها مرصوفة بالمكادام(67) مغطاة بطبقة من القار ، تجري في وسطها المركبات الكهربائية مملوءة بالرّكّاب . أما أرضها فمبلّطة ونظيفة جداً والذي زاد إعجابنا بها أن جميع هذه المنازل لا يُحدق بها أسوار ولا حواجز . وبما أنها كلّها محاطة بالحدائق البديعة ، فقد شبهنا مجموع هذه المدينة بحديقة واحدة عظيمة محكمة النظام رائعة الجمال بها هذه المنازل اللطيفة المرتّبة بذوق سليم . أما طقسها فلطيف أيضاً ، ولم نشعر بدرجة الحرارة الزائدة كما كنا نتألّم منها في القطار قبل وصولنا إلى هذه المدينة التي أسمّيها مدينة الزهور والرياحين .

هذا وقد أخذ سائق عربتنا يرينا قبل كل شيء حديقة المسيو بوش Busch الألماني الأصل ، الذي توصل باجتهاده أن يكون من أرباب الملايين . ولمّا وصلنا إليها وجدنا الدخول فيها مباحاً لعامّة الناس لغاية الساعة الخامسة والنصف مساء ، فدخلناها ، وأعجبنا نظامها ، وشهدنا بأن صاحبها ذو ذوق سليم ، وهو في نظرنا من أكبر المغرمين بحبّ الحدائق ، والمولعين بترتيبها وحسن تنسيقها . وقد استفهمنا عن أسباب شدّة الاعتناء بهذه المدينة ، فعلمنا السرّ في ذلك ، وهو أن أرباب الثروة العظيمة الذين يشتغلون بمدينة لوس انجلوس الواسعة التجارة الكثيرة المصانع لم يجدوا فيها من الراحة ما يخفف عنهم متاعب أعمالهم ، فجعلوها فقط مركز أشغالهم ،

---

(67) Macadam : تعبيد الطريق بالإسمنت أو الإسفلت ، والكلمة مشتقة من اسم المهندس البريطاني McAdam

وجعلوا مدينة بسادينا القريبة من لوس أنجلوس مأواهم في أوقات راحتهم . فمدينة الزهور هي مأوى الأغنياء فهم كثيرو الإقبال عليها ، وقد علمنا أيضاً أن الشركات هي التي وضعت نظامها الحالي اللطيف ، فإنها التي أنشأت بها المنازل وأخذت تتأنق في بنائها وتبيعها لذوي اليسار . وقد اعتنت بترتيب شوارع هذه المدينة ، فتوجّهت الأنظار إليها ، فنزح إليها سكان البلاد المجاورة لها ، وفي زمن قليل وصلت إلى ما هي عليه الآن من حسن النظام . ولنعد ثانياً إلى ذكر حديقة المستر (بوش) . تكلمتُ عن جمال هذه الحديقة ، وفاتني أن أقول إن بها نباتاً ذا أزهار جميلة جداً لونها بنفسجي . وقد يفتنُّون في إقامة الجبيلات الصناعية بها ويجعلونها مُعَمَّمَة بهذه الزهور ، فيكون لها مناظر بديعة رائعة الجمال ، تقتاد أعنة الحدق فترنو إليها أنظار السائحين ، وكلُّما زادوها نظراً زادتهم سروراً وإعجاباً بها :

إذا ما زدتَها نظراً

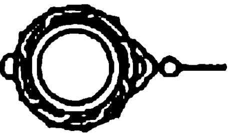
يزيدك شكلها حسنا

فهذه الحديقة جمعت فأوعت ، ففضلاً عن كثرة جبيلاتها البديعة ، بها أنواع من الورد لا تحصى . أما أشجارها ، فحدّث ولا حرج عن كثرتها واختلاف أنوعها . وقد شيّد صاحبها فيها منزلاً فخماً له ، وبجانبه منزلين : أحدهما لابنه ، والآخر لابنته . وأجملها في نظري منزل الأخت .

تركنا هذه الحديقة وذهب بنا سائق سيارتنا إلى حيٍّ من أحياء المدينة يطلق عليه سويسرا الصغيرة ، وذلك لأن منازله مشيّدة على الطراز السويسري . وبعد ذلك صعد بنا إلى ربوة بُني عليها فندق كبير ، وهي مقفلة الآن لأنها تغلق أبوابها في هذا الفصل لعدم كثرة وفود السائحين إليها . فأمكننا أن نرى من هذه الربوة المدينة بشوارعها العظيمة المنظمة ، وأشجارها المغروسة بترتيب بديع ، وزهورها المنتشرة في حدائقها البديعة ، فأعجبنا جداً رؤية هذا المنظر البديع ، لا سيّما أطراف المدينة والفضاء الواسع الذي يحيط بها . ثم سار بنا إلى بناء شاهق مهجور ذي خمس طبقات ، وأصله دير مشيّد على الطراز الإسباني ، وقد عرفنا أن في كاليفورنيا كثيراً من أمثال هذا الدير ، وأغلبها اشترته الشركات لجعله فنادق . ولما رأى مديرو هذه الفنادق أن الإقبال عليها عظيم أخذوا في بناء فنادق على شكل الأديرة الإسبانية . ولكنّ هذا الفُندق الذي نحن به الآن لم يتم بناؤه لنفاد الأموال من أيدي القائمين به ، فأوقف العمل فيه مع أنه لم يبقَ لإتمامه إلا قليل من العمل . ولكن ثقتي بمهارة

الأمريكيين في اتخاذ الطرق التي يسلكونها للحصول على الأموال تجعلني على يقين من أن أصحاب هذا الفندق لا يعدمون من يعينهم على إتمامه ، فيفتح أبوابه في السنة الآتية ، وينال شهرة كبيرة . وبعد أن تفقدناه خرجنا وسرنا بجوار أملاك المستر هامتنجتون . وقد علمنا أنه المنشئ لجميع خطوط المركبات الكهربائية في مدينة لوس انجلوس وضواحيها ، والذي يدل على مقدار ثروته العظيمة أنه شيّدَ منزلاً خصوصياً له أنفق عليه مليون دولار ، وقد حُفَّ هذا المنزل بحديقة مساحتها 80 هكتاراً . ولا تسل عن باقي ممتلكاته الواسعة في المدينة ، فإننا رأينا من بينها أرضاً واسعة قسمها إلى شوارع منتظمة ، وشرع يبني فيها منازل صغيرة لبيعها لمن يريد . وقد سألنا هل يتيسر لنا زيارة قصره وحديقته ، فعلمنا أن الدخول فيه غير مباح للعامّة ، فاستمررنا في طريقنا إلى أن وصلنا إلى قصر المثري العظيم الطائر الصيت المستر روكفلر فوجدناه فخماً وجميلاً . ولكنّا علمنا أنه لا يسكنه الآن ، فنظرناه على بعد ثم مشينا فمررنا على مدرسة التجارة ، ومنها إلى (السبورتنج جراوند) الذي يلعب فيه جميع أنواع الألعاب الرياضية (كالبولو) وغيره ، خصوصاً في أيام السبت والأحد . ولمّا قربت الساعة السادسة والنصف صمّمنا على أن نعود إلى الفندق ، فأمرنا السائق أن يذهب بنا إليه ، وقد صادفنا في طريقنا عدداً كثيراً جدّاً من السيارات ، ولا عجب فإن سكان المدينة أصحاب ثروة ، وسعة وشوارعها تامّة النظام عظيمة الاتساع ، فيسهل عليهم اقتناء هذه السيارات وكثرة ركوبها .

أما عدد الكنائس التي مررنا عليها أثناء سيرنا فعظيم ، وأظن أن في هذه المدينة ما لا يقل عن ثلاثين كنيسة .



لوس أنجلوس

وصلنا إلى الفندق وأسرعنا لتناول عشائنا ، وبعد ذلك ذهبنا لنستريح من عناء السفر ومشاقه . ولما أصبح الصباح يوم السبت 25 مايو رأينا الجو عابساً والسماء متلبدة بالغيوم ، فلم يمنعنا انهمار الأمطار عن الخروج ، فارتدينا معاطفنا الواقية من المطر (ماكينتوش) وأخذنا مطرياتنا وتوكلنا على الله ، وسرنا في المدينة راجلين لنراها على مهل . ولم نعد من جولتنا هذه إلا نحو الساعة الحادية عشرة ، فبعثنا في طلب سيارة لتذهب بنا إلى مدينة لوس أنجلوس التي بها محل كوك لنبحث عن رسائلنا . وفي الساعة الثانية والنصف أتت السيارة فركبنا فيها وأمرنا سائقها أن يذهب بنا إلى هذه

المدينة . ولما كانت الأمطار لا تزال منهمرة لم نستطع أن نقطع المسافة بين بسادينا ولوس أنجلوس إلا في 45 دقيقة مع أن المعتاد أن تقطع في نصف ساعة ، وذلك لأن الطريق صار كلّه مزالج ، ولم نرد أن نسرع اتقاء الخطر ، ولكن سيرنا البطيء جعلنا نتمتع بمناظر جميلة . وقد كان الطريق الذي نسير فيه على أتم نظام وأكمل نظافة ، وكانت المركبات الكهربائية تجري في وسطه بسرعتها العظيمة التي تفوق سرعة ترام مصر الجديدة . وكنّا أينما وجّهنا أنظارنا لا نرى إلا مزارع واسعة نضرة ، فحلت لنا هذه الاستراضة ولم نشعر فيها بملل إلى أن وصلنا إلى مدخل مدينة لوس أنجلوس ، فلم يعجبنا نظامه لاحتوائه على منازل صغيرة جداً أغلبها أكواخ تسكنها فقراء العمال . وبعد أن اخترقنا المكان وصلنا إلى شارع عظيم جداً اسمه برودوي Broadway لا يقل عدد منازله وحوانيته عن الألف . وقد رأينا في هذا الشارع جميع أنواع البشر من صينيين ويابانيين ومكسيكيين وهنود وأمريكيين وغيرهم ، ولم نرَ مصريّاً واحداً غيرنا ، ولا تركياً ، فكأننا بمرورنا في هذه اللحظة جعلنا حظّاً للمصريين في الاشتراك مع جميع هذه الأجناس في هذا الشارع المختلط ، ومع كثرة هذا الزحام صرنا ننعم النظر في ما حولنا لنقف على أحوال هذه المدينة العظيمة . وقد دلّتنا تلك الحركة العظيمة التي بها على أنها مدينة صناعية تجارية ، وبها كثير من معامل البيرة وغيرها .

لا بدّ أن المحال التجارية في مثل هذه المدن كثيرة البيع والربح لكثرة السكان بها ، ولاحتياج هذا العدد العظيم من المخلوقات لمطالب الحياة من ضرورية وكماليّة . إن مدينة لوس أنجلوس هي عاصمة كاليفورنيا الجنوبية ، ونهرها الصغير الذي يُسمّى باسمها يخترقها ويصبّ في المحيط[68] O. Pacifique على مسافة قليلة . وهذه المدينة أنشأها سنة 1781 الإسبانيّون ، ثم سقطت في أيدي الأمريكيين في سنة 1846 ، ولم تكن إذ ذاك شيئاً مذكوراً ، فإن عدد سكانها كان لا يزيد في سنة 1850 عن الألفين ، ولكن أخذ هذا العدد يزداد في سنة 1880 إلى أن وصل إلى الخمسين ألفاً ، أما الآن فعددها يربو عن 280,000 . وقد علمنا أن بها 130 كنيسة و 1,700 مصنع ، ودخلها يزيد عن الثلاثين مليون دولار في السنة الواحدة . والذي يدلّ على أن سكانها من أجناس مختلفة عدد جرائدها العظيمة التي تكتب بسبع لغات مختلفة . ولميل

(68) Pacifique, Pacific Ocean Ocean : المحيط الهادئ .

سكانها إلى التشبّه بأهل مدن أمريكا الكبيرة أقاموا المباني الفخمة الشامخة الكثيرة الطبقات Gratte Ciel . وبالجملة ، هذه المدينة هي مركز الخطوط الحديدية ، ومنها ترسل الفواكه إلى سائر أنحاء أمريكا ، وذلك لجودة تربة أرضها ولإتقان طرائق الريّ الصناعية بها . وقد ذُكر لي أنها ترسل من أنواع الفواكه ما يزيد قيمته عن الثلاثة عشر مليون دولار ، ولا عجب ، لأنّا رأينا في مزارعها المترامية الأطراف كثيراً من كروم العنب ، وأشجار البرتقال والليمون والزيتون وغيرها .

وصلنا إلى محل كوك ، فوجدناه مجاوراً لفندق أليكسندريا Alexandria الشهير ، فنلنا فيه ، وتسلمنا منه رسائلنا الكثيرة ، فما كان أعظم سرورنا . إنّنا نَحِنُّ إلى بلادنا ، ونشتاق إلى معرفة أخبارها وتنسم أحوال أقاربنا وأصدقائنا . وجدير بنا ذلك ، لبعد الشقة بيننا وبين أوطاننا ، إذ أننا في الطرف الآخر من الدنيا . وحسبنا دليلاً على تنائي ديارنا أن وقت النهار هنا هو وقت الليل بمصر . فنحن إذ نقرأ أخبارهم ونسير في هذه الأراضي الواسعة ، بينما سكان مصر يتلذّذون براحة النوم .

تركنا هذا المحل وسرنا في شارع (مين استريت) Main Street الذي يخترق وسط المدينة ، فرأينا فيه مباني شاهقة ، أعظمها بناء البريد العام . ومنه مررنا على جملة شوارع أخرى ، رأينا فيها مركز المحافظة ، ونادي (كلوب) السيدات ، والغرفة التجارية ، ومدرسة المعلمين وغيرها . أما في شمال المدينة فقد رأينا حيّاً آهلاً بالصينيين . وبالجملة ، لم نترك مزاراً يذكر حتى زرناه . وقد وصلنا إلى متنزّه عام يبعد عن المدينة بمسافة ميل ، به بحيرة صغيرة ، وبجواره مساكن الأغنياء الذين جعلوا مدينتهم تحاكي شوارع مدينة بسادينا في نظامها ، وغرس أنواع النخيل على جانبيها ، وجعل كل منزل يحيط به حديقة بديعة ، بها أنواع الزهور المختلفة الألوان والأشكال . وبعد ذلك عدنا إلى داخل مدينة لوس أنجلوس ، فوصلنا إلى ساحة عامة ، بها حديقة صغيرة في وسطها تمثال صغير ، وبجانبه مدفع أُخِذَ من الإسبانيين . وفي هذه الساعة انقطعت الأمطار التي كانت تضايقنا من وقت خروجنا من الفندق ، وذهبت براحتنا ولم نستطع معها أن نشاهد بدقّة كما نشاء كل ما وصفته . ولمّا كان عندنا متّسع من الوقت ، أخذنا طريقاً آخر للعودة أوصلنا إلى حديقة جريفث بارك Griffith Park ومساحتها 1,200 هكتار وبها محل سباق ، فاسترضنا فيها أيضاً . وبعد ذلك استمررنا في طريقنا إلى أن وصلنا إلى الخلاء والمزارع ، فصرنا نرى بعض ربوات مكسوّة بالزهور الطبيعية الصفراء ، ومن بديع جمالها ونظامها لا يحسبها الإنسان طبيعية . ثم مررنا

على قرية صغيرة لا تبعد كثيراً عن مدينة بسادينا تُدعى الحمراء Alhambra ، وهي على صغرها جميلة أيضاً تشبه بسادينا في نظام شوارعها ومساكنها . وقد رأينا على جانبي شوارعها أشجار الكافور وغيره ، فاخترقنا أيضا هذه القرية ، وبعد أن جاوزناها صرنا نسير في وسط أشجار البرتقال المورقة التي كانت تنبعث منها الروائح العطرية . وما زلنا على هذه الحالة في بحبوحة هذا النعيم إلى أن وصلنا إلى بلدة بسادينا ، ووقفت بنا سيارتنا أمام الفندق في الساعة الخامسة والنصف مساء . وبعد ذلك أردت أن أرى الحدائق التي تُربى فيها النباتات والأشجار لبيعها ، فذهبت إلى بستانيّ لعلّي أجد أشجاراً نادرة أشتريها وأرسلها إلى مصر . ولكنّي علمت أن دون ذلك صعوبات كثيرة منها أنه قبل نقل تلك الأشجار إلى بلاد أخرى لا بدّ من البحث فيها بواسطة لجنة لتعرف أهي سليمة حتى يؤذن بنقلها . ثم عند وصولها إلى أوربا لا بدّ من إعادة هذا الكشف . فانصرفت عنّي هذه النيّة ، لا سيّما أن كل شيء في أوروبا ، وطرق النقل منها أسهل وأقرب من أمريكا ، وإن كنت قد علمت أن في هذه الجهات نوعاً من الجوافة منبعجاً يقال إنه أحسن من النوع الذي عندنا في مصر ، بذوره صغيرة وقليلة . ولكن لم أرَ أن أشتري شيئاً من هذه الأشجار ، إذ لا قيمة لها تستحق ذلك . هذا كل ما وصلنا إليه في يومنا .



جولة على الشاطئ

ولمّا أصبح يوم الأحد 26 مايو وأردنا أن نفطر ، علمنا أن الفطور لا يقدّم قبل الساعة الثامنة صباحاً . أما الغداء فإنه لا يكون قبل الساعة الأولى بعد الظهر ، أي بعد انتهاء الصلوات . وهل يدل ذلك على حرص الأمريكيين على دينهم والعمل به! فخرجنا للاستراضة قليلاً في شارع الفندق ، ودخلنا في محل تجاري لأشتري منه بعض كارت بوستال . ثم دخلنا إلى محل آخر لشراء شيء من الحلوى ، فوجدنا أن صاحبه صربيّ . وبعد ذلك صرنا نمشي رويداً رويداً ، ونحن نتمتّع برؤية الزهور والأشجار المغروسة أمام كل منزل . وهكذا صرنا ننتقل من مكان إلى آخر حتى نهاية شارع الفندق ، ثم عدنا إليه لأكتب في رحلتي . ولما أتت الساعة الواحدة ذهبنا لتناول الغداء . وقد كنت أوصيت أن تعدّ لنا سيارة في الساعة الثانية والنصف لنذهب إلى شاطئ البحر ، لرؤية سنتا مونيكا Santa Monica وأوسيان بارك Ocean Park وفينيسيا Venice وكلّها متجاورة . فلمّا حلّ الميعاد أتت السيارة ، فركبناها

وسارت بنا في طريق آخر غير الطريق الذي ذهبنا منه إلى لوس أنجلوس، فصرنا نمرُّ بين حقول متَّسعة مزروعة قمحاً وغيره. ثم مررنا على عدَّة قرى صغيرة لا يبعد بعضها عن بعض كثيراً وكل طرقاتها منظَّمة. والذي لفت نظرنا أننا لم نمر على قرية إلا ورأينا بها مدرسة مشيَّدة تشييداً جميلاً ما عدا بعض تلك القرى. وفي أمريكا لا يحبون أن يسمُّوا بلادهم الصغيرة قرى بل يسمّونها كلّها مدائن، كما ذكرت ذلك قبلاً مخافة أن يغضبوا سكانها. وقد غالوا في ذلك حتى إن القرية الصغيرة التي لا تحتوي على أكثر من عشرة منازل يسمّونها أيضاً مدينة، وتلك عادة خاصّة بهم فلا توجد في جميع أنحاء الدنيا. وقد صادفنا في طريقنا كثيراً من السيارات، حتى خيّل إلينا أن كل فرد من سكان هذه الجهة له سيارة خاصّة به. وقد سمعت أن جميع هذه الطرقات المرصوفة بالميكادام المغطاة بالقطران، أُنفق عليها في ذلك مليونان ونصف دولار. وهذا ما يدل على عظم ثروة سكان هذه الجهات. وقد شهدنا أن نظام هذه الطرقات قد لا يعادله نظام آخر في جميع أنحاء العالم، فإن الإنسان يمكنه أن يقضي طول يومه يتنزَّه بسيارته ويعود بدون أن يتأذّى من التراب، أو من عدم تمهيد الطريق. خرجنا من وسط هذه الحقول وتركنا هذه القرى أو المدائن، ووصلنا إلى سهل متَّسع، فما لبثنا أن هبَّ علينا نسيم البحر العليل، فشعرنا بقربنا من البحر. ثم لفت نظرنا وجود مئات من أعمدة حديدية في وسط هذا السهل كالأبراج، قائمة على أبعاد مختلفة بعضها من بعض ومنثورة بدون نظام. فسألنا عنها سائق سيارتنا، فأخبرنا أنّها مقامة فوق آبار البترول، فمررنا بجانب بعضها. وقد عرفنا أن ثلاث شركات تشتغل هنا في استخراج هذا الزيت، وهو كثير الوجود في هذا السهل، وقد فتحت آبار كثيرة فيه. أما المضخات المستعملة لاستخراج هذا الزيت، فإنها لا تسرع في حركتها. وقد قيل لنا: إن بعض هذه الآبار يستخرج منه الزيت بالمضخّات ليلاً ونهاراً، وذلك لغزارة الزيت فيها وبعضها الآخر لا يستخرج زيته إلا نهاراً ويترك ليلاً ليجم[69] زيته. وقد يوجد منها ما لا تعمل فيه المضخات يوماً من كل ثلاثة أيام. وحول هذه الآبار يزرع القمح، فكأن أصحاب هذه الأراضي لا يريدون أن يكتفوا بما تخرجه إليهم أرضهم من ثروة منابع البترول، بل يكتسبون من جوفها ومن سطحها. أما العمّال الذين رأيناهم يشتغلون في منابع البترول فيظهر عليهم الفقر، ولا تسل عن

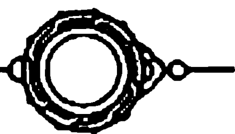
(69) جم: كثر وتجمع.

سوء حالتهم ، فإنهم في غاية القذارة . وهنا في أمريكا كافّة عمّال المناجم ومنابع البترول يشتغلون ليلاً ونهاراً ، وليس لهم في يوم الأحد راحة . وبعد أن قطعنا نحو خمسة عشر كيلو متراً ، وصلنا إلى قرب بلدة (سنتا مونيكا) فمررنا أولاً على بناء شاهق بديع النظام ، تكتنفه من سائر جهاته حديقة واسعة . وقد علمنا أنه معدّ للذين أصيبوا في الحروب وأصبحوا لا قدرة لهم على العمل . ولمّا كان طريقنا يخترق هذه الحديقة ابتدأ سائق سيارتنا يسير فيها ببطء ، وذلك على حسب الأوامر . فكنّا نرى على جانبي الطريق شيوخاً جالسين ، وأمامهم منضدات (ترابيزات) ، وكلّهم مرتدون ملابس مخصوصة لهم متّحدة الشكل ، وتصدح الموسيقى في أيام مخصوصة في (كشك) في وسط حديقتهم حتى لا يعتريهم ضجر من معيشتهم . أما هؤلاء الشيوخ فهم[70] (Les invalides de la guerre de Cessation) التابعون لجيش الشمال . أما التابعون لجيش الجنوب فلهم ملجأ آخر .

بعد أن تركنا هذا الملجأ دخلنا في بلدة سنتا مونيكا . فأول شيء اجتذب أنظارنا أشجارها الذابلة ، ومنازلها التي تعدّ في المنزلة الثانية بالنسبة لما رأيناه من المنازل في بسادينا ، مثلاً . أما ساحلها فحالته أيضاً لا تسرّ كثيراً ، رغماً من كثرة الحمّامات التي به والقهاوي والملاعب وغيرها ممّا أُعِدّ للهو ، وقد علمنا أن هواء البحر هو الذي ذهب بنضرة هذه الأشجار ، وغيّر الألوان الظاهرة لتلك المنازل ، فلم تنبسط نفوسنا من رؤية هذه البلدة التي تقبض مناظرها النفوس ، لا سيّما أن النظافة قد عادتْها . وبعد أن تفقدنا حالتها دخلنا بين منازل صغيرة مصنوعة من الخشب ، ومتجاورة في صفوف منظّمة كأنها خيام معسكر . أما الطريق الذي كنا نمشي فيه فكان ضيّقاً جداً . وقد علمنا أن هذه الأكواخ تؤجّر للذين يريدون أن يمضوا فصل الحمامات في هذه البلدة ، فيسكنون فيها . وعندما يريدون الاستحمام ، يخلعون ملابسهم ويرتدون ملابس الحمّام ، ويخرجون منها إلى البحر . ولا يعجب القارئ من ذلك ، فإن الصور التي رأيتها في بعض كارت بوستال هذه البلدة أكّدت لي أن الخروج في طرقات هذه البلدة بملابس الحمّام مباح ، ولا ينكره أحد . فتصوّرْ عاقبة هذا الأمر . وأظن أن الشبّان الجميلي الخلقة ، الأقوياء البنية ، لا يتركون هذه الفرصة تمرّ بدون أن يعرضوا جمالهم

(70) معنى العبارة الفرنسية : عجزة حرب الانفصال ، أي الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب من أجل تحرير العبيد .

على الذين يهمهم ذلك . أما الغانيات ، فأظنهن أيضاً لا يبخلن على المغرمين بالجمال أن ينظروا إليهن ، ولو بطرف خفي للتمتع بخلقتهن البديعة . هذا ، وقد علمنا أن الساكنين في هذه البلدة لا يزور قلوبهم ملل ، لوجود كل ما يسرّ ويبعد الحزن ، فكل لا يعدم ما يوافق هواه ويلائم مشتهاه من كل جنس . وقد يأتي إليها سكان مدينة لوس أنجلوس التي لا تبعد عنها بأكثر من خمس عشرة دقيقة ، وأغلبهم من الطبقة الوسطى للتّمتّع بما فيها . وقد مررنا على مكان مثل وادي القمر Luna Park رأينا فيه جمعاً محتشداً عدده كبير جداً ، فخيّل إلينا أننا أمام قرية نمل آهلة بالسكان الذين لا يعلم عددهم إلا الله ، فالتفت إلينا سائق سيارتنا ، وقال : هل تريدون النزول هنا؟ فشكرته قائلاً : إن اليوم يوم أحد ، ولا أريد أن أعرض نفسي لمزاحمة لا فائدة منها . وربما يصيبنا شيء من بعض من لعبت برؤوسهم الراح ، خصوصاً وأني أرى على وجوه بعض السابلة ما يجعلني أشمئز من منظرهم . وأظن أن مثل هؤلاء الأشخاص لا يودُّ الإنسان رؤيتهم في مكان منقطع أو في ظلام ليل حالك . فاستمررنا في طريقنا ، لأننا صمّمنا على أن نعود من طريق لوس أنجلوس . وقد قابلنا سيارات كثيرة مكتظّة بالركاب ، وإني آسف لعدم إحصائها حيث أني لم أفكر في ذلك إلا بعد أن مرّ منها أمامنا عدد كبير . وقد صادفنا في طريقنا ثملاً لعبت برأسه الخمر يركب درّاجة Petrolette ويمشي متخبّطاً وقد ذهب شعوره ، فتارة ينعطف ذات اليمين وأخرى ذات الشمال ، وهو كمن به مسٌّ من الجن ، فلم أدرِ كيف يترك مثل هذا على هذه الحالة الخطرة على نفسه وعلى غيره في وسط زحام هائل . فرجعت وتذكّرت ما يقوله السكّيرون أن لهم إلهاً خاصّاً بهم يحافظ على حياتهم وقت ما يفقدون رشدهم . هذا ، وقد علمنا أن في أمريكا كل شخص يمكنه أن يكون سائقاً لسيارة بدون امتحان في صنعته ، وليس عليه إلا أن يدفع دولارين فيبيح له دفعهما أن يكون سائق سيارة . ولذا رأينا سيدات وبنات وأطفالاً يسوقونها ، وليس لأحد أن يعارض في ذلك .



محمية لتربية الحمام

وصلنا إلى لوس أنجلوس ودخلنا في أحد شوارعها المدعو ويست أدامس West Adam's ، وهو من أكبر شوارعها وأعظمها ، به منازل فخمة محاطة بالحدائق الغنّاء يسكنها أصحاب الملايين من الذهب . فاستمررنا في طول هذا الشارع الكبير ، ولم

نقابل كثيراً من المخلوقات . وقد كادت المدينة أن تكون خالية ، لأنه في يوم الأحد يخرج سكانها منها إلى الحدائق والرياض والبلاد المجاورة لاستنشاق الهواء وتغيير المناظر . وبعد أن انتهينا من هذا الشارع ، خرجنا إلى الطريق الموصل إلى بسادينا ، ووصلنا إليها في نحو الساعة السادسة والنصف مساء فسررنا من رياضتنا هذه ، لا سيما أن الجوّ كان معتدلاً والهواء عليلاً . فانتهى بذلك يومنا .

أصبحنا في يوم الاثنين27 مايو ، فلم نعمل شيئاً يذكر قبل الظهر إلا كتابة بعض رسائل لأقاربنا ، واستراضة صغيرة على الأقدام داخل البلدة . وفي الساعة الثانية وخمس دقائق بعد الظهر ، ركبت ومعي مصطفى بك الترام الذي يقف أمام باب فندقنا للذهاب إلى لوس انجلوس . وقد كان يمشي بسرعة عظيمة جداً ، فقطعنا المسافة إليها في 30 دقيقة . ولكن دور هذه البلدة بطريق الترام لا تسرُّ كثيراً ، فإنه يمرُّ أمام أكواخ المكسيكيين القذرة ، فنزلنا منه في الشارع الخامس ومشينا قليلاً إلى أن وصلنا أمام فندق ألكسندريا ، فذهبنا إلى محل كوك المجاور لهذا الفندق ، وتسلمنا رسائلنا . ثم أنفذنا في طلب سيارة لتذهب بنا إلى مكان يبعد عن هذه المدينة بساعتين تربى فيه أنواع الحمام ، به 150,000 حمامة لى ما قيل لنا . فعامل كوك أحضرها لنا واتفق مع السائق على أجر مقداره ثلاثة دولارات ونصف في الساعة ، فركبناها ، ولما خرجنا من المدينة سرنا ومجرى نهر إلى أن وصلنا إلى باب كبير مكتوب على لوحة معلّقة عليه (أكبر محل لتربية الحمام في العالم) فلم نستغرب ذلك أيضاً لأننا تعودنا أن نقرأ : (أكبر محل في العالم ، أو أجمل محل في العالم) كثيراً ، وقد ذكرت قبلاً أن هذه الطريقة متّبعة في أمريكا لجلب أنظار السائحين ، ولتشويقهم إلى الدخول في هذه الأماكن ، وقد كانت تغرنا أيضاً هذه الطريقة لأننا كنّا نقول : ربّما يصدق القوم ولو مرّة واحدة فنحظى بالدخول في أكبر أو أجمل محل في العالم ، فدفعنا رسم الدخول وهو 25 سنس أي خمسة قروش عن كل شخص ، ودخلنا في هذا المكان ، فوجدنا أن عدد الحمام به كثير جداً ولكن العدد 150,000 حمامة مبالغ فيه كثيراً . وقد قدّره مصطفى بك من عشرة آلاف إلى عشرين ألف حمامة فقط ، أمّا أنا فقدّرته بأكثر من ذلك . ولكن الفرق عظيم بين تقديري وزعم أصحابه ، فألقينا نظرة عامة على هذه الأسراب من الطيور ، وقد عرفنا أنه يباع كل سنة من زبله مقدار بثمن عظيم ، ويصدر من فراخه كثير إلى جهات مختلفة . وبعد ذلك خرجنا وسار بنا سائق السيّارة في جميع الطرق الجميلة إلى أن وصلنا إلى متنزّه

كبير ، كان في الأصل معسكر جيش الأمريكيين ، قبل أن يستولوا على مدينة لوس انجلوس ويأخذوها من أيدي الإسبانيين . وهذه الحديقة لم يتم نظامها إلى الآن ، ولكنّها عمّا قليل ستصير جميلة وتستحق الزيارة والرياضة فيها بفضل العناية العظيمة بها .

تركنا هذا المتنزّه وتابعنا سيرنا ، وصرنا ننتقل من شارع إلى شارع في لوس انجلوس إلى أن وصلنا إلى الترام الذي يوصلنا إلى بسادينا . ولمّا أردت انتظاره قال لي سائق العربة : الرأي عندي أن تذهبوا إلى المحطّة العامّة للتراموايات ، فإنكم إذا انتظرتم في هذا المكان لا تجدون محلاً لكم في الترام لكثرة الزحام ، لا سيّما أن هذا وقت خروج العملة من البيوت التجارية ومن المصانع . وقد شاهدنا ذلك بأعيننا ، فإن الترام الذي مرّ أمامنا كان مملوءاً والناس بعضهم فوق بعض . ولكن هذا لم يمنعنا أن نركب نحن أيضاً مع الراكبين في هذا الترام ، ولكن اضطررنا أن نقف على السلّم حتى لا يضايقنا التصاق الناس بعضهم ببعض في هذا الزحام الشديد . ومع ذلك لم نسلم من وقوف بعضهم على أحذيتنا دون أن يعتذر عمّا فعله ، إذ يظن أن هذا شيء طبيعي وحقّ مكتسب لا يؤاخذ على فعله . وكلّما نزل من العربة واحد صعد إليها عشرة ، حتى إن ثماني فتيات صعدن إلى العربة مع هذا الزحام الشديد وصرن يضحكن . وكلّما وقف الترام يرتمين تارة ويتمايلن أخرى ، وأظن أن مثل ذلك كان يخفّف على الراكب وطأة هذا الزحام . وصلنا إلى بسادينا ، ولكن على أيّ حالة؟ على حالة تعب شديد ، فشعرت بألم شديد في قدميّ ، لأني كنت طوال الوقت واقفاً على حذر من أن أقع على أحد الركاب أو أن أصطدم معه ، وهذا الذي زاد في تعبي . وقد شكا إليّ أيضاً مصطفى بك قائلاً إنه لم يلاقِ عناء مثل الذي لاقاه في هذا اليوم العصيب ، فنزلنا وعند وصولنا إلى الفندق جلسنا للاستراحة قليلاً . وهنا يجب أن أذكر شيئاً لاحظته ، وهو أننا رأينا كثيراً من السيدات والفتيات يركبن الدرّاجات البخاريّة (الموتوسيكليت) Motocycle ووراءهن أحد الشبّان أو الرجال . ويا ليت هؤلاء الرجال أو الشبّان كانوا يركبون في العربة الصغيرة التي تتخذ عادة في أوربا وراء الدرّاجة البخارية أو بجانبها ، ولكنّهم يركبون وراء السيّدات أو الفتيات ، ولا بدّ أنهم يضطرون في بعض الأحيان إلى الالتصاق بهن . فأنكرت ذلك منهن ، خصوصاً أني أعتقد أن في ركوب السيّدات مثل هذه الدرّاجات ضرراً على صحتهن . وكفى أنهن يركبن على كرسي صغير جداً ، وكلّما تحركت الدرّاجة حركة تأثرت

الراكبة باهتزازات هذا الكرسي الصغير ، وأظن أن ركوبها أضر على الفتيات منه على السيدات . وقد نبههن بعض عقلاء الأمّة إلى هذه المضار الجسيمة ، فلم تصادف نصيحتهم هوى في الفؤاد لأنهن يردن التّمتّع ، وربّما كان في ذلك ما يزيدهن سروراً ، ومن الصعب كفُّهن عن أحبِّ شيء إليهن[71] . أسرعنا في تناول العشاء ، وبعده افترقنا لنستريح من عناء هذا اليوم . وفي صباح يوم الثلاثاء 28 مايو ذهبت إلى محل مصوّر ، كنت أعطيته بعض أصول Films لإظهارها ، وفيها بعض مناظر كنت صوّرتها بمصوري الشمسي . ولكنّي أسفت إذ علمت أن هذه المناظر قد أفلتت من آلة التصوير فلم تنجح في اقتناصها . وبعد ذلك أنفذت في طلب سيّارة لنذهب بها إلى بلدة (ريفرسيد) Riversid [72] . وقد كنا صممنا على أن نمكث بها يومين ، ولكن لقربها من بسادينا فضّلت أن نسكن في الأخيرة ، مدينة الزهور ، ونذهب إلى الأولى في أي وقت نريده على السيارة . في الساعة العاشرة صباحاً وقفت السيارة أمام باب الفندق فركبناها ، وسرنا إلى ريفرسيد التي لا نصل إليها إلا بعد ثلاث ساعات . فكان أول طريقنا جميلاً جداً ، لأننا كنّا نمشي بين أشجار البرتقال والليمون ، وكانت الروائح العطرية تحيي أفئدتنا . وأحياناً كنّا نمشي وسط طريق محفوف من جانبيه بأشجار كبيرة من الكافور أو من (الكازوارينا) . وكنّا نمشي بجوار الطريق الحديدي الذي ذهبنا منه إلى (سنتا برناردينو) St. Bernardino ولكنّا قبل أن نصل إلى هذه البلدة بمقدار خمسة عشر ميلاً ، مشينا في طريق آخر على اليمين لا يسرّك أن تسلكه ، فكلّه رمل يخالطه تراب ثائر فعلانا من الغبار شيء كثير . وكنّا نرى على بعد بعض كروم عنب فاستمررنا على ذلك ، ونحن نمرّ أيضاً على مصانع كثيرة لعمل النبيذ وغيره من المشروبات الروحية . فابتدأنا نتألم من هذه الحالة ، لا سيّما أن الحرّ كان شديداً جداً بالرغم من سرعة السيارة ، حتى إنه أثّر في وجوهنا فتغيّرت ألوانها حتى صارت حمراء . وما زلنا على هذا الحال إلى أن دخلنا في وسط سهل عظيم . ثم قربنا من بعض روابي صغيرة إلى أن وصلنا إلى نهر صغير أوشك أن يفيض ماؤه ، فمررنا عليه . وبعد ذلك أخبرنا سائق السيارة أنه لم يبق لنا إلا خمسة أميال للوصول إلى ريفرسيد . هنا رأينا ثانياً مزارع الفواكه كالبرتقال وغيره . وقد علمنا أن الفواكه التي

---

(71) هذه الفكرة منافية لعلم التشريح ووظائف الأعضاء ، وهي من الموروث الشفاهي الساذج بين الناس .

(72) هكذا وردت ، والصحيح : Riverside

تخرج من هذا الوادي أحلى من غيرها ، وتنضج قبل فاكهة سائر الجهات الأخرى بأربعة أسابيع . قربنا جداً من المدينة وصرنا نسير في طريق صالح ، قد غرس على جانبيه أنواع النخل ، وهو أيضاً مرصوف بالميكادام ومغطّى بطبقة من القطران . وصلنا إلى فندق (جلينود) Glenwood في الساعة 12 و 30 دقيقة ، وكان أمام أبوابه كثير من السيارات ، وذلك لكثرة الوافدين عليه . وهو في الحقيقة يستحق الإعجاب به لأنه دير قديم إسباني ، فنزلنا من سيارتنا ودخلنا فيه ، فوجدنا في حديقته وفي طنوفه كثيراً من الزائرين اختاروا هذه الأمكنة ليروا الوافدين على هذا الفندق . وقد أتى ميعاد الغداء فابتدأنا أولاً بتناوله في البهو المعدّ لذلك ، وهو حجرة بها كثير من الأعمدة القائمة في ساحتها ، ومعلّق على حيطانها جملة من الرماح والحراب وغيرها من كل ما يذكّر بتاريخ الأزمنة الوسطى ، فاخترنا مائدة . ثم أقبلت إلينا رئيسة الخدم وأخبرتنا أن من قانون هذا الفندق دفع الثمن قبل تقديم الطعام للذين لا يسكنون به ، فدفعنا عن كل شخص دولاراً وهي القيمة المقرّرة . أما الطعام فيقدّم لكل الآكلين سواء ، وهو عدّة أصناف ، يقدّم من كل صنف شيء قليل جداً ، ويا ليتها مع ذلك طيّبة ، فإنها لا تؤكل إلا اضطراراً . فتذكّرت رحلتي ببلاد اليابان حيث كان يقدّم لنا كثير من أنواع الأطعمة ، ولكن الذي يقدّم من كل صنف قليل جداً فكنا نحسبها عينة لنختار بعد أن نذوقها ما نشاء . وقد ينطبق مثل بعض الجرائد الألمانية الهزلية على حالتنا في هذا الفندق . فقد رأيت يوماً في جريدة من هذه الجرائد صورة رجل وبيده منظار مُكبّر[73] ينظر في صحفته (طبقه) لعلّه يجد ما بها من الطعام ؛ فهكذا كنّا ، والحمد لله . أما حجرة الطعام فكانت مكتظّة بالمخلوقات ، وبعد أن أتممنا غداءنا خرجنا لزيارة الفندق ، فأعجبنا نظامه ، وألقينا نظرة أولاً على حديقته ، فكان أمام الباب الداخلي للفندق ببغاوان وفي طنوفها (فيرانداتها) أربعة أخرى . فمشينا قليلاً فيها ووجدنا بناء صغيراً منفصلاً عن محل السكن ، به جملة غرف معدّة للمطالعة والجلوس وللعب (البلياردو) . ثم عدنا ثانية إلى داخلها فسمعنا صوت الموسيقى الشجي . ولما كنت مغرماً بسماعها ، مشيت إلى الجهة التي أسمع منها هذه النغمات ، فماذا رأيت؟

في ريف بسادينا

---

(73) وردت في النص (معظم) ، وخلل الترجمة واضح .

رأيت كنيسة بديعة النظام وسيدة تلعب بالأورج Orgue (74) ورجلاً يدق على «الهارب»(75) فسررت جداً وأردت أن أجلس لأشنّف أذني بهذه النغمات التي تدعو إلى السكون من شدّة تأثيرها في النفس، ولكن ساءني أنه لم يكن لدينا متّسع من الوقت. وقد جال بفكري أن هذا المكان ربّما كان معدّاً للعبادة (كنيسة)، وربّما كان في وجودنا تكدير لصفاء المتمسكين بدينهم، لا سيّما أن سيّدة عجوزاً صارت تنظر إلي شزْرا، فاستمررت أنا وزميلاي ننظر إلى كل ما بها، فأعجبنا جداً بقاؤها على حالتها الأولى. وقد رأينا كثيراً من السيوف القديمة والتروس وغيرها من آلات الحرب القديمة، معلّقاً كل ذلك على حيطانها، فصرنا ننتقل من مكان إلى مكان إلى أن وصلنا إلى محل يباع فيه بعض أشياء للسائحين، فدخلنا فيه لشراء بعض بطاقات البريد (كارت بوستال)، وسألت الرجل الذي يبيع هذه الأشياء: هل المكان الذي تعزف فيه الموسيقى كنيسة؟ فأجابني: لا، يا سيّدي، إنه في الزمن السابق كان محل إقامة الصلاة وقد ترك على حالته الأولى، وهو الآن قد اتخذ محلاً للموسيقى، وفي المساء ينقلب إلى مرقص. فأنكرت على القوم ذلك لأنّي ممّن يحترمون كل مكان اتخذ لعبادة الخالق. وبعد ذلك أخذنا نطّلع على ما بهذا الدكان، فرأينا جملة مصابيح وكثيراً من أنواع الأثاث القديمة وغيرها، وقد عرفت من هذا البائع أنه مضى على المحل نحو أربعين سنة، وهو يتاجر في هذه التحف، فسألته: قل لي بربك: كيف تمر هذه الأزمان الطويلة، وأنتم تبيعون من هذه التحف دون أن يفرغ منها دكانكم؟

فأجابني - وهو لا يملك نفسه من الضحك: إن كثيراً من السائحين يشترون هذه الأشياء ليزيّنوا بها منازلهم ولا يودّون أن يعرفوا حقيقتها، وإنها ليست تحفاً قديمة بل هي أشياء جديدة تحاكي التحف القديمة، وليس من واجباتنا أن نذكر حقيقتها لئلا تكسد تجارتنا، وإني قد اشتريتها على حالتها التي تراها عليها، فلست مسؤولاً عن تاريخها، فضميري مرتاح من هذه الوجهة.

ولمّا كان الوقت لا يسع أن نمضي في هذا المكان أكثر من المدّة التي أمضيناها فيه، لا سيّما أننا نريد الذهاب إلى (روكدلند) Rocdland أسرعنا إلى ركوب سيارتنا وأمرنا

---

(74) (بالفرنسية) : الأرغن

(75) Harp : قيثارة .

سائقها أن يذهب إليها ، فصرنا نمشي في واد به أيضاً كثير من أشجار البرتقال التي تثمر برتقالاً صغيراً به بذور كالتي تخرجه أرض مصر ، ولم نر شيئاً جديداً غير هذا ، وكنّا نشعر بحرّ شديد . قربنا من روكدلند ، فالتفت إلينا سائق السيارة وقال : إنّي من سكان الشرق ، وهنا أهل الغرب مشهورون بالمغالاة ، فطالما سمعت كثيراً منهم يقول إن مكان كذا هو أكبر أو أحسن أو أعظم مكان في العالم . والحق يقال ، إني لم أرَ إلى الآن شيئاً يؤيد ما يدّعونه . فوافقته على قوله لأن ما سمعته عن روكدلند جعلني أشتاق لرؤيتها ، ولكن لم نرَ شيئاً يذكر ، وهي تشبه قليلاً بسادينا من حيث المزارع ، وتزيد عنها بشدّة حرارتها . فلم نرَ موجباً لقطع 25 ميلاً في هذا السعير بدون فائدة . فأمرته أن يعود بنا إلى حيث أتى ، فعرض علينا أن يرجع من طريق أطول من الذي جئنا منه فقبلنا ، وسار بنا فيه . وصرنا نرى بين وقت وآخر بعض أشجار الكافور العظيمة والاروكاريا[76] الكبيرة . وبعد قليل غيّر وجهة الطريق ومشى بنا إلى جهة الجنوب ، فانتقلنا إلى أودية مختلفة لا يوجد بها أشجار الفواكه ، بل كلّها مزروع فيها أنواع الحبوب . وصرنا نمرّ على كثير من الضياع التي يدلّ ظاهرها أن أصحابها من ذوي الثروة ، وأن كل هذه الأراضي في غاية الخصوبة . وقد حثّ السائق السيارة ، فأخذت تطوي الأرض طيّاً بكلّ قوّتها ، فمررنا على أربعة وديان متشابهة وخصبة ، واستمرّ على هذه السرعة إلى أن قربنا من مدينة بسادينا . وقد خرجت للرياضة هنا أربع مرّات قبل هذه ، مرتين بالسيّارة ، وثالثة بالترام ، ورابعة بالقطار ، وما كنت أرى في كلّ مرّة إلا أشجار الفواكه ، ولم أكن أعلم أنّ بالقرب من مدينة بسادينا حقولاً كبيرة كالتي رأيناها هذه المرّة . وصلنا إلى الفندق الساعة السادسة والنصف ، وأظنّ أن ما قطعناه اليوم من المسافات الطويلة يكفي لختام هذا اليوم .

إلى سنتا باربارا

أصبحنا في يوم الأربعاء 29 مايو فعزمنا أن نترك مدينة الزهور للذهاب إلى بلدة أخرى اسمها (سنتا باربارا) Santa Barbara ، فأعددنا العدّة لمغادرة هذه المدينة على القطار الذي يتحرك من مدينة لوس أنجلوس الساعة الثانية وخمس دقائق . فنبّهت رئيس السفريين أن يجهّز لنا غداء بارداً قبل الظهر بربع ساعة ، وما أتت الساعة 12

(76) هكذا وردت في النص ، والصحيح أوركاديا Orchid

و30 دقيقة حتى كنّا على أهبة الرحيل ، فأخذنا معنا بوّاب الفندق ومشينا نحو خمس دقائق إلى أن وصلنا إلى محطة الترام ، والحمد لله أمكننا أن نأخذ مكاناً فيه ونستريح حيث كل الناس في هذا الوقت مشغولون بتناول غدائهم . وفي الساعة 12 و 50 دقيقة تحرّك بنا الترام ، وبعد 30 دقيقة وصلنا إلى لوس أنجلوس وذهبنا حال وصولنا إلى محطّة سوذرن باسيفيك Southern Pacifique ، وعند دخولنا فيها طلبت منّا تذاكرنا فسلّمناها وتسلّمنا غيرها . ثم ركبنا قطارنا وقد لاحظنا أنه كبير جداً يسع عدداً عظيماً من الركّاب . أما عرباته فقد كانت كبيرة أيضاً وطويلة جداً ، وبها صفّان من المقاعد ، كل مقعد معدّ لشخصين . أما متكأ هذا المقعد فإنه يتحرّك بحيث إنه ، إن كان معك أكثر من شخص ، أمكنك أن تحوّل هذا المتكأ فتجلسوا متقابلين لا متدابرين ، وبذلك تقطعون المسافة بأحاديث السمر ، دون أن تشعُروا بملل . هذا وفي كل عربة محلان للغسل ، أحدهما للرّجال والآخر للنساء . كذلك بها مثلّجة ، ماؤها نقي مثلوج ليطفي الشارب ظمأه من شدّة الحر . فابتدأ قطارنا يتحرّك في ميعاده ، وصرنا نرى المزارع التي تشبه كثيراً مزارع ألمانيا وبعض جهات النمسا وشرقي فرنسا . هذا ، وقد كنّا نرى العمّال يعملون فيها ، وبين وقت وآخر كنّا نمرّ على ضياع كبيرة بالنسبة لأمثالها بأوربا . أما هؤلاء العمّال فأغلبهم مكسيكيّون أو يابانيّون . والظاهر أن أرباب الضياع يفضّلونهم على غيرهم لأن أجورهم قليلة بالنسبة لغيرهم . اخترق قطارنا نفقاً ، وبعده صرنا نمرّ في واد آخر خصب جداً ، وأظن أن دخله عظيم جداً . وصلنا إلى مدينة (فانتورا) Ventura أو (سان بوينا فانتورا) San Buena Ventura وهي مدينة يبلغ عدد سكانها ثلاثة آلاف وخمسمائة ، وهي مركز تجارة البنجر واللوبيا . ومنها أخذنا نقترب من شاطئ البحر ، فرأيناه هادئاً ساكناً تهبُّ منه الرياح البليلة ، فتذكّرنا بلادنا وقلنا متى نركب البحر لنعود إليها . وقد أحدث في نفوسنا بعض السرور تغيير المنظر لأننا أمضينا زمناً طويلاً ، ونحن بين صحارى ووديان وجبال ، فأطلقنا لأنفسنا عنان الخيال للتّمتّع بالأشياء اللذيذة ، فخيّل إلينا أننا في الباخرة على مقربة من منار مدينة الإسكندرية الزاهرة حيث لم يبقَ علينا إلا قليل لنرى أهلنا وأقاربنا وكل عزيز لدينا .

نحن الآن على بعد 20 ميلاً من مدينة سنتا باربارا ، ونرى الآن كثيراً من آبار زيت البترول قريبة من الماء ، وبعضها في الماء ، وهذا ما لم أره من قبل . ومن الغريب أن المضخّات المستعملة لاستخراج هذا الزيت من البر هي المستعملة لاستخراجه من

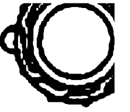
قاع البحر ، غير أنه ليس لكلّ مضخّة آلة بخارية تديرها ، بل اكتفي هنا بآلة واحدة ذات قوة عظيمة تدير عدّة مضخّات . قربنا من سنتا باربارا ودخلنا في طريق تكتنفه بساتين كثيرة ، فوقف بنا القطار أمام نادٍ يدعى (كانترى كلوب) country Club له منزلة عظيمة بين النوادي لأن أصحاب الثروة العظيمة من الأمريكيين يفدون إلى تلك الجهات في فصل الشتاء لقضاء بعض أيام بها ، إذ لا يشتدُّ فيها البرد ، فيتّخذون ذلك النديّ مجتمعاً لهم . وبما أن في أمريكا أصحاب الملايين هم الذين لهم الحول والطول والنفوذ العظيم الذي يضارع نفوذ أمراء الشرق في الزمن السالف يقف القطار أمام هذا النديّ إرضاء لهؤلاء الأغنياء الذين يديرون حركة هذا العالم بسلطة الأصفر الرنّان .

وقف بنا القطار في محطة سنتا باربارا ، فلمحت عربة فندق بوتر Potter الذي نقصده ، فأسرعنا إليها وأخذنا مكاننا فيها ، وقد ركب معنا ثلاثة سائحين . ولّما لم يجد قائد العربة غيرنا سار بنا ، ثم دخل بنا من حديقة الفندق القريبة جداً من شاطئ البحر . ولّما وصلنا إليه وجدناه كبيراً وعظيماً ، فأسرع إلينا من تسلّم متاعنا . وبعد ذلك عُرضت علينا غرف جميلة في الطبقة الثالثة تُطل على حديقة الفندق الغنّاء ، ويُرى منها الرصيف والبحر ، ومرفأ سنتا باربارا الذي هو في الحقيقة أكبر من ثغر (نابلي) ، لكن منازله أقل من منازل نابلي ، ويمتاز الثاني أيضاً ببركان فيزوف المدمّر . والناظر إلى الثغر الأول تتجلى له فيه الطبيعة بجمالها وهيبتها . اتساع عظيم وجبال شامخة وأشجار خضراء تكسو الأرض حلّة سندسيّة فتزيد جمالها . رأينا في هذا الثغر قسماً من الأساطيل الأمريكية ، فأحصينا عددها ، فإذا هي قطعتان لخفر السواحل وثلاث قطع من نوع التوربيد ، وكل قطعة بها أربع مداخن ، ولكنّي لم يعجبني شكلها فجلّها من السفن القديمة .

إن الهواء بليل والسماء عابسة مكفهرّة ، والجوّ منذر بوابل من المطر ، فنظرنا إلى ساعاتنا فإذا نحن في الساعة السابعة ، فذهبنا إلى حجرة الأكل لتناول عشائنا ، فإذا هي كبيرة ، ونظامها وحسن ترتيبها يدلُّ على أن الفندق من أعظم الفنادق وأنظفها ، فشرعنا نأكل ما طاب لنا من الطعام . وكان عشاؤنا لذيذاً ، ولم نصادف أحسن منه إلا في مطعم (مارتن) الفرنسي بنيويورك . وقد كانت الموسيقى تشنّف آذان الحاضرين ، ويديرها ثلاثة أشخاص ، أحدهم يضرب على البيانو والآخران تمنُّ في أيديهما الكمنجة . ولكن رغماً من أن هذين الأخيرين يحاكيان رجال هذا الفن

الجميل في إرسال شعرهما على ظهريهما ، ويتشبهان في حركاتهما بمتقني الموسيقى ، كانا لا يتّبعان في عملهما نظاماً واحداً ، بل كل واحد منهما كان مستقلاً عن صاحبه ولا يسير معه في تلحينه ، فصرنا نسمع نغمات مختلّة لا أصل لها . خرجنا من حجرة المائدة في الساعة 8 و 15 دقيقة ، فوجدنا في فناء الفندق طائفة أخرى من الموسيقيين ، ولكن ليست موسيقاهم وترية . وقد كان يرأسها شاب قد أرخى أيضاً شعره على ظهره ، وقلّد تقليداً دقيقاً كبار المفتنين والمؤلفين في فن الموسيقى ، وهو وطائفته من الإيطاليين الذين يقيمون في سنتاباربارا ، فجلسنا على مقربة منهم لعلّنا نسمع ما لم نكن نسمعه من قبل . فوقف رئيسهم في بُهْرة(77) حلقتهم وفي يده عصا صغيرة ، فأذِنَ لهم في الابتداء ، وصار يحرّك رأسه يميناً وشمالاً بسرعة ليس بعدها سرعة ، كالذي به مسّ من الجن ، ويطوّح بذراعيه تارة إلى الأمام وأخرى ذات اليمين وذات الشمال ، فللّه درّه ما أخَ حركاته الرياضية . وكلما زادت أعصابه اضطراباً صفّق له الحاضرون تصفيقاً حاداً ، فيزداد تهيّجاً . ولكنّا لم نصفق له شفقة عليه ورأفة به ، لأن هذا المحتال عرف كيف يوجّه الأنظار إليه ، وبأيّ طريقة يجذب المسامع إلى موسيقاه حتى يزيد إعجاب الناس به وبمن معه ، فما أحمقه وأجهله . وقد قال خيري : إن هذا الرجل يكسب حقيقة رزقه بعرق جبينه ، ولا بدّ أنه بعد أن يتمم أدواره ينام نوم أهل الكهف ، ولا يستيقظ إلا والطبيب يعالجه من داء الجنون الذي حلّ به . أما مصطفى فلمعرفته التامّة بفن الموسيقى صار يتأوّه إشفاقاً على هذا المسكين ، ويقول إن عقله ذهب في عالم الخيال ، وما حركاته المدهشة إلا نتيجة اضطراب أعصابه ، فصار لا يعي ولا يعرف ما يفعل . أما رأيي الخاص في هذه الموسيقى ، وليس من شيمتي أن أبخس الناس حقّهم ، فهو أنها كانت موسيقى فنيّة محكمة ، فليست حالة رئيسها المضحك الطائش بداعية للحطّ من قدرها . حُضّرت أمتعتنا في نحو الساعة 8 و 30 دقيقة ، وبعد هذا الزمن بقليل صعدنا إلى غرفنا للنوم والراحة .

(77) بهرة الحلقة : وسطها .



قضينا ليلتنا في هدوء وسكينة ، وفي صباح يوم الخميس 30 مايو خرجنا لنرى المدينة ، فإذا هي شارع واحد طوله نحو ثلاثة كيلو مترات ، فمشينا فيه نحو نصف ساعة راجلين . ثم عدنا إلى الفندق راكبين الترام الذي يمرّ في وسط هذا الشارع ، حتى يصل إلى رصيف البحر ويقف أمام الفندق . فلم نرَ إذاً إلى الآن ما يستحق الوصف ، وما سرّنا إلا أن الجو كان صحواً ، والشمس تلقي أشعّتها الذهبية على هذا الثغر الطبيعي الجميل . نزلنا من الترام ودخلنا الفندق من باب حديقته العامّة . ولما كان هذا اليوم من أيام الأعياد وفيه تحيى ذكرى العساكر الذين قتلوا في حرب(78) Guerre de Cessation فقد كانت الأطفال وعامّة أهل البلد مرتدين ملابسهم النظيفة ، وبأيدي الصغار منهم الأزهار . أما أنواع الشرائط الحريرية المختلفة الألوان ، فإنها كنت تزيّن ملابس البنات ورؤوسهن . فجلست أنا وخيري في إحدى طنوف الفندق التي تطل على حديقتها وعلى البحر ، وإذا بضابط عظيم حضر بملابسه الرسمية ممتطياً جواداً . فلفت نظرنا شيء واحد ، وهو لون حوافر الحصان الفضي ، فإن نعاله متّخذة من معدن الألومنيوم ، وأظن أنّه آتٍ من حفلة تمرينات عسكرية ، فنزل من فوق جواده وتقدم إليه تابع له ، فأخذ الجواد وركبه وسار به إلى إصطبله .

أوصيتُ بإحضار عربة لنركب فيها بعد الظهر كي نرى ضواحيَ بلدة سنتا باربارا ، ولم أطلب سيارة لأن الحالة لا تستدعي الإسراع . ولما أتت ركبناها وسرنا بها إلى حيّ الأغنياء ، فإذا هو مجموع منازل جميلة محفوفة بحدائق واسعة تشبه منازل بسادينا . وقد تسكنها الأغنياء في فصل الشتاء لاعتدال جوّها في هذا الفصل ، ويصطاف فيها الذين يقصدون منهم الحمّامات البحرية في هذه البلدة . وفي أثناء الطريق مررنا على شجرة موز كبيرة جدّاً أمام أحد المنازل ، فناديت البستاني وسألته عن نوعها ، ولِمَ كانت هكذا عظيمة . فقال : إنما ذلك لتقادم عهدها ، فإنها تبلغ من العمر ثلاث عشرة سنة . وبعد ذلك استمر بنا في طريق تكتنفه أشجار الكافور وغيره إلى جهة الجبل ، فوصلنا إلى أملاك أحد أغنياء الأمريكيين وأصله طلياني . وقد قيل لنا إنه مغرم بتربية أنواع النباتات ، وقد أنفق في بناء منزله ملايين من الدولارات ،

---

(78) حرب الانفصال المعروفة باسم «الحرب الأهلية» بين الشمال والجنوب .

وبه باب قديم جداً من أيام Pompee [79] وبه أعمدة تاريخها من 4000 سنة . فدخلنا في حديقة قد أهملت العناية بها ورأينا فيها منزلاً صغيراً ، فتوجّهنا توّاً لرؤية الباب المشهور وظنّي أنه من فينسيا ، وتاريخه ربّما يكون من القرن الثالث عشر . وقد رأينا عليه صور رؤوس فرسان ، وكتابة بعض صلوات مسيحيّة ، وهو ما يؤكد أنه عُمل بعد ظهور السيد المسيح .

فخرجنا نضحك من هذا القصر الذي لم أقدّر ثمنه مع حديقته وكل ما اشتمل عليه بأكثر من ستة آلاف جنيه ، على فرض أنه بمصر . وبعد ذلك عدنا إلى المدينة ، ومررنا على فندق يبعد عن الساحل بميلين ، عدد غرفه ثلاثمائة . أما عدد غرف الفندق الذي نحن نازلون به فخمسمائة ، وفي فصل الشتاء لا تخلو منه غرفة واحدة لكثرة وفود السائحين . ولّما وصلنا إلى فندقنا دخلنا في حديقته للاستراحة ، فوجدنا فيه كثيراً من أنواع الزهور . وقد رأينا البستانيين ينضحون الأشجار بماء قد أذيب فيه صابون أسود لقتل الحشرات التي تضرُّ بحياة هذه الأشجار أو إيقاف نموها . وقد رأينا فيها مكاناً قد أُعِدَ لبعض حيوانات وطيور كالقِرَدَة والببغاء والثيتل . وبعد ذلك عدنا إلى داخل الفُندق ، وفي الساعة السابعة والنصف ذهبنا لحجرة المائدة لتناول العشاء ، ولم يكن بها الموسيقى الوترية ، بل بها في ساحة الفندق الداخلية موسيقى من النوع الآخر . وبعد العشاء جلسنا في هذه الساحة وقد رأينا فيها أغلب السائحين الذين كانوا معنا في الجراند كانيون Grand Canons وأظن أن كل السائحين يتبعون خطة واحدة . وقد فاتني أن أذكر أنّا وجدنا على مقربة من آبار زيت البترول مستنقعات بها كثير من البط الجبلي . وقد رأينا على شجرة بلوط قديمة نسراً واحداً ، وهو الوحيد الذي رأيته إلى الآن مطلق الحريّة . وهو من نوع النسر الصغير ، أكبر في الجسم من الحدأة المصرية ، وأصغر من النسر المُسمّى النسر الإمبراطوري Aigle imperial ، وقد كانت رأسه بيضاء وكذلك عنقه ، أما جسمه فأسود ، وقوائمه عارية من الريش ، وأطراف جناحيه بيضاء . وهو من أحسن أنواع النسور التي أعرفها ، على أن رؤية هذه النسور لا تسرُّ كثيراً . وفي كاليفورنيا ألوف من طيور Tanagra يراها الإنسان على طول الطرق الحديدية ، وهي في جسم الشحرور ، ولونها أسود ، غير أنها من تحت العنق فما فوق لونها أحمر صافٍ . وهذان اللونان متناسبان جداً ، ينشأ عن اجتماعهما منظر

---

(79) مدينة إيطالية قديمة (جنوب شرق نابولي) دمرها بركان فيزوف وغمرتها حممه سنة 79 ميلادية .

بديع عندما تطير هذه الطيور في الفضاء، فيكون منظرها بالغ الغاية من الجمال. ذكرت قبلاً أننا جلسنا في فناء الفندق، فأقبل إلينا مديره، وقال إنه مستعد لتأدية أيّ خدمة نريدها، وهو رهين الإشارة. فشكرته على تجمّله، ثم سألني: هل زرت ضيعة أمريكية؟ فأجبته: لا. فدعاني أن أذهب معه إلى الضيعة التي يمتلكها صاحب الفُندق ومساحتها 7000 هكتار. هنا يجدر بي أن أقول إن السابقين الذين نزحوا أولاً إلى أمريكا هم الذين استولوا على الأراضي الواسعة بدون ثمن أو بقيمة زهيدة جداً، وورثتهم هم الذين استغنوا وصاروا من أرباب الثروة العظيمة لمّا ارتفعت أثمان هذه الأراضي، وذلك باستخراج كنوزها أو بإصلاحها وتمهيدها للزراعة والفلاحة.

ضيعة صاحب الفندق

في صباح يوم الجمعة 31 مايو وصلنا من محل كوك بلوس أنجلوس رسائل مرسلة إلينا من مصر فقرأناها، ثم خرجنا من الفندق لشراء بعض بطاقات البريد (كارت بوستال) تذكاراً لزيارتنا بلدة سنتا باربارا، فمشينا راجلين لأن الجوّ كان معتدلاً. ثم عدنا إلى الفندق راكبين في الترام لكتابة مذكراتنا عن الرحلة وللرّد على ما وصلنا من الرسائل. وعند دخولنا سُلّم إلينا رسالتان، إحداهما من صاحب الفندق يدعونا إلى النديّ Country Club الذي به الجولف والبولو والتينس، والثانية من المستر مارتن رئيس الزراعات الواسعة Chef des grandes Cultures التابعة للشركة الزراعية الكبرى القريبة من مدينة سا كرامانتو Sacramento عاصمة كاليفورنيا، ومعها جملة خرائط أيضاً. وبعد الغداء في الساعة الثانية بعد الظهر، حضرت سيارة لنركب فيها إلى ضيعة صاحب الفندق وهي على مسافة ثلاثين دقيقة من هنا، فركبناها. ولمّا وصلنا إليها ذهبنا أولاً لرؤية إصطبل البقر، وقد علمنا أن البقر يرعى طوال السنة في المراعي، وذلك لجودة الطقس، ولا يدخلونها في الإصطبل إلا لحلبها. وقد رأينا فيه 48 بقرة واقفة في صفٍّ واحدٍ، بعضها بجانب بعض وثلاثة حلابين يحلبونها، ولا يمكنها أن تتحرك لأنها وقت الحلب تكون رقابها مشدودة في حواجز من خشب (بطريقة خصوصية) وأمامها مذاود[80] بها أوراق الذّرة مقطعة قطعاً صغيرة، وقد

(80) مذاود (جمع مذود، بكسر الميم وفتح الواو): معالف الدواب.

أضيف إليها جزء من النخالة . وقد اتخذت الحيطة التامّة من تغطية الأوعية وتنظيف القوارير بآلة مخصوصة لغسلها حتى يكون اللبن نظيفاً . وقد رأينا خارج الإصطبل في أمكنة مخصوصة كل ما يلزم لحفظ الألبان ولعمل الزبد والجبن . . الخ . ورأينا أيضاً مخزنين كبيرين للعلف . أما هذا البقر فمن النوع الصغير الجسم الذي يدرّ ألباناً كثيرة ، فهو يشبه بقر جزيرة جرسي أو هولستين بألمانيا . أما نتاجها ، فالذكر منه يعتني بتربيته حتى يسمن ويُذبح ، والأنثى تبقى للانتفاع بنتاجها وألبانها . وقد توضع مادة كاوية على قرونها ، وهي صغيرة فتعجزها حتى إنها لما تكبر لا يخشى من تناطحها بعضها مع بعض .

خرجنا من هذا المكان وذهبنا إلى الضيعة الأخرى التي يُربى فيها الحمام ، وعدده من عشرين إلى ثلاثين ألف حمامة . وقد شاهدنا أن الاعتناء به وبنظافته أكثر من الاعتناء بحمام لوس أنجلوس الذي تكلمت عنه قبلاً . وبجانب هذا المكان محلٌ معدٌ لتربية الخنازير ، وبه أكثر من مائة غير نتاجها الكثير .

وبعد ذلك ركبنا السيّارة للعودة إلى الفندق ، فسار بنا السائق في طريق جميل ، به مزارع كثيرة ، إلى أن وصل إلى نادي (كلوب) الجولف ، وهو عظيم ومتّسع وفي مكان جميل . ولعب الجولف الآن هو أحدث أنواع اللعب ، فلا يُختار له إلا أحسن الأمكنة لجلب الناس إليه . وقد رأينا في هذا النديّ محلاً معداً للراحة Chalet وسيدتين ممتطيتين جوادين . ومررنا على محل لعب البولو ، وقد قيل لنا إنه مهمل منذ سنة فلم يلعب فيه .

خرجنا من هذا المكان فذهب بنا سائق السيارة إلى الساحل ، وهناك استرضنا في الأجمّة التي به ، وهي قديمة وأشجارها مهشّمة ، فاتخذت أشكالاً غريبة . وبعد ذلك وصلنا إلى المدينة ، ولم يبقَ علينا إلا زيارة محل تربية الدجاج القريب من فندقنا ، وبه 4000 من الدجاج وفراخها ، وهي من النوع الإنكليزي الذي يبيض كثيراً ، ولونها أبيض ، وضئيلة الجسم . وبعد ذلك سرنا في المدينة ، فصادفت مزارعاً بلجيكياً Horticulture belge فنزلت من العربة لرؤية ما عنده ، فعلمت منه أن اسمه المسيو (لو جون) Le Jeune وهو يتبع المسيو (زيردن) ببروكسيل Zirden ، ولم يعجبني شيء عنده أكثر من اجتهاده في الفتك بالحشرات التي تضرّ بالأشجار . وقد عرفت أن هذه الحشرات هي التي تضرُّ بالموز الهندي عندي ، فسألته عن الطريقة التي يتبعها لمنع أذى هذه الحشرات ، فقال لي : إن البلاد هنا غنية ولا يعزُّ عليها أن تنفق النفقات

الكثيرة لإبادة هذه الحشرات ، ولا شيء يرجعها أبداً عن عزمها . ولذا أعتني بتربية حشرات أخرى تتغلب على هذه الآفات وتأكلها . فلم أستفد مّا قاله شيئاً جديداً لأني أعرف ذلك من قبل ، ولكن ما هي الطريقة التي تؤدي إلى الحصول عليها والانتفاع بها في بلادنا . إن في أمريكا محال معدّة لتربية هذه الحشرات المفيدة والزراع يشترون تلك الحشرات بثمن قليل . وقد أسفت كثيراً لحرمان بلادنا من أمثال هذه العدة التي يدفع بها عدو خيرات الأرض . وقد وجدت في أمريكا كثيراً من الأشجار التي اشتُرِيت الواحدة منها بخمسين أو خمسة وسبعين فرنكاً من أوربا ولا تساوي هنا إلا خمسة . ولكن ما العمل ، وما هي الطريقة في نقلها ونحن في كاليفورنيا ، في آخر العالم؟ إن سكان هذه الجهات تنتظر بفارغ صبر افتتاح قنال[81] بنَما لتسهيل طرق التجارة ، ويظن أن التجارة بعد فتحه تتضاعف حركتها . أما صعوبة إرسال البضائع بالطرق الحديدية فعظيمة ، لأن أجور النقل باهظة جداً والبضائع تتأخر كثيراً في الطريق ، لأن أغلب الطرق الحديدية ليس بها إلا خط واحد ، وذلك من أكبر دواعي الإبطاء في نقل البضائع . وقبل أن أخرج من عند هذا البستاني قال لي إن عنده نخلة نادرة ، وهي الوحيدة في جميع كاليفورنيا ، وهي جميلة جداً تتخذ للزينة ، فآليت على نفسي أن يكون لمصر نصيب في واحدة منها .

رجعنا إلى الفندق ونحن مسرورون من رحلتنا هذه ، فقابلني مديرها وسألني عن حالة الضيعة ، فأطريتها وأظهرت له إعجابي العظيم بنظافتها وعظيم الاعتناء بها وبما فيها ، خصوصاً نظامها الحسن . فقال لي : إننا ، بعد أن نأخذ منها كل ما يحتاجه الفندق ، نبيع لسكان المدينة سائر ما بقي من اللبن والبيض والحمام ولحم الخنزير . وقد قال لي : إن لهم مزرعة خصوصية لأنواع الخضر ، فهنأته بذلك وبما هم فيه من نعمة اعتدال الجو في هذه المدينة ، حتى صارت صالحة لصفاء الحياة فيها صيفاً وشتاء ، والماشية ترعى في مروج مخصبة طول السنة ، وهي مطلقة الحرية . وهذه من أجل نعم الله عليهم .

بعد تناول العشاء جلسنا قليلاً لسماع الموسيقى ، ثم افترقنا للراحة والنوم .

---

(81) القنال : القناة ، وهي من أصل لاتيني Canal ، وقناة بنما تصل بين المحيط الهادئ والمحيط الأطلسي (البحر الكاريبي في أميركا الوسطى) .

أتى يوم السبت أول يونيه فعزمنا على الرحيل من هذه المدينة ، فأعددنا أمتعتنا وبعد ذلك نزلت ومعي مصطفى بك لدفع ما وجب علينا دفعه للفندق ، فوجدناه في هذه المرة معتدلاً فشكرت لمديره حسن اعتنائه بالسائحين وبكل ما يريحهم . الحق أننا هنا سررنا جداً من الخدمة والاعتناء ، فإن كل المستخدمين كانوا يؤدون طلباتنا بكل همة ونشاط ، وكل مستخدم كان يعرف واجباته فيقوم بها أحسن قيام .

إلى ديل مونتي

في الساعة العاشرة والنصف صباحاً صحبني خيري بك وتركنا مصطفى بك ومعه باقي أمتعتنا الخفيفة في الفندق على أن يلحقنا في المحطة ، فمشينا راجلين إلى أن وصلنا إلى المحطة . وفي الساعة الحادية عشرة والربع تحرك بنا القطار إلى مونتيري Monterey ومنها إلى ديل مونتي Del Monte ، وهي لا تبعد عنها بأكثر من عشر دقائق .

بعد ثلاثة أرباع الساعة من ركوبنا ، أي في الساعة الثانية عشرة ، نودي بأن الغداء حاضر فذهبنا لعربة الأكل ، ولما أتى لنا بالطعام وجدناه غير جيد . وقد كان الحر شديداً حتى صار السفريون السود يتصبب عرقهم ، ولم تكن النظافة بادية عليهم .

صرنا نمر في سهول ليست جميلة ولكنّها أحسن من صحارى أريزونا Arizona ، فهنا أمامنا بعض مزارع ولا نمرّ على جبال مرتفعة ، فالمناظر تتغير إذاً بين حقول وأراضٍ غير مزروعة ومستنقعات وغيرها . وصلنا مرة أخرى إلى منابع زيت البترول الكثيرة ، وقد عرفنا أن القاطرات هنا يستعمل في إدارتها زيت كقاطرات سيبريا . وفي محطة ساليماس Salimas رأينا مخزناً كبيراً لهذا الزيت ، وهو تابع للطريق الحديدي الجنوبي الباسفيكي Southern Pacific railway ولمّا وصلنا إلى محطة كاسترفيل Casterville نزلنا لنركب قطاراً آخر يوصلنا إلى ديلمونتي ، وهي التي نقصدها ، وطالما سمعنا الألسنة لاهجة بالثناء عليها . وقد وقفنا في هذه المحطة نحو عشر دقائق ، وبعدها تحرّك قطارنا ومشى بنا في سهول غير مزروعة وليس بها إلا شيء من الكلأ وبعض شجيرات ضعيفة نابتة في هذه الرمال .

نحن لا نبعد الآن كثيراً عن شاطئ البحر ، ونمرّ على آكام مرتفعة ولا نرى جبلاً ولا آجاماً جميلة كما سمعنا ، فالتفت إلى صديقيّ وقلت لهما : هانحن وقعنا أيضاً في الفخ ، وأظنّ أنّنا إذا استمررنا على هذا الحال نكون قد تكبّدنا متاعب بدون

جدوى . وبينما نحن في هذا الحديث ، إذا بنا ندخل في حديقة غنّاء تزينها أشجار . ثم وقف بنا القطار في وسط أجمة هائلة ، وسمعنا منادياً يقول : ديل مونتي . فأسرعنا بالنزول وركبنا عربة الفندق العامّة التي سارت بنا في وسط مروج جميلة وحدائق بديعة ، وكانت الطرق منظّمة ومرصوفة بالميكادام ، محفوفة بالأشجار المورقة على جانبيها ، أما محطة ديل مونتي فهي تابعة للفندق الذي سننزل به .

بعد أن مضى من الساعة الثامنة عشر دقائق وقفت بنا العربة أمام الفندق فرأيناه عظيماً . ولّما دخلناه وجدنا السيدات بملابس المساء والرجال مرتدين الاسموكين ، وبعد ذلك أعطيت لنا غرف في الطابق الأول تطل على الحديقة الجميلة . وقد كرّرت كثيراً في مثل هذا المقام جملة تدلّ على عظم وجمال الفندق ، ولكنّها في الحقيقة تقصر عن الوصف ، وتقف دون التعبير عمّا في الضمير . وقد قلنا في ما بيننا : هنا يمكن أن يُمضي الإنسان شهراً في لذّة وهناء ، حيث تتجلى له الطبيعة بكل محاسنها ، ويستنشق الهواء العليل ويتمتّع بالهدوء والسكينة والراحة التامّة . ولذا يفد إليه كثير من سكان سان فرانسيسكو الأغنياء الذين يطلبون الراحة التامّة ، ولكن قد أسفنا لأن خطّتنا لا تأذن لنا بالبقاء فيها أكثر من يوم واحد . وبعد ذلك دخلنا حجرة المائدة لتناول العشاء ، وهو يقدم على حسب برنامج معيّن ، فلا يختار الآكل ما يشتهيه من أصناف كثيرة تعرض عليه .

ولّما قُدّم لنا وجدناه لا يؤكل ، وقد كان بجانبنا أحد السائحين فطلب قطعة جبن ، فقدّمت له قطعة صغيرة لا تصلح لإدام لقمة واحدة ، فأطلع عليها امرأته وأولاده وصار يضحك . وفي خلال الأكل كنّا نسمع ما يسمّونه موسيقى ويديرها فتاتان ، إحداهما كانت تنفخ في الكورنيت وظنّي أن شفتيها رقّتا من كثرة النفخ ، والأخرى كانت تضرب الكمنجة ومعهما فتى يضرب على البيانو . ولا نعرف هل الحاضرون يسمعونها أو أنهم لا هون عنها بطعامهم . أوصيت بإعداد سيارة قبل أن نصعد للنوم لأجل رياضة السبعة عشر ميلاً المشهورة في أمريكا ، فأشار عليّ مدير الفندق أن نذهب أيضاً إلى المتنزّه الجديد . وافترقنا على أن نتمتّع في صباح يوم الأحد (2 يونيه) بهاتين الرياضتين . وفي الساعة التاسعة من صباح اليوم المذكور أتت السيارة فركبناها ، ومررنا أولاً على مدينة مونتري التي يبلغ عدد سكانها نحو 30,000 .وقد علمنا ، من كثرة الزحام بها وكثرة السيارات التي تسير أو تنتظر من يركبونها ، أنه سيقام فيها حفلة طيران بعد ظهر هذا اليوم ، لأن هذا يوم الأحد ، وكان عدد

المشاهدين كبيراً .

إن هذه المدينة ليس بها شيء يذكر ، غير أنها لمّا كانت تحت حكم الإسبانيين كانت من المدن المهمّة . وقد رأينا بها بعض مبانٍ قديمة كانت قديماً مركزا للمكوس وللقضاء وغيرهما . ورأينا أيضاً تمثالاً لأحد المرسلين المدعو الأب سيرا Serra أقامته سيدة عجوز . ثم مررنا على صليب من الرخام أقيم تذكاراً لشجرة بلّوط كانت في مكانه ، وأقيم تحتها أول صلاة في يوم أحد . فهكذا تكون المحافظة على الآثار الدينيّة ، وظنّي أن مثل ذلك لا يُرى في بلادنا . ومن العجيب أنه ينسب إلينا دائماً التعصب ، فليعتبر أبناء الوطن الأعزّاء ، وليحافظوا على التقاليد القديمة . وهنا يجدر بي أن أقول إني منذ سنتين أريد أن أحيي تاريخاً مجيداً للعرب الذين فتحوا مصر بتجديد (جامع عمرو) وجعله أثراً لا يمحى خالداً إلى ما شاء الله فلم ألاقِ إقبالاً يشجع . ولكن أملي في الله وفي أولي المروءة أن لا يضنّوا بالمساعدة في هذا العمل الجليل الذي أراه تذكاراً لأهم حادثة تاريخيّة في حياة مصر ، وما ذلك على الله وعلى ذوي المروءة ببعيد .

مررنا بعد ذلك على تمثال نسر من الجرانيت أقيم تذكاراً للقائد الأمريكي الذي أخذ هذه المدينة من الإسبانيين- وفي مونتري قوة مؤلفة من ألفي جندي نظامي . هذا وقد كنّا نسمع في الطرق كثيرين يتكلّمون باللغة الإسبانية ، ولمّا صعدنا على مرتفع منها رأينا ثغر مونتري ، والبحر فيه هادئ جداً لأنّه مقفل . وقد كان ماؤه أزرق ساكناً تسبح فيه مئات من السفن الشراعيّة ، فعلى بعد يراها الإنسان كأنّها طيور بيضاء ، وهي ملك للصيّادين الذين بعضهم صينيون .

استمررنا في طريقنا إلى أن وصلنا إلى شاطئ البحر فشعرنا ببرودة قليلة . وبين وقت وآخر كنّا نمرّ على صخور تتلاطم فيها الأمواج فتعلوها الرغوة قد كان الساحل جميلاً جداً ، فصرنا نمتّع أنظارنا بهذه المناظر البديعة إلى أن وصلنا إلى باب كبير دخلنا منه في أملاك الفندق التي تُقدّر مساحتها بسبعين ألف هكتار ، وهي آجام لم أرَ أجمل منها . فيها طرقات بديعة النظام ، وبينما يمرّ الإنسان في وسطها المنتشرة به الأشجار الهائلة ، إذا به يخرج إلى شاطئ البحر فتتمثل أمامه الطبيعة بمناظرها الجليلة المؤثّرة في النفس . وقد رأينا مناراً ، وعلى مسافة منه بعض صخور عليها كثير من نوع الطيور صيّادة السمك ، ولا ينسى القارئ أننا على المحيط الباسفيكي . مررنا بعد ذلك على كوخ حقير مهدّم لأحد صيّادي السمك الصينيين . هنا وقف بنا سائق سيارتنا

وأشار منبّهاً أنظارنا إلى صخور قريبة من الشاطئ عليها كثير من الـ Phoques[82] وقد كان أحدها يسبح حتى صار على مقربة منّا ، فصرنا ننظر إليه ، وأعجبنا شكله وهو يعوم . أما الأمواج فلا تؤثّر فيها ، غير أن صعودها على الصخور ، ولا أرجل لها ، لا بدّ لها دونه من تجشم صعوبات كبيرة لأنّها تزحف على بطنها ، وقد تصعد على هذه الصخور طلباً لحرارة الشمس ، وقد رأيناها نائمة على سطحها هادئة مطمئنة ، فمكثنا قليلاً من الزمن لنمتّع نظرنا بها . ثم اتبعنا السير إلى أن دخلنا في سهل صغير يرعى فيه قطيع من البقر ، ورأينا مكسيكيّاً على جواده لحراستها وللمحافظة على الغابة من الحريق . ولا يخفى على القارئ أن أشجار الصنوبر سهلة الاحتراق كالهشيم . وصرنا نستنشق من روائح هذه الأشجار الذكية ونحن نستمر على السير ، فصادفنا ثيتلاً[83] ذا قرون صغيرة تدلّ على أنه حديث السن ، وقد كان آمناً مطمئناً على مسافة قريبة منّا ، فتركناه وشأنه . ووصلنا إلى مرفأ يُدعى مرفأ كارمل وذلك لقربه من دير الكارمليت Couvent des Carmelites هنا وجدنا خصّاً جميلاً تابعاً للفندق قد أُعدّ للذين يحبُّون تناول طعامهم فيه بين هذه المناظر اللطيفة . هنا يباع كل أنواع السمك وأثمار البحر . مررنا بعد ذلك على قرية صغيرة يسكنها بعض الصينيين الصيّادين ويظهر عليهم سعة العيش وحسن الحال . حوّل السائق طريقه وذهب بنا إلى الطريق الجديد . وليكن في علم القارئ أننا ما زلنا في الغابة الكبيرة . هنا رأينا نحو 4000 فدان حُرقت أشجارها من مدة أربع سنوات ، وقد أخذت الشجيرات الصغيرة فيها تنمو نموّاً حسناً ، وظنّي أنها بعد سنتين تصل إلى ما كانت عليه من قبل ، فتكسوها الأشجار فلا تكون عارية كما نراها الآن .

إن هذه الغابات ملك لثلاثة أشخاص اشتراها آباؤهم ، من قبل أربعين سنة ، كل هكتار بخمسة فرنكات ، وهم الآن لا يبيعون الهكتار بأقل من ألف دولار ، فانظر الفرق العظيم بين الثمنين تعلم منه أن ثروتهم عظيمة .

لا أقول إن الغابة كبيرة تضارع غابات سيبريا أو كندا أو برازيليا أو أواسط أفريقيا أو أستراليا ، ولكن جهة استعظامها أنها ملك لثلاثة أشخاص وأنها تابعة للفندق .

إن بالفندق حديقة كبيرة على أبدع نظام ، معتنى بها غاية الاعتناء ، بداخلها

---

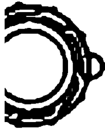
(82) phoques (فرنسية) : فقمات .

(83) الثيتل : الوعل ، وأنثاه : الأروى ، والعرب تعده من بقر الوحش .

لغز (لابيرنت)[84] من نوع الـ Sypres [85] منظم تنظيماً بديعاً .

وقد علمنا أن بالحديقة نحو 1500 نوع من أنواع الأشجار المختلفة والزهور ، ولا عجب فمساحتها تقارب أربعمائة فدّان ، وبها أيضاً عدد عظيم من أشجار (الأريكاريا)[86] و(الكاكتوس) .[87]

أما الفندق فلا ينقصه شيء من دواعي الراحة ، فبه مكتب للتلغراف وآخر للتلفون وثالث لإرسال الأمتعة ، وصيدلية ومحل كبير للحلاقة ، وفناء واسع للألعاب . وبه سبعة ملاعب للعب التينس تظلها الأشجار ، وبحيرة تسير فيها زوارق بالتجذيف ، ومحل للعب الجولف . وفي الأجمة نهر يُصاد فيه نوع من السمك يُسمّى المرجان ، وحمّام كبير على البحر به خص (كشك) للذين يريدون أن يرافقوا زوجاتهم ، والوالدات اللاتي يردن مراقبة أطفالهن . ولا شيء أدعى إلى سرور الإنسان وأشرح لصدره من أن يكون في غرفته ناظراً من نوافذها إلى كل هذه المناظر الجميلة ، لا سيّما مع هبوب النسيم البليل يحمل على جناحيه الروائح الشذية المنبعثة من زهر البرتقال والليمون ، فإنه ينعش الروح ويحبب إلى الإنسان الحياة الطيبة . فأسفت كثيراً لأني عزمت على السفر منها ، وكان بودّي أن أمكث بها زمناً طويلاً لولا أني أسير على خطّة معينة وبرنامج محدّد تقتضي الحال اتباعه .



طيارة في سباق!

نحن في يوم أحد ، وقد جرت العادة أن لا يقدّم الطعام في هذا اليوم قبل الساعة الأولى بعد الظهر ، ولكن لأجل حفلة الطيران التي ستقام بعد الظهر أذن لنا بتناوله بعد الظهر بنصف ساعة ، فأكلنا وبعد ذلك دفعنا ما يجب علينا للفندق ، وأمرنا المكلف بإرسال المتاع أن يرسل متاعنا . وصحبني خيري بك وتركنا مصطفى بك بالفندق لقضاء بعض شؤونه على أن يلحقنا بالمحطة ، ومشينا راجلين لأن مسافة

---

(84) يبدو أن الكلمة الأولى لغز : (متاهة) Labyrnithe ، وهي ممرات عديدة متداخلة وليس لها إلا منفذ للدخول وآخر للخروج .

(85) Cypres : سرو ، وقد وردت في النص خطأ Sypres .

(86) Arikara من شعوب أميركا في حوض الميسوري ، ولعل الشجرة نسبة إليهم . . أو انها(أركاديا) .

(87) Cactus : الصبار .

الطريق لا تستغرق أكثر من عشر دقائق ، ترويحاً للنفس بين تلك الأشجار النضرة والزهور الباسمة . وقد كان الهواء عليلاً ، فلم نشعر بأن الطريق انتهى لكثرة إعجابنا بهذه المناظر التي نمرّ عليها . وبينما نحن ننتظر بالمحطة سمعنا صوتاً عالياً ، فقال لي رفيقي خيري : إن هذا الصوت لا بدّ أن يكون طنين طيارة . ولم يمض على كلامه زمن قصير حتى رأيناها تحلّق فوق رؤوسنا ، وهي من نوع البيلن[88] Biplan فأخذت ترسم في طيرانها دائرة كبيرة ، ومرّت فوقنا ثلاث مرّات والناس يجرون لرؤيتها ، فحمدت الله إذ رأيت أن الجري وراء مثل هذه الطيارة ليس مقصوراً على بعض المصريين ، ففي بلاد العلم والنور يوجد كثير ممن هم على شاكلتهم في ذلك . وأظن أن مثل ذلك شيء عام في جميع الشعوب . رأينا تحت هذه الطيارة إعلاناً قد كتب بخط واضح عن معرض سنة 1915 في سان فرنسيسكو ، وقد قرأنا هذه الكتابة رغماً من ارتفاع الطيّارة . فانظروا كيف لا يدع الأمريكيون أي فرصة تفلت منهم دون نشر إعلاناتهم ، فهم والحق يُقال تفوقوا على جميع الأمم افتناناً في الإعلانات . ولو رأى القارئ ما كتب عن هذه الطيارة الوحيدة لاغتر كثيراً ، وربما أخّر سفره ولو كان مصمّماً عليه . فإننا قرأنا ما خلاصته : في الساعة الثانية والنصف من هذا اليوم سيكون سباق هائل في مضمار الطيران . ألا يفهم القارئ من هذه العبارة أن عدة طيارات ستتسابق ، فتطير من محل معين إلى غاية معينة ، والتي تنال قصب السبق يكون صاحبها هو الفائز؟ إننا رأينا كثيراً من السائحين الأمريكانيين يسرعون إلى هذا المكان ، وأظنّ أنّ بعضهم غرّه هذا الإعلان ، فهل يكتفون النظر إلى هذه الطيارة الوحيدة؟ هذا ما تركته لهم ولينشروا إعلاناتهم كيفما يريدون .

حضر القطار ، ولحسن حظنا وجدنا مكاناً خالياً فجلسنا فيه رغماً من كثرة الزحام به ، فإنه مملوء بالفلاحين الذين يتنزهون في يوم الأحد .

قام بنا القطار في الساعة 3 و 20 دقيقة بعد الظهر ، ونحن نأسف جداً لفراقنا ديلمونتي الجميلة وسار بنا في طريق سنتا كروز Santa Cruz إن طريقنا هو الطريق الذي أتينا منه إلى ديلمونتي ومن كاسترفيل Casterville استمررنا إلى باجورا Pajora وهي بلدة شهيرة بأشجار ، ينمو بها التفاح والكرز والبرقوق ، وليس بها شيء

(88) الكلمة فرنسية ، وهي بالإنكليزية Biplane : طراز من الطائرات ، ذو سطحين مزدوجين من الأجنحة .

من أشجار البرتقال والليمون . انتظرنا بهذه البلدة القطار الذي يأتي من سان فرنسيسكو ، ولما حضر نزل منه عدد لا يقل عن مائة شخص وركبوا معنا قطارنا ، وقد كان من ضمنهم أسرة فلاحين إسبانية جلست بجانبنا ، وكانت القذارة ظاهرة على كل أفرادها حتى إننا اضطررنا أن ندبر عنهم جاعلين ظهورنا قبلهم ، ونطل من نوافذ العربة هرباً من الروائح الكريهة التي كانت تتصاعد منهم ، ومن رؤية قذارتهم التي تشمئز منها النفوس وينبو عنها النظر .

وصل بنا القطار إلى محطة سنتا كروز Santa Cruz في الساعة 5 و 45 دقيقة وهي أمام كازينو فندق Casa del Re (كازا ديل ري) الذي سننزل به . فألقينا نظرة عامّة فوجدناه حديث النشأة ، وعلمنا أن هذا الكازينو تابع لإدارة هذا الفندق . دخلناه وأعطيت لنا غرف صغيرة ولكنّها منظمة ومرتبة . وبعد أن حضر متاعنا نزلنا منها وأنفذنا في طلب سيارة لتحضر إلينا غداً لنذهب بها إلى الأشجار الكبيرة Gros arbres وبعد ذلك دخلنا إلى حجرة المائدة ، فصادفنا أمام بابها موسيقى يديرها ثلاثة أشخاص : أحدهم يضرب على البيانو ، والثاني يعزف على الكمنجة ، والثالث يدقّ على السمبالون[89] . فاقتربت من الأخير ، وسألته : هل أنت مجري؟ فأجابني : نعم . فقلت له : ما أبعد بلادك عن هنا !! فرأيت السرور بادياً على وجهه ، لما رأى من الالتفات إليه وإلى صناعته . وسألني هل أحب أن أسمع بعض قطع خصوصية ، فشكرته قائلاً : إنّي أكتفي بما تلحنون على حسب البرنامج الذي وضعتموه . وصرنا لا نسمع من هذه الطائفة إلا نغمات كألحان السودانيين والكيك وك[90] Cake Wack وبعض مروس[91] فالس ، ولم نسمع منهم ألحاناً مجرية . فاقتربت من المجريّ ، وسألته هل يعرف لحن الجرداش؟ فأجابني : هنا يا سيدي لا يحبُّون مثل هذه الألحان . ثم استطرد في حديثه وأخبرني أنه في الثامن من هذا الشهر سيحضر ثلاث فتيات ليتم بهنّ نظام موسيقاهم ، وفي فصل الشتاء يذهبون جميعاً إلى لوس أنجلوس ليشتغلوا في فندق أليكسندريا Alexandri ، أما في فصل الصيف فيمكثون عادة في

---

(89) Cymbale (فرنسية) : صنج .

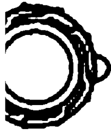
(90) الصحيح أن تكتب cake walk

(91) مروس : جمع مرس أو مرش ، وهو تعريب حرفي لـ marche : الموسيقى المرافقة للمواكب الاحتفالية .

هذه البلدة . وقد أخذ يشكو من حاله ، ويقول إنه مضى عليه ثلاث سنوات في هذه البلاد ولم يكتسب شيئاً مذكوراً لغلوّ أسعار لوازم المعيشة ، وإن الكسب في أوربا أكثر منه هنا . ثم قال ضاحكاً : نحن الموسيقيين لا تخدمنا الفرص كباقي العمّال أو المضاربين .

وبعد أن مكثت قليلاً معه أسمع من أحاديثه ، تركته وصعدنا للنوم . في صباح يوم الاثنين 3 يونيه ، بعد أن تناولنا قهوتنا ، مكثت في الفندق إلى قرب الساعة التاسعة وأنا أكتب في رحلتي . ولمّا أتت السيارة التي كنّا طلبناها ، ركبناها وأمرنا سائقها أن يذهب بنا إلى الأشجار الكبيرة . فمرّ بنا أولاً على شاطئ البحر ليرينا بعض منازل الأغنياء ، ومن بينها منزل رئيس شيخ (البلد) مدينة سان فرنسيسكو السابق . ومررنا بعد ذلك على منار ، فقال لنا السائق : إن الحكومة قررت إنفاق 29,000 دولار لبناء منار آخر أهم وأكبر من هذا . وأخذنا نسير على الشاطئ وهو جميل جداً ، وقد أثّر ماء البحر في بعض الصخور فحفرت فيها مغارات كبيرة Grottes حتى إن بعض تلك الصخور اخترقتها المياه فصارت كجسر طبيعي (كوبري) . وقد مررنا أمام إحدى هذه الجسور (الكباري) الطبيعية وكان مهدّماً ، فأخبرني السائق أن ذلك من تأثير زلزلة كبيرة حصلت من منذ 3 أو أربع سنوات ، فخرّبت هذا الجسر الذي كان أكبرها وأجملها . وبعد قليل أخذ السائق طريقاً آخر أمام معمل نشارة كبير ، وعدنا ثانياً إلى وسط المدينة ، ثم انعطف شمالاً ولم يمضِ علينا قليل من الزمن حتى وصلنا إلى مضيق مكتنف بالأشجار ، ومنه ابتدأنا نصعد في طريق غير منتظم ، وصرنا نرى بعض عربات في طريقنا . وبعد عشرين دقيقة من خروجنا من الفندق وصلنا إلى الأشجار الكبيرة ووقفت بنا السيارة أمام منحدر عظيم ، فنزلنا منها ومشينا فيه بصعوبة إلى أن وصلنا إلى جسر من الخشب معلّق Pont Suspend فمررنا عليه ، ونحن في وسطه تحت فتاتين أمريكيتين ممتطيتين جوادين وهما من تحت هذا الجسر ، فأشرت إليهما أن يقفا لأصوّرهما وهما على هذه الحالة وفي وسط الأشجار ، فقبلتا طلبتي ، فرسمتهما بالمصوّر الشمسي . وبعد ذلك عبرنا هذا الجسر واستمررنا في طريقنا قليلاً إلى أن وصلنا إلى أجمة مظلمة لا يسمع فيها أي صوت ، فرأينا فيها أشجاراً هائلة استعير لكل شجرة منها اسم شخص مشهور مثل : لينكولن ، وروزفلت ، وغيرهما . وقد أحصينا عدد أعظمها فإذا هي لا تزيد عن ثمان أو تسع ، ولكن بجانبها عدد آخر من الأشجار أكبر حجماً وأكثر

ارتفاعاً ، وهي محاطة بسور ومملوكة لشخص قد أذن بزيارتها لكل من يدفع فرنكين . وقد وجدنا في الغابة العامّة التي نحن فيها الآن رجلاً يبيع بطاقات البريد (كارت بوستال) وأشياء أخرى للسائحين ، واختار لذلك مكاناً تحت ظل بعض الأشجار ، وأنشأ فيه دكاناً من الخشب وضع فيه بعض كراسي لمن يريد أن يستريح عنده ، فاقترب منّا ووجّه أنظارنا بإشارته إلى سلّم يصعد فيه إلى ارتفاع بعض أمتار على شجرة مقطوعة ، وعند مقطعها مكان يشرف على هذه الأشجار الكبيرة التي يدفع من أراد الدخول إليها لمشاهدتها القيمة التي ذكرتها قبل ، وقال لنا : اصعدوا على هذه الشرفة وانظروا إلى الأشجار الكبيرة التي يكتنفها هذا السور إذا أردتم أن تروا بدون دفع شيء . فعملنا بإشارته لا سيّما أننا عازمون على الذهاب إلى يوزميت فالي ، وهو مكان به أكبر الأشجار العجيبة .



سان فرانسيسكو

عدنا بعد ذلك إلى السيارة وركبناها وأمرنا سائقها أن يذهب بنا إلى الفندق ، وقد كان هذا الرجل هرماً ولا يكفُّ عن الحديث لحظة واحدة وكثيراً ما اصطدمت سيارته بأشياء صادفتنا في الطريق . ولمّا قربنا من طريق تحته هوّة هائلة أعرضت عن سماع حديثه حتى لا أشغله لئلا يوقعنا حديث في خطر ، ولمّا رأى أني لا أكلمه قال لي : يا سيّدي مضى عليّ عشر سنوات وأنا أسوق هذه السيارة في جميع هذه الطرقات ولم يحصل لي والحمد لله ما كدّر راكباً ، فلا تخف إذاً وكُنْ مطمئناً . فشكرته ، ولكن ثقته بنفسه هذه لم تجعلني أستمر على محادثته بعد ما رأيت من كثرة اصطدام سيارته ، وعلى ذلك أوصلنا والحمد لله إلى الفندق . وبعد أن تناولنا الغداء دفعنا ما وجب علينا ، وفي الساعة 1 و 45 دقيقة ذهبنا إلى المحطة راجلين فوجدنا قطارنا مكتظّاً بالركّاب وهو مركب من ثلاث عربات Wagon couloir ويلزمنا أربع ساعات لقطع مسافة الستين كيلو التي بين سانتا كروز وسان فرنسيسكو .

تحرّك بنا القطار ، ولمّا كانت حرارة الجو أشدّ من حرارة مصر ، وهنا الحرية مطلقة فلا نقد على إنسان في ما يفعله ، فلم أرَ بدّاً من خلع سترتي من شدّة تأثير الحر . دخل قطارنا في وادي الأشجار الكبيرة ثم صار يمرُّ على جبال عالية ، وكل خمس دقائق يقف بنا في محطّة ، وهكذا إلى أن وصلنا إلى بلدة باجارو الشهيرة بفواكهها ، ومنها خرجنا إلى سهل به مستنقعات ترعى فيه أنواع الماشية . ثم دخلنا في مزارع

خضر لمدينة فرنسيسكو - وبعد ذلك صرنا نرى البحر إلى أن وصلنا إلى مدينة Oakland أوكلند ، وهي واقعة أمام فرنسيسكو . هنا كل الركاب تنزل لأخذ نقالة تجارية توصلهم إلى مدينة سان فرنسيسكو . ويوجد ست أو سبع نقالات لهذا الغرض تشابه المستعملة في نيويورك ، أي يمكنها نقل عربات أيضاً من الشاطئ إلى الآخر . فنزلنا في إحداها ، وكان بها عدد عظيم من العمّال والركّاب ، وفي أثناء سيرها تقابلنا بنقالات أخرى آتية من فرنسيسكو مملوءة أيضاً بالعمّال الذاهبين إلى أوكلاند التي يسكنها كثير من الفقراء ، أو الذين لا يقدرون أن يسكنوا بسان فرنسيسكو لارتفاع أجور المنازل بها . ولما كانت الساعة الخامسة كان كل الركاب الذاهبين إلى أوكلاند هم العمال الذين خرجوا من أشغالهم وأرادوا العودة إلى مساكنهم . وصلنا إلى فرنسيسكو فوجدناها عظيمة جدّاً والحركة بها عظيمة ، فأخذنا السيارة التابعة للفندق الذي سننزل به وسار بنا سائقها إليه ، فصرنا نشاهد في كل مكان إعلانات عن معرض سنة 1915 . أما منازلها ففي الحقيقة أجمل من منازل نيويورك ، فإن أشكالها شارحة للصدور . وقبل أن نصل إلى الفندق صرنا نصعد تارة في طريق مرتفع وننزل أخرى في منخفض سحيق لأن مدينة فرنسيسكو مبنيّة على تلال وفندقنا قائم على أعلى تلٍّ فيها ، ولذا كانت سيارتنا تصعد في طريق مرتفع في غاية الصعوبة .

وصلنا إلى فندق فايرمونت Fairmont فدخلناه فوجدناه على عظمه هادئاً ومنظّماً وجميلاً وأغلب مستخدميه من الأوربيين إلا بعضهم الذين يؤدُّون الأعمال الشاقّة فإنهم من الصينيين . بعد أن كتبنا أسماءنا صعد بنا أحد وكلاء إدارته وأرانا غرفنا ، فقبلناها مسرورين . ثم نزلنا لنخاطب محل كوك بالتلفون ، ونطلب من المدير أن يحضر إلينا صباحاً في الساعة التاسعة .

أتى ميعاد العشاء فتناولناه وكان لذيذاً ، ولمّا أردنا النوم وجدنا الحر قد أطاره من أعيننا ، فقضيناها ليلة ساهرة حالفنا فيها السهاد إلى أن ابتسم فجر يوم الثلاثاء 4 يونيه ، فاعتراني من شدّة التعب نوبة عصبية . ولما أتت الساعة التاسعة صباحاً حضر المستر ستوك Stokes مدير محل كوك ومعه رسالة لي من شقيقتي . وجلسنا معاً نتحادث في رحلتنا ، وعدّلنا في خطتنا بعض التعديل ، وحذفنا من برنامجنا الذهاب إلى يللستون بارك لأن مناظرها لا تساوي مشاق الوصول إليها ولم تكن تستحق ما سمعناه من المدح فيها ، وعزمنا على أن نقضي في كندا الأيام التي كنا نريد قضاءها في يللستون بارك .

أنفذنا بعد الظهر في طلب عربة لاندو ولمّا حضرت ركبنا فيها وأمرنا سائقها أن يذهب بنا إلى المستراض العام ، وقد أخذ الجو يعتدل ووطأة الحر تخف قليلاً قليلاً ، ولكن السماء كان بها بعض الغيوم . ولمّا كانت الطرقات تارة ترتفع وأخرى تنخفض كان سير العربة بطيئاً ، ولذا قضينا وقتاً طويلاً للوصول إلى المستراض ، ولمّا دخلنا فيه وجدناه كبيراً ، ولكنّه غير معتنى به كمتنزه شيكاغو . رأينا فيه تمثالين للشاعرين الألمانيين الشهيرين جوتي Goethe وشيللر - Schiller وقد علمنا أن بمدينة فرنسيسكو خمسين ألف ألماني - ثم حديقة يابانية فيها مكان معدّ لتناول الشاي .

قضينا ساعتين ونصفاً في رياضتنا ، ثم عدنا إلى الفندق وطلبنا تغيير غرفنا لعلّ الهواء لا يضنّ علينا بنسيمه البليل ، فتبدلنا بها أخرى في الجهة الشمالية ، وبعد تناول العشاء صعدنا إليها طالبين من الله أن يمنّ علينا بالراحة في هذه الليلة .



في المدينة الصينية

أتى علينا والحمد لله يوم الأربعاء 5 يونيه ، ولما جاءت الساعة الثامنة صباحاً ذهبنا إلى محل كوك فوجدت به إشارة برقية بُعِثَ بها إليّ من الخاصّة . ولما سألت هل أعدّ ما يلزم لسفرنا على حسب تغيير خطتنا ، علمت أنه إلى الآن لم يتم شيء سوى أنه أعدت لي حجرة Cabine بها حمّام في الباخرة التي سنركب فيها إلى الاسكا Alaska . عدنا بعد ذلك إلى الفندق سائرين على مهل ننظر مخازن المدينة ومتاجرها الشهيرة ، وقد اشترينا في الطريق بعض بطاقات البريد (كارت بوستال) تذكاراً لزيارتنا لهذه المدينة . وبعد الغداء رأينا أن نذهب إلى شارع بولك Polk Street لشراء بعض جرائد فرنسية ، ومنه نذهب إلى أحياء الصينيين ، ويسمونها المدينة الصينية . ركبنا الترام الذي به مقعدان ملتصقان وممتدّان على طول العربة ، فيقعد الركاب بعضهم بجانب بعض ، وكلّما صعد الترام إلى مرتفع بحكم الضرورة دفع الناس بعضهم بعضاً من الجهة المضادة لسير الترام ، ويحدث عكس ذلك عند ما ينحدر . وصلنا إلى شارع بولك وقضينا لوازمنا منه ، ثم اتخذنا طريقنا إلى المدينة الصينية التي فقدت كثيراً من عظمتها ، بعد أن احترقت إثر ثورة الصينيين . وقد قيل لنا إنه قبل حصول هاتين الحادثتين كان يبلغ عدد الساكنين بها 40,000 صيني ، واليوم لا يزيدون عن العشرين ألفاً . أما الأبنية التي تجددت بعد الحريق ، فإنها فقدت بهجة المنازل الشرقية الصينية . وصلنا إلى طريق يذهب بسالكه إلى دكاكين صينية

حيث مدخل المدينة ، فتقدّم إلينا شخص أمريكي وأظهر لنا رخصة تسمح له أن يصحب السائحين الذين يريدون مشاهدة ما في هذه المدينة ، وقال لنا إنه يعلم جميع مخبأتها وكل شيء غريب فيها يستحق الزيارة . وعرض علينا خدمته هذه على أن يكون جعله دولاراً عن كل شخص ، فقبلنا منه ذلك ، وأخبرنا أنه مضى عليه 23 سنة وهو يحترف بهذه الحرفة . أخذ يرينا أولاً محل جزّار صيني ، ثم مخبزاً ، فصيدلية صينية رأينا فيها ثعابين ميتة ، وكذا أفراخ دجاج ، وكلّها محفوظة في سائل في أوعية . وقد علمنا أن الصينيين ما زالوا يتّبعون أدويتهم القديمة ، ولهم اعتقاد خاص في تأثيرها في أمراضهم . دخلنا بعد ذلك في دكان جوهري ، والظاهر من الأشياء المعروضة فيه أن الصينيين لا يعرفون من الحلي إلا الذهب وحجر اليشب Jade ، ثم خرجنا منه إلى مسكن امرأة عجوز صينية تسكن تحت الأرض هي وبناتها العشر ، ويشتغلن جميعاً في ترقيع بعض الملابس ورفئها[92] وغسلها على أجرة قليلة جداً . وقد رأينا مضجعهن فإذا هو عبارة عن بعض ألواح من الخشب موضوعة بعضها بجانب بعض وفوقها غطاء كبير واحد لجميعهن ، فرثينا لحالتهن التي تنطق بما هنّ فيه من الفقر المدقع . ثم زرنا باقي الغرف التي في هذا المسكن وعددها نحو خمس عشرة ، سعة كل واحدة منها 3 أمتار طولاً في نحو مترين ونصف عرضاً ، ويسكنها شخص أو جملة أشخاص ، فما أتعسهم! . وقد ذكر لنا دليلنا أن شُرَط أمريكا تجد صعوبة هائلة في ضبط القتلة الصينيين أو قطّاع الطريق منهم ، وذلك لشدّة الشبه بين جميع الصينيين ، ولكثرة أبواب منازلهم الموصلة إلى طرق متشعّبة ، وقد يقتل صيني شخصاً ويلجأ إلى أيّ منزل ثم يخرج من الخلف من باب آخر ، فلا يقف الشرطيّ له على أثر . والصينيون لا يساعدون رجال الأمن على ضبط المتّهمين ، ولو كانوا يعرفونهم خوفاً من الانتقام منهم إن دلّوا عليهم .

ذهبنا بعد ذلك إلى منزل موسيقي هرم فضرب لنا أولاً على آلة تشبه الصانتور بقضيبين من البامبو (الخيزران) قصيرين ، أخذ يضرب بهما على أوتارها ، ثم ضرب على القيثارة ، ثم ضرب على كمنجته التي لا تختلف عن الربابة في شيء . فبعد أن سمعناه أعطينا له دولاراً وخرجنا من عنده إلى مسكن أسرة صينية فقيرة ، فسمعنا غناء ابنتين صغيرتين وقد ابتدأتا أولاً بالتلحين باللغة الإنجليزية ، ثم باللغة الصينية .

---

(92) الرفء والرفو : إصلاح الثوب وخياطته .

ولا ينسى القارئ أن جميع هذه المساكن تحت الأرض . وبعد ذلك أراد دليلنا أن نزور مساكن أخرى صينية ، فأراد الدخول في أحدها ، وفي أثناء فتح الباب خرج عليه صاحب المنزل وطرده ، فعلمنا أن هؤلاء المساكين يكثرون من تعاطي الأفيون ، والحكومة ترى ذلك جريمة تعاقب كل من ارتكبها بغرامة مالية قدرها 50 دولاراً . وأظن أن هذا الرجل كان يتعاطى هذا السم القاتل ، هو وأصحابه داخل المنزل . ولمّا عالج دليلنا فتح الباب حصل لهم خوف شديد ، وحسبوا أن الشُرَط قد باغتوهم لضبطهم ، فخرج صاحب المنزل منزعجاً وأغلق الباب في وجه الدليل ، وهو في أشدّ الحَنَق . والقارئ لا يستغرب ذلك فإن مثلهم كمثل حَشَّاشينا ، عندما يهاجمهم رجال (هارفي باشا) فإنهم يهربون ، ولهم في ذلك طرق شتّى ، ولا يخفى ما يستولي عليهم عادة من الذعر والفزع إذا شعروا بأن الطارق عليهم هو من الشُرَط (البوليس) . ذهبنا بعد هذه الحادثة لزيارة معبد صيني في الطابق الأول من أحد المنازل ، فوجدناه مزخرفاً ومحلًى بالأخشاب المكسوّة باللون الذهبي ، فقابلنا الكاهن ، وأخبرنا أنه ينبئنا بمستقبلنا بعد أن يؤدي الصلوات اللازمة لذلك ، فتركناه يعمل ما أراد . ثم قال لنا ما يقوله عادة من الذين يدّعون معرفة الغيب ، من تلك الألفاظ المحفوظة المعروفة في جميع أنحاء العالم . دخلنا بعد ذلك في متجر كبير ورأينا فيه أنواع الآنية وثياب الحرائر الصينية ، ثم زرنا غرفة تجارتهم ، وفيها الفصل في خصوماتهم على يد قضاة يُختارون من بين التجّار المشهورين . وهم يفصلون في دعاويهم المدنية وينظرون في أحوالهم التي تتعلق بفقرائهم وأقاربهم في بلادهم الأصلية .

اكتفينا بعد ذلك بما رأيناه من شؤون المدينة الصينية ، ودفعنا للدليل جعله ، وذهبنا إلى فندقنا الذي كان غير بعيد عن هذا المكان .

في صباح اليوم الثاني الخميس 6 يونيه ، ذهبنا لمحل كوك للبحث عن رسائلنا ، ثم عدنا إلى الفندق . وفي الساعة التاسعة صباحاً حضر إلينا المستر ستوك ، مدير محل كوك ، ومعه جوازاتنا (تذاكرنا) وبرنامج خطّة سياحتنا الجديد . وبعد الغداء عزمنا أن نذهب إلى المتنزّه الذي به حديقة الحيوانات ، فركبنا الترام الموصل إليها . وبينما نحن في الطريق ، إذ عرفنا أن هذا المتنزّه هو بعينه الذي زرناه بالعربة عند حضورنا إلى فرنسيسكو ، فلم نرَ حاجة لزيارة ما رأيناه من قبل ، فنزلنا من الترام ، وركبنا آخر أوصلنا إلى الفندق . ولما كان في نيتنا أن نعود إلى مدينة سان فرنسيسكو بعد السفر منها ، تركنا من متاعنا ما يلزم غسله ، حتى إذا عدنا وجدناه مغسولاً .

وبعد العشاء دفعنا ما وجب علينا للفندق . وفي الساعة 8 و 30 دقيقة ركبنا السيارة التابعة للفندق ، لتصل بنا إلى مرسى البواخر النقّالة التي تذهب إلى الشاطئ الآخر ، لنركب قطارنا من أوكلند وهي المحطة التي أتينا منها . وقد كان ميعاد قيام القطار الساعة 10 و 10 دقائق ، فعندنا من الوقت متّسع ، ولكنّا أسرعنا حتى نأخذ مكاننا في العربة قبل أن تزدحم ، وننام ولو قليلاً قبل قيام القطار . فأرسل معنا مدير الفندق خادماً ليساعدنا في نقل أمتعتنا ، وقد تفضّل علينا بهذه المساعدة العظيمة لّما عرف أننا غرباء من بلاد بعيدة ونحتاج إلى المعاونة . إن وجهتنا هي الذهاب إلى محطة أوكلند لركوب القطار الذي يوصلنا إلى البورتال El- Portal فلم يعرف خادم الفندق الطريق الذي يلزمنا الذهاب منه ، واتخذ طريقاً آخر مضاداً لوجهتنا . ولحسن الحظ رأيت مكتب استعلام ، فأسرعت إلى عامله ، وسألته عن الطريق ، فقال لي : إن الجهة اليمنى خاصة بالطريق الحديدي الباسفيكي ، والجهة اليسرى خاصّة بالسنتا فيه Santa Fee . ولّما كنّا أتممنا سياحتنا في الطريق الأخير الذي يذهب إلى جنوب كاليفورنيا ، عرفت أن طريقنا في جهة اليمين . وفي الساعة 9 و 5 دقائق فتح الباب الموصل إلى الرصيف الذي تركب منه الركاب في الباخرة النقّالة . وبعد ربع ساعة وصلنا إلى أوكلاند ، ودخلنا المحطة ، فوجدنا القطار ينتظر فيها ، فسلّمنا خادم العربة الأسود أمتعتنا الخفيفة ، وطلبنا منه أن يعدّ أسرّتنا . وفي الساعة 10 و 10 دقائق تحرّك بنا القطار ، ونحن على أهبة للنوم .

في الساعة 6 من صباح يوم الجمعة 7 يونيه ، كنّا على استعداد ومرتدين ملابسنا ، فصرنا ننظر لنعلم أيّ طريق نسلكه ، فرأينا قطارنا يمشي في مضيق محاط بالجبال على شاطئ نهر سريع يُدعى مرسيد(93) Mersed فخيل إلينا أننا في بلاد سويسرا الجميلة ، لأن المناظر التي كانت تحيط بنا لا يملّ الإنسان من رؤيتها . غير أن الفرق بينها وبين مناظر الأولى أنها طبيعية ولم تغير يد الإنسان خلقتها الأصلية . كنا نرى بين حين وآخر بعض آلات مولّدة للكهرباء ، موضوعة على مجرى النهر السريع ، ولا بدّ أنها تدور بدون انقطاع ، وتولّد قوّة كبيرة لسرعة الماء العظيمة . في الساعة 7 ونصف وصلنا إلى محطة البورتال ، وقد كانت السماء صافية والجوّ معتدلاً ، فنزلنا من قطارنا . ولا بدّ دون الوصول إلى الفندق من أن نصعد مسافة 50 متراً على

---

(93) اسم النهر . Merced

أقدامنا ، فقطعنا هذه المسافة . ولمّا وصلنا إلى الفندق دفعنا دولاراً عن كل شخص لتناول الفطور قبل الدخول إلى قاعة الأكل ، وهذه هي العادة المتّبعة هناك ، فاخترنا مكاناً وجلسنا . وقدّمت لنا أنواع المأكولات التي كانت في غاية الرداءة . وبعد أن انتهينا من تناوله سألت في مكتب الفندق هل جاءتهم أخبار لها اتصال بنا من المستر ستوك مدير محل كوك بسان فرنسيسكو ، من جهة إعداد عربة لنا ، فقال أحد العمّال : لا . وقال الآخر : ربّما يكون ذلك . ثمّ تقدم إليّ شيخ هرم وبيده رسالة ، وقال لي : نعم ، وإن أردتم فهي رهن إشارتكم على تمام الاستعداد . ففضّلت الرحيل حالاً حيث إننا متأهّبون ، ولا فائدة لنا من الانتظار . فذهب هذا الشيخ ، وبعد خمس دقائق حضرت العربة ، ووقفت أمام سلّم الفندق الخاص بالمسافرين . ولمنع تزاحم المسافرين على العربات نصب على السلم حاجز من الحبال ، في وسطه منفذ يقف عليه أحد عمّال الفندق ، لا يأذن لأحد في المرور منه إلا على حسب الترتيب ، وبمقدار العدد الذي تسعه كل عربة . ولمّا أتت عربتنا أراد بعض السائحين الركوب فيها ، فمُنعوا ونُودي علينا فركبناها ، ووضعت حقائبنا وشُدّت بالحبال حتى لا يسقط منها شيء في الطريق ، فسارت بنا العربة في طريق ملك للحكومة صعبة المسلك لأنها رملية . ولذا كنّا نسير ببطء مع أن أربعة أفراس كانت تجرّ عربتنا . وبعد أن قضينا مدّة ثلاثة ساعات متوالية على هذه الحالة ، في وسط مناظر بديعة وسماء رائقة وشمس محرقة ، وصلنا إلى جسر (كوبري) في وسط وادي يوزميت فاللي على ارتفاع 4000 متر[94] عن سطح البحر . وبعد أن عبرناه وجدنا عدداً عظيماً من الخيام ، قدّرناه من 80 إلى 100 خيمة . وقد أُعطي لهذا المكان اسم معسكر يوزميت ، وقيل لنا إنّ جلّ سكّانه من المشتغلين بأعمال البورصة ، أصحاب الثروة المتوسّطة ، وقد أتوا إلى هذا المكان طلباً للراحة من عناء الأشغال مدّة من الزمن ، ثم يعودون بعد ذلك إلى أعمالهم الشاقّة . وبعد ربع ساعة من مزايلة هذا المكان ، وصلنا إلى فندق سانتنيل Sentinel وسُمّي بهذا الاسم لوجود صخرة قريبة منه معروفة باسم الحارس (سانتنيل) . وهذا الفندق مبني من الأخشاب على طراز (البانجالوب) ، فاختير لنا غرف ليست ذات زخرف ولكنّها جميلة ، وقد أعجبتنا مناظر هذه الجهة فإن موقع

(94) يبدو هنا خطأ مطبعي ، والصحيح 400 متر ، لأن ارتفاع شلالات يوزميت العليا 436 مترا ، حسب (ويبستر) .

الفندق كان على نهر عظيم يُسمّى مرسيد ريفر Mersed River يتدفّق ماؤه الصافي بسرعة كبيرة . وحيثما وجّه الإنسان نظره لا يرى أمامه إلا خضرة تكسو سطح الأرض أو ماء صافياً يجري إلى جهات مختلفة . وأظن أن هذا الوادي لا يماثله وادٍ آخر ، لأنه جمع كلّ المناظر البديعة . فبينما يرى الإنسان مجرى النهر وما حوله من النباتات المختلفة الشكل واللون والأشجار الخضراء الناضرة التي لا يدانيها شجر في نضرتها ورونقها البهيّ يرى جبالاً مرتفعة تشرف على الوادي من الجهتين ، وتسقط من أعلاها مياه عظيمة كسبائك من فضّة لامعة ، تجري على البساط السندسيّ ، وتنصبّ في هذا النهر العظيم الاتساع . فكأننا كنّا في متنزّه كبير منسّق أحسن تنسيق ، لا يمكن الإنسان أن يتصوّر أجمل منه .

وقد رأينا بجانب هذا الفندق مكتباً للطرق الحديدية ، وآخر لرئيس المركز العسكري وخمسة دكاكين للتصوير بالمصوّر الشمسي (الفوتوغرافية) ومحلاً لخياط ودكاناً للبقالة ، وهذا كل ما في هذا المكان .

وقد وصلنا إلى الفندق نحو الساعة 11 و 45 دقيقة فلم يبقَ لنا من الوقت إلا ما يسع غسل أيدينا وتناول غدائنا . وبعد الظهر ذهبنا في عربة إلى ضواحيها ، فمررنا على مكان به ما يزيد عن المائة خيمة يدير شؤونها ويؤجرها للسائحين صاحب الفندق الذي نزلنا به ، ويُدعى هذا المكان معسكر كاري Camp Curry . أما أجرة السكن في هذه الخيم فقليلة بالنسبة لقيمة الفندق ، ولذا لم يكن سكانها من الأغنياء .

إحدى أعاجيب الدنيا

ولمّا كانت هذه الجهة مجموع غابات تملكها الحكومة ، أذنت لمن يريد أن يضرب خيمته في المكان الذي يحلو له ، ليقيم فيها المدّة التي يريدها بدون دفع أجر . فكنّا نرى بين وقت وآخر خيمة أو أكثر تحت ظل الأشجار تسكنها أسرة أو عدّة أسرات ، فتتمتع بالمعيشة الهادئة وتنتقل إذا أرادت إلى مكان آخر حيث تطيب لها الإقامة تشبهاً بمعيشة البدو الصحيّة الساكنة . ذهبنا بعد ذلك لرؤية جزيرتين يطلق عليهما اسم هابي أيسلاند Happy Island يصل إليهما السائح بواسطة جسرين جميلين ، فأعجبنا موقعهما وهما في وسط النهر العظيم . ومنهما انتقلنا إلى مكان به ألوف من الصخور ، وقد علمنا أنه كان مأوى هنود أمريكا يختبئون فيه إذا حزبهم أمر للمدافعة

عن أنفسهم من إغارة الفاتحين لبلادهم . وطالما حصلت حروب هائلة بين الجنس الأحمر والجنس الأبيض ، انتهت بفوز الأخير وطرد الهنود من هذه البقعة ، واستئصالهم من هذه الجهة إلا الذين سلّموا أنفسهم وقبلوا أحكام المغيرين ، فأمنوا على أنفسهم بعض الأمن ، واستخدم بعضهم عند الجنس الأبيض في خدمات حقيرة ، والبعض الآخر لم يزل مختبئاً بين الصخور يقتات من حشائش الأرض وأسماك النهر ، وأغلبهم من بقايا قبائل الشوشونية Shoshones الوحشية .[95] مررنا بعد ذلك على الإصطبلات التابعة للفندق سانتينيل وهي تَسَعُ ثمانين بغلاً وخمسين حصاناً ، كلّها معدّة للسائحين بأجرة معلومة . ومنها ذهبنا إلى معسكر به مائة وثمانون جندياً غير الضباط ، وعملهم مقصور على حراسة هذه الجهة وما فيها . وقد كان رؤساء فرق هذه الجنود وكذا الضباط يسكنون منعزلين عن باقي الجنود في مساكن مصنوعة من الخشب Chalets ، أما رئيس هذه القوّة فهو ماجور[96] ويسكن بمركز هذا المعسكر القريب من الفندق . وبعد ذلك وصلنا إلى أسفل جندل يوزميت Cascade de Iosmite [97] وماؤه يسق من ارتفاع 760 متراً ، وهو مقسّم إلى ثلاث طبقات : الطبقة الأولى عمودية وتُسمّى الجندل الأعلى وطولها 438 متراً في عرض 10 أمتار ؛ ثم تلاقي مسطحاً صغيراً في الجبل فتتفرع إلى جملة فروع صغيرة ، وتسقط جميعها عمودية من ارتفاع 191 متراً ويطلق على هذه الطبقة الجنادل الوسطى ؛ ثم تصادف مسطحاً آخر وتسقط ثانياً من ارتفاع 131 متراً وتصبّ في النهر ، وهذه الطبقة الثالثة تُسمّى الجنادل الأخيرة ؛ مجموعها إذاً هو جندل يوزميت ، وهو أعظم جندل من جهة الارتفاع على وجه الأرض . وقد كنّا نرى في كل جهة لوحة مكتوباً عليها (ممنوع صيد الأسماك قبل أول يوليه) وذلك للمحافظة على الأسماك الصغيرة . وقد علمنا أن أنواع السمك توجد بكثرة في نهر مرسيد المذكور . مكثنا قليلاً قرب هذا الجندل العظيم ، ثم عدنا إلى الفندق واستفهمت من مديره عمّا ينبغي زيارته غداً ،

---

(95) يبدو أن هذه ترجمة لأفكار المستعمرين الذين يتهمون السكان الأصليين بالتوحش ، بلا تمحيص ولا إنصاف .

(96) Major : رائد (من رتب الضباط العسكرية) .

(97) شلالات يوسميت Yosemite Falls و Cascade (بالفرنسية والإنكليزية) : شلاّل صغير ، أما الجندل : الصخر ، فلا علاقة له بالشلال ، إنما خطأ في الترجمة - كما ذكرنا في هامش سابق .

فأخبرني بضرورة رؤية بحيرة المرآة Lac miroir والذهاب إليها يكون بالعربة ، ومنها إلى أمكنة الثلوج Glaciers ولكن لوعورة الطريق لا يمكن للعربة الاستمرار في السير من بعد هذه البحيرة . ولا يمكن أيضاً الإنسان أن يصل إلى هذه الثلوج سائراً على الأقدام لبعدها العظيم . فلا بدّ دون الوصول أن يمتطي ظهور البغال أو الخيل ، وهذا ما وجدته شاقّاً ومتعباً ، فقررت الاكتفاء بزيارة البحيرة .

في الساعة 8 من صباح يوم السبت (8 يونيه) ركبنا عربة وسرنا في طريق للذهاب إلى البحيرة ، فصادفنا دبّاً وحشيّاً صغيراً يجري في وسط الأشجار ، فأوقفنا عربتنا ونزلت مع خيري بك ، ثم لحقنا مصطفى بك لعلّنا نراه من كَثَب . ولكنّه ذهب كالسّهم مخترقاً الأشجار التي كانت تحتها شجيرات وفروع يابسة متواشجة تجعل المرور بينها صعباً جدّاً ، فلم نره وغاب عن أعيننا ، فعدنا إلى عربتنا . واستمررنا في طريقنا إلى أن وصلنا إلى هذه البحيرة ، وهي على بعد ستة كيلو مترات ونصف من شمال فندقنا ، فرأينا ماءها صافياً ساكناً . وحقيقة وجدناها كالمرآة ، ترى فيها صور كل ما حولها من جبال وأشجار وغيرها . وهي على صغرها إحدى عجائب الدنيا ، فيؤمّها كثير من السائحين ، ولا يرى الإنسان على سطحها أقل حركة تعكّر هذا الصفاء فاسمها مطابق لمسمّاها . وبعد أن سرنا على شاطئها نمتع نظرنا بهذا الجمال ، مشينا على الأقدام إلى الأمام وصادفنا جندلين ، وكلّما توغلنا حلا لنا المنظر ، فعدنا مسرعين إلى العربة لتذهب بنا إلى إصطبلات الفندق لنؤجّر الدواب ونتخذ دليلاً يوصلنا إلى أمكنة الثلوج ، حتى لا يفوتنا رؤية جمال الطبيعة التي سحرتنا وجعلتنا ننسى كل تعب . ولمّا وصلنا إلى الإصطبلات قيل لنا إنه لا يمكننا الوصول إلى ما نريد قبل ثلاث ساعات ، وقد كانت الساعة وقتئذ العاشرة ، أي أننا نصل إليها نحو الساعة الأولى بعد الظهر . والعودة تكون من طريق آخر أبعد من الأول ، ويقطع عادة في أربع ساعات ونصف . فشدة إعجابي بالمناظر التي رأيتها جعلتني أصمّم على الذهاب إليها ، مهما صادفنا من المشاق . ولما كان الفندق قد أعد مكاناً هناك لراحة السائحين وتناول طعامهم فيه ، وأنشأ سلكاً تلفونياً بينها وبينه ركبنا عربتنا وذهبنا مسرعين إلى الفندق ، وتكلمنا تلفونياً مع عامل الفندق المقيم بتلك الجهات الثلجية ، فأخبرناه بأننا سنحضر قرب الساعة الواحدة إلى أمكنة الثلوج حتى يهيئ لنا طعاماً . وبعد ذلك أخذنا معنا بعض من الساندويتش ثم عدنا إلى الإصطبلات ، وركبت أنا ومصطفى بك بغلين ، وركب الدليل وخيري بك جوادين ،

فكنّا قافلة صغيرة قائدها الدليل وآخرها خيري بك . ومع أننا بذلنا غاية الجهد في الاستعداد لنسرع في المسير ، لم يتيسر لنا مغادرة الإصطبلات قبل الساعة العاشرة والنصف . وبعد أن مشينا قليلاً وجدت دابتي بليدة بطيئة السير جداً ، فتبدّلت بها دابّة مصطفى بك حتى لا أتعب من حثّها بالضرب . واتبعنا طريقاً ضيقاً جداً تمرُّ منه الدابّة بعد أن تلاقي ما تلاقي من المشقّة . وقد اختاره دليلنا لأنه أقرب طريق يوصلنا إلى غايتنا في الميعاد الذي حدّدناه لتناول الغداء . وبعد ساعة من المسير وقف دليلنا بغتة وأخذ يكلّمنا ، وكان غرضه من ذلك أن تستريح الحيوانات قليلاً . وكلّما تغلغلنا في الطريق تزداد الصعوبة وتعظم المشقّة على الدواب لأنّا كنّا في سيرنا صاعدين ، فصار دليلنا يقف بنا قليلاً كلّما قطعنا جزءاً من الطرق لتستريح الدواب ، حتى صرنا على ارتفاع هائل من الوادي . وصار الناظر ، كلّما رمى بنظره إلى ذلك الوادي السحيق ، تتجلى له مناظر الطبيعة الجميلة . ولكن ضيق الطريق المحفوف بالخطر والخوف من الهويّ لا يمكّن الراكب من أن يملأ عينيه من هذا الجمال النادر ، فإننا كنا نسير على شرفات الجبال وتحتنا هوّة هائلة رائعة . وصلنا إلى مكان يرى منه الإنسان عن قرب جندل يوزميت كلّه ، فازدادت عظمته في أعيننا . ثم استمررنا في طريقنا فإذا نحن أمام ركب من السائحين ينزلون ممتطين ظهور بغالهم ومتّبعين الطريق الذي نسير فيه ، فما العمل إذاً ، ولا بدّ أن نخلي لهم الطريق؟ فأراد دليلنا أن يداعبنا بلطائفه ، فأوقفنا إلى جهة الهوّة أي على حافّة الجبل ، فوقفنا على شفير تلك الهاوية وأذن للركب أن يمرّ آمناً مطمئناً فأقلّ مصادمة كانت يتبعها السقوط في قرار عميق ، ولكنّ الله سلّم وعدنا نسير إلى الأمام صاعدين ومتّبعين طريقاً له انعطافات . وبينما نحن في طرف منعطف ، وإذا ببغلين وجوادين مطلقين يسوقها أمامه دليل هنديّ ، وهي تعدو أمامه بجميع قواها ، فتجسّم أمامنا الخطر بكلّ معانيه . فأسرع دليلنا ونزل من فوق ظهر جواده وسلّم عنان جواده لسائح كان يصعد معنا راجلاً . وقد حذوت أنا حذوه ونزلت من فوق دابتي وجعلتها بيني وبين تلك الهاوية ، أما سائق تلك المطايا المطلقة فإنه أخذ يعدو راجلاً لعلّه يمنع الخطر ، ولكن فات الوقت واختلطت دوابه بدوابنا ، وقد زاد الطين بلّة أنها كانت تقمص وترفس ، فأصابت دليلنا رفسة آلمته وداس جواد على قدمي ولم أشعر إذ ذاك بالألم لهول ذلك الموقف الذي ينسي الإنسان نفسه . وقد سقطنا كلّنا على الأحجار وأصابنا من الرضوض ما أصابنا . ولكنّا حمدنا الله الذي سلّمنا من مهلكة كانت فاغرة فاها لتبتلعنا . وكاد يعظم

الخطب لولا مساعدة بعض السائحين الذين أتوا لخلاصنا بضبط هذه الحيوانات الشاردة . وبعد أن مرّت هذه الحادثة أخذ بعضنا ينظر إلى بعض نظرات الذهول ، وكانت حالة مصطفى تدعو إلى الشفقة ، وصار يقول :إن الحياة ثمينة ، فمالي وهذه المصاعب ، ولِمَ ألقي بنفسي إلى التهلكة؟ ثم امتطينا ظهور دوابنا وسرنا مجدّين في السير إلى أن وصلنا إلى قمّة الجبل في مكان يُدعى نقطة الوحي أو الإلهام Inspiration Point وهي أرض واسعة مبسوطة فوق ظهر الجبل ، أقيم على أطرافها سياج من حديد حتى يأمن السائح إذا اقترب من حافة الجبل ، ويُرى منه الوادي من ارتفاع نحو 1700 متر . وذلك المكان جدير بأن يُسمّى بهذا الاسم لأن الواقف يشاهد أجمل منظر ، فإن الجبال التي تحيط بالوادي تكسوها الأشجار ويتخلّلها ألوان الصخور المختلفة ، وتسقط من رؤوسها المياه العظيمة ، فتكون على سطح الوادي المكسوّ بالأعشاب والزهور نهيرات تصبّ في نهر عظيم يخترق هذا الوادي . فإذا كان الواقف شاعراً مجيداً فإن مجموع هذه المناظر توحي إليه ما توحي ، فيهدي إلى عشّاق الخيال الشعري بديع تصوّراته وخيالاته في وصف هذا المكان الجميل ، فيتلذّذ القارئ من تلك الصور الشعرية الصادرة من تأثير الجمال . فتمنيت لو كان معنا أشعر شعراء لغتنا العربية المحبوبة ، حتى يرى بنفسه ما نراه ويترك لقريحته الوقّادة عنانها ، فيتحف أبناء أمتنا بما أملته عليه عجائب الطبيعة وآثار القدرة الإلهية ، فيكون أثراً خالداً مدى الدهر تتداوله الأيدي فتنمو الأفكار العالية وتصفو الأخلاق وتمتلئ النفوس شعوراً بجمال الطبيعة وعظمة قدرة الخالق فيزداد اليقين . بعد إلقاء هذه النظرة مشينا في أرض مبسوطة بين مروج نضرة مدّة عشرين دقيقة ، فوصلنا إلى فندق جلاسيه Hotel Glacier ، وهو منزل مكوّن من جملة غرف مصنوعة من الأخشاب . وكان وصولنا إليه نحو الساعة 12 و 30 دقيقة ، فكأننا قطعنا المسافة مع ما لحقنا من دواعي التأخير في أقل من ساعتين ، فجلسنا قليلاً في ردهة تطلّ على مناظر بديعة . ولمّا حلّ ميعاد الغداء ذهبنا لتناوله في غرف ساذجة ، ولكنّها منظمة . وكانت تخدمنا خادمة تتكلم جيداً باللغة الفرنسية ، فبذلت كل مجهودها في إحضار غدائنا على عجل . ثم انتقلنا إلى ردهة أخرى ، وكنّا نمتع نظرنا أثناء تناولنا القهوة برؤية الثلوج المتراكمة على رؤوس الجبال . وبعد ذلك خرجنا ومشينا على أقدامنا إلى أن وصلنا إلى صخرة بارزة من طرف الجبل ، وقد رأيت في أحد الرسوم المعروضة للبيع صورة حمار وبجانبه سائح ، وفي رسم آخر أحد المشهورين بالألعاب الرياضية ، تمثله وهو يلعب على الصخرة ما

يسمونه إيكيليبر Equilibre [98] ولم يخشَ سقوطه ، فيالها من جراءة أعدّها جنوناً ومخاطرة . أما أنا ومصطفى بك فلم يمكنّا أن نقترب ونمشي إلى نهاية طرفها . عدنا إلى ذلك الخص (الكشك) ودوّنّا أسماءنا في الدفتر المعدّ للزائرين ، ثم امتطينا دوابنا لنعود إلى فندقنا ، وسرنا في طريق لا ينحدر كثيراً مدّة نصف ساعة إلى أن وصلنا إلى شجرتين كبيرتين فرأينا نعل جواد قد ألصق في إحداهما بمسامير ، فقال دليلنا : هذا النعل هو تذكار حادثة وقعت في شهر أغسطس من السنة الماضية . وهذه الحادثة هي أنه كان تسعة أشخاص واقفين تحت هاتين الشجرتين يتّقون بهما الأمطار الشديدة وبجانبهم دوابهم ، فنزلت صاعقة صعقت الدواب وقتلتها ، ولم يحصل لأولئك الأشخاص أذىً ، فسبحان المنجي . استمررنا في طريقنا إلى أن وصلنا إلى مجرى ماء فخضناه ، ولم نصادف إلا بعض سائحين قافلين وهم راجلون . رأينا في طريقنا جنادل إيلليلويت Illilouettes Falls وهي عظيمة أيضاً . ثم أخذنا نصعد ثانية إلى أعلى جبل لزيارة جندل Nevada نيفادا ، وهو أكبر من الجنادل السابقة . وبعد ذلك عدنا للنزول ثانياً وقد تعبت دوابنا من توالي الصعود والنزول ، ولقينا صعوبة كبيرة في حملها على المسير . ثم وصلنا إلى سهل يجري فيه نهر ، وهو المكوّن لجندل فيرنال Vernal Fall ، وأثناء السير كنت أرى أن مصطفى بك يتحرّك كثيراً على سرجه حركة الضجر ، فسألته عن السبب ، فأجاب إن السروج الأمريكية صلبة لا لين فيها ومؤذية ، وهو يفضّل أن يمشي على رجليه على أن يستمرّ راكباً ، فأخذت أسلّيه بأن الباقي لنا قليل فليصبر إلى النهاية . ولكن بعد الجندل الأخير صادفنا في نزولنا انحداراً كبيراً ، وما أصعب المرور منه! فقال : كلّما قوي رجاؤنا في التخلص من هذه العقبات يأتينا شيء جديد مخيف ، فكأننا لسنا طلاب رياضة وترويح نفس ، بل كأننا مكتشفون تركنا أنفسنا للمقادير . وصلنا الساعة 5 و 30 دقيقة إلى أسفل الجبل وكانت عربة (شارابان) بانتظارنا من الجهة الأخرى من جسر (كوبري) جزيرتي هابي Happy Islands فركبناها ، ولما استقر بنا الجلوس وجدنا القتام[99] غطّى ملابسنا . أما وجوهنا وعيوننا فإنها تغيّرت وصرنا شعثاً غبراً من كثرة ما علا وجوهنا من النقع[100]

---

(88) Equilibre : بهلوان ، واللعبة قائمة على المهارة في حفظ التوازن .

(99) القتام : الغبار الأسود .

(100) النقع : الغبار .

المثار . وعجبنا كل العجب لما وجدنا بنطلوناتنا وأحذيتنا لم تتقطع ، لأنّنا كنّا في أغلب الأحيان نمرّ بين أشجار ذات أشواك حادّة كأنها القتاد . وعند وصولنا إلى الفندق خلعنا ما علينا من الثياب وأبدلناها بغيرها ، بعد أن نفضنا الغبار المتراكم علينا فزال بعد عناء وجهد . وقد سارعت إلى الخروج من غرفتي حتى لا أظهر بمظهر التعب ، وذهبت إلى ردهة الاستقبال التي كانت إذ ذاك خالية من السائحين ، وأخذت أضرب على البيانو . أما مصطفى بك فإنه ذهب إلى المصوّر ليأتي من عنده بصورة له وهو على ظهر أتان . ولما أتت الساعة 6 و 30 دقيقة ذهبنا إلى المطعم ، وبعد تناول طعامنا أسرعنا إلى غرفنا طلباً للراحة والنوم .

ولما أصبح يوم الأحد 9 يونيه ذهبت أولاً إلى مكتب الطرق الحديدية لأكون على علم من وجود محال خالية بالقطار الذي يسافر في يوم 11 يونيه . ثم عملاً بمشورة مدير الفندق ، أوصيت على عربة خصوصيّة قبل ميعاد قيام السائحين بنصف ساعة للذهاب إلى فوفونا Wawona حتى لا يصيبنا ما يؤذينا من الغبار الذي يتصاعد من سير العربات . قضينا الوقت إلى أن حلّ ميعاد الرحيل ، وهو الساعة 12 و 30 دقيقة ، ما بين كتابة مذكرات رحلتي واستراضة قليلة على الأقدام . وقبل أن نفارق الفندق شكرت لمديره ما لقيناه من الاعتناء بنا وما وجدناه عنده من أسباب الراحة بالرغم من بعد هذا المكان . وقد أظهرت له سروري وإعجابي بموقع هذه البلدة الصغيرة ، وتمنيت لها مستقبلاً حسناً ، خصوصاً إذا اعتنت بتحسين حالها الحكومة الأمريكية أكثر مما هي عليه الآن . ولا أرى سبباً لتركها على حالتها بدون زيادة الاعتناء بها ما دامت هي مورداً لزيارة السائحين ، لجمال موقعها وجودة هوائها .ثم افترقنا وأخذ كل منا مكانه في العربة ، ومشينا في نفس الطريق الذي أتينا منه إلى البورتال . وبعد مدّة من الزمن وصلنا إلى مُنْعَطَف جهة الشمال ، مشينا منه وابتدأنا في الصعود ، وصار الحوذيّ يقف بنا بعد كل خمس دقائق دقيقة لراحة الخيول . وقابلنا أثناء سيرنا ضابطاً وسيّدة راكبين جوادين وراءهما عسكري وسيّدة أخرى . ثم صرنا نرى كثيراً من المتنزّهين والمتنزّهات خصوصاً في الموقع الذي يُسمّى مكان المصوّر المبدع Point de vue de l'Artiste وهو أعلى مكان يرى الإنسان فيه مناظر الوادي الجميل ، وقد أتت إليه جملة من المتنزهين ومعهم غداؤهم . وفي هذا المكان لا بدّ أن يحلو الجلوس ويعظم اشتهاء الأكل ، وقد استحسنّا اختيارهم قضاء يوم راحتهم في هذا الموقع ، ووددنا لو كان عندنا من الوقت متّسع لنشاركهم في سرورهم ، ونجلس ولو قليلاً

معهم . ولكن المسافة التي يلزم قطعها طويلة فاكتفينا أن نلقي نظرة عامّة على هذا الجمال . وواصلنا السير إلى أن قطعنا عشرة أميال ، ثم انتقلنا من الصعود إلى النزول ، وحُثّت الخيول فأسرعت بنا ، ونحن نقول عسى أن لا تصادفنا عربة في طريقنا ، ولكنّا لم نتمم حديثنا حتى التقينا بعربة في منعطف من الطريق الضيق ، فأردت النزول لمساعدة الحوذيّ في اقتياد خيوله الأربعة التي كانت تجرّ عربتنا فلم يقبل وقال : انتظر ، سترى . وإذا بالخيول تحرّكت ووقفت على حافة الطريق وفتح طريق لمرور العربة الأخرى . وقد قال لنا سائقها إن ثلاث عربات آتية وراءه فانتظرناها إلى أن مرّت . ثم واصلنا سيرنا فصادفنا عربة أخرى خالية من الركاب ، فمرّت من جانبنا من الخارج بسرعة عجيبة . وقد رأيت بعيني العجلة الأخيرة تدور في الهواء على حافة الطريق فشعرنا بمقدرة هؤلاء الحوذيين وعظيم جسارتهم . وبعد بضع دقائق وقف بنا سائق عربتنا أمام خص (كشك) كبير مهمل ، وعلى بُعد بعض أمتار منه خابيتان مملوءتان ماء ، فترك الخيول لتشرب منها . ثم أعاد السير ، فقطعنا ثلاثة أميال أخرى ، ووصلنا إلى المحطّة التي يغيّر فيها الخيول ، وهي عبارة عن إصطبل يسع نحو الخمسين فرساً ، وهو في منتصف الطريق الموصل إلى فوفونا . وعند وقوف عربتنا أسرع إلينا بعض الخدّام فحلّوا خيول عربتنا وأبدلوها بغيرها . أما نحن فنزلنا قليلاً لإزالة ما لحقنا من تراب الطريق ، وبعد ذلك عدنا وأخذنا مكاننا . وسارت بنا العربة ، وقال لنا سائقها إننا قطعنا إلى الآن أربعة عشر ميلاً ، ولم يبقَ علينا إلا ثلاثة عشر ميلاً . ولما كنّا نسير في طريق منحدر والخيول كانت قويّة ، كان السير سريعاً . وصرنا ننظر ما حولنا ، فكنّا لا نرى في الغابة إلا أشجاراً بعضها محروق والبعض الآخر مورق ، وقد مررنا على جملة مجاري مياه كانت تعبرها الخيول بدون تعب إلى أن وصلنا إلى باب كبير مررنا منه ، وهو حدّ وادي اليوزميت Yosmite Vallee ، فالتفت إلينا سائق العربة ، وقال : من هنا تبتدئ الأملاك الخصوصية ، وكل ما قطعناه كان في أرض مملوكة للحكومة . وقد قال لنا إن الفندق الذي سننزل فيه يتبعه 2000 هكتار من الأراضي ، وإن ثمن الهكتار الآن عشرون دولاراً . فقلت لرفيقيّ لو كنت أمريكياً لاشتريت جزءاً عظيماً من هذه الغابات ، وجعلته متنزّهاً أحضر إليه ومعي أصحابي لقضاء شيء من الزمن في هذا السكون التام . فإن الطقس في هذه الأمكنة جميل والهواء عليل ورائحة الأشجار والزهور الطبيعية تنبعث فيستنشقها الإنسان بلذّة . أما تغريد الطيور وخرير المياه ، فإنها تشرح القلب وتجلي عنه الهموم . مررنا بعد ذلك أمام

خص (كشك) صغير، وبجانبه خيمة بها نقطة عسكرية لحراسة مدخل وادي اليوزميت، ثم ابتدأنا نسير في سهل عظيم الاتساع إلى أن وصلنا إلى الفندق الذي سننزل به، وهو مجموع منازل صغيرة محاطة من كل جهة بالمتنزّهات والحدائق، فقابلنا على بابها مديرها وأوصلنا إلى غرفنا في أحد هذه المنازل. وبعد ذلك طلبنا ماء ساخناً لإزالة الغبار الذي علق بأيدينا ووجوهنا. وبعد أن استرحنا قليلاً ذهبت إلى مكتب المدير للاتفاق معه على المزارات التي يلزم زيارتها. وبعد أن أتممت ذلك جلست مع رفيقيّ في ردهة الفندق الأمامية لرؤية السائحين الآتين وراءنا من اليوزميت. وبعد نحو نصف ساعة حضروا فرأيناهم والتراب يكسو أجسامهم والتعب ظاهر عليهم. وفي الساعة السابعة مساء تناولنا العشاء، ثم خرجنا من الفندق لنسير قليلاً على أقدامنا، فوصلنا إلى مكان ترعى فيه أبقار الفندق وخنازيره، وبعد رياضة قليلة عدنا إلى غرفنا وختمنا نهارنا.

الأشجار المعمرة

قمنا مبكّرين يوم الاثنين 10 يونيه وكان البرد شديداً جداً، وانتظرنا لغاية الساعة التاسعة صباحاً، فأتت العربة التي كنت أوصيت بإحضارها، فركبناها للذهاب إلى الأشجار الكبيرة. وبعد أن تركنا الفندق ابتدأنا نصعد في طريق ضيق ورديء للغاية بين غابات كثيفة، ولم نرَ شيئاً يستحق الذكر مدّة ساعة من الزمن إلى أن وصلنا إلى كوخين صغيرين يسكنهما بعض الفلاحين، فأوقف السائق العربة وسقى خيوله. ثم أعدنا السير، وبعد مسير بعض كيلو مترات صرنا نسمع صفيراً كصفير قاطرات الطرق الحديدية، فاستفهمنا من السائق عن مبعث هذا الصوت، فقال لنا إن هذا صفير آلات قطع الأشجار. وقد اشترى هذه الغابات بعض الأغنياء وهم يتاجرون في أخشابها، فصرنا كلّما تغلغلنا في هذه الغابات رأينا علامات الخراب، فإن حب الثروة قضى على هذه الأشجار، والغريب أنه لا يراعي في تقطيع غابات أمريكا النظام المتبع في أوربا. فهنا تقطع الأشجار في كل مكان بدون ترتيب، بحيث إن الغابة تصبح مشوّهة وتفقد جمالها كلّه، ولا يُسأل صاحبها عمّا يفعله، فله الحق في قطع ما يشاء ولو كان ذلك يضرّ بحالة الغابة. وليس الحال كذلك في أوربا، فإنه جُعل نظام خاص وقوانين دقيقة للغابات. فالحكومة تعيّن الأمكنة التي يمكن قطع الأشجار منها، ولها مراقبون يحافظون على حياة الأشجار الصغيرة منها لتنمو وتأخذ

مكان الأشجار التي قطعت . وبعد أن ينتهي قطع الأشجار في المكان الذي عيّنته الحكومة ، يترك المدّة القانونية وينقل القطع إلى مكان آخر . فبهذه الطريقة لا يرى الإنسان في غابات أوروبا ما نراه الآن هنا من الخراب وعدم النظر إلى حياة الأشجار الصغيرة . ولم أعلل عدم مراعاة الحكومة الأمريكية لهذه القوانين إلا بكثرة الغابات واتساعها بأمريكا . ولكن حبي الشديد لتربية الأشجار جعلني أنكر إطلاق الحريّة لأصحاب الغابات إلى هذا الحد ، فصرت كلّما مررت على مكان لحقته أيدي الخراب أتأسف كثيراً .

لقينا كثيراً من العمال الذين يقطعون الأشجار ، وأغلبهم كانوا إيطاليين . أما طريقة نقل الأشجار بعد قطعها فهي سهلة جداً ، وذلك بأن يأتوا بأشجار بعد قطع أغصانها ، ويكوّنوا منها خطاً مستقيماً مزدوجاً ممتدّاً على الأرض إلى قرب المكان الذي يراد قطع الأشجار منه . فتنقل الشجرة المقطوعة وتوضع على هذا المزلق بواسطة آلة بخارية ، لها حبل طويل من الصلب يقرب طوله من ميل وسمكه بوصتان . فتربط الشجرة بهذا الحبل وتدار الآلة فتجرّ الشجرة إلى الأسفل على المجرى حتى تقرب من الآلة ، فتربط الشجرة في حبل آلة أخرى وهكذا ، أي أن تصل إلى معمل تشذيب الأشجار ونشرها . وبعد التشذيب والنشر يُلقى الخشب في مجرى نهر يوصلها إلى مكان قرب مدينة فتخزّن ، ومنه تنقل بالطرق الحديدية إلى الجهات المختلفة . وقد علمنا أنه بواسطة الأنهر يمكن نقل الأخشاب إلى مسافة خمسين ميلاً .

قربنا من مكان الأشجار الكبيرة (ماريبوزا جروف أوف بيج تري) Mariposa Grove of big trees ومررنا من باب كبير مكتوب عليه «تابع يوزميت فاللي» يشبه الباب الآخر الذي خرجنا منه قبل الوصول إلى فندق فوفونا . وأمامه أيضاً مركز عسكري ، وهو معدّ لحراسة الغابة وبه صف ضابط وثلاثة عساكر . والظاهر عليهم أن أشغالهم ليست كثيرة ، ولذا رأيناهم افتنّوا في إنشاء طرق صغيرة مرصوفة بالأحجار المختلفة الألوان حول خصهم (كشكهم) الصغير . وبعد أن تركناهم بنحو خمس دقائق وصلنا إلى وسط الأشجار الكبيرة الهائلة . ولا يظن القارئ أن المراد بكبرها أنها طويلة عظيمة الارتفاع ، فقد رأينا بعض الأشجار التي لا تعدّ من طبقتها أطول منها بكثير ، بل المراد بكبرها أنها بلغت من العمر عتيّا حتى صارت ضخمة جداً . فأغصان بعض تلك الأشجار أضخم من الأشجار العادية التي يستعظمها من لم يشاهد تلك الأشجار الكبيرة . فمررنا أولاً على ثلاثة شجرات هائلة في مدخل الغابة اسمها

الحرّاس الثلاثة ، ثم رأينا على بعد منها شجرة يابسة ملقاة على الأرض ، لا يمكن لمن لم يرها أن يتصوّر مقدار كبرها ، فإن جذعها إذا مرَّ بجانبه فارس ووقف على ظهر جواده ورفع يديه فلا يمكنه أن يمس غايته . وكفى لإظهار جسامة هذه الشجرة أن رأينا في أحد الرسوم المعروضة للبيع عربة يجرّها فرسان فوقها ، فكأنها شارع يسع مرور العربات ، فأسرعنا إلى الصعود عليها وصوّرت بآلة التصوير صورة لرفيقيَّ فلم تكن صورتهما بالنسبة لصورة جذور الجذع شيئاً مذكوراً ، وهذه الشجرة يطلق عليها اسم «الملك المخلوع» أو «أبو الغابة» Le roi detrone ou le pere de la foret وكان ارتفاعها بالغاً على ما يقال 133 متراً ، وطول محيطها خمسة وثلاثين متراً . أما نوع هذه الأشجار فإنها تشبه أشجار الصنوبر ، ولكن حجم إحداها يبلغ نحو أربعة أمثال حجم شجرة الصنوبر . وقد رأينا أن جلّها محروق من أسفله ، وأظن أن ذلك ناشئ من عدم العناية بحراستها . وقبل ستين سنة كانت الهنود تضرم النار فيها عمداً . استمرَّ سائق عربتنا في طريقه إلى أن وصلنا إلى شجرة نُحت في جوفها نفق ، ارتفاعه 3 أمتار وعرضه كذلك ، فمررنا من هذا النفق بعربتنا دون أن نصادف عائقاً وكان طوله ثمانية أمتار ، وتُسمّى هذه الشجرة كاليفورنيا California ، فقال لنا السائق : انتظروا فسترون ما هو أعظم منها . وحقيقة عند ما وقف بنا أمام الشجرة المشهورة باسم جريزلي Grizzly Giant اعترتنا الدهشة من جسامتها ، فإن ارتفاعها يبلغ الثمانين متراً ومحيطها 31 متراً ، وقطر محيط دائرتها تسعة أمتار ، وعلى بعد ستين متراً من الأرض رأينا أحد فروعها عمودياً عليها فقد نشأ من اتصاله بها زاوية قائمة ، وهو ضخم جداً يبلغ قطر دائرته مترين على الأقل ، فنزلنا ووقفنا بجانبها ، فشعرنا بضعفنا أمامها ، وتعجبنا من قوة الأرض وكيف تنبت مثل هذه الأشجار النادرة . ولما رأى سائق عربتنا ما نحن غارقون فيه من لجج العجب قال لنا : اركبوا فسأريكم أيضاً أعظم منها . فمشى بنا في الطريق الموصل إلى أعلى الغابة Upper Grove فوجدنا بها مئات من هذه الأشجار الكبيرة ، فلفت نظرنا إلى ثلاثة منها يُسمّونها «شجرات الرحمة» Les trois graces ، ثم إلى اثنتين إحداهما ملتحمة بالأخرى ويطلق عليهما اسم «الأمينتان» Les deux fideles . وهكذا صار يشير إلى كل شجرة ويذكر لنا اسمها ، فلم يُترك أحد من مشهوري عظماء الأمريكيين سواء كان من أعاظم قوّادها ، أو من فطاحل كتّابها ، أو من دهاة حكّامها ، أو من رؤساء جمهوريتها إلا وسميت شجرة باسمه . كذلك أسماء المدن العظيمة الأمريكية أطلقت على بعض أشجار منها

كمدينة سان فرنسيسكو ونيويورك وغيرهما . ولما أن فرغنا من رؤية هذه العجائب ، ذهب بنا السائق إلى خص في وسط الغابة أجّرته الحكومة لشخص يديره ويبيع فيه صور الأشجار وأوعية وعصياً مصنوعة من خشبها ، فجلسنا في مكان جميل ووضعنا بيننا ما أحضرناه معنا من غدائنا وأكلنا باشتهاء ، ثم قدّم لنا صاحب الخص قهوة لذيذة فشربناها . وفي نحو الساعة الثانية عشرة والنصف عدنا إلى عربتنا ، وسارت بنا إلى أعلى قمّة في الجبل فوصلنا إليها ، وإذا هي على ارتفاع 7,500 قدم من سطح البحر . فألقينا نظرة على ما يكتنفنا فأعجبنا رؤية الجبال المكسوّة بالأشجار . ثم سرنا إلى شجرة تدعى فوفونا Wawona وهو اسم الوادي الذي به الفندق الذي نحن نازلون به . ثم ذهب بنا إلى شجرة تدعى التيليسكوب (المنظار المكبّر)(101) وحقيقة ينطبق هذا الاسم على المُسمّى فإن قلبها كان خالياً ، فنزلنا ودخلنا في جوفها ، ونظرنا فوقنا ، فرأينا السماء ، ولا يستغربن القارئ ذلك ، فإنها كانت أحرقت فلم تؤثر النار إلا في قلبها فجعلته رماداً . ومع توالي الزمن وتأثير الأمطار مع قيامها على هيئة عمود ، صار هذا القلب المحروق يتساقط شيئاً فشيئاً إلى أن آلت إلى هذا الشكل واستحقت اسم التيليسكوب . أتممنا رؤية الأشجار الكبيرة الهائلة وأمرنا سائقنا أن يعود بنا إلى الفندق . وفي الطريق قابلنا ثلاث سيدات تحت شجرة ، وكانت إحداهن راقدة على الأرض وقد خلعت نعليها وكشفت عن رجليها لأنهن قطعن الطريق من يوزميت فالي إلى هنا راجلات فلقين من سفرهنّ هذا نصباً ، فلم تستطع إحداهن من شدّة الإعياء الاستمرار على المسير ، فألقت بنفسها على الأرض تحرسها زميلتاها حتى تصادفهن عربة فتحملهنّ إلى مكان أمين . عدنا إلى الفندق بعد ساعتين من قيامنا من المكان الذي تناولنا فيه غداءنا ، وقد كنا قطعنا هذه المسافة في الذهاب في أربع ساعات ، وذلك لأنه في العودة كان الطريق منحدراً جدّاً ، فالخيل تسرع في المسير .

إن هذه الاستراضة قد شرحت صدورنا بما شاهدناه من عجائب خلق الله ، ولو أن طريقها كان متعباً جدّاً ، والنقع كان يثور علينا كثيراً ، فإن رؤية هذه الأشجار الضخمة الهائلة تُنسي الإنسان كل ما لقيه من النصب .

قضيا وقتنا بعد هذه الرياضة في إماطة ما لحقنا من التراب ، ثم في كتابة مذكرات رحلتي إلى أن أتى ميعاد العشاء فتناولناه . ثم خرجنا وجلسنا في ردهة

---

(101) وردت الترجمة في النص (المنظار المعظم) فآثرنا الكلمة المستعملة في عصرنا .

الفندق وقابلنا الوافدين من السائحين من يوزميت فالي ، فكان عددهم خمسين أتوا راكبين في خمس عربات . وبمجرد وصولهم انفصل منهم ست سيّدات وثلاثة شبّان ركبوا سيّارتين أُعدّتا لهم دون أن يتناولوا شيئاً من الطعام ، وساروا في طريقهم . وقد أخبرني مدير الفندق أن هذا الجمع كلّه تلاميذ وتلميذات ، ولا يعرف أحد منهم الطريق ، ولم يكن معهم من يرشدهم إليه ، فلم أستغرب هذا الجنون وهذه المجازفة منهم فإن الطيش أعمى بصيرتهم .

العودة إلى سان فرانسيسكو

دخلنا بعد ذلك في بهو فوجدنا آنسة قد بلغت غاية الجمال تعزف على البيانو فلذّ لنا السماع . وقد يحلو للإنسان سماع صوت الموسيقى خصوصاً في الأمكنة الهادئة ، ثم ذهبنا إلى غرفنا مسرورين ونمنا . وأصبحنا في يوم الثلاثاء11 يونيه مستعدّين للسفر إلى سان فرنسيسكو ، وكان الميعاد المحدّد لقيامنا منتصف الساعة الثانية عشرة قبل الظهر . فقضينا وقتنا في رياضة على أقدامنا حول الفندق كنّا في خلالها نرى السائحين الذاهبين إلى الأشجار الكبيرة ، وكتابة مذكراتي . وقبل أن يحلّ ميعاد السفر أكلنا ما طاب لنا من الطعام . وفي الساعة المحددة ركبنا عربتنا ووجهتنا محطة البورتال ، والطريق معلوم لنا لأننا حضرنا منه ، وقد كان سائق عربتنا هو الذي حضر معنا من يوزميت ، وهو الذي ذهب معنا البارحة إلى الأشجار الكبيرة . وهو شيخ هرم مضى عليه أكثر من 28 سنة وهو يشتغل بهذه المهنة ، وقد ذكر لنا مفتخراً أنه كان سائق عربة الرئيس روزفلت والرئيس تافت عند زيارتهما لهذا المكان ، وقال إن الرئيس تافت ضخم جدّاً حتى إنه جلس مكان اثنين في العربة . قال ذلك وقد ملكه الضحك لأنّه تذكّر أن هذا الرئيس لمّا أراد أن يذهب إلى أمكنة الثلوج Glacier Point لم تستطع دابّة أن تحمله وتذهب به إلى أعالي هذه الجبال ، فاضطر أيضاً أن يقطعها راجلاً . فكان هذا السائق يسلّينا بلطيف مسامرته لولا أنه يبصق كل لحظة ، فكنت أشمئز من حالته ، ولكن لا سبيل إلى اجتثاث هذه العادة القبيحة منه وقد تمكنت في نفسه .

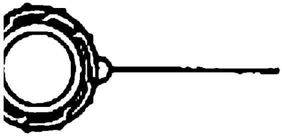
إن الخيل التي كانت تجرُّ عربتنا هي الخيل التي جاءت بنا من وسط طريق وادي اليوزميت ، ولكن عند حضورنا كانت طريقنا منحدرة فقطعت المسافة في ساعة ونصف ، أما ونحن عائدون منها فإننا نصعد ، ولذا قطعناها بعد مشقّة وجهد في

ثلاث ساعات ونصف . ولما كانت الطريق مفعمة بالتراب ، وقد عرفناها من قبل ، أعددنا لها عدّتها وارتدى كل منّا ماكينشوشة (معطف واق من المطر) وقد وقفنا في المكان الذي استُبدلت فيه الخيل في المرّة الأولى ، واستُبدلت خيولنا ، وسرنا في طريقنا الذي ينحدر الآن . وبعد ساعة وثلاثة أرباع الساعة وصلنا إلى وادي اليوزميت ، ولم نصادف في طريقنا شيئاً غير الذي ذكرناه قبلاً يستحق أن يذكر . غير أن السائق سأل هل ستحضر عربة أخرى لتذهب بنا إلى البورتال ، فَأُمِرَ بأن يستمرّ في سيره إلى النهاية ، فاتباعاً للأمر سار بنا إليها وكانت المسافة الباقية للوصول إليها 12 ميلاً ، وكنا نتّبع مجرى النهر العظيم . ولحسن حظّنا وجدنا الطريق مرشوشاً فلم نلاقِ في عودتنا ما يكدّر صفاءنا . وقد قابلنا وكيل شركة العربات يسوق بنفسه عربة قد ركب فيها بعض سيّدات ورجال ، فعرفني وحيّاني ، فقلت للسائق : إن هذا الوكيل يستريض مع أسرته اليوم . فقال لا يا سيدي إنه ينوب عن سائق ، لأن كثيراً من السائحين حضروا ولم يكن عدد الحوذيين كافياً ، فاضطر أن يسوق عربة حتى لا يضيع زمن على أولئك الراكبين في عربته . وقد أثبت قوله هذا أننا بعد مروره قابلنا عربة ثانية ، ثم ثالثة ، فسألنا سائق الثالثة هل تأتي بعده عربات ، فأجابنا إن العربات الآتية وراءه خمس عشرة وكلّها مملوءة بالسائحين .

وصلنا إلى البورتال في الساعة 6 و 15 دقيقة مساء ، فقطعنا الطريق ما بين فوفونا والبورتال في نحو سبع ساعات . وقد لقينا من سفرنا هذا نصباً لأننا كنا جالسين طول هذه المدّة . وأيضاً لانحدار الطريق ، كانت العجلات مقيّدة فكان لصوتها تأثير سيئ في أعصابنا . ثم دخلنا الفندق وذهبنا مسرعين إلى محل غسل الأيدي وأزلنا ما لحقنا من الغبار . وبعد ذلك تناولنا عشاءنا ونفوسنا تشتهيه ، ثم ذهبنا إلى المحطة لنرى هل أُعدّت لنا محالّ في القطار ، فلقينا ذلك الزنجيّ الذي كان معنا في القطار عند حضورنا ، فتقدم إليّ وقال إنه عائد هذه الليلة ، فأخبرته أننا أيضاً نسافر معه . وقد استفهمت من محل بيع التذاكر هل جاءتهم تنبيهات من كوك تتعلق بنا ، فأجبت بأن تذاكرنا حاضرة وقد دُفع ثمنها ، فتسلمتها . وفي الساعة 8 حضر قطارنا فأخذنا مكاننا فيه . وقد كان الحرّ شديداً جدّاً ، وبعد ربع ساعة تحرّك بنا القطار ، وقد قضيناها ليلة ساهرة ، وما أتت الساعة السادسة من صباح يوم الأربعاء 12 يونيه حتى كنّا مرتدين ملابسنا . وبعد مدة قصيرة وقف بنا القطار بمحطة أوكلند Oakland وهي التي نركب منها في الباخرة النقالة للذهاب إلى سان فرنسيسكو ، فأسرعنا في نقل

متاعنا إليها حتى ندرك مكاناً لنا فيها ، لأن هذه الساعة هي ميعاد ذهاب العمّال إلى سان فرنسيسكو ، فالزحام يكون عادة شديداً ، فسارت بنا إلى أن وصلنا إلى الشاطئ الآخر . وركبنا سيارة فندق فيرمونت Fairmont التي كنّا نزلنا فيها في المرّة الأولى ، وأوصلتنا إليها نحو الساعة التاسعة صباحاً . وقد أُعطيت لنا الغرف التي كنّا نزلنا فيها أيضاً ، فسررنا وحمدنا سُرانا حيث وصلنا إلى هذه المدينة بعد التعب الشديد ، فرأيت أن أبتدئ أولاً بدخولي الحمّام الساخن ليذهب عني ما أشعر به من مشاق السفر ، فأسرعت إلى الدخول . وكنت أظنُّ أن حقيبتي التي بها ملابسي الداخلية قد أحضرناها معنا في السيارة ، ولكن خاب هذا الظن ، فإنّي بعد ما اغتسلت وأردت أن أرتديَ ملابس نظيفة لم أجد الحقيبة ، فاضطررت أن أتأزّر بإزار وأرتديَ برداء ، كما يفعل ذلك العاملون في حمّامات مصر . واضطجعت على سريري منتظراً رحمة من سيحضرها إليّ ، فطال انتظاري بدون جدوى . فتكلّمت بالتلفون مع مدير الفندق وطلبت منه أن يسرع بإرسالها ، وبعد مرور ساعة وأنا من طول الانتظار على أحرّ من الجمر أتت الحقيبة . ولكن بعد أن ملكتني سورة الغضب ، ولم ينصرف عني إلا بورود تلغراف من صاحبة الدولة والدتي يبشرني بتمام صحتها التي أرجو من الله دوامها ، فانقلب الكدر سروراً ونسيت كل ما كنت أجد من الكدر . وبعد تناول الغداء أجبت دولتها بتلغراف . وفي منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر حضر المستر ستوك ، مدير محل كوك بسان فرنسيسكو ، وأحضر إليّ تذاكر السفر وخطّة باقي السياحة ، فسردت له ما لقيته من حسن العناية في كل الأمكنة التي زرتها ، وذلك بفضل رسائله التي كانت تسبقنا إلى كافة مديري الفنادق وغيرهم بالتوصية علينا لعمل كل ما فيه راحتنا ، وشكرته كثيراً . وبعد انصرافه ركبنا سيارة وذهبنا إلى مكتبة فرنسية لنشتري منها بعض جرائد أوروبا لنقف منها على الأخبار . وبعد رياضة قليلة عدنا إلى الفندق لكتابة مذكراتي وبذا انتهى أول يوم بهذه المدينة العظيمة . وفي صباح اليوم الثاني ، الخميس 13 يونيه ، لم نعمل شيئاً يستحق الذكر إلا أنّي ذهبت ومعي مصطفى بك إلى داخل المدينة لشراء بعض أشياء ، مثل بطاقات البريد (كارت بوستال) وبعض صور وغيرها . ولما عدنا إلى الفندق وجدنا في ردهته عدداً عظيماً من اليابانيين واليابانيّات ومعهم بعض الأمريكيين ، فعلمنا أنهم تابعون لجمعية الصليب الأحمر اليابانيّة . وقد حضروا إلى هنا لحضور حفلة تكريم أقيمت لهم ، ولتناول الغداء على مائدة الفندق ، فصرنا نراهم وهم يحيُّون بعضهم بعضاً وينْحَنُون انحناء التعظيم

والاحترام ، وذلك على حسب عاداتهم المتبعة في بلادهم . أما ما بعد ظهر اليوم فقضيناه في التجوال في أحياء المدينة راجلين ، وقد شعرنا بالسأمة من الإقامة فيها .



مغادرة كاليفورنيا

ولما أتى يوم الجمعة 14 يونيه استفهمت من محل كوك ، هل وصلته رسائل لنا ، فعلمت أنه لم يصل إليه شيء من ذلك . وفي منتصف الساعة الحادية عشرة غادرنا الفندق قاصدين السفر إلى بورتلند Portland فأخذنا متاعنا وركبنا السيارة ، فأوصلتنا إلى مرسى الباخرة النقّالة التي تذهب بنا إلى أوكلند ، وهي المحطّة العامّة التي يسافر منها السائح إلى الجهات التي يقصدها . وقد سبق الكلام عليها عند سفرنا في المرّة الأولى من سان فرنسيسكو إلى يوزميت فاللي .

وصلنا إلى المحطة قبل تحرّك القطار بنصف ساعة فأخذنا مكاننا فيه ، وقد كان عدد المسافرين عظيماً جدّاً ، ورأينا بعضهم وعلامات الفقر ظاهرة عليهم ، فصرت أقول من أين تأتيهم الدراهم حتى يتنقلوا ويسافروا على قُطُر أجورها غالية؟ أما كان الأولى لهم أن يصرفوها في تحسين أحوالهم؟ وقد رأيت بينهم أشخاصاً تدل هيئاتهم[102] على الشرّ ، فإنّ ملامحهم كانت تشبه ملامح سفّاكي الدماء وقاطعي الطرق ، ولا عجب ، فإن أمريكا يلجأ إليها كثير من أمثال هؤلاء الأشرار الذين يهربون من بلادهم فراراً من القصاص وهرباً من يد القانون . وقبل تحرّك قطارنا بخمس دقائق رأينا عالماً يتدفق كالسيل للركوب فيه ، فاستفهمت من خادم عربتنا عن سبب سفر هذه الجموع ، فأخبرني أن هذا القطار هو أسرع القُطُر التي تسير على هذا الخط ، فإن المسافة الشاسعة التي يقطعها في 32 ساعة تقطعها سائر القُطُر الأخرى في ثمان وأربعين ساعة . تحرّك بنا القطار قرب الظهر وأهم مدينة مررنا عليها ، قبل أن يرخي الظلام سدوله ، هي مدينة ساكرامنتو عاصمة كاليفورنيا .

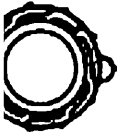
وفي صباح يوم السبت 15 يونيه كنا نخترق ولاية أوريجون Oregon وكان طريقنا بين الجبال ، وكنا بين وقت وآخر نمر بمضيق . وكان سيرنا بجانب نهر ساكرامنتو Sacramento فلم نُحرم من المناظر الطبيعية الجميلة ، أما الغابات فكان يظهر عليها

(102) هيئة الرجل أوملامحه لا يمكن أن تدل على الشر وسفك الدماء . ويبدو أن مظاهر الفقر هي التي أوحت للأمير بلك!

أنها مهملة لأننا لم نلمح فيها طريقاً منتظماً . وقد رأينا كثيراً من مناجم النحاس ، فإذاً هذه المقاطعة غنيّة بمعادنها . وقد رأينا أيضاً كثيراً من قطعان الحيوانات ترعى بجانب النهر ، وعلمنا أن عدداً عظيماً من المهاجرين يفد إلى هذه المقاطعة للإقامة بها ، ويُظن أنها مع الزمن ستصبح من أهم المقاطعات عمراناً .

وصلنا إلى مدينة سالم Salem وهي عاصمة ولاية أوريجون ، وهي مشهورة بكثرة معاملها . وفي منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر وصلنا إلى مدينة بورتلند ، وكان عدد الراحلين منها والوافدين إليها من السائحين كثيرا جداً فشعرنا بأنها إحدى المدن المهمّة . وبينما كنّا نبحث عن سيارة الفندق الذي سننزل فيه تقدّم إلينا شخص بادن الجسم ، فسألنا هل المستر (بيك) Bey بيننا (لقد حسب الأمريكيّون أنّ كلمة بيك اسم لي) فقلنا له : نعم . فذكر أنه يقصدنا ، فتعرّفت إليه باسمي المستعار الذي كنت أسيح مسمّى به ، فقال : إني حضرت بسيارة خصوصية لكم ، وإني أسف لوصولي إلى المحطة متأخّراً ، وكنت أودّ أن أنتظركم حتى لا تلاقوا أي تعب . فشكرته وركبنا السيارة ، فعرّفني بأنه مدير فندق مولتنومه Multnomah ، ثمّ أمر السائق أن يسير فرأينا أن الطريق مزيّن بالأعلام والزهور ، فسألته عن السبب فقال : «إن اليوم عيد الزهور وقدومكم مبارك» . ولما وصلنا الفندق صعد معنا إلى الغرف التي كان أعدّها لنا من قبل في الطابق الثاني فأعجبتنا . وبعد أن مكثنا بها قليلاً من الزمن نزلنا إلى ردهة الفندق العامّة فوجدناها قد مُلئت بالجالسين ، وعلمنا أن الدخول هنا مباح لعامّة الناس كفنادق نيويورك ، فأيّ شخص له أن يحضر ويجلس مع رفقائه وأصدقائه ولو لم يكونوا نازلين بالفندق . ثم رأينا في نهاية السلّم الموصل للطابق الأول رحبة تدور حول غرف هذا الطابق وتطل على الردهة العامّة ، وبها جملة كراسي الجالس عليها يرى الداخل والخارج من الفندق ، وأمام كل كرسي سمّاعة تلفونية توصل له أنغام موسيقى ملهى المدينة الشهير ، ويسمع منها أدوار الغناء ، وبجانب كل سمّاعة برنامج القطع الموسيقية وميعاد التلحين ، وهكذا يمكن لأي إنسان أن يحضر ويسمع كل ما يدور في هذا الملهى بدون دفع أجرة . وهذا ليس بالشيء الغريب فإنّ في باريس محلاً خاصّاً يدعى تياتروفون Theatrophone به مثل هذه السماعات التليفونية . أما إباحة الدخول للعامّة في هذا الفندق ، فالغرض منه جلب السائحين إليه بواسطة سكان المدينة الذين لا بدّ أن يصفوا لأصحابهم وأقاربهم محاسن هذا الفندق وما هو عليه من النظام ، ويرغّبوهم في النزول به عند حضورهم إلى مدينة

بورتلند . وقد تمّ لهم هذا الغرض لأن هذا الفندق - على حداثة عهده - قد نال شهرة عظيمة جعلته محط رحال السائحين .



معالم بورتلند

أوصينا على سيارة فأتت وكانت أجرتها ثلاثة دولارات ونصفاً في الساعة ، فركبناها وأخذنا معنا دليلاً ليرينا المدينة . وقد اغتنمنا فرصة صفاء الجوّ لرؤية كل ما تهمّ رؤيته ، لأننا كنّا سمعنا من قبل أن الأمطار قلمّا ينقطع انهمارها في هذه المدينة ، فذهبنا أولاً إلى الأحياء الجديدة ، ووجدنا منازلها مصنوعة صنعاً جميلاً من الأخشاب كلّها محاطة بالبساتين . ثم مشينا بجانب نهر ويللاميت Willamette River الذي يخترق المدينة ورأينا عليه أربعة جسور (كباري) وهم يشتغلون في إنشاء خامس . وقد تقدّمت المدينة تقدّماً بيّناً فإنها في سنة 1900 كان عدد سكانها لا يتجاوز 100,000 نسمة وقد أصبح اليوم يزيد عن 220,000 ولكنّ جلّ سكانها من الألمان وقد يوجد بينهم 3000 صيني . وسبب اتساعها أنها متّصلة بالبحر ، وهي ملتقى جملة خطوط حديدية ، والتجارة منتشرة فيها انتشاراً عظيماً ، خصوصاً تجارة الدقيق والأخشاب وما يصنع منها . أما معامل الجعة (البيرة) ومصانع الحبال فعددها عظيم ، وبينها وبين الصين واليابان مبادلات تجارية بطريق البحر ، وقد قُدّرت قيمة تجارتها العامّة السنويّة بمبلغ أربعين مليون دولار .

ذهبنا بعد ذلك لرؤية دار البلدية والغرفة التجارية ودار البريد العام والمحاكم ودار التمثيل (الأوبرا) وغيرها ، وكلّها أبنية شاهقة . وبعد ذلك قربنا من الميناء فوجدنا بها دارعة أمريكيّة اسمها ماريلاند Mariland مزيّنة بالأعلام المختلفة الألوان ، ويزورها جمٌّ غفيرٌ من أهل المدينة ، والسرور بادٍ على محيّاهم لما وصلت إليه بلادهم من القوّة والمنعة . وفي اشتراك الحكومة في إقامة معالم الزينة على إحدى مدرّعاتها ، والإذن لرعاياها بزيارتها ، دليلٌ قطعيٌ على شدّة حرصها على مراعاة شعور الأمّة ومشاركتها في أفراحها . وما جعلت زيارة هذه المدرّعة مباحة إلا لاستجلاب محبّتهم ولتقوية الرابطة بينها وبينهم ، ولتُظهر لهم أن الحكومة مجدّة في حفظ مكانتها بين الأمم . وهذه القطعة الحربية ما أُنشئت إلا بأموالهم للمدافعة عنهم ، ولصدّ كل عدوّ يريد التعدّي عليهم . فبمثل هذه الأمور تثق الأمّة بحكومتها ويتربّى الحب الصحيح مع الاحترام لها في قلوب رعاياها . كذلك بمثل هذه المظاهر يسهل على رجال الحكومة

جباية الأموال ، لأن الشعب يشعر بضرورتها وشدّة الحاجة إليها فيدفعها عن طيب نفس .

ذهبنا بعد ذلك لرؤية حيّ يسكنه الأغنياء ، ولكننا لم نرَ فيه عظمة المنازل التي رأيناها في (لوس أنجلوس) أو في (بسادينا) . وقد كنّا سمعنا أن مدينة بورتلند مشهورة بكثرة أنواع الورد فيها ، فأخذنا نبحث عن هذه الشهرة لعلّنا نتحقّق من صحّتِها ، فلم نجد لها أصلاً ، وما يوجد في بساتينها من الورد لا يقاس بما يوجد في جنوب كاليفورنيا ، فحملنا هذا أيضاً على مغالاة الأمريكيين . استمررنا في طريقنا إلى أن وصلنا إلى حديقة City Park ورأينا فيها مكاناً يشرف على منظر المدينة بمبانيها ونهرها والجبال التي تحيط بها . وقد خُيّل إلينا أن المدينة يسكنها مليون من النفوس ، وذلك لأن شوارعها المتّسعة ومنازلها المحفوفة بالبساتين جعلتها كبيرة وعظيمة الاتساع . دخلنا الحديقة فوجدناها حديقة عاديّة ولم نرَ فيها ما يستحق الذكر إلا مكاناً معدّاً للحيوانات به أربعة من الجاموس الوحشي ، فغادرناها مسرعين إلى الفندق . وبعد تناول العشاء صعدت إلى غرفتي لأستريح وتركت زميليّ يذهبان لرؤية عيد الكرنفال . وفي صباح يوم الأحد 16 يونيه سمعت منهما أن الزحام كان شديداً حتى إن القوي يأخذ في وجهه الضعيف ولا حاكم هناك إلا القوّة ، فكان النظام مختلاً والفوضى عامّة . وقد رأَيا كثيراً من الشبّان يحمل كل واحد منهم على كتفه فتاة تصيح إذا رأت أنها على وشك السقوط من مكانها المحبوب ، ومع ذلك لا يلتفت إليها ولا إلى استغاثتها فيا ويح من كانت في مثل حالتها . إني لتأخذني الشفقة على فتى يحمل غادة على كتفه في وسط هذه الجموع الذين لا يراعون حرج موقف أمثال هذا الفتى الذي ندم على زيادة تلطّفه وتقرّبه من الغادات الحسان . وأظنه إن سلم في ليلته هذه فلن يعود إلى ما فعل ، ولو كانت الآنسة أجمل النساء . أما مصطفى بك فإنه فقد نفسه في هذا السيل الجارف ، فاستغاث بزميله ، فانتشله بعد عناء كبير ، ورجع الاثنان راضيين من الغنيمة بالإياب .

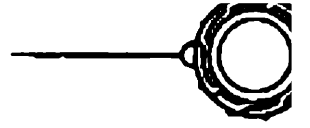
إن مثل ذلك يحصل عادة في أيام الأعياد في جميع أنحاء الدنيا ، فما بالك في بلاد الأمريكيين والحريّة فيها مطلقة لا حدّ لها ، وعدم المبالاة من عوائدهم . وقد شهد رفيقاي مع ما لقيا من الشدّة في هذا الزحام بأن ما رأياه من المعروضات يستحق الإعجاب ، فقد كانت العربات مزدانة بأنواع الزهور المختلفة الجميلة ، وقد صوّرت أنواع الطيور مجسّمة ، وكذا بعض الحيوانات كالفيل وغيره . وكل هذه الصور قد وضعت

على عربات وغُطّيت بالزهور والحشائش فلا يراها الإنسان ، وتلك العربات تسير على طريق الترام بقوّة الكهرباء ، مضاءة بأنوار متلألئة ساطعة ، فكان الإتقان بالغاً حدّه وحسن الذوق آخذاً نهايته .

خرجنا قبل الظهر راجلين للاستراضة ، ولما عدنا إلى الفندق وجدت رسالة من الأستاذ سان ساين Saint Sains ووجد خيري بك رسالة من أخيه علمنا منها بعض أخبار بلادنا العزيزة . وفي الساعة الثالثة بعد الظهر ركبنا سيارة وأمرنا سائقها أن يذهب بنا إلى الخلاء لنستنشق الهواء النقي ، فصادفنا في طريقنا جمعاً كبيراً يروّضون أنفسهم بالألعاب المختلفة . ولما خرجنا من المدينة ورأيتُ الطقس معتدلاً أمرت السائق أن يستمرّ في طريقه متّبعاً مجرى النهر بعد ما علمت منه أنه يمكننا أن نسير في هذا الطريق المنظم مسافة 8 أميال . وقد مررنا على بعض مصانع صغيرة يشتغل فيها بعض المحكوم عليهم بعقوبات خفيفة .

عدنا إلى الفندق مسرورين من رياضتنا نحو الساعة السادسة ، وفي صباح يوم الاثنين 17 يونيه أخذنا نعدُّ أمتعتنا استعداداً للرّحيل . وقد كان الحرُّ شديداً حتى عجبنا من بلوغه إلى تلك الدرجة من الشدّة في مثل هذه البلاد ، وقد سألنا بعض الأمريكيين عن حالة هذا الطقس ، فقالوا لنا إنه لم يروا مثل هذا اليوم المحرق . وفي الساعة 2 وربع صحبنا مدير الفندق إلى المحطّة ليودّعنا ، فأخذنا مكاننا في العربة ، ولكننا لم نطق شدّة الحرّ لضيق الغرفة المعدّة لي ، فأسرعنا إلى العربة المكشوفة Observation Car لندرك أماكن فيها قبل الازدحام . وقبل قيام القطار بعشر دقائق تقدّم إلينا شخص وسألنا باللغة الإنكليزية : هل بيننا الأمير محمد علي؟ فظننا أنه ربّما كان أحد مخبري الجرائد ، فأجبناه متنكرين حتى نتخلّص منه ، ففارقنا بعد أن أبدى لنا عظيم احترامه .

سار بنا القطار ولم تخفّ وطأة الحرارة ، فاضطررنا أن نذهب إلى غرفتي ليخلع كلّ منّا (الجاكته والصديري) كما يفعل الأمريكيون عند اشتداد الحرّ ، وفتحنا كلّ الشبابيك رغماً من كثرة الدّخان والقتام المتصاعد من سرعة سير القطار ، فلم يُجْدِنا فتح الشبابيك نفعاً . وقد وجدت باقة من الزهور مرسلة باسمي من أحد السوريين ، واسمه الخواجه عزيز عطيّه ، فأعجبنا هذا الذوق السليم وهذا التلطّف الجميل .



نحن نسير الآن في مقاطعة واشنجتون بين غابات كثيفة، والناظر إلى اليمين يرى على بعد جبل Rainier وعلى رأسه الثلج، ولم نصادف مدناً كبيرة تستحق الكلام عليها. وفي الساعة 7، ونحن في عربة الأكل وصلنا إلى بلدة تاكوما Tacoma وعدد سكانها 30,000 وبها غابة عظيمة(103) Foret vierge وهي شهيرة بمعامل الحديد على اختلافه ومصانع الأخشاب وغيرها، وتجارتها في الحبوب والأخشاب والفحم الحجري والشاي وغيره. وصلنا في الساعة 9 مساء إلى مدينة سياتل Seattle وقد رأينا بمحطتها خمس طرق حديديّة آتية من جهات مختلفة، فدلّنا ذلك على أنّها مدينة عظيمة، وقد أعجبنا بناء محطّتها الجديدة، وهي في نظري أجمل محطّة رأيتها إلى الآن، بعد محطتي شيكاغو ونيويورك.

ركبنا سيارة بعد أن أعطينا وثائق حقائبنا الكبيرة لأحد العمّال الذي تقدّم إلينا، وأخذ يقول: هنا يا سيدي نعتني كثيراً بإيصال الأمتعة لأربابها قبل مضي ساعة من الزمن، فكن مطمئناً، فسيصلك جميع متاعك وأنت في الفندق بعد زمن قليل جداً. فتركناه على هذا الشرط وأمرنا سائق سيارتنا أن يذهب بنا إلى فندق واشنجتون الجديد New Washington، ولما وصلنا إليه وجدناه فخماً ومنظّماً وقد حجز لنا جزء كبير من طابقه يزيد عن حاجتنا، فقبلناه حتى نخلع ملابسنا ونستريح من عناء السفر. ولكن طال انتظارنا متاعنا ولم يؤتَ به إلينا قبل منتصف الساعة الثانية عشرة، فلم أتمكّن من النوم إلا بعد نصف الليل لوجود الموسيقى التي تعزف عادة ليلاً بالقرب من غرفتي التي تطل على شارع يمرّ منه جملة ترامات، فأسمع ما يقلق راحتي من الداخل والخارج.

في صباح يوم الثلاثاء 18 يونيه كلّفت مصطفى بك أن يذهب إلى إدارة الفندق ليطلب تغيير هذه الغرف، فأجاب المدير إن هذه الغرف معدّة لرؤساء الجمهورية وليس عنده أعظم منها، وإن أجرتها في الليلة الواحدة ثمانية جنيهات. فاستكثرت هذه القيمة على مثل هذه الغرف وتمسكت بطلبي لأني لا أرى من الحكمة أن يضيع

---

(103) Foret Vierge: الغابة العذراء، البكر.

الإنسان ماله في غير موضعه ، لا سيّما أني لست روتشيلد[104] زماني ولا فاندربلت[105] أمريكا ، ثم انتهى الأمر بأن أدركنا ما طلبنا .

وبينما كنّا على مائدة الطعام وصلتني إشارة برقية من الخواجه عزيز عطية وأخيه يرحّبان فيها بوفادتي إلى هذه البلاد ، ويذكران أن السوريين الذين يقيمون في مدينة بورتلاند كانوا يودّون مقابلتي لإبداء ما في ضميرهم من الإخلاص والحب لي ولأسرتي ، فتذكّرت الشخص الذي تقدّم إلينا في المحطّة وسأل عني مع عظيم الأدب والاحترام ، فأسفت لأني لم أستفهم منه عمّا يطلبه لظني إذ ذاك أنه أحد مخبري الجرائد . ولو كان قد تكلّم معنا بلغتنا المحبوبة لما خفي علينا أمره ولما حرمنا من التمتع بثمار هذه المصادفة الجميلة ، فأرسلت إليه في الحال إشارة برقيّة أشكره على حسن عنايته ، وأتمنى له ولأهل وطنه ببورتلاند السعادة والرفاهية . وكلّفت خيري بك أن يكتب له خطاباً رقيقاً يُعبّر عن شعوري نحوهم ورجائي أن يوفّقهم الله دائماً إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم .

خرجنا بعد ذلك للاستراضة راجلين فوجدنا المدينة عامرة كثيرة السكان . والظاهر أنها كانت في سنة 1900 لا يسكنها أكثر من 70,000 نسمة ، والآن يزيدون عن 240,000 ، أما نظافتها فحدّث عنها ولا حرج ، وقد أعجبتنا أكثر من مدينة بورتلاند . وبعد ذلك ركبنا الترام للذهاب إلى شركة Pacific Coast Co. للاستعلام عن ميعاد قيام الباخرة التي ستذهب بنا إلى ألاسكا Alaska وللاتفاق معها على طريقة إرسال حقائبنا الكبيرة ، ولمعرفة حالة غرفنا التي أُعطيت لنا في هذه الباخرة ، وبعد أن أتممنا ذلك كلّه عدنا إلى الفندق ، وفي منتصف الساعة الرابعة بعد الظهر ركبنا سيارة وأخذنا معنا دليلاً مطبوعاً للسائحين يبيّن شوارع المدينة والأمكنة التي ينبغي زيارتها .

سارت بنا السيارة في طريق به منازل جديدة متقنة البناء ، وقد علمنا أنها بنيت مكان تل أزالته يد الإنسان بتسليط قوّة تأثير المياه المقذوفة من أفواه مضخّات هائلة عملت لذلك . وقد ابتدئ في بناء مكان هذا التل منذ خمس سنوات . المدينة

---

(104) 1812-1744 Rotschild (Mayer) من أثرياء اليهود لألمان ، وابنه (1836-1777) Nathan من أثرياء لندن .

(105) (1877-1794) Vanderbilt (Cornelius) من الصناعيين الأميركيين .

عظيمة وآخذة في الرقي بسرعة مدهشة ، فجدير بي أن أذكر للقارئ الأسباب التي رأيتها أدّت إلى هذه النتيجة السريعة . إن مدينة سياتل واقعة على شاطئ البحر في أحسن موقع طبيعي ، فهي على لسان داخل في البحر ، والداخل فيها يرى البحر عن يمينه ساكناً هادئاً لوجود جزائر كثيرة مزدانة بالأشجار المورقة ، فمنعت هذه الجزر تلاطم الأمواج ، وصارت حاجزاً قوياً يصدّ عنها تقلّبات البحر الهائلة ، فلا يرى الإنسان أثراً للأمواج المتلاطمة ، بل يرى وجه الماء كأنه بساط سندسي يضرب لونه إلى الزرقة ، لا يعكر صفاءه إلا سير البواخر المختلفة . ويُرى عن شماله بحيرتين عظيمتين ماؤهما عذب ، وفي وسطهما بعض جزر أخرى لا تقلُّ جمالاً عن الجزر التي في البحر . وهذه المدينة واقعة على حدود حكومة كندا ، وقد أنشأت حكومة الولايات المتحدة في إحدى الجزر القريبة منها جملة حصون وضعت فيها المدافع الضخمة لحمايتها عند اقتضاء الحال . والبواخر الذاهبة إلى تاكوما ، التي سبق الكلام عليها ، تمرّ أولاً على مدينة سياتل ، فهي إذاً محطة بحرية عظيمة . إن موقع هذه المدينة الذي يُسمّى Elliot Bay على مسافة 3 كيلو مترات من إحدى البحيرتين السابق الكلام عليهما ،واسمها بحيرة واشنجتون ، وطولها 30 كيلو متراً وعرضها يختلف من 3 إلى ثمانية كيلو مترات . فلاتساع هذه البحيرة يشتغل الأمريكيّون الآن في فتح قنال يوصلها إلى مدخل إليوت المذكور ، عرضه 300 قدم وعمقه كاف لمرور أكبر بارجة (دريدنوط)[106] حربية فمستقبل هذه المدينة عظيم جداً بالنسبة لموقعها التجاري والحربي ، ومن التهويل الذي سمعناه من الأمريكيين عن بحيرة واشنجتون المذكورة كما هي عادتهم في كل شيء أن عمقها مجهول إلى الآن ولا يعرف قرارها إلا الله ، فلم أُصدّق هذه الدعوى الباطلة لأن الإنسان أمكنه أن يعرف قرار أعمق نقطة في البحر وهي 9,000 متر ، فهل يتصوّر أن يعجز عن معرف عمق هذه البحيرة ، كلا ثم كلا ، وما ذلك على العلوم العصرية بعزيز .

هذا ويجدر بي ذكر سبب آخر وهو في نظري أهم الأسباب التي دعت إلى ارتقاء هذه المدينة ونموّ عمرانها : كشفت في جهات الاسكا مناجم كثيرة للذهب فأقبلت الشركات لاستخراج هذه الكنوز من بطون الأرض ، ولمّا كان العمل يحتاج إلى ألوف كثيرة من العمّال سهّلت الحكومة كل الأسباب لجلب هؤلاء العمّال ، ولكن في

---

(106) : Dread nought بارجة حربية .

جهات ألاسكا لا يمكن الإنسان أن يتحمّل شدّة البرد في فصل الشتاء . ولمّا كانت مدينة سياتل ليست شديدة البرد وهي قريبة من ألاسكا ، أقبل جميع العملة وأصحاب الشركات على السكنى فيها مدّة الشتاء . كذلك تكشيف المناجم في ألاسكا لم يقف عند حدّ ، فمن وقت إلى آخر يكشف منجم جديد يحتاج إلى عملة آخرين كثيرين ، فيضطرّون إلى الإقامة في سياتل في فصل الشتاء . فالزيادة إذاً مطردة ، ولا يخفى أن الأماكن التي تظهر فيها مناجم الذهب يكون الإقبال عليها عظيماً ، لأن كل إنسان مولع بالحصول على الثروة ، فالمهاجرون إلى هذه الجهات يزدادون طمعاً في العثور على هذه الكنوز المدفونة في باطن الأرض . ولا يفوت القارئ أن منازل أصحاب الشركات ومهندسيها ومديريها ورؤساء العملة وغيرهم لا يتركونها خالية في فصل الصيف ، فقد يفد إليها للإقامة بها جملة أسرات لقضاء فصل الصيف فيها ، فالحركة فيها مستمرّة صيفاً وشتاء .

حريق رهيب

نعود إلى ذكر ما رأيناه في المدينة أثناء رياضتنا بالسيارة : إنّنا كنّا نسير في طرقات منظّمة ولكنّها غير مستوية لأن المدينة مشيّدة على آكام وتلال ، وهذا ما يزيد جمالها . وقد لاحظنا أن طولها أكثر من عرضها ، أما منازلها فهي في الجملة متقنة البناء ، وقد سألنا سائق السيارة هل لهذه المدينة أحياء قديمة لنزورها . فذهب بنا إليها وهي بالرغم من قدمها لا تخلو مما يستحسنه الذوق . وأثناء سيرنا رأينا دخاناً متصاعداً إلى عنان السماء من جهة البحر فسألنا عن منشئه ، فأخبرنا أن النار شبّت في مخزن أخشاب كبير ، فأمرنا سائق العربة أن يقصد بنا مكانها لنقف على طريقة إطفاء الحرائق ، وهل عندهم من المضخّات والأدوات الواقية من شرّ الحريق ما يكفي لحصر النار في جهة واحدة وإخمادها بسرعة . فذهب بنا حتى قربنا منها ووقفنا على تلٍّ عالٍ نرى منه موضع الحريق ، فيا لها من ساعة رهيبة . إن ألسنة النار كانت تندلع مرتفعة ارتفاعاً هائلاً في متّسع عظيم لا يقل عن اتساع ثكنة قصر النيل . ومن الغريب أن بعض الأخشاب كانت طافية على سطح ماء البحيرة فلم يؤثّر ذلك في قوّة النار ، فماذا تفيد إذاً المضخّات وإن كثر عددها في مثل هذه الحالة . وقد اجتهدوا كثيراً في فصل جزء عظيم من الأخشاب العائمة على وجه الماء حتى لا يلحقها الشرر فتصبح رماداً . ولا تسل عن اجتهاد عمّال المضخات في إخماد النار ومساعدة

الألوف لهم ، ولكن اجتهادهم لم يكن مخففاً وطأة النار التي صارت قطعة من الجحيم . وقد كنّا نشعر بحرارتها من مكاننا البعيد ، فكيف يكون حال هؤلاء التعسين وهم على مقربة منها؟ . ولو كان هذا المخزن في وسط البلد لدمَّرها تدميرا وجعلها قاعاً صفصفاً ، ولكن المتّبع في أمريكا أن جميع مصانع الخشب ومخازنه لا يؤذن بوجوده داخل المدن ، بل يكون دائما على شواطئ البحار أو الأنهر بمبعد من المنازل . والظاهر أن سبب الحريق شرارة صغيرة خرجت من إحدى مداخن الآلة المتحركة التي تنشر قطع الخشب الكبيرة فعظم خطبها حتى حدثت هذه الخسارة الجسيمة .

أما الهواء فكان يزيد النار اشتعالاً ، ولكنّه كان يأتي من جهة البر فيلقي بها إلى جهة الماء . ولا تسل عن عدد الذين حضروا لمشاهدة النار وما عملت ، فإن السيارات والعربات كانت تحضر عشرات تحمل السيدات والرجال والأطفال . ولم نرَ أحداً من رجال الشرطة حضر للمحافظة على السكون . أما عدد المضخّات فكان لا يزيد عن ستة ورجالها قليلون .

بعد أن مكثنا زمناً أمرنا سائق سيارتنا أن يستمرَّ في طريقه لنتمم زيارة المدينة ، فمرَّ بنا على ثلاث حدائق مساحة إحداها 20 ميلاً ، والثانية سبعة أميال ، والثالثة أحد عشر ميلاً ، وكلّها حدائق ذات بهجة ، وهي على شاطئ البحيرة . وقد أخبرنا السائق أن هناك مشروعاً لاتصالها كلّها بعضها ببعض ، فتصبح مساحة حديقة المدينة 80 ميلاً تكتنف البحيرة من كل جهة .

مررنا أثناء سيرنا على القنال الذي يشتغلون الآن فيه ، وهم على وشك الفراغ منه ، وقد سبق الكلام عليه . أما طريقة حفره فهي أنهم يسلّطون المياه المندفعة بقوّة من المضخّات على الرمال والتراب فتزيلها بسرعة غريبة . وقد أعجبتني هذه الطريقة كثيراً .

وقد شاهدنا في الطريق مستشفى عظيم البناء أنفق على بنائه 1,500,000 دولار فأعجبنا موقعه وفخامته . وبعد ذلك ذهب بنا السائق إلى الرصيف الذي سنركب منه في الباخرة إلى ألاسكا ، فرأينا تلك الباخرة متوسّطة بين الصغيرة والكبيرة ، ثم أمرناه أن يعود بنا إلى الفندق . ونحن في الطريق رأينا مضخّات تعدو إلى جهة والناس يعدُون وراءها ، ورأينا عموداً قائماً على طرف رصيف الشارع له جناح أحمر اللون ومعلّق به جرس سمعنا له صلصلة ، وهذا ما يُنبئ عن حصول حريق . فذهبنا

نحن مع الذاهبين إلى مكانها ورأينا الدّخان يخرج من نافذة منزل ذي ست طبقات ، وقد وصلت ثلاث مضخّات وصارت تشتغل في إطفائها . ورأينا على سطح المنزل المذكور آلة صغيرة يديرها بعض الرجال وهي تغمر سطح المنزل بالماء حتى لا تؤثّر فيه النار ، ولكنّها لم تأتِ بما أُريدَ منها ، فإن مثل هذه الآلات قد تتلف في وقت اشتداد الحاجة إليها . وهذا ما يثبت أن الاحتياط ، ولو عظم ، لا يفيد شيئاً إذا قدّر الله أمراً فلا رادّ لقضائه .

بعد قليل من الزمن أُطفئت النيران وأخذنا طريقنا للعودة إلى فندقنا . وهناك وجدنا رسالة من مدير شركة الـ «كناديان باسفيك» يقول لنا فيها إنه حضر مراراً ليرانا والقدر لم يوفّقه إلى ذلك ، وهو مكلّف من قبل المستر ستورس (أحد مديري كوك) أن يتسلّم متاعنا ليرسله إلى (فانكوفر) Vancouver فكتبت له كلمة أشكره وأرجوه أن ينتظرنا صباح الغد بمكتبه .

بعد العشاء خرجنا قليلاً للرياضة ، فقرأنا إعلاناً على باب ملهى (تياترو) ترجمته :

«هنا سيقوم الليلة بألعاب بهلوانية مدهشة عدد عظيم من التونسيين فنحثّ الجميع أن يغتنموا هذه الفرصة لرؤية ما يشرح صدورهم ويعجبون منه» ، فدخلنا هذا الملهى فإذا نحن في ردهة عظيمة غاصّة بالمشاهدين . وكانت الموسيقى تشنف أسماعهم ، وبين وقت وآخر يُمثّل دور هزليّ مضحك إلى أن أتى ميعاد تمثيل التونسيين ، فلعبوا ألعاباً لا قيمة لها بالنسبة لما تضمنته الإعلانات المنتشرة في شوارع المدينة . ثم خرجنا من هذا المكان نحو الساعة الحادية عشرة للذهاب إلى الفندق للنوم والراحة .

إلى الاسكا

في الساعة التاسعة صباحاً من يوم الأربعاء 19 يونيه ذهبنا إلى مكتب مدير شركة الكناديان باسفيك المستر (بين) penn لنشكره على اهتمامه بنا ، ولنخبره أننا سنأخذ متاعنا معنا لأنه أصبح على وشك التلف لعدم اعتناء الحمّالين به ، إذ يلقونه بلا شفقة على الأرض غير ناظرين إلى مصالح أصحابه ، فوجدناه غائباً . وتقدّم إلينا مساعده فأخبرناه بما لزم ، ثم ذهبنا إلى الباخرة لنرى غرفنا فيها فأعجبتنا . واستفهمنا عن ميعاد إرسال الحقائب ، فقيل لنا في أيّ وقت نريده ، وبعد ذلك عدنا إلى الفندق

وكتبنا على كل حقيبة اسم صاحبها ونمرة الغرفة وأرسلناها إلى الباخرة . وفي الساعة الثامنة مساء أخذنا باقي الحقائب الصغيرة وذهبنا إلى الباخرة ، ونحن نظنّ أننا نجد كل شيء في مكانه من غرفنا ، ولكن خاب ظنّنا وصرنا نسأل من هذا وذاك من مستخدمي الباخرة لعلّنا نقف على مستقرّ أمتعتنا ، فلم نستطيع إلى ذلك سبيلا ، وكان جوابهم لا تستعجلوا فسيصلكم كل شيء عمّا قريب ، ولكننا لم نطمئن مخافة أن نفقد شيئاً ولا نعثر عليه قبل أن تسير بنا الباخرة . وبينما نحن نبحث تقدم إلينا مدير إدارة الباخرة وسألنا عمّا ننشد فأخبرناه به ، ثم أخذ تذاكر السفر وكلّف أحد المستخدمين بالبحث عن حقائبنا ، فحضر وقال إنها لم تسجل إلى الآن ، فأدهشنا ذلك التقصير من أصحاب الفندق وغشّهم السائحين ، فقد طلبوا 3 جنيهات لنقلها وتسجيلها ، وو RHG,H RHG,H RHG,HI قالوا لنا : إنكم عند ذهابكم ستجدون كل شيء في مكانه . ولكنّهم لم يوفوا بعهدهم ، فعملنا ما يلزم لتسجيلها ونقلها . ولمّا أردنا أن نتفقّد أمتعتنا وجدنا حقيبة مفقودة ، فأخذنا نبحث عنها ورئيس الخدم يأمر أحد الملاحين أن يساعدنا في التفتيش ، فلم يسمع له أمراً ، فتشاتما وكانا على وشك التضارب لولا لطف الله . ومن هنا تبين لي مقدار آداب القوم ووقوف كلٌ عند حدّه ، وقد خففت هذه الحالة ما ألمّ بي من الكدر لأني علمت أن الرؤساء عندهم لا احترام لهم ، فلا عجب إذا ساءت معاملتهم للسائحين .

قبل ارتحال الباخرة بعشر دقائق وجدنا الحقيبة ملقاة على الرصيف فنقلناها ، وبذلك انتهى فصل الحقائب . وبينما نحن على ظهر الباخرة تقدّم إليّ شخص بادن الجسم وقد خلع لحيته وشاربه ، فسألني هل أنا من رفقاء رستم بك ، فظننت أولا أنه أحد مخبري الجرائد ، ولكن لمّا رأيت أنه لم يبقَ من الوقت متّسع يستطيع فيه أن يتنسم منّا أخباراً تهمّه لقرب تحرّك الباخرة لم أرد أن أردّه خائباً ، فأبرز إليّ بطاقته ، فعلمت منها أنه المستر (دومان) MR. DUMANN المفتش العام لشركة البواخر التابعة إليها باخرتنا . ثم أخبرني أنه وصله رسالة من المستر (ستورس) بسان فرنسيسكو يوصيه أن يساعدنا في كل ما نحتاجه فصافحته ، وسررت لأني علمت أنه لابدّ أن يعتني بخدمتنا ما دام ملازمنا . وقد قال لي إنه يسافر عادة في أول باخرة تسير بالسائحين إلى جهات ألاسكا في فصل الصيف ، ليعلم مقدار راحة السائحين وخدمتهم العامّة في كل الجهات ، فحمدنا الله إذ قادنا حظّنا إلى الركوب في هذه الباخرة . وقد أخبرني أنه يعلم حقيقة اسمي ، ولذا أمر جميع الخدم بأن يسرعوا إلى

إجابة طلباتنا مع عظيم الاعتناء بسائر شؤوننا ، وقد حجز لنا في حجرة السفرة مكاناً خاصاً بنا واختار لخدمتنا غلاماً يعتقد فيه النباهة وكمال الأدب . ولصغر حجرة السفرة وكثرة السائحين يقدم الطعام مرتين ، وقد نصحنا ألا نأكل إلا في المرة الثانية فكانت مواعيد أكلنا هكذا : نفطر الساعة التاسعة صباحاً ، ونتغدّى الساعة 1 و30 دقيقة ، ونتعشّى الساعة 6 و30 دقيقة ، فقبلنا نصيحته ، ولو أن هذه المواعيد لا توافقنا .

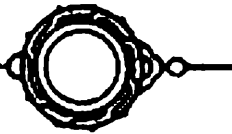
بعد قليل من الزمن سمعنا صفيراً من ربّان الباخرة ، وكان هذا الصفير إيذاناً بالسير ، فتحرّكت بنا الباخرة باسم الله ، وإذا بأمر آخر قد صدر لمدير حركتها بالوقوف . فبحثنا عن السبب ، فعلمنا أن سيدتين كانتا في الباخرة تشيعان صاحبة لهما ، فأخذهما الحديث ولم يشعرا إلا والباخرة تتحرّك ، فانتبهتا من غفلتهما وطلبتا من الربّان أن يرجعهما إلى الرصيف ففعل .

إن اسم الباخرة التي نحن على ظهرها الآن هو اسبوكين spokane وكان بجانبها باخرة أخرى اسمها سيتل seattle تشارك باخرتنا في تلك الرحلة ، وهي أيضا تابعة لشركة (الكناديان باسفيك) ، غير أن الأخيرة تتخذ في البحر طريقاً آخر غير طريقنا . ولمّا كنّا متعبين من كثرة ما تكبدناه في يومنا أسرعنا إلى غرفنا للنوم ، بعد أن فارقنا مدينة سياتيل التي كانت وقتئذ أنوارها ساطعة ، خصوصاً أنوار فندق واشنجتون الذي كنّا فيه .

أصبحنا في يوم الخميس 20 يونيه وما أتت الساعة السادسة صباحاً حتى كنّا على ظهر الباخرة ، ولما كانت رحلتنا هذه إلى جهات الاسكا فلا أرى بأساً من ترجمة بعض ما تضمّنه إعلان وزّعته الشركة على السائحين يشرح حالة هذه الجهات وتاريخها ليقف القارئ على طريقة من طرائق النشر في هذه البلاد وكثرة مغالاة الأمريكيين ، وهاهي الترجمة :

إن ألاسكا هي أقرب طريق يوصل إلى الشرق الأقصى ، وبين سياتيل وفلاديفوستوك 4,500 ميل ومساحتها 329,259,000 هكتار وجوّ ثلاثة أرباع هذه المساحة يقارب جوّ بلاد السويد والنرويج (suede et norveqe) وروسيا وطول شواطئها 26,000 ميل وقد اشترتها حكومة الولايات المتحدة من روسيا في سنة 1867 بمبلغ 7,200,000 دولا . وأوّل من كشفها ربّان روسي يدعى فيتوس بهرنج (vitus behrinq) فأنشأ فيها أول مدينة سنة 1784 وسمّاها سيتكا (sitka) وحيث إن القانون المتبع في

أوربا أن كل شخص أوربي يكشف أرضاً من بلاد المتوحشين[107] تكون هذه الأرض تابعة للحكومة التي يتبعها هذا المكشّف ، فبهذا القانون صارت ألاسكا ملكاً للروسيين . وقد كان الأمريكيون يعتقدون أن أراضي ألاسكا غير قابلة للسكن فيها لشدّة بردها وكثرة ثلوجها ، ولن تكون آهلة إلا ببعض من (الأيسكيمو) الذين يتحمّلون هذا الجو ، وكانوا يؤكّدون أن أرضها لا تنبت شيئاً مطلقاً ولا يُرجى منها فائدة . ولذا ، لمّا أرادت حكومة الولايات المتحدة شراءها من روسيا قام في وجهها المعارضون ، ومن بينهم نائب مدينة نيويورك فإنه عارض أشدّ المعارضة في مجلس النوّاب (البرلمان) قائلاً : إننا لا نريد شراء مستعمرات روسية غضب عليها المولى سبحانه وتعالى فسلّط عليها البرد القارس . وقام آخر عزّزه في أقواله مشيراً على أعضاء مجلس النوّاب (البرلمان) بشراء جرينلاند بدلها ، وثالث قال : إذا كنتم تريدون بشراء ألاسكا أن تخطبوا ودّ الروسيا فهبوها سبعة الملايين دولار واتركوها للروسيين ملكاً حلالاً لهم . ثم قام نائب آخر وقال : لا تسرفوا في أموالنا واصبروا قليلاً فستتركها الروسيا ووقتئذ خذوها وضمّوها إلى بلادكم ، أتتجاهلون أيها السادة؟ ألا تعلمون أن هذه الجهات هي منبع البراكين؟ إننا لا نريد شرّاً لأبناء وطننا . ولكن لحسن حظّ حكومة الولايات المتحدة تغلبت آراء المعضدين لمشروع الشراء على حزب المعارضين ، وتمّت الموافقة على دفع ثمن ألاسكا للروسيا وضمّها إلى أراضي الولايات المتحدة . فما ذا كانت النتيجة؟



مناجم الذهب

إن هذه الولاية الجديدة أصبحت أغنى ولايات الدنيا ، فإنه كشف فيها منجم للذهب يلزم لاستخراجه حتى ينفد 50,000 عامل يشتغلون فيه مدة 50 سنة ، ومثل هذا العدد وهذه السنين كذلك لمنجم الفحم ومنجم النحاس .

ولا أطيل عليك أيها القارئ في وصف كل ما قيل في هذا الإعلان الذي ترجمت لك منه بعضه وكفى أنه نشر به تصريح المستر فريدريك M. Frederick الذي قال : إن ألاسكا أغنى في الذهب من كاليفورنيا وأوستراليا وجنوب أفريقيا ،

(107)سكان البلاد الأصليون ليسوا متوحشين إلا في نظر المستعمرين ، وهذه ترجمة حرفية من نص الإعلان .

وفي الفحم من بنسيلفانيا Pensylvania وويلز Wales ، وفي الأراضي الصالحة لتربية الحيوانات من مقاطعات الكنزاس Kansas وأوكلاهوما Oklahoma وتيكساس Texas فقد جعلها إذاً أغنى من كل بقاع الدنيا ومن ضمنها أمريكا . وقد قيل في آخر الإعلان إنه قد استخرج من مناجم الذهب وحدها في ألاسكا من سنة 1885 إلى اليوم ما قيمته 200 مليون دولار ، وهذا غير دخل باقي المعادن الأخرى .

وبينما كنت أقرأ هذا الإعلان تقدم إليّ المستر دومان مفتش الشركة العام ، وبمناسبة هذا الإعلان أخبرني أن عدد المهاجرين إلى ألاسكا يوم أن كشف منجم الذهب كان عظيماً جداً ، حتى البواخر كانت كلّها مكتظّة بهم ، ولم يكن ما فيها من الأطعمة كافياً لجميعهم على حسب ما ينبغي ، فكانت جميع ردهات البواخر وبماشيها مملوءة بهؤلاء المسافرين ، الذين أثّرت فيهم الإعلانات الكثيرة التي انتشرت في جميع بلاد الدنيا قائلة : إن ألاسكا كلّها مناجم ذهب ، ومعلوم لهم أن كل من كشف مكان منجم تتساهل الحكومة في بيعه له بشروط خفيفة جداً ، فملأ الأمل قلوب هؤلاء المهاجرين ، وبينهم الأمريكيون أنفسهم . وكان الاعتقاد السائد أن كل من ينبش في أرض ألاسكا يعثر على منجم ، فلذا وفد الناس من كلّ فجٍّ عميق مسرعين إلى هذه الجهات طمعاً في الثروة مع ما يلاقونه من شدّة البرد وغلاء أسعار أسباب المعيشة ، فإن البيضة الواحدة قد اشتريت بدولار . ولمّا كان عدد القادمين على ألاسكا كثيراً جداً أقبل البقّالون عليها أيضاً ليبيعوا بضائعهم ، وفي الحقيقة هم الذين كان نصيبهم من الكسب أكثر ممن عداهم ، حتى من الذين كشفوا المناجم ، فإنهم كانوا يبيعون بضائعهم بأثمان عالية جداً ، فهم الذين جنوا جلّ الثمار التي أثمرتها أعمال هؤلاء المهاجرين المساكين ، فكأنهم ما زرعوا إلا ليحصد هؤلاء البقّالون . وقد علمت عن جوّ هذه الجهات أن شواطئها تصلح للسكن فيها ، ولكن لا يمكن لأي مخلوق أن يعيش في ما وراء جبالها أو داخلها .

هذا ومن العجيب أن أول من كشف أكبر منجم للذهب في ألاسكا لا يملك أكثر مما دخله 500 دولار ، وذلك لأنه لم يعرف قيمته وباعه بثمن بخس جداً . ومن نوادر حسن المصادفة أن ثلاثة صيّادين نرويجيين اشتدّت عليهم الأمطار ، وكانوا وقتئذ يصطادون في جهات ألاسكا بجوار نهر يدعى سيربانت serpent فالتجئوا إلى حفرة ليقوا أنفسهم من شرّ الصواعق ، وقد قرب الدم أن يجمد في أجسامهم من شدّة البرد ، فاقترح أحدهم على الآخرين أن يشتغلوا في الحفر في هذه الحفرة حتى يحركوا

أعضاءهم فيجري الدم في عروقهم حتى لا يموتوا شهداء البرد ، فشرعوا في هذه الحركة المباركة التي أوصلتهم إلى تكشيف منجم ذهب من أكبر المناجم ، وقد كانوا عقلاء فلم يبيعوه بل حفظوه لأنفسهم ، وبهذه المصادفة الجميلة انتظموا في سلك أكبر الأغنياء .

في منتصف الساعة الثامنة صباحاً وصلنا إلى مدينة فكتوريا عاصمة كولومبيا الإنكليزية British Colombia وهي واقعة على الشاطئ الجنوبي من جزيرة فانكوفير Vancouver ، وعدد سكانها 30,000 نسمة ، ويسكنها كثير من الصينيين . وقد شعرنا بمجرّد وصولنا إليها أننا خرجنا عن بلاد الولايات المتحدة ، لما رأيناه بها من السكون واتباع نظام الإنجليزية . وقد أنشئت هذه المدينة في سنة 1842 لتكون محطّة لشركة .Hudson Bay Co ، ولكنّها لم تطر شهرتها إلا في سنة 1858 حين ابتداء تكشيف مناجم الذهب . فنزلنا إلى الرصيف ، ولما مّا كانت المسافة منه إلى وسط المدينة تبلغ كيلو مترين ، أردنا أن نركب في الترام الذي يخترق شوارعها ، ولكن تقدّم إلينا حوذي ، وقال لنا : إن الترام لا يسير إلا كل نصف ساعة فإذا أردتم ذهبت بكم في عربتي إلى ما يلزم زيارته من المحال ، ولا أطلب منكم أجراً أكثر من أربع دولارات ، فقبلنا منه ذلك وذكرت له أني قرأت في دليل Baedeker أن هناك ميناء تدعى اسكيمالت Esquimalt بها قلاع وثكنات ، وهي محطّة عسكرية للبوارج الحربية الإنكليزية التابعة لأسطول المحيط الباسفيكي ، ونريد أن تذهب بنا إليها لنرى موقعها والبوارج الراسية في مياهها ، فطلب مني دولارين زيادة عمّا اتفقنا عليه بحجة أنها تبعد 5 أميال عن المدينة . ركبنا عربته وسار بنا قليلاً فلقينا سيارات ذات عدّاد (تاكسي) معدّة للإيجار ، فأسفنا لعدم استئجار واحدة منها حتى نتمكّن من رؤية كل ما تشتمل عليه هذه المدينة في زمن قليل . مشى بنا السائق بجانب شاطئ البحر إلى أن وصلنا إلى منتزه طبيعي لا يخلو من الجمال ، وقد رأينا في وسطه بحيرة صناعية بها كثير من أنواع الطيور ، ثم استمرّ في شارع عظيم إلى أن قربنا من منزل مبني على تلّ ، فقال لنا السائق إنه مسكن حاكم كولومبيا العام . وبعد ذلك وصلنا إلى مباني شاهقة ذكر لنا السائق أنها مركز الحكومة ، فأحدها مجلس النوّاب ، وثانيها دار الآثار ، وثالثها المكتبة العامّة ، ورابعها مركز المحافظة وأمامها تمثال السير جمس دوجلاس Sir James Douglas أول حاكم إنجليزي لهذه المستعمرة . وقد رأينا عمّالاً كثيرين يشتغلون في هذه الجهة لتنظيم شوارعها وإتقان أرصفتها ، وأظنّ أنها بعد تمام

العمل ستكون من أحسن وأجمل الجهات .

ذهبنا بعد ذلك إلى حيّ الصينيين وألقينا نظرة عامّة على مساكنهم وحوانيتهم ونديّهم فلم نرَ شيئاً يستحق الذكر ، ثم سار بنا السائق في شارع عظيم به كثير من المعامل ، فكان الدخان يتصاعد منها وينتشر علينا حتى إننا اضطررنا أن نضع على أنوفنا مناديلنا حتى لا نستنشق هذا الدخان . وقد رأينا مخازن خشب التهمتها النار فصيّرتها رماداً . وبعد ذلك أخذ طريقنا يصعب ، وكان العمّال يشتغلون في رصفه ، وقد قرأنا على هيئة سكان المدينة وما يبدو من حالهم أنهم ليسوا على جانب عظيم من الثروة كسكان الولايات المتحدة ، أما العمّال فأغلبهم صينيون . ثم وصلنا إلى ميناء إيسكيمالت فلم نجد في مياهها إلا بارجة واحدة قديمة ، أما قلاعها فلم نتمكّن من رؤيتها لأنها مستورة ، فأمرنا سائق عربتنا أن يعود بنا إلى المدينة ، وقد علمنا أننا اغتررنا بما قرأناه في الدليل . وقفنا أمام دكّان اشترينا منه بعض بطاقات البريد (كارت بوستال) ، ثم ذهبنا لزيارة المتحف Musee وقد دخلناه ونحن على يقين من أنه ليس فيه شيء يذكر ، لكن ظهر لنا أنه على صغره مملوء من مصنوعات الهنود ، وبعض أكواخهم القديمة ، وملابسهم الوطنية وعددهم الحربية . وقد رأينا بين ما فيه من الآثار (بُلَطاً) وفؤوساً من الخشب أو من الحجر ، ولو كان معنا عالم أثري لظنّ أنّها من ابتداء نشأة العالم . ولكن الحقيقة أن أولئك الهنود لجهلهم ولوحشيتهم[108] كانوا يستعملون هذه الآلات إلى أن كشف بلادهم الأوربيّون . فتاريخ استعمال هذه الآلات عند الهنود قريب العهد بالنسبة لتاريخ استعمال مثل هذه الآلات في أوربا لما كان الجهل مخيّماً على سكانها . دخلنا بعد ذلك قسم التاريخ الطبيعي ، فرأيناه حاوياً لكثير مّما يهم علماء هذا العلم النفيس ، ثم مررنا على غرف تحوي كثيراً من حيوانات وطيور هذه الجهة محنطّة وموضوعة في أماكن تلائم طبائعها ، وقد ألفت نظرنا طير صغير جداً Oiseau mouche أعرف أنه يوجد مثله في بلاد البرازيل الحارّة ، ولا أعلم كيف ينسب إلى طيور كولومبيا التي جوّها بارد مع أنه لا يمكنه أن يعيش إلا في البلاد الشديدة الحر ، سألت أحد مستخدمي هذا المكان هل في مكاتب المدينة كتب بها أشكال حيوانات كولومبيا وطيورها ، فأجابني يمكنك أن تقف على مطلوبك في مكتب الاستعلامات التابع للحكومة . ثم دلّني على طريقه ، فذهبت إليه

---

(108) هذه النظرة العنصرية من تأثير الفكر الاستعماري ، فالأمير أمضى شبابه في أوربا .

فوجدت فيه أربعة غلمان يشتغلون بترتيب الكتب ، فسألت أحدهم عن مطلوبي ، فقادني إلى شيخ بلغ من العمر عتيًا ، فقال لي ذلك الشيخ : إن الكتاب الذي تطلب قد نفدت نسخه والحكومة تشتغل الآن بإعادة طبعه . وأخيراً أعطاني بعض كراسات بها صور كثير من طيور كولمبيا وحيواناتها ، فاكتفيت بها وبعد ذلك عدنا إلى باخرتنا .

عبر آلاف الجزر

أقلعت بنا الباخرة في الساعة الثانية مساء متّجهة إلى الشمال ، وقد كان الجوّ مُكْفَهِراً والضباب منتشراً حتى ملأ الفضاء . ولكن مع هذا الظلام كنّا نشاهد ألوفاً من الجزائر الصغيرة بعضها بجانب بعض ، وكلها مكسوة بالأشجار العظيمة ومقفرة من السكان . وبعد أن سرنا هنيهة شاهدنا مناراً على صخرة قائمة في البحر . فللّه درّ الموكلين بحراسته ، وما أصبرهم على الإقامة في مكان موحش ، فإنهم منقطعون عن العالم .

إن رؤية هذه الجزائر الصغيرة شوّقتني لأن يكون لي سفينة ترتع في البحر متنقّلة بين الجزائر لأركب فيها ، ويصحبني من رفاقي المغرمون بجمال الطبيعة والصيد في البحار لقضاء وقت معهم في حياة بحريّة تملأ القلوب انشراحاً . وأظنّ أنّه لو تمّ لنا ذلك لا نسأم هذه المعيشة البحريّة ولا نعدم في خلالها صيداً من حيوان وطير .

إن البحر كان هادئاً وكأن الشمس اطلعت على ما في نفوسنا من أمنية التمتع بجمال هذه الجزر المتقاربة ، وإن هذه الأمنية لا تتم لنا إلا إذا بسطت أشعتها الذهبية على تلك الجزر ، فرفعت لنا حجب السحاب والضباب وأسفرت حتى بدت لنا مناظر تلك الجزائر البديعة ، فحمدنا الله إذ لم يحرمنا من تلك الأمنية . وبينما كنا نشاهد جمال الطبيعة سمعنا أن سيدة ستلقي على المسافرين محاضرة في شؤون (ألاسكا) ، فذهبنا لسماعها ، وإذا هي سيدة في منتصف العمر ، وقد أخذت تسرد تاريخ حياتها ، وتذكر أنها مضى عليها عشرون سنة لم تنقطع في خلالها سنة واحدة عن زيارة تلك الجهات لجمال مناظرها واعتدال هوائها ، وإن مثل هذه السياحة تجدّدُ في الإنسان النشاط وتكسبه صحة . ثم صارت تتكلم عن معيشة الهنود الأمريكيين وبعض عاداتهم وأنّهم إلى اليوم لم يحسن ظنّهم في الجنس الأبيض ، ولم يثقوا تمام الثقة بأنه يريد بهم خيراً ، ويعلّمهم ويرشدهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور . وقد دلتنا كثرة إطنابها على أنّها مأجورة من قبل الشركة لترغّب السائحين في العودة لزيارة هذه

الجهات ، ولتحثهم أن ينشروا في العالم هذه الفكرة التي تعود بلا شك على الشركة بالفائدة العظيمة . ثم أخذت تشرح برنامج اليوم الثاني من أيام السياحة وما سنراه من العجائب .

في صباح يوم الجمعة 21 يونيه قمنا مبكرين وخرجنا من غرفنا فوجدنا الجوّ رديئاً عابساً ، فلا يكاد الإنسان يرى شيئاً من كثرة الضباب . وقد كنّا إلى هذه الساعة نسير بين هذه الجزر ، وما أتت الساعة الحادية عشرة حتى خرجنا منها وأخذت الباخرة تسرع متغلغلة في عرض البحر ، فتغيّرت الحالة وشرعت السفينة تلعب كالريشة في مهبّ الرياح فالتجأ المسافرون إلى غرفهم طلباً للرّاحة ممّا أصابهم من آلام البحر ، ولم يستطع إلا القليل منهم تناول الطعام . ولكن هذه الحالة لم تدم كثيراً ، ففي الساعة الثالثة بعد الظهر دخلنا مرّة ثانية بين جزائر كثيرة ، فسكن البحر وخرج كل من مخبئه . وقد لاحظنا أن أغلب المسافرين بلغوا من العمر عتيّا ، وقد أخبرني المفتش العام للشركة أنه مضى عليه أكثر من عشر سنوات وهو يسافر في أول باخرة تذهب إلى ألاسكا ، وفي كل مرّة كان أكثر من ثلثي المسافرين لاسيّما السيدات يزيد عمرهم عن الخمسين سنة . فبحثنا عن السر في ذلك فاهتدينا إليه ، وهو أن هذه السياحة علمية أكثر منها خيالية ، فلاحظ فيها للفتيات والشبّان لأنهم لا يجدون فيها طلبتهم ولا ما يسرّهم من أنواع الملاهي كما في البلاد الكبيرة الشهيرة بالملذّات . وقد اجتمعت كل العجائز حولنا وصرن كلهنّ يتكلمن ويقهقهن بأعلى أصواتهن فهربنا من جوارهن حتى لا يصيبنا من جرّاء لغطهن وجلبتهن صداع في رؤوسنا . ولقد عجبت من أمرهن ، ولم أدرِ كيف يفهم بعضهن من بعض من خلال تلك الأصوات المختلطة . وهنّ في الحقيقة أكثر المسافرين راحة إذ يجلسن حيث يشأن ، ويفسح لهنّ المجال في ذلك من هم دونهن سنّاً .

في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم السبت 22 يونيه سمعنا الصفير ثلاث مرات ، وفي ذلك إشارة إلى أننا دخلنا في مياه ألاسكا التابعة للولايات المتحدة ، وتبع ذلك الصفير أن صاحت جموع الأمريكيين صياحَ السرور : Hourras ، وهم يطلبون السعادة والرقيّ لوطنهم العزيز ، فأعجبني هذا الشعور الصادر من القلوب المخلصة لبلادها ، فإنّ هذا الحب الصحيح تجلّى على وجوههم فنطقت به .

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر قربنا من صخرة بارزة في البحر ، وصرنا نسمع من الحاضرين ما يدلُّ على عظيم إعجابهم بها ، ولكنّها لم تؤثر في نفوسنا تأثيراً يذكر

كما أثّرت في نفوسهم . وفي الساعة الرابعة دخلت بنا السفينة في مضيق يُسمى Rudyerd Fiord وهو جميل جداً . وفي بعض الأوقات كنّا نمرُّ بين شاطئين قريبين جداً منّا ، فنرى الأرض مكسوّة بالأشجار ، ولكن رداءة الجوّ حرمتنا من التمتع بجمال هذه المناظر ، فتقدّم إلي مفتش الشركة العام ، وقال إنه سيأمر ربّان الباخرة بالذهاب إلى مضيق آخر أجمل من هذا ، لم تذهب إليه سفينة من قبل ، لتتمتعوا برؤية جماله لأنكم حرمتم من التمتع بجمال هذا المضيق لرداءة الجوّ . فشكرته على تلطفه وحسن عنايته بنا ، ثم سارت الباخرة بنا لتكشيف هذا المضيق ، ولحسن حظّنا أخذت الغزالة[109] تجود علينا بأنوارها الساطعة . ودخلنا المضيق والباخرة تسير بنا سيراً بطيئاً ، ونحن نعجب من المناظر التي حولنا . وبينما نحن نتمتع برؤية هذا الجمال وقفت بنا الباخرة ، فسألت عن السبب ، فقال لي أحد المسافرين : إن المفتش العام ينزل الآن ومعه فتاة محرّرة في مجلة تصويرية لرسم صورة الباخرة ومن عليها من السائحين ، وبعض مناظر هذه الجهة . واستطرد في كلامه قائلاً : إنه أحسن إلينا كثيراً ، فزيارة هذا المضيق منةٌ له علينا تستوجب شكره . ولكنّه لم يضع الفرصة السانحة له ولم يخرج من عمله بدون فائدة تعود عليه ، فإنه سينشر في المجلات العلمية وغيرها خبر دخول باخرته في المضيق الجميل ، وتنقل هذه المجلات تلك الصور التي رسمها وتطنب في مدحها ، فتزداد رغبة الأمريكيين وغيرهم في مشاهدة هذه الجهات . وهذه يا سيدي حالة الأمريكيين في جميع أعمالهم ، لا يعطون بدون مقابل .

عادت الباخرة إلى السير بعد أن انتهى المفتش العام من التصوير ، ونحن دخلنا في ردهة الباخرة ، وإذا بسيدة تصيح بأعلى صوتها بين الحاضرين : إني أقترح عليكم جميعاً أن تصيحوا معي في الساعة التاسعة مساء ثلاث مرات ، فليعش ربّان الباخرة ، وليعش المفتش العام للشركة ، مكافأة لهما على ما صنعاه معنا اليوم من الجميل الحسن . ولكنّا لم ننتظر هذه الساعة ، بل ذهبنا إلى غرفنا للنوم والراحة .

في كيتشيكان

قمت نحو الساعة الثالثة من صباح يوم الأحد 23 يونيه فلم أشعر بسير الباخرة

(109) الغزالة : الشمس .

فعلمت أننا وصلنا إلى بلدة كيتشيكان Ketchikan ، ولكنّي لم أخرج من غرفتي . وفي منتصف الساعة الثامنة أخذت شيئاً من الطعام ، ثم نزلنا إلى الرصيف لزيارة هذه البلدة .

إن هذه البلدة يبلغ عدد سكانها 500 نسمة ، وثلثهم من الصينيين واليابانيين ، وأغلبهم صيّادون ، وبعضهم يتجر في فراء الدب وغيره ، وهي قذرة جداً ورائحة السمك منتشرة في هوائها . أما شوارعها فقد غُطيت بألواح من الخشب لرطوبة أرضها ، ومنازلها صغيرة وحقيرة . وقد دخلنا بعض حوانيتها فلم نرَ فيها شيئاً يذكر . وقد رأينا قرب أحياء الهنود أعمدة من الخشب قائمة ، وقد نُقش عليها رسوم غريبة ، وعلى رأس بعضها صورة نوع من الطير ، وبعضها على رأسه صورة نوع من السمك أو الضفدع ، وكلّها ملوّنة بألوان غير متقنة . وبالجملة ، صنعتها تدلُّ على انحطاط مدارك أصحابها وبعدهم عن الحضارة . ذهبنا بعد ذلك لرؤية جندل ، فمشينا بجانب مجرى ماء كان يخترق أراضي زراعية خصبة إلى أن وصلنا إلى سلّم من خشب ، فصعدنا في . ، ولكن لابدَّ ، دون الوصول إلى أعلى مكان يرى الإنسان منه هذا الجندل ، أن نعبر جسراً (كوبري) من خشب وهو مكوّن من لوحين متجاورين بدون حاجز يقي المارّين شرَّ السقوط ، فلم يخاطر زميلنا مصطفى بك بحياته فيمشي عليه . وقد قابلنا أحد سكان هذه البلدة ، وقال لنا : لا تتعبوا أنفسكم ولا تتجاوزوا مكانكم ، فليس هناك شيء يستحق هذه المخاطرة . وقد أخبرنا أن هذا الجسر يمتدُّ إلى مسافة ربع ساعة ، وينتهي بغابة لا طريق فيها صالحا يوصلكم إلى نهاية مرغوبكم . وقد كنت أودُّ أن أذهب إلى البحيرة التي تتكوّن من ماء هذا الجندل لأن السيدة التي كانت تخطب كل يوم في الباخرة وتصف عجائب ما سنراه في اليوم التالي كانت أخبرتنا بأن مقداراً عظيماً من سمك (البقلاه) في هذه البحيرة ، حتى إنه يتيسر لكل من أراد أن يصطاد منه بيديه بدون شرك . وقد كنت واثقاً بأن كلامها لا أصل له ، ولكنّي كنت أريد أن أرى بنفسي هذه البحيرة حتى أحكي عمّا شاهدته عياناً لمن يغرهم هذا الكلام الباطل . هذا ، وقد كانت أطلقت للسانها عنانه ، وصارت تشرح للحاضرين بعض تاريخ حياة هذا السمك ، وسأذكر هنا للقرّاء ملخص ما قالت على سبيل الفكاهة .

هذه الباحثة قالت إن هذا النوع من السمك بعد أن يكبر في هذه البحيرة يتبع مجرى الماء وينحدر إلى الأسفل ، ولكنّه قبل أن يموت بأربع سنوات يعود إلى المكان

لذي خلق فيه ، فيتكبَّد مشاق الصعود بين تسلق صخور ومرور بين جذور أشجار تأكل من جسمه ، وقد رُؤي بعضها ممزق الجسم ، وبعضها فاقد البصر ، ولكنّه لا يرجع عن العودة إلى مكان نشأته حبّاً لوطنه الأصلي . فهل هذا الكلام يتصوره العقل؟ كلا ثم كلا[110] ، ومع ذلك فقد كانت محاضرتها تسرُّ السيدات مهما بلغن من التعلم ، فإنّهن سريعات التأثر ، تتلاعب بعقولهن الأوهام ، فيصدقن كثيراً من الأباطيل التي قلّما يتأثر بها الرجل المتعلم فيصدقها ، ولذا لم أرَ واحدة من اللاتي سمعن هذه المحاضرة إلا وهي مصدقة لأقوال هذه الباحثة في أخلاق السمك . كيف يمكن تصديق هذه الخرافة والإنسان يعاني ما يعاني للوصول إلى هذه البحيرة ، فهل يعقل أن السمك يصعد إلى قمة صخرة يزيد ارتفاعها عن عشرة أمتار ويقاوم تيّار المياه المتدفقة بسرعة هائلة؟

عدنا بعد ذلك إلى داخل البلدة ووقفنا أمام مطعم صيني وآخر ياباني ، وقرأنا اللوحتين المعلّقتين أمام بابيهما ، وقد كتب عليهما باللغتين الإنجليزية والصينية أو اليابانية ، وقد رأينا بين الأطعمة لحم الكلب وعيون السمك ، وأظن أن هذين المطعمين مشهوران بإتقان هذين الصنفين . ذهبنا بعد ذلك إلى معمل حفظ السمك الشهير ، فقطعنا الطريق الموصل إليه في 45 دقيقة على الأقدام ، وقد شممنا رائحة السمك على بعد عظيم منه ، وقد رأينا أمامه عدداً كبيراً من الصناديق التي يوضع فيها السمك ويصدّر إلى الجهات البعيدة . والدخول في هذا المعمل مباح لعامّة الناس ، فابتدأنا برؤية المكان الذي يرد إليه السمك أوّلاً ، ثم يفرز ويوضع كل نوع على حدة . وبعد ذلك انتقلنا إلى الغرفة المثلجة التي يحفظ فيها السمك ، ويؤخذ منها ويقدّم إلى الآلة التي تقطع رأسه وذنبه وتفتح بطنه وتغسله وتنظفه ، ثم ترتبه وتضعه في الصناديق ، وتغلقها عليه فتسدّ سدّاً محكماً بالمسامير كل هذا يحصل بقوّة البخار وبسرعة عظيمة ، وقد سمعنا أن النوع الجيد من السمك المحفوظ يصدّر إلى نيويورك وشيكاغو ، والفاسد منه يرسل إلى الصين ، ولم يمكنا أن نقف كثيراً في هذه الغرفة المثلّجة لشدّة بردها ، فخرجنا مسرعين وعدنا إلى الباخرة .

أقلعت بنا الباخرة من كيتشيكان Ketchikan في نحو الساعة الحادية عشرة ،

---

(110) هجرة بعض الأسماك إلى موطنها الأصلي حقيقة علمية صارت معروفة وليست من الأوهام والأباطيل .

ومن ذلك الوقت إلى أن صارت الساعة 4 و50 دقيقة لم نرَ منظراً يستحق الإعجاب . ولكن بعد ذلك أخذنا نسير في مضيق لا يزيد اتساعه عن اتساع نيل مصر عند قصر النيل . وقد كانت الباخرة تسير بين علامات طافية على وجه الماء حتى لا يتعطّل سيرها ، وقد مررنا على معمل سمك على شاطئ هذا القنال الطبيعي يُسمّى معمل سان بطرسبرج ، فأردت أن أصوّره لجماله ولحسن موقعه فلم أتمكن من ذلك ، وعزمت على رسمه عند العودة إن شاء الله . إن ماء البحر في هذا المضيق كان ساكناً صافياً حتى كنّا نرى كلّ شيء في مقرّه كأنه مرسوم على سطح الماء ، وقد قطعناه في ساعتين ونصف . وبعد ذلك أخذنا نقترب من أمكنة الثلوج التي كانت تنفصل منها قطع وتعوم على وجه الماء ، وكنّا نشاهدها وتمسّها باخرتنا ، وفي الساعة التاسعة مساء افترقنا للنوم ، ولكن من أين يأتينا ذلك والشمس لا تغرب قبل نصف الليل .

رست الباخرة قبل الساعة السادسة صباحاً من يوم الاثنين 24 يونيه في مكان الثلوج الذي يُسمّى تاكو جلاسيه Taku Glacier فأسرعنا بارتداء ملابسنا . ولّما خرجنا من غرفنا وجدنا الباخرة محاطة بقطع كبيرة من الثلوج ، بعضها أبيض ناصع وبعضها الآخر أبيض مائل إلى الزرقة ، فخيّل إلينا أننا في القطب الشمالي لأننا حيث نوجّه نظرنا لا نرى إلا ثلجاً . وقد كنا نسمع بين وقت وآخر صوتاً يشبه قصف الرعد ، وكان ذلك ناشئاً من انفصال الثلوج وسقوطها في البحر . ولا تسل عن مناظر أمكنة الثلوج فإنها رائعة جميلة ، وتلك الأمكنة متّسعة الأرجاء لا يبلغ البصر مداها . ومن العجيب أنها أيضاً مختلفة الألوان والأشكال ، فجزء منها مستو لون بعضه أبيض ناصع والبعض الآخر أزرق ، وجزء آخر به تلال من الثلج رؤوسها بيضاء وقواعدها زرقاء ، وآخر أزرق الرأس أبيض القاعدة .

فتصوّر أيها القارئ سكون البحر وصفاء مائه الذي يتخلّله قطع لا تعدّ من الثلوج بألوانها المختلفة حول باخرتك ، وعلى مسافة منك أمكنة الثلوج الهائلة على أوصافها السابقة ، فهل يمكن أن ترى منظراً أبدع من ذلك؟



في منجم الذهب

في نحو الساعة 9 والدقيقة 15 قامت بنا الباخرة تقصد تريدويل Treadwell فوصلنا إليها في الساعة 11 والدقيقة 15 . ولما أردنا النزول من الباخرة تقدّم إليّ المستر دومان مفتش الشركة ، وقال لي : لا تصحبوا الدليل كباقي السائحين ، فإن أردتم

أصحبكم لأريكم ما يهمكم رؤيته مّا في هذه البلدة . فقبلنا منه ذلك مع الشكر ، ونزلنا معه فذهب بنا أوّلاً إلى مخزن تجارة به كل أنواع المأكولات المحفوظة في الصناديق ، وأنواع الحلوى ، وكثير من ملابس الرجال والسيّدات ؛ وبالجملة ، به جميع الحاجات الضرورية للإنسان . وهذا المخزن يبيع للعمال الذين يشتغلون في مناجم الذهب التي بتريدويل . وبعد ذلك استأذن منّا في مقابلة مدير أهم منجم في هذه البلدة ، ليأذن لنا بالدخول فيه لنرى كيف يستخرج الذهب من بطون الأرض . وبعد قليل من الزمن عاد إلينا ومعه أحد مستخدمي هذا المنجم ، وذهبنا كلّنا أوّلاً لزيارة مساكن العمّال فإذا هي بالغة غاية النظافة وحسن الترتيب ، ثم دخلنا في المطعم وهو عبارة عن غرفة واسعة بها عدد عظيم من الموائد عليها الأطباق وكل ما يلزم لتناول الطعام ، فأعجبنا عظيم الاعتناء بها ، وقد وضع في أركانها بعض شجيرات خضراء لتزدان بها . وقد وجدنا في أحد أركان هذه الغرفة ثلاثة قدور (صمويرات)(111) إحداها للقهوة ، والأخرى للماء المسخن ، والثالثة للشاي . دخلنا بعد ذلك إلى المطبخ فوجدناه لا يقلُّ نظافة عن غرفة الطعام . وبالجملة قد روعي في كل ما زرناه جميع أسباب الراحة ، ولم أرَ نقصاً في جميع نظام هذا البناء العظيم الذي يسع الألوف من العمّال ، وعند خروجنا منه وجدنا أمامه كل ما يستعمل عادة في إطفاء الحريق على أحدث طراز ، وقد حكى لنا عامل المنجم الذي معنا أنه في كل شهر تجري مسابقة بين طوائف العمّال الموكلين بإدارة المضخات وتركيب خراطيم المياه وغيرها ، وعدد كل طائفة ثلاثة عمّال والذين يحوزون قصب السبق ينالون مكافأة قدرها 50 دولاراً ، وقد خصّصت الشركة هذه القيمة الكبيرة لتنشّط العمال ولتأمن على عمارتها العظيمة من شرّ الحريق . أما هؤلاء العمال فإنهم خليط من اليابانيين والنمسويين والروسيين ، ورؤساؤهم أمريكيّون . ذهبنا بعد ذلك إلى بناء أصغر من الأول ولا يبعد عنه إلا بعض أمتار ، وإذا هو ناد يشتمل على غرفة للمطالعة بها مكتبة حاوية جملة مجلّدات وجرائد أمريكا ومجلّاتها ، ثم غرفة أخرى بها ملاعب مختلفة كالبليياردو وغيره . وقد علمنا أن من أراد من العمّال أن يكون عضواً في هذا النادي ، فعليه أن يدفع كل شهر دولاراً ونصفاً . ذهبنا بعد ذلك إلى الحمّامات فوجدناها نظيفة جداً ، وقد رأينا فيها حوضاً كبيراً وضع عليه بعض ألواح

---

(111) معروف اليوم باسم «سماور» : Samovar ، وأصل الكلمة روسي .

ليلقي العامل نفسه من فوقها إلى وسط هذا الحوض ويسبح في مائه . ووجدنا أيضاً بعض الآلات المستعملة للرياضة البدنيّة ، وقد اعتني بتنظيم هذه الحمّامات فإنها لا ينقصها الحمّامات البخارية ، ولا أنواع الدش ، وقد يأتي إليها كثير من سكان هذه البلدة وبلدة جونو Juneau القريبة من هنا فيدخلونها بأجرة يدفعونها . خرجنا من هذا النادي فوجدنا أمامه رحبة عظيمة معدّة لكثير من الألعاب الرياضية كالتنس وغيره .

ثم ذهبنا بعد ذلك لنرى كيف يستخرج الذهب من بطون الأرض ، فوقع نظرنا على بناء كبير كقطعة من جبل يدلُّ شكلُه الخارجي على أنه مقسّم إلى جملة أقسام ، فإن سطوحه بعضها مستطيل ومرتفع ، وبعضها الآخر مربّع ومنخفض ، أما عدد المداخن فكثير جداً والدخان المتصاعد منها يدلُّ على أن الوقود الذي يُحرق في هذه المعامل كثير جداً . وقد رأينا أبوابها متّسعة وتمرُّ منها خطوط حديدية تمشي عليها عربات نقل الأتربة التي يُستخرج منها الذهب ، وتجرُّ هذه العربات قاطرة صغيرة ولكنّها كافية لتسير بسرعة عظيمة . فألقينا أولاً نظرة عامّة على هذا النوع من التراب ، فإذا هو عبارة عن خليط من الرمال وبعض قطع من الحجارة التي يشبه لونها لون ما يُصنع منه القلل المصرية (القناوي) ولا يمكن للإنسان أن يرى في خلالها أثرا للذهب ، فاستغربنا من ذلك لأن بعض الناس يعتقد أن الذهب يخرج من بطون الأرض سبائك أو تبراً ناعماً ، إلا أنّه يكون مختلطاً ببعض معادن أخرى تفصل عنه بمواد كيماوية أو بصهره في تنانير مرتفعة الحرارة إلى درجة معلومة ، فرؤيتنا هذا التراب أبعدت عنّا هذه الفكرة . دخلنا بعد ذلك في هذا المنجم ، وإذا نحن في ردهة عظيمة الاتساع تدخل فيها هذه العربات الصغيرة وتفرّغ الأتربة والحجارة الصغيرة في هواون مصفوفة بعضها بجانب بعض على خط مستقيم ، وفوقها عمود يسقط فيها ويتحرك بسرعة مدهشة ، فيجعل هذه الأتربة والحجارة كالدّقيق . وقد اعترتنا الدهشة من كثرة الضوضاء ، فإن الإنسان إذا صاح بأعلى صوته لا يمكن أن يسمعه أيّ شخص ولو كان قريباً منه ، فشعرت بحالة هؤلاء العمّال التعسة ، ولابدّ أنّهم يخرجون بعد انتهاء أشغالهم وهم لا يسمعون ولا يعون . ففضّلت حالة زرعنا في أراضي مصر الخصبة عن حالة هؤلاء المساكين . وحمدت الله كثيراً إذ مَنَّ علينا بما يغنينا عن هذه المعيشة الشاقّة . رأينا تحت كلّ هاون منضدة (طبلية) مستطيلة تهتزُّ من الخلف إلى الأمام بسرعة بطيئة ، فيسقط عليها التراب الناعم وتدفعه مياه مسلّطة عليها ، فيسقط على منضدة أخرى مستطيلة مصقولة صقلاً تاماً ، ومغطّاة بلوح من الفضّة ناعم جداً ،

فالماء يدفع ما على المنضدة الأولى من التراب فيسقط على الثانية ، ويدفعه أيضاً إلى مجرى ماء شديد يدفعه إلى الخارج ، وبهذه الطريقة يرسب على المنضدة الثانية طبقة رقيقة جدًا من معدن الذهب والفضّة وغيرهما . وقد أحصينا عدد المناضد المكسوّة بالألواح الفضيّة فإذا هي ثلاثون . وعند ما ترى العمّال أن هذه الطبقة كست اللوح يمنعون سقوط الماء عنه ويجففونه ، ثم يكشطون هذه الطبقة بسكين حاد ويجمعونها في بودقة[112] ، وقد بحثنا فيها فلم نجد للذهب والفضّة أثراً . وبعد ذلك يضيفون إلى هذا التراب المستخرج أخيراً جزءاً من الرصاص وأجزاء كيميائية ، ويضعونها في تنور درجة حرارته معلومة عندهم مدة 45 دقيقة ، فيمتزج الرصاص مع الذهب والفضّة ، ويسقط في قاع البودقة ، فتتكوّن طبقة تشبه الزجاج فوق هذا المزيج منفصلة عنه ، فتلقى هذه الطبقة ، ويوضع مزيج الذهب والفضّة والرصاص الذي يبلغ زنة ما يكون منه في بودقة واحدة من 20 إلى 30 جراماً في بودقة أخرى من السمينتو ، ويضاف إليه مواد كيميائية أخرى ، ثم يوضع ذلك في تنّور شديد الحرارة ، فيتبخّر ثلث الرصاص والباقي منه ينفصل عن الذهب والفضّة ، ثمّ يفصلون الذهب من الفضّة أيضاً . وبعد ذلك يسلم الذهب المستخرج إلى عامل يزنه بميزان دقيق جدّاً مغطّى بالزّجاج ، ثم يُنقل بعد وزنه إلى خزانة حديدية لحفظه . وقد رأينا هذا الذهب المستخرج ، فإذا هو قشور رقيقة جدّاً كالورق الذي يُذَهّب به بعض أثاث المنازل . أما العمال الموكلون بوزن الذهب فإنهم ممّن تثق الشركة بأمانتهم ، وقد تبلغ وظيفة أحدهم في الشهر من 150 إلى 200 دولار لأمانته ودقّة عمله . وهؤلاء العمال يكتبون في دفاتر خاصّة بهم مقدار الذهب المستنتج من كل بودقة . وقد انتهزتُ هذه الفرصة لأقف على قيمة ما يُستخرج كل سنة من الذهب من هذا المنجم ، فقيل لي إن كل طن من الأتربة والحجارة يُستخرج منه ذهب قيمة ثلاثة دولارات . وقد توجد مناجم أخرى يستخرج من الطن الواحد من أتربتها أكثر من مائة دولار ، ولكن هنا السرعة العظيمة في العمل هي التي تجعل الشركة تربح ، فإن دخلها من منجمها في كل سنة يبلغ مليون جنيه ، وقد ابتدئ في استخراج الذهب من هذا المنجم من مدة 25 سنة ، ويُنتظر أن يستمر العمل فيه أكثر من هذه المدّة . ذهبنا بعد ذلك لرؤية الآلة المحرّكة لهذه الآلات (الماكينات) فإذا هي قويّة جدّاً ، ثم ذهبنا إلى المصعد الذي يهبط إلى

---

(112) البودقة و البوتقة بمعنى واحد : الوعاء ، وأصل الكلمة فارسي .

بطن الأرض فيحمل العربة مملوءة بالأتربة إلى سطحها ، وقد علمنا أن هذه الأتربة تستخرج الآن من عمق 1000 قدم ، وهناك مصاعد أخرى مثل هذا تشتغل في النقل . وقد علمنا أن كل حفرة تحت الأرض تزيد مساحتها عن 120 متراً مربّعاً وكلّها مضاءة بالأنوار الكهربائية التي تولّدها آلة كبيرة جداً تكفي لإضاءة هذا المنجم المتّسع ، وجميع منازل البلدة . أما عدد العمّال فيبلغ 3000 رجل وصحتهم جميعاً جيدة .

خرجنا من هذا المنجم بعد أن شكرنا مندوب شركة المنجم الذي رافقنا في هذه الزيارة المفيدة ، ولكنّا مدينون بكثير من الشكر للمستر دومان الذي سعى حتى حصل على إذن لنا بالدخول في هذا المنجم ، لأنه لولا مساعدته لما أمكننا أن نرى هذا المنجم الذي لا يؤذن بالدخول فيه لغير عمّال الشركة .



عاصمة الاسكا وأخواتها

عدنا بعد ذلك إلى باخرتنا ، وفي الساعة الثانية بعد الظهر أقلعت بنا إلى مدينة جونو Juneau عاصمة ألاسكا الأمريكية فوصلنا إليها بعد 45 دقيقة . نزلنا في هذه العاصمة فلم نجد فيها شيئاً يستحق الذكر ، وقد أنشئت في سنة 1880 ميلادية وشهرتها في تجارة الفراء . فاسترضنا قليلاً في شوارعها المغطّاة بالخشب ووقفنا بجانب حانوت كان أمام بابه دبّ صغير يلاعب السابلة ، ثم ذهبنا إلى مكتب البريد البرقي (التلغراف) وأرسلنا إشارة برقية إلى كوك بنيويورك نسأله فيها أن يحجز لنا إن أمكن غرفاً في الباخرة التي تقوم من نيويورك في 23 يوليه إلى أوربا ، فإن وجد ما يوافقنا نكون بذلك تقدّمنا أسبوعاً عن ميعاد السفر المقرّر في برنامجنا ، وودنا لو تحققت هذه الأمنية فقد زاد اشتياقنا إلى بلادنا العزيزة ، وفي أوربا لا نحرم من رؤية كثير من أبناء وطننا العزيز .

عدنا إلى الباخرة وبعد تناول العشاء خرجنا منها للاستراضة قليلاً ، وقد علمنا أن بمدينة جونو بعض مناجم النحاس ، ولكنّها ليست من الأهمية بمكان .

في منتصف الساعة الثامنة من صباح يوم الثلاثاء 25 يونيه رست الباخرة على بلدة سكاجوي Skagway ، وقد قيل لنا إنّ بها مستراضاً صغيراً يتوصل إليه بطريق حديدي . ولكن المستر دومان نصح إلينا ألا نذهب إليه لاسيّما إذا كان الجوّ غير معتدل كيومنا هذا الذي تنهمر فيه الأمطار انهماراً ، فإننا لانرى شيئاً يعادل ما

نتجشمه من المشقات ، فقبلنا نصيحته وقضينا وقتنا ما بين جلوس في ردهة الباخرة وكتابة مذكّرات عن رحلتي . ولما حلّ ميعاد تناول غدائنا ذهبنا إلى السفرة ، فلم يكن معنا أكثر من عشرة من السائحين والسائحات ، فحمدنا الله إذ كنا في هدوء لا نسمع جلبة العجائز ولا كثرة كلامهن المقلق . وبعد أن انتهينا منه ذهب كل منّا إلى غرفته للاستراحة قليلاً . وبينما كنت على سريري دخلت عليّ سيدة عجوز بدون أن تستأذنني ، وأخذت من أمامي قلّة الماء ، وأنا أنظر إلى ما تفعل وأعجب من جرأتها وعدم مراعاتها الأدب ، وقد فاتني أن أذكر أن هذه السيدة حضرت البارحة عندي وفتحت باب غرفتي ، ولمّا رأتني اعتذرت قائلة إنها كانت تظن أن هذا الباب يوصل إلى المطعم ، فلم أجد لاعتذارها وجهاً يجعله مقبولاً .

إن الذين ذهبوا للاستراضة عادوا إلى الباخرة بدون أن يصلوا إلى غايتهم منها وذلك لرداءة الجوّ ، وقد ذهب ما أنفقوه في تلك السبيل هباء منثورا ، ولم أرَ على وجوههم أثراً للسرور من رياضتهم هذه ، فقلت في ضميري حسناً فعلنا إذ لم نفقد شيئاً من دراهمنا ولم يصبنا من البلل ما أصاب هؤلاء الذين ساء حظّهم في هذه الاستراضة . بعدما اعتدل الجوّ قليلاً ركبنا في عربة عامّة معدّة لنقل السائحين إلى مركز تجارة هذه البلدة بدون أجر ، فألقينا نظرة عامة على حوانيتها فلم نرَ فيها شيئاً يستحق الذكر إلا جلد دب أبيض معرّض للبيع ، فسألت عن ثمنه ، فقيل لي 1000 فرنك ، وهو يساوي في بلاد النرويج 2500 فرنك على أقل تقدير ، والسبب في رخص الجلود هنا أن أغنياء السائحين قلّما يحضرون إلى هذه الجهات ، فلا أمل للتجار في طلب ثمن عال لبضاعتهم .

عدنا بعد ذلك إلى الباخرة راجلين ، وفي نحو الساعة الثالثة بعد الظهر أقلعت بنا السفينة إلى بلدة هاينس Haines التي تبعد عن اسكاجوي بخمسة عشر ميلاً ، ولمّا وصلنا إليها وجدناها صغيرة جداً وعدد منازلها لا يزيد عن الثلاثين ، ولكن بها مركز عسكري به ثكنة للجنود وبجوارها منازل الضباط . وقد كان على رصيف الميناء كثير من الجنود ومعهم دب صغير مطلق السراح يلعب معهم ، وقد سمعنا عنه أنه يترك في الغابة ، ولمّا يشتدّ عليه الجوع يبكي فيرسل له أحد العساكر لإحضاره ، فيناديه فيتبعه إلى الثكنة بلا خوف ولا وجل .

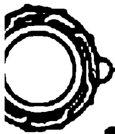
في منتصف الساعة الثامنة قامت بنا الباخرة إلى دافيدسون جلاسيه Davidson Glacier وقد كانت السماء ترسل وابلاً مدراراً ، ولكن ما انتصفت الساعة التاسعة

حتى انقشعت هذه الغيوم وظهرت الغزالة ، وقد كنا قربنا من دافيدسون جلاسيه وهي عبارة عن أمكنة ثلوج هائلة لا يفصلها عن البحر الذي تسير فيه باخرتنا إلا خط من الأشجار ، فلم نهتدِ إلى السبب الذي حفظ هذه الأشجار فلم تمت من تأثير البرد الشديد ، فألقينا نظرة عامّة على المناظر التي تحيط بنا ثم افترقنا للنوم ، وقد تحركت بنا السفينة ليلاً .

وفي صباح يوم الأربعاء 26 يونيه وصلنا إلى أمكنة الثلوج التي تدعى موير جلاسيه Muir Glacier فأسرعنا بارتداء ملابسنا وخرجنا من غرفنا وألقينا نظرة على ما حولنا ، فإذا نحن محاطون بقطع صغيرة من الثلج ولكن يعلوها الغبار ، فلم يرقنا منظرها . وقد نزل بعض السائحين إلى هذه الأمكنة حتى يقولوا عند عودتهم إنهم ساروا على الثلج ، أما أنا فلم أرد أن أنزل معهم لأنّي رأيت مثل هذه المناظر كثيراً في بلاد النرويج وفي جبال سويسرا ، وقد كان البرد شديداً جدّاً وهذا السبب الأخير هو الباعث القويّ لعدم تحركي من مكاني . اقتربت قطعة هائلة من الثلج من باخرتنا فأردت أن أنزل لأقف عليها حتى ترسم صورتي وأنا على هذا الحال ، فطلبت ذلك من ربّان الباخرة فأجابني إنه لا يمكنه أن يتحمل على عاتقة تبعة هذه المخاطرة ، فعدلت عن فكرتي . وفي الساعة الثانية عشر قامت بنا الباخرة إلى كليسانو Klisano وقد كانت الباخرة تصادم قطع الثلج المنتشرة في البحر ، وكنا نسمع صوت هذه المصادمات . وفي الساعة الثامنة مساء وصلنا إليها ولا أعرف سبباً لوقوف الباخرة على هذه القرية الصغيرة التي لا يبلغ عدد منازلها العشرين ، فنزلنا وجلنا فيها فلم نجد شيئاً يذكر إلا معمل السمك Hareng الذي كانت تنبعث منه رائحة كريهة أشد تأثيرا في الأنف من رائحة الفسيخ . وقد رأينا بعض الملاحين يأخذون في أوعية سمكاً ، فقلنا ماذا نصنع إذا قُدّم لنا منه شيء في طعامنا ، فقربنا منهم ورأينا ما يحملونه ، وإذا هو سمك صغير جداً ذو رائحة شديدة كريهة . وبعد 45 دقيقة أقلعت بنا الباخرة ، وبعد أن سارت قليلاً وقفت في عرض البحر ، ثم رأينا حبالاً في طرفها شصوص (سنانير) أعدت لصيد السمك ، وكان عددها نحو الخمسين حبلاً ففهمنا السبب في تعريجنا على كليسانو الصغيرة ، وأخذنا منها السمك الصغير . والظاهر أن هذا المكان الذي نقف فيه الآن شهير بكثرة السمك ، وقد فُرّقت هه الحبال على كل من يريد أن يلهو بصيد السمك ، وقد تولّى ملاحظة كل خمسة حبال ملاح ، وأخذ كل ملاح منهم يضع في شصوص حباله (سنانيرها) قطعاً من السمك الصغير ،

وأدلى السائحون والسائحات حبالهم في البحر ، فصارت الباخرة أشبه بباخرة صيادين من أن تكون باخرة سائحين . أما نحن فصرنا نمشي لنرى ماذا يتم في هذا الأمر ، وبعد انتظار ساعة اصطادت سيدة سمكة متوسّطة ، فقلنا إذا كان هذا الزمن الطويل لا يُصطاد فيه إلا سمكة واحدة فلا ينتظر فائدة كبيرة ، ولكن بعد قليل سمعنا صياح الفرح فقد أعقب هذه السيدة العجوز زوجها الهرم فصاد سمكة أخرى ، فتحولت الأنظار إليهما ، وكثرت عليها التهاني . وبينما هما يشرحان كيف أمكنهما صيد هاتين السمكتين ، إذا بسيدة تنادي بأعلى صوتها : لقد منّ الله عليّ بسمكة كبيرة ، فأسرعوا يا أهل النجدة إلى مساعدتي على جذبها . فتكاثرت عليها الرجال والسيدات ، وكل ينسب إلى نفسه الفضل في اقتناصها ، فكثرت المجادلة بين الجميع واختلفوا في من هي من نصيبه . أما السمكة فكانت كبيرة جداً من نوع (الهاليبو) حتى أوشك الحبل أن ينقطع بها لثقلها ، وقد رأينا رأسها بارزاً وهو كبير الحجم ، وكانت حركتها تدلّ على شدّة قوّتها ، وقد كان الزحام حولها بالغاً أشده ، والكل يبدي رأيه في طريقة سحبها . فأراد الربان الثاني للباخرة أن يظهر مقدرته ، فأخذ عصا طويلة في طرفها قطعة من الحديد ذات شباة ، ونزل إلى قاع السفينة وأراد أن يغرسها في رأس السمكة ويساعد على إخراجها ، ولكن ذهب تعبه بل خلّص السمكة من الحبل ، فاتخذت سبيلها في البحر هرباً وغاصت في قاعه ، فعلا صياح الأسف بين الجميع ، والكل يُخطِّئه في عمله الذي أضاع عليهم ثمرة تعبهم . أما نحن فسررنا من فرارها لأننا رأينا من حال المجادلة الأولى أن الأمر ربما يفضي إلى المشاحنة ، وهذا ما نخشاه كثيراً ، لأن الحادثة وقعت أمام باب غرفتي ، فإذا كثر الصياح لا أجد سبيلاً إلى الراحة والنوم . دخلنا بعد ذلك في غرفة التدخين ، فماذا رأينا؟ رأينا الغلام الموكل ببيع الخمور يلعن هذه السمكة التي كانت سبباً في كسر عدد عظيم من الزجاجات الثمينة المملوءة بالراح ، فإنه عندما سمع الصياح قفز من مكانه ليرى ماذا جرى فأوقع زجاجات الخمور على الأرض ، فكُسرت وذهب كل ما فيها فصار يكرّر الشتم ويلعن طالعه السيئ ، وقد كان يتصاعد من الخمور رائحة قويّة تغلّبت على رائحة السمك الصغير الذي يُصطاد به . وبعد ذلك فارقت رفيقي وذهبت للنوم ، وفي الساعة العاشرة سمعت صياحاً آخر يدلّ على السرور ، ولكنّي لم أنتقل من سريري ، وأغمضت عينيّ تاركاً للصيّادين حبورهم داعياً لهم أن يزيد الله في رزقهم لأن ذلك الرزق يصيبنا شيء منه ، فإن السمك سيطبخ ويقدم للجميع .

ولمّا أصبح يوم الخميس 27 يونيه علمت من رفيقيّ أنه بلغ عدد السمك الذي اصطاده السائحون أكثر من خمسين سمكة ، وأغلبها كبير ، وقد كنّا وصلنا إلى مدينة سيتكا Sitka التي كانت عاصمة ألاسكا عندما كانت تابعة للروسيّين ، فنزلنا إليها ، ووجدنا عدداً كبيراً من الهنود بين رجال ونساء يعرضون مصنوعاتهم للبيع ، فألقينا نظرة على هذه البضاعة ، فإذا هي كالمعروضات التي كنّا نراها في كل مكان (خف مصنوع من جلد الغزال ، وملاعق خشبية ، وأساور وحلي هندية ، وجلود حيوانات هذه الجهة ، وغيرها) .



شقاء الهنود

ثم استمررنا في طريق أوصلنا إلى غابة جُعلت كمنتزه ، وكانت أشجارها متقارباً بعضها من بعض . وقد صادفنا كثيراً من الأعمدة الهندية المنقوشة التي سبق الكلام على مثلها ، وهي مختلفة باختلاف الأسرات ، فإنها معتبرة كرمز عند الهنود إلى نسب كل أسرة . وبعد أن جُلنا في هذه الغابة عبرنا جسراً ومنه عدنا إلى المدينة وزرنا معرضها العام ، فلم نجد فيه شيئاً غريباً لم نرَ مثله من قبل . ثم مررنا أمام مدرسة لتعليم بنات الهنود الغسل والكي والطبخ والخياطة وكل ما يلزم لإدارة المنزل ، وقد كانت البنات مرتديات ملابس أوربية . ثم دخلنا بعد ذلك كنيسة روسيّة ، قيل لنا إنّها قديمة العهد ومن أجمل الكنائس ، ودفعنا أجر الدخول نصف دولار عن كل شخص . ولكنّا لم نرَ فيها ما ينطبق على ما وصفت به لنا إلا لوحتين معلّقتين يمثّلان صورة السيد المسيح والعذراء ، وهما حقيقة من أبدع ما صنعته يد الإنسان . ثم رأينا لوحة أخرى ، بها صورة أول كاهن روسي وصل إلى سيتكا ، ولكن صنعتها أقل إتقاناً من صنعة اللوحتين السابقتين . وبعد ذلك عدنا إلى الباخرة لأننا كنّا ننتظر ردّ الرسالة البرقية التي أرسلناها إلى نيويورك نستفهم عن إمكان تغيير تذاكر السفر ، وتقديم ميعاده أسبوعاً . وبمجرد وصولنا إلى الباخرة تسلّمنا رسالة برقية أنبأتنا بأنه يمكن السفر في الباخرة التي تسافر من نيويورك يوم 23 يوليه ، فسررنا جداً . وبعد الغداء ذهبنا إلى مكتب البريد البرقي وأرسلنا رسالة برقيّة نذكر فيها قبولنا السفر في الباخرة المذكورة . ثم جُلنا في المدينة واشترينا من الهنود ما اخترناه من بضائعهم ، ثم نظرنا مساكنهم الحقيرة وحالتهم التعسه . وقد رأينا كثيراً منهم مصاباً بأمراض مهلكة ، وبعضهم فقدوا نظرهم من عدم الاعتناء بنظافة عيونهم ، وقد أثّر فينا منظر

هندي بلغ من العمر أرذله وهو ضرير ، وكان ينشر قطعة من خشب ، فما أقسى قلب الإنسان ، إنهم لا يتركونه يقضي باقي عمره في هدوء مع أنه في أتعس حالة ، فالكبر جعل جسمه يرتعش ، والفقر زاد شقاءه . فتقدَّمت إليه وأعطيته بيدي ما يخفف عنه آلام الحياة التي كلّها شقاء ، فرأيت من حالته أنه ما كان ينتظر من أحد أن يهبه ما يسدّ به رمقه هذا ، وقد علمنا أن هؤلاء الهنود كانوا يعتنقون الدين المسيحي على المذهب الأرثوذكسي لما كانت بلادهم يحتلّها الروسيُّون ، والآن غيّروا مذهبهم واتبعوا المذهب البروتستانتي ، مذهب الأمريكيين ، ولا غرابة في ذلك فالناس على دين ملوكهم . أردنا بعد ذلك أن نذهب إلى المقابر الروسيّة والهنديّة ، فتقدمنا إلى فتاة وطنية نسألها عن هذه المقابر ، فلم ترد أن ترشدنا إلى مكانها قائلة إنها لا تعرفها ، وقد رأينا من هيئتها واشمئزازها أنها تكره الجنس الأبيض ، ولعلّ لها في ذلك بعض المعذرة . وأخيراً دلّنا عليها روسي كهل ، فمشينا في الطريق الموصل إليها وصرنا نصعد في تلٍ عالٍ إلى أن وقفنا في وسط المقابر ، فلم نرَ فيها شيئاً غريباً إلا أننا وجدنا مكاناً محاطاً بالأخشاب وعلى جوانبه دكك ، فصعدنا عليها فرأينا مناظر سيتكا الجميلة ، وقد أعجبنا موقع هذه المقابر لأنها في أجمل مكان في سيتكا . ولما شعرنا بتأثير البرد صمَّمنا أن نعود ، وبينما نحن في وسط الطريق قابلنا المستر دومان أمام حانوت ، وقال لي إن هذا الحانوت يديره أحد الشبّان المتعلّمين وعنده ما يهم الوقوف عليه ، فدخلناه ، ورأيت ملامح الذكاء تلوح على مديره الشاب ، فسألته عن عدد الهنود في جزيرة بارانوف Baranof Island التي فيها مدينة سيتكا ، فقال لي إنهم لا يبلغون الخمسمائة ، وينقسمون إلى ثلاثة أقسام تحت رياسة ثلاثة مشايخ . ثمَّ قدّم إليّ حُقّاً به تراب ناعم جداً ، وقال لي إنه من آثار التربة التي ثارت عند حدوث الزلزلة وانفجار البركان منذ عهد قريب في جهة كودياك Kodiak التي تبعد عن هنا بنحو 600 ميل ، فقد حملها الهواء إلينا حتى كان الجوّ مظلماً ، وقد غطّى التراب الثائر كل المعمال والمنازل وغيرها . وقد لاحظت أن الأشجار التي أصابها هذا التراب عدمت الحياة ، فجمعت منه هذا المقدار لأقف على تركيبه ، ويظن أنه خرج من بطن الأرض عند التهاب البركان ، وقد أعطاني منه مقداراً صغيراً لأبحث فيه بمصر ، ولأعلم سرّ ما به من الأجزاء المهلكة للنبات . ثم عاد إلى ذكر أحوال الهنود ، فقال إنهم في الزمن السابق كانوا يعيشون تحت أحكام أمرائهم التي كانت نافذة عليهم ، وكانت في طبيعتهم مساعدة فقرائهم والبائسين مساعدة عظيمة ، حتى كان القوي منهم يشتغل

ليقوت الضعيف أو المريض أو الهرم . ولكن الآن ذهبت منهم هذه الخلال الحميدة باختلاطهم بنا ، فقد أصبح كل هندي لا يهمّه إلا شأن نفسه ، وقد ذهب عن عاتقه عبء الانقياد لقدماء رؤسائه ، ولكنّهم مازالت فيهم بعض فضائل ، فإنهم لا يزالون يحبّون بعضهم بعضاً ولا يسرقون شيئاً يملكه هندي مثلهم ، وجميع معاملاتهم فيما بينهم صادقة بخلاف معاملاتهم للجنس الأبيض ، فكأنّهم يرون كل ما يمتلكه الأبيض حلالا لهم . ثم استطرد في كلامه إلى معارف الهنود ، فقال إن هؤلاء الوحشيين قد عرفوا أن السمك يبيض قبل أن يختلطوا بالأوربيين . ولذا كانوا يلقون في البحر على الشاطئ فروع الأشجار بأوراقها ويربطونها في أحجار ، فإذا حلّ ميعاد بيض السمك أتى إلى تلك الفروع وباض على أوراقها ، فيلتقطونها ويجففونها ويحفظونها للأوقات التي تقلّ فيها موارد غذائهم . ولّما كانوا لا يعرفون استخدام المعادن في صناعة أوانيهم كانوا يصنعون من فروع الشجر سلالاً ويطلونها بالطين ويجففونها ، ثم يضعون فيها الماء ويلقون فيه هذه الأوراق التي بها بيض السمك ، ثم يصهرون الحجارة المختلطة ببعض معادن ، ويلقونها في هذا الماء ، فيسخن وينفصل البيض عن أوراق الشجر ، وبعد ذلك يخرجون هذه الأوراق والحجارة ، ثم يصفّون الماء فيبقى لهم البيض يأكلونه ويتغذّون به (كالخافيار)[113] ، وهذه الطريقة كانت مستعملة قديماً عندهم في إنضاج غذائهم الذي يحتاج إلى الماء ، وهي غريبة في بابها . وقد سألته عن سبب انتشار أمراض العيون بينهم ، فأجابني أن أغلبهم به مرض الزهري ، ولا أعلم من أين أتتهم العدوى . كذلك لا يعتنون بنظافة أجسامهم ومساكنهم ، وقد يحرقون الأشجار في فصل الشتاء اتقاء شرّ البرد القارص[114] ، ويجلسون بقرب النار ، فيتصاعد عليهم الدخان المؤذي فيعمي أبصارهم . فأين محبّو الإنسانية لينقذوهم من هذا المرض القتّال؟ وأين العلم الذي يلقونه عليهم ليرشدهم إلى النافع ويبعدهم عن الضار؟ . إن كلمة إنسانية لا وجود لها في هذا العالم إلا في خيال الفلاسفة الذين يعتقدون أن الإنسان يجب عليه أن يحب أخاه ويعطف عليه وقت الشدّة ، ولكن مع الأسف نرى ضدّ ذلك فكأن ارتقاء بني آدم في علومهم

---

(113) Caviar أو : Caviare (طعام مصنع من بيوض السمك ويعرف اليوم بالـ (كافيار) .

(114) الصحيح أن (القارس) هو البرد الشديد ، أما (القارص) فهو تعبير مجازي من القرص : لسع الحشرة أو لدغ الأفعى .

ومدنيتهم داعية إلى قسوة أقويائهم على المستضعفين منهم واحتقار حقوقهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

تركنا بعد ذلك الحانوت بعد أن ودعنا صاحبه المستر ميريل Merill ، ونحن معجبون لدقّة مباحثه واتساع معارفه ، وعدنا إلى الباخرة .

في الساعة السابعة مساء أقلعت بنا السفينة بين هبوب الرياح الشديدة والعواصف تلعب بها ، ولكن هذه الحركة المتعبة لم تدم طويلاً . وبعد عشرين دقيقة من ذهابنا إلى غرفنا للنوم وقفت بنا الباخرة فجأة ، وسمعت من السيدة التي تسكن بجانبي أنه حدث تلف في الآلة المحرّكة للباخرة ، فاحتذيت نعليّ ولبست معطفي وخرجت لأسأل عن السبب ، فصادفت ملاحاً ، فأجابني : لا شيء يا سيدي . وتركني وذهب إلى حاله ، ثم قابلت رئيس الملاحين وسألته ، فأجابني أن بالباخرة كثيراً من الزوارق الصغيرة وهي كافية لنجاة جميع المسافرين ، فأسرعت إلى غرفة زميليّ وأشرت إليهما أن يرتديا ملابسهما ، فكان خيري أسرع من لمح البصر بجانبي ، أمّا مصطفى ابن بلاد الشمس الحارّة فلم يخرج من سريره مخافة البرد ، فاكتفيت بالأول ، وذهبنا لنعرف الحقيقة ، فقيل لنا إننا ننتظر أن يهبط ماء البحر حتى يتسنّى لنا المرور من مضيق به تيّار شديد يُخاف منه على الباخرة . فعدنا إلى غرفنا بعد أن اطمأنت نفوسنا لعلمنا أنه لم يحدث خلل في آلات السفينة ، ولكنّي لم أتمكن من النوم قبل منتصف الليل .

مغادرة الاسكا

وفي الساعة السابعة من صباح يوم الجمعة 28 يونيه وقفت بنا الباخرة ثانية ، فقالوا لنا إنهم في هذه المرة ينتظرون قوّة التيار ليساعد على المسير . وأخذ الملاحون في إعداد حبال صيد السمك حتى لا يملّ السائحون من الانتظار ، وقد اغتنمت فرصة عدم وجود أحد من المولعين بالصيد ، وأبعدت الحبال من أمام غرفتي حتى لا أشم الرائحة الكريهة ، ولكن بعد زمن قليل رأيت الملاحين يطوون هذه الحبال ، وما فرغوا من طيّها حتى كنّا نسير في طريقنا ، فوصلنا في منتصف النهار أمام بلدة بطرسبرج Petersburg الجميلة التي حال دون أن نصوّرها عند مرورنا عليها في المرّة الأولى رداءة الجو ، ولكن في هذه المرّة رسمنا ما أعجبنا رسمه فيها لأن الشمس كانت زاهية والجوّ صافياً . وصلنا في الساعة الرابعة مساء إلى بلدة فرانجيل Wrangell وهي في رأس

جزيرة ، وأغلب سكانها صيّادون ، وتجارتها في الفراء . فنزلنا إليها ولم ننتظر مثل باقي السائحين الدليل الذي سيقودهم إلى المزارات ويشرح لهم ما يغمض عليهم فهمه . وبينما نحن نجول فيها صادفنا جموع السائحين ، وقد التفوا حول دليلهم ، وهو يتكلّم بينهم وهم يسمعون أحاديثه ، فعلمت من هيئة ملابسه أنّه قسّيس ، فسألت أحد الأمريكيين هل يعرف هذا الدليل ، فأجابني : إنه واعظ الكنيسة . فقلت سيقودهم إيها ويبتزّ منهم أموالهم وهم عن ذلك غافلون . فضحك هذا الرجل ، وقال لي : أتسمع صوت الناقوس . فأجبته : نعم ، إنه يقول (خمسة سنس خمسة سنس) أي أن كل زائر سيدفع هذه القيمة الزهيدة لجيب القسيس الذي يأخذها لنفسه ، ولا يصرف إلا القليل منها على الفقراء والمساكين . استمررنا في طريقنا إلى أن وصلنا إلى حانوت يُباع فيه جلود الدب ، فاستحسنت منها واحداً وسألت عن ثمنه ، ولكنّي وجدته غالياً ، فتركت مصطفى عنده ليساوم صاحبه وذهبت إلى الباخرة ، وعند عودته أخبرني أنه لم يقبل ثمناً له أقل ممّا طلب أوّلاً ، فصرفت النظر عن شرائه ، خصوصاً وأنه يكلّفني أتعاباً ونفقات حتى أوصله إلى مصر . بعد العشاء خرجنا لنستريض قليلاً ، وفي الساعة العاشرة مساء قامت بنا الباخرة ووجهتها بلدة أولد كاسان Old Kassan وستصلها في الساعة الخامسة صباحاً من يوم السبت 29 يونيه ، ولكنّا صمّمنا ألا نقلق راحتنا ونقوم مبكرين لرؤية بلدة صغيرة ليس لها شأن يذكر ، وفي الساعة العاشرة والربع صباحاً من اليوم المذكور وصلنا إلى ميتلاكاتلا Mitlakatla ، وهي أيضاً بلدة صغيرة في جزيرة لا يبلغ عدد منازلها أكثر من عشرين منزلاً ، وبها كنيسة واحدة ومخزن تجاري لجميع السكان . وقد رأينا حالة الهنود الذين يسكنونها فهي أيضاً محزنة ، وأظن أن الجنس الأبيض المتمدّن حكم على هذا النوع من بني الإنسان بالفناء ، فترك الأمراض القاتلة تفتك بهم ولا راحم يرحمهم ، لأنهم في نظره لا فائدة في وجودهم على ظهر الدنيا . في الساعة الحادية عشر صباحا أقلعت بنا الباخرة إلى نهاية رحلتنا بألاسكا ، فإننا صعدنا إلى أعلى نقطة في شمالها ، وطفنا حول جزائرها الكثيرة ، ثم عدنا من طريق آخَر إلى آخِر نقطة في جنوبها . ولمّا كانت ليلتنا الآتية هي آخر ليالي تلك الرحلة ، أُخذ في الاستعداد من الآن لإقامة مرقص . وبعد العشاء دار الحاكي (الفونوغراف) وصارت السيدات والرجال ترقص على نغماته إلى أن أتى دور (المشيش) فانبرى من الجمع سيدتان عجوزان كبيرتا الجسم وطفقتا ترقصان رقصاً مخجلاً ، فقال أحد زميليّ : نحمد الله

لأنهما بلغتا من العمر أرذله . فأجبته : نعم يجب أن تحمد الله لأنهما لو كانتا فتاتين للعبتا بأفئدة الشبّان ، ولكن لا خوف على الرجال منهما ، فمهما فعلتا فلن تلاقيا استحساناً ولا نظرة ولو بطرف خفي . بعد ذلك تركنا الجميع في سرورهم وذهبنا إلى غرفنا للنوم .

ولما أصبح يوم الأحد 30 يونيه رأينا الضباب يحيط بنا من كل جهة والباخرة تمشي متباطئة ، ولكن ما أتت الساعة الثامنة صباحا حتى انقشع هذا الضباب ، وسارت الباخرة تمخر في عباب البحر بسرعتها المعتادة . وفي الساعة الحادية عشر أقيمت الصلاة ، وفي منتصف الساعة التاسعة ألقت السيدة المعروفة محاضرتها عن مستقبل الاسكا . وفي الساعة الخامسة أعيدت الصلاة ، ثم أعقب ذلك بعد العشاء الرقص .

وفي صباح يوم الاثنين غرّة يوليه قمنا مبكّرين ومستعدّين للنزول إلى فانكوفر Vancouver . هنا أيضاً يلزم إعادة مثل الاستعلامات التي حرّرناها عند وصولنا إلى نيويورك ، مثل ذكر الاسم واللقب والصناعة ، وهل القادم متزوّج ، وهل يقصد الإقامة في كندا ، وإذا كان سائحاً فما مقدار الوقت الذي سيقضيه فيها ، ثم يذكر عمره والحكومة التي هو تابع لها . . وهكذا . وصلنا نحو الساعة التاسعة إلى مصب نهر فريزر Fraiser الذي يجري في فانكوفر . وبعد نصف ساعة صارت باخرتنا تمرّ بين مناري هذا الثغر ، وقد أخذنا نرى الراية الإنكليزية تخفق على الزوارق والبواخر التي كانت مملوءة بالركّاب . وقد لاحظنا في أيدي المسافرين فيها رايات إنكليزية بها علامة حكومة كندا ، فسألت عن سبب ذلك ، فقيل لي إن لسكان كندا عيداً في أول يوليه . رست الباخرة على رصيف الميناء في منتصف الساعة الحادية عشر ، فبحثنا عن مندوب فندق فرنكوفر[115] فلم نجده ، فصحبني خيري وركبنا عربة أوصلتنا إلى الفندق المذكور بعد خمس دقائق ، ولمّا دخلناه سألنا أحد مديريه ألم تصل إليهم أخبار في شأننا من محل كوك ، فأجابني قائلاً : لا . فسألته عن غرف لنا ، فقال : إن اليوم عيد وجميع الغرف مشغولة الآن ، وعليكم أن تنتظروا إلى وقت الظهر . فتركته وذهبت إلى بوّاب الفندق لأرسله إلى الميناء لإحضار مصطفى وحقائبنا ، فلم يرد أن يتحرك من مكانه . ولمّا أكثرت الطلب أجابني : إن رفيقكم إذا طال عليه أمد الانتظار

---

(115) هكذا ورد اسم الفندق ، ولعل الصحيح فانكوفر .

يحضر ويسلّم الحقائب إلى شركة النقل لتوصلها إلى هنا . وأخيراً تركنا الفندق لنذهب إلى مصطفى ، وفي الطريق صرت أبحث عن مكتب شركة (الكندايان باسفيك) فلم أعثر عليه ، فتركت خيري يذهب إلى رصيف الميناء ليلاقي زميلنا الآخر ، وقصدت شرطياً ، وسألته عن هذا المكتب ، فدلّني عليه ، فتقدّمت إلى استلام الرسائل وسألت العامل : هل وصلت رسائل باسم رستم بك وأصحابه . فأجابني بفتور قائلاً : لا . فأعدت سؤاله : ألم يصل توصية بهذا الاسم من محل كوك . فقال لا دخل لي في ذلك . فرجوته أن يدلّني على المكان الذي يمكنني أن أستفهم منه عن طلباتي ، فلم يتنازل إلى إجابتي ، فذهبت إلى عامل آخر فكان نصيبي معه مثل نصيبي مع الأول . حدث لي كل ذلك ولم يستولِ القنوط عليّ ، فخرجت لأبحث عن خيري ، فقابلته وذهبنا معاً إلى المحطّة التي كانت قريبة من الميناء ، ولمّا دخلناها وجدنا مكتباً معدّاً للاستفهام ، فتقدّمت إلى الموظف فيه وسألته : هل يمكنني مقابلة أحد رؤساء الشركة . فأخذ يضحك ويقول : لِمَ ذلك؟ فأخبرته إننا غرباء وننتظر من محل كوك رسائلنا وأن يوصي شركتكم بنا . فصار يضحك أيضاً ، وأخيراً نطق متكلّفاً بقوله اذهب إلى رصيف المحطّة تجد عامل كوك في مكتبه ، فأسرعنا إلى هذا الرصيف وأخذنا نبحث عن هذا المكتب ، فلم نجد له أثراً ، ثم ساقنا حظّنا ودخلنا في مكتب إرسال البضائع وسألت أحد موظفيه عن عامل كوك ، فقال لي : أنا يا سيدي الموكل بأشغاله وإن لم أكن موظفاً عنده . فحمدت الله إذ لم يذهب تعبنا هباء منثورا ، فوجهت إليه أسئلتي ، فأجابني بلطف : اصعد يا سيدي إلى المستر بوردي Bordy وهو رئيس فرع الكناديان باسفيك ، ويسكن في الطابق الثاني من عمارة المحطة ، فركبنا المصعد الذي أوصلنا إلى أمام مكتب ، فدخلت فيه وقابلت موظفاً وأخبرته أنّي المسيو رستم فبشّ في وجهي ، وقال : تفضل واجلس يا سيدي إننا ننتظرك . فسردت عليه ما لقيناه في الفندق ، فما لبث أن تكلم بالتلفون مع المدير الذي يتبع شركتهم ، وأمره بأن يعيد حالاً غرفنا وأوصه بنا خيراً ، ثم سألني : هل تذاكركم مستوفاة؟ فأجبته : إننا أدخلنا بعض تعديل في برنامجنا . فقال : سأرسل إليكم أحد عمّالنا في الساعة 2 و30 دقيقة ليتسلّم التذاكر القديمة ، ويطّلع على التعديل الجديد لتغيير التذاكر على حسبه . فشكرته وانصرفنا من عنده مسرورين لأننا وصلنا إلى غايتنا ، وعدنا إلى الفندق فوجدنا غرفنا قد هُيئت لنا ، فلم ينقصنا بعد ذلك إلا حقائبنا ، فقيل لنا إنها ستصل إلينا بعد الظهر .



في الساعة 2 و15 دقيقة حضر مندوب شركة الخطوط الحديدية ، فأوقفناه على مطالبنا وانصرف على أن يعود إلينا في الساعة 7 ومعه تذاكرنا الجديدة . أما نحن فاستأجرنا عربة وركبناها ، وأمرنا سائقها أن يذهب بنا إلى داخل المدينة ليرينا أهم شيء فيها . فذهب بنا أولاً إلى الحديقة العامّة ، فرأيناها غاصّة بالمتنزّهين الذين كان السرور بادياً على محيّاهم ، وقد كانت ملابسهم نظيفة ، وكانوا يهنّئون بعضهم بعضاً بحلول هذا اليوم الذي يحتفلون به أعظم احتفال في جميع بلاد كندا ، ويعتبرونه من أكبر أعيادهم . فتفقدنا هذه الحديقة التي تُسمّى ستانلي بارك Stanley bark فإذا هي عظيمة الاتساع ، وقد كانت الموسيقى تصدح بألحانها الشجية في مكان فيها أُعدّ لذلك ، فأمضينا فيها ساعة من الزمن بين أشجارها الناضرة وزهورها اليانعة ، وبحيراتها التي صفا ماؤها ، ثم خرجنا منها ، فقصدنا حيّ الأغنياء . وكنّا نصادف في الطرقات بعض الشرط (البوليس) ما بين راجل وفارس بملابسهم الأنيقة ، ويشبهون شِحْنة (بوليس) مدينة لوندرة العظيمة في الشكل والهيئة والنظام . ولمّا وصلنا إلى منازل الأغنياء وجدناها خالية من الزخارف كمنازل الإنجليز العاديّة . ذهب بنا السائق إلى شاطئ نهر يخترق المدينة ، فرأينا على ضفّتيه جملة حمّامات وملاهٍ مكتظّة بالمتنزّهين والمستحمين ، ولكنّهم لا يخرجون عن حد الآداب العامّة . هذا وقد لاحظنا خليطاً من هنود آسيا وهنود أمريكا ، وعدداً كبيراً من الصينيين وغيرهم من ذوي اللون الأسود يشتغلون في معامل المدينة وحوانيتها . وقد قيل لنا إن هؤلاء وظيفتهم الاشتغال بالأشغال الخطرة ، لأنّه إن حصل حادث أفقد أحدهم عضواً لا يطلب ديّة عظيمة كما يطلب الأبيض ، كذلك ورثة من فقد حياته منهم أثناء قيامه بتأدية عمله ، فإنهم يكتفون بالقليل من المال ، وقلّما يجدون بين المداره[116] (المحامين) من يأخذ على عاتقه المدافعة عن حقوقهم أمام رجال القضاء طلباً لتعويض كبير يخفّف عن الورثة ما لحقهم من الضرر بفقد عميدهم . ولو بحثنا بحثاً دقيقاً في الأسباب الموجبة للتمييز بين منزلة الجنس الأبيض ومنزلة باقي الأجناس حتى أمام القانون الذي كان الغرض منه في أصل وضعه تطبيقه على

(116) المداره : جمع مدره (بكسر الميم) وهو سيد القوم والمدافع عنهم . والكلمة لا صلة لها بالمحاماة إلا مجازا .

جميع سكان مملكة واحدة بدون تمييز بين الأبيض والأسود والأحمر والأصفر، لو بحثنا في تلك الأسباب لوجدنا أهمها الاعتقاد السائد بأن الجنس الأبيض أرقى وأنفع للهيئة الاجتماعية من باقي الأجناس. ويعللون ذلك بعلو مدارك الجنس الأول وانحطاط عقول باقي الأجناس، حتى إن علماء التشريح يثبتون هذا الفرق في تكوين الأدمغة، ويدّعون أن دماغ الأبيض أكثر نمواً من دماغ الأسود مثلاً، وقد يرسمون شكل جمجمة الأول ليقارنوا بينهما وبين جمجمة الثاني، ولقوّة بيانهم لا يعدمون أن يخلقوا براهين قويّة تثبت دعاويهم. ولقد كان الجنس الأصفر في الزمن السابق معدوداً من الأجناس الأقل درجة في المدارك من الجنس الأبيض، ولكنّ هذا الاعتقاد أخذ يتغيّر من بعد مزاحمة اليابانين للأوروبيين وجدّهم واجتهادهم ووصولهم إلى هذا المجد الشامخ. فقد برهنوا أخيراً أنّ بينهم من لا يقلُّ كفاءة عن أخيه الأوروبي القائد الباسل، أو السياسي المحنك، أو الكاتب البليغ، أو الصانع الدقيق، أو المكتشف الماهر، أو المخترع العظيم. نعم، لقد عرفت هذه الأمة ما ينقصها، فاجتهدت في نشر التعليم والمبادئ الحقّة بين أبنائها، ولم تترك وسيلة من وسائل الرقي إلى مستوى أرقى الأمم إلا اتخذتها. ولمّا وثقت بقدرتها وآنست من نفسها الكفاءة للتسابق في ميادين الرقي وأرادت إعلان ذلك على رؤوس المنكرين لفضائلها، رأت أن لا سبيل إلى ذلك إلا إذا أظهرت أنها لا تقلُّ عنهم مقدرة وقوّة، فألقت بنفسها في تيّار السياسة وطرق الاستعمار، ولمّا أحسّت بأن حقوقها لا تُحترم في مسائل حيوية استعدّت للطوارئ. ولما وقع الحرب بينهما وبين روسيا العظيمة خرجت وعلى رأسها إكليل الفخار والظفر، وصرنا لا نسمع من وقتها إلا المدح والإطراء في همّة اليابان. فالقوّة إذاً هي المعيار الذي يعوّل عليه في تقدير القيم والميزان الذي تقاس به مراتب الأمم. لقد ذكرت مثل اليابانيين لأدحض حجّة من يرى أن الجنس الأبيض دون غيره هو المستعدّ للرقي، الجدير بالسيادة على سائر الأجناس، ولأثبت أن الاستعداد للرقي لم يختص الله به قوماً دون آخرين، بل هو مشترك بين خلق الله أجمعين، غير أن المدارك لا تنمو إلا بالتعليم. فعلى كل أمّة مهما كان جنسها، إذا أرادت أن تأخذ مكاناً رفيعاً بين باقي الأمم المتمدنة أن توجّه جلَّ عنايتها إلى التعليم الصحيح، ونشر التربية الحقّة التي تغرس في نفوس أبنائها الأخلاق الفاضلة التي تعدّهم لأن ينهضوا بها سائرين في سبيل النجاح. لا ينكر أحد أن المغلوب مقهور، وقلّما يُحترم له حقٌّ أو يُرى له حرمه، فإن الحقَّ مع القوة وما

أصدق قول المتنبي[117] :

متى تجمع القلب الذكي وصارما
وأنفا حميما تجتنبك المظالم

هذه حقائق يعرفها كل إنسان ذكرتها عرضاً بمناسبة معاملة العمّال الذين ليسوا من الجنس الأبيض ، وقد سمعتها من الأمريكيين أنفسهم ، ولم أرَ تعليلا لهذه المعاملة إلا ما ذكرته آنفا . هذا ولقد أخذت أبحث بين هؤلاء العمّال لعلّي أجد من بينهم من فقد أحد أعضائه فلم أهتدِ إلى ذلك ، فعلمت أنّهم يعرفون هذه المعاملة ، ولذا يحترسون أشدَّ الاحتراس ولا يخاطرون بأنفسهم في عمل يعود عليهم بالضرر ، فحسناً فعلوا .

أعجبنا بين هؤلاء العمّال الهنود الآسيويّون بعمائمهم المختلفة الألوان ، وقوامهم المعتدل ، ووجوههم السمراء اللطيفة ، ولحاهم السوداء ، وشعورهم اللامعة ، وعيونهم البرّاقة ، فصرت أمتّع نظري لأنهم أقرب شكلاً لأبناء الأمّة العربيّة الكريمة ، ولقد سررت جداً من وجودهم في هذه البلاد البعيدة طلباً للارتزاق ، وهذا من دلائل الاجتهاد . نجّحهم الله ف أعمالهم .

عدنا بعد ذلك إلى الفندق ولم تأتِ أمتعتنا من مخزن المكس (الدخولية) فكلّفت مصطفى بك أن يأخذ مفاتيح حقائبنا ويذهب إليه عند افتتاحه في الساعة 6 مساء ، وبعد عودته أخبرنا أنّه لاقى صعوبة كبيرة في إخراجها ، وقد كان هناك عامل هرم لم يترك حقيبة إلا فتحها وجعل عاليها سافلها ، وأخيراً تخلّص منه زميلنا بعد أن سمع من مرِّ الكلام ما جعله يسخط على آدابه المنحطّة .

أصبحنا في يوم الأربعاء 2 يوليه وكنّا على استعداد للسفر وما أتت الساعة التاسعة حتى كنّا في قطارنا ، وقد صحبنا إلى المحطّة مدير الفندق ومندوب الشركة الذي أوصى بنا عمّال القطار ، ولمّا تحرّكنا صرنا نمرّ على بلاد واسعة آهلة بالسكان ، ولكن اتساع أراضي كندا وقلّة سكانها بالنسبة لمساحتها العظيمة جعل جزءاً كبيراً منها غير منزرع ، ولقد فكرت الحكومة في ذلك فسهّلت سبيل الهجرة إليها والحصول على أراضٍ خصبة بشروط معتدلة ، فنزح إليها كثير من المهاجرين حتى من سكان

---

(117) هذا البيت للشاعر المخضرم عمرو بن برّاقة الهمداني ، وليس للمتنبي ، وهو كما يلي :

متى تجمع القلب الذكي وصارما   وأنفا حمياً تجتنبك المظالم

الولايات المتحدة .

مازلنا سائرين بين جبال شاهقة ووديان خصبة إلى وقت الزوال ، ولكنّا بعده صرنا نمرّ في صحراء مقفرة لا نبات فيها ولا زرع ، وبعد غروب الشمس دخلنا ثانياً بين جبال عالية صخرية . وفي الساعة السادسة من صباح يوم الخميس 3 يوليه ارتدينا ملابسنا وأخذنا نشاهد على رؤوس هذه الجبال مقادير عظيمة من الثلج المتراكم بعضه على بعض ، وما أتت الساعة 12 و30 دقيقة حتى كنّا بمحطة لاجان Lagan وهي التي منها سنذهب إلى بحيرة لويس[118] Lac Luise التي نقصدها ، وقد كنّا متأخرين عن ميعاد الوصول بساعتين ونصف .

بحيرة لويز

وبينما كنّا على رصيف المحطة تقدم إلينا شاب وسأل هل هو في حضرة المستر رستم وأصحابه ، فأجبته : نعم . فأخبرنا أنه وكيل إدارة الفندق الذي سنذهب إليه وأنه مأمور أن يقوم بما يلزم لنا ، فسلمناه وثائق حقائبنا الكبيرة ، فأعطاها لبواب الفندق وأمره بإيصالها إلى الفندق ، ثم أخذنا باقي أمتعتنا الخفيفة وركبنا معه عربة (شربان) يقودها حوذيٍ ثرثار ، صار يتكلّم عن ماضيه وكيف كان يذهب بالسائحين إلى جهة يللوستون بارك الشهيرة Yellowstone park بمناظرها الرائعة . ثم انتقل إلى الكلام عن زوبعة شديدة حصلت أخيراً في هذه الجهات خرّبت بلدة رجينا Regina وقتلت خمسة عشر شخصاً وأتلفت مزروعات كل هذه الجهة . وقد حكى لنا أنّه منذ أربعين سنة لم تأتِ زوبعة شديدة مثل هذه الأخيرة التي قضت على آمال المهاجرين الذين أتوا إلى هذه الجهات لاستغلال أراضيها الخصبة . إنّ الطريق ما بين المحطّة والفندق يبلغ تقريباً ثلاثة أميال قطعناها في أكثر من ساعة لكثرة الأوحال وعدم انتظامه ، ولم نرَ شيئاً جميلاً يستحقّ الوصف . وصلنا إلى الفندق فأعجبنا كثيراً موقعه ، فأخذنا مفاتيح غرفنا وصعدنا إليها ، وتفقدناها فراقتنا ، ثم نزلنا بعد ذلك لتناول غدائنا ، وكانت تقوم بخدمتنا خادمة شمطاء أسرعت في إعداد طلباتنا . وبعد ذلك صعدنا ثانياً إلى غرفنا لنزيل ما لحقنا من التراب ولنستريح قليلاً من عناء السفر ، ولمّا بحثت عن حقيبتي الصغيرة التي كان بها أنفس الأشياء عندي وأعزّها ، خصوصاً كتاب الله الكريم الذي أهدته إليّ والدتي يوم ولدت ، فهو حليفي أينما سرت أتبرّك به ولا أتركه

---

(118) بحيرة لويز Louise في غرب كندا ، والكاتب يوردها مرة بالسين ومرة أخرى بالزاي .

بعيداً عني لحظة واحدة ، ومصحف آخر أتلو منه بعض الآيات الشريفة بعد صلاة الفجر من كل يوم ، فلم أجدها فطار لبّي وعظم كدري ، فأسرعت إلى طلب بوّاب الفندق وسألته عن هذه الحقيبة ، ولكنّي كنت أشعر باطمئنان في نفسي وأن الله لا يحرمني من هذين المصحفين الشريفين ، فوصفتها له فأجابني أنه لم يرها . فرجوته أن يسأل المحطّة بواسطة المسرة (التلفون) عنها ، ثم أرسلت في طلب مصطفى بك ، وأخبرته بضياع الحقيبة ، وسألته أن يذهب ويستعلم من مدير الفندق أو غيره ويبذل العناية في البحث عنها . وبعد أن غاب قليلاً حضر إليّ ومعه بوّاب الفندق ، وأخبرني أنّه لم يعثر عليها في المحطّة ولا بين حقائب المسافرين ، فكلّفت مصطفى ثانياً أن يقابل المدير ويلحّ عليه في البحث عنها . ولمّا طال انتظاري بدون فائدة تكلّمت مع مدير الفندق بالمسرة قائلاً : إنه مضى على حقيبتي أكثر من خمس ساعات وأنا انتظرها . وذكرت له أنّ بها بعض ملابس أنا في حاجة إليها الآن ومن العيب أن تكون إدارة الفندق مختلّة النظام إلى هذا الحد . ولا يستغرب القرّاء هذا الإهمال وعدم العناية بالبحث عن أمتعة السائحين في أمريكا ، لاسيّما عند المقارنة بين إهمال هؤلاء ودقّة أصحاب الفنادق في أوروبا في المحافظة على حقائب النازلين عندهم وسرعة إحضارها لهم . فإن الأمريكي ينتظر إلى أنْ يُؤتى له بها ولا يدفع فلساً واحداً في استئجار عربة للبحث عنها ، أو مكافأة للخادم الذي يكلّف نفسه مشقّة البحث عنها حتى يعثر عليها ويحملها إليه ، ويرى ذلك كلّه من واجبات رجال الفندق ، فالاعتناء بنقلها وإيصالها إلى أصحابها مفقود . علمت بعد ذلك أنّها ستصلني عمّا قليل ، وبعد هنيهة رأيتها بين حقائب المسافرين على عربة ، ولما وقفت بها أمام الفندق أبى البوّاب أن يحملها ويصعد إليّ بها ، وقد بدر منه لرفيقيّ حينما طلبا منه ذلك خشونة وجفاء في القول ، وقال إنه لم يرَ مع أحد من السائحين حقائب كثيرة وثقيلة المحمل كحقائبنا . صدق في كلامه لأن أغلب القادمين إلى هذا المكان من سكان المدن القريبة ولا يحضرون معهم إلا ما يكفيهم من الملابس لقضاء أيام معدودة في هذا الفندق ، فليسوا مثلنا قادمين من بلاد بعيدة . وبعد جهاد شديد وصلت إليّ تلك الحقيبة مهشّمة وعندما نزلنا لتناول العشاء قابلني مدير الفندق وأخذ يعتذر ، فقلت له : إن الوصية بنا لم تفد كثيراً ، ولو كنّا نعلم أننا سنلاقي في فندقك من التعب وإقلاق الراحة ما لقينا – خصوصاً بعد ما تكبّدنا المشاق في رحلتنا إلى ألاسكا – لما قصدناه . وذكرت له بعض ما فرط من بوّابه فصار يبدي

عظيم أسفه ، ولكن ماذا يفيد الأسف بعد أن تأذينا من سوء المعاملة؟! . في صباح يوم الجمعة 4 يوليه نزلنا لنتفقد حالة الفندق وموقعه فرأيناه كبيراً جداً مشيّداً على شاطئ بحيرة لويز Lac Luise ، والواقف أمام بابه يرى البحيرة وماءها الأزرق الصافي ، وعلى جانبيها جبلان عظيمان تكسوهما الأشجار الناضرة ، وفي نهايتها من الجهة الأخرى ، أي بين هذين الجبلين ، جبال من الثلج تذوب وتكوّن جنادل تصبّ في هذه البحيرة الجميلة . فسألنا : هل هناك طريق وصلنا إلى رؤية هذه الجنادل . فأخبرنا أنّها لا تبعد عن مكاننا بأكثر من ميلين ، وقد قيل لنا إن هذه الجنادل تكوّن بحيرتين قبل أن تصب في هذه البحيرة التي نحن نمتّع الآن أنظارنا بمناظرها الجميلة . فعزمنا أن نذهب إليها راجلين لاسيّما وأن الجوّ في يومنا هذا صافٍ ، والشمس تلقي أشعتها الذهبية على هذه الجبال الجميلة فتزيد في حياة أشجارها وتكسبها نضرة وبهاء ، وتتسلط على رؤوس الجبال الأخرى المكسوّة بالثلوج فتذيبها وتجعل دموعها تتساقط كاللآلئ . فأخذنا طريقاً على شاطئ البحيرة من الجهة اليمنى ، وقبل أن نصل إلى منتصف البحيرة انعطف بنا الطريق إلى جهة اليمين ، وأخذنا نصعد ، فشعرت بالتعب وأخذ نفسي يضيق ودقّات قلبي تقصر ، فاتخذت الطريقة التي تتبعها الخوذية في راحة خيولهم عند تسلقهم الجبال ، وصرت كل 15 دقيقة أستريح نحو أربع دقائق . وقد كان بجانبي خيري بك فلم أرَ عليه أقل تعب ، وكأنه كان يمشي في طريق معتدل ، وهذا ليس بكثير على من كان مثله جنديّاً مدرّباً على ملاقاة أنواع المشقّات . أما مصطفى بك فحدّث عن حالته ولا حرج ، فإنه صار لا يقدر على الكلام . ومن حسن حظّنا أن وجدنا مقاعد معدّة للراحة على جانب الطريق ، ولا يبعد بعضها عن بعض كثيراً ، فكنت أنا ومصطفى نجلس عليها خائري القوّة ويقف أمامنا خيري يشجعنا على الاستمرار حتى تتم هذه الاستراضة التي شعرنا بصعوبتها . وصلنا إلى خص جميل يطلّ على البحيرة ، فجلسنا فيه قليلاً ، وقد أعجبنا موقعه جداً ، وهو معدّ للالتجاء إليه عند انهمار الأمطار ، وقبل أن نغادره وصل إليه فارس[119] Cow-Boy يقود ثلاث سيّدات بلغن من العمر عتيّا يركبن جياداً وقد كشفن عن سوقهن دون مبالاة ، فيا لله من هذه العادات التي مزّقت معها ثياب الآداب . وإني لأخشى أن الزمن على تواليه يحسن القبيح ويقبح الحسن ، فتقضى

---

(119) Cow-Boy تعني : راعي بقر وليس فارسا ، إلا إذا كان المقصود أنه يمتطي فرسا .

البدع (المودة) بالارتداء بملابس تشبه ملابس قدماء اليونانيين والرومانيين أيام كانوا يكشفون نصف أجسامهم . وأظنُّ أن السيِّدات المتأنِّقات في الملبس لا يحرمن أنفسهن من التمتّع بهذه البدع (المودة) ولو نفرت منها الفضيلة وأنكرتها الآداب .

إن التهتّك والتبرج بلغا أقصى غايتهما ، ومّما يملأ القلب أسفاً أنَّ ذلك لم يبقَ مقصوراً على البلاد الغربية ، فإنه أخذ يتسرَّب إلى بلادنا وينتشر فيها بسرعة مدهشة . فأين آدابنا الشرقية وأخلاقنا الإسلامية؟ . إنّي أرى إهمالاً شديداً في المحافظة على عوائدنا القديمة ، وقد الْتَبَسَ الأمر على الشرقيين في فهم معنى الحرية ، وأساءوا التصرّف في الانتفاع بها ، وتذرّعوا بها إلى هتك حرمة الآداب وتقويض دعائم الأخلاق الكريمة . ولو تيقّظوا لعلموا أن الحريّة حقٌّ من حقوق الرشيدين من عباد الله جلّ شأنه منحهم إياها ليستعينوا بها على تنظيم أحوالهم ، وترقية شؤونهم ، واستعمال مواهبهم فيما خلقت لأجله ، والتمتّع بما أباحه الله لهم ، فليس في معنى الحرية الخروج عن حدود الآداب وخرق سياج الفضائل ، فإن ذلك سائق إلى مهاوي الهلاك . إن كلمة حرية كان يُقصد بها أولاً تخليص الإنسان من أطوار العبودية والرق يوم كان القوي يتغلَّب على الضعيف ، فيأخذه أخذ عزيز مقتدر ، ويسخّره في مصالحه كحيوان أعجم مملوك له يتصرّف فيه كيفما يشاء . فلمّا استنارت العقول رأت أن ليس لمخلوق حقّ السيادة على آخر ، وأن كل عبودية من الإنسان للإنسان حطّة ودناءه ، وأن الإنسان سيد نفسه إلا أمام خالقه فهو عبد له دون غيره ، ولا تفاضل بين بني آدم إلا بمقدار ما لهم من المدارك وفضائل الأخلاق ومحاسن الآداب .

هذا هو معنى الحرية التي جعلها الحقُّ جلّ شأنه من حقوق عباده . وهي بهذا المعنى أكبر أركان سعادة الإنسان ، فبها يحيا العدل ويموت الظلم ، وبها يتخلّصُ الإنسان من قيد الذلّ إلى بحبوحة العزّ ، بها تكون للحياة قيمة وبدونها لا معنى للحياة . فإذا خرج الإنسان بالحريّة عن هذه الدائرة إلى انتهاك الحرمات والانغماس في الشهوات ، وإطلاق العنان للنفس تتلاعب بها الأهواء وتفعل بها كلّ ما تشاء . إذا ذهب الإنسان بحريته إلى هذه الغاية انقلبت إلى حرية العجماوات السائحة في بواديها ، فهام في ظلمات الضلال . وإذا كانت هذه الحرية المطلقة هي غاية المدنية الحديثة فجدير بها أن تُسمّى همجيّة . إني ليحزنني أن أرى المتمدنين من أبناء الشرق (مهد المدنيّة الحقّة) ، بعد أن غربت شمس حضارتهم بنبذهم مزايا أسلافهم ، أخذوا يتهافتون على الاقتداء بالغربي في مساوئ مدنيته دون محاسنها . فالغربيُّون

متضافرون متعاونون على ما فيه خير لهم ، مجدّون في أعمالهم ، بعيدو النظر في شؤونهم ، كثيرو التدبير في عواقب أمورهم . حياتهم العملية سائرة على نظام متين أطلقوا لعقولهم عنان البحث في ملكوت السموات والأرض ، ليقفوا على أسرار ما خلق الله من جماد وحيوان ونبات ، فينتفعوا بها في حياتهم . والشرقيون متخاذلون متواكلون لا تعاون بينهم ، متقاعدون عن عظائم الأعمال ، قصيرو النظر في شؤونهم لاسيّما الاجتماعية ، قليلو التدبر في العواقب يكاد نظر أحدهم لا يتجاوز موطئ قدميه ، متخبّطون في حياتهم العملية فلا نظام لها ، تركوا عقولهم ضالّة في فيافي الجهل ، وإن تناولوا شيئاً من العلم قنعوا بقشوره دون لبابه . ويا ليتهم تركوا للقوم شرّهم كما أهملوا خيرهم ، ولكنهم اقتفوا آثارهم في معايبهم فكانوا جماعاً للعيوب ، فانهمك الرجال في الشهوات واستهوتهم الملاهي ، ووضعوا يد الإسراف في أموالهم ، فخسروا الفضيلة والمال . وتبرجت النساء ولا تبرج الجاهلية الأولى ، وغاض ماء الحياء من وجوههن ، وكادت العفّة تطير من قلوب كثير منهن . حدث كل ذلك وما أشبهه باسم الحرية ، والحريّة الحقّة بريئة منه . هذه هي مجمل الأسباب الداعية إلى انحطاط الشرقي وضعفه ، وهذه هي علل تقهقره ووقوعه تحت سلطة غيره ، وحلوله في منازل الهون التي سيبقى فيها حتى يغيّر ما بنفسه ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[120] فحذار حذار من سوء عاقبة هذا الإهمال المهلك ، والله يهدينا الصراط المستقيم .

البحيرات الثلاث

تركنا مكاننا واستمررنا في طريقنا صاعدين إلى أن وصلنا إلى مستوٍ رأينا في وسطه بحيرة صغيرة تدعى المرآة Lac miroir فرأينا أن الاسم ينطبق على المسمّى وقد كان ماؤها صافياً ساكناً ، فمشينا حولها ، ثم لفت نظرنا خص في مكان مرتفع لا يزيد بعده عنّا عن مسير ربع ساعة ، فزمنا أن نصل إلى النهاية وأخذنا الطريق الموصل إليه . وبعد اثنتي عشرة دقيقة وصلنا إليه ، فوجدناه على شاطئ البحيرة الصغيرة الثالثة التي تُسمّى أجنيس Agnes فأسرعنا إلى الدخول فيه لنتّقي تأثير البرد والهواء ، خصوصاً أن العرق كان يتصبّب منّي ومن مصطفى . وبعد أن استرحنا قليلاً

---

(120) الرعد : 11

خرجنا لرؤية منظر هذه البحيرة ، فتجلّت أمامنا الطبيعة بجمالها ، وصرنا نرى البحيرتين الأخريين ، بحيرة المرآة وبحيرة لويز . فوضع البحيرات الثلاث كدرج السلّم بعضها فوق بعض ، فالأولى بحيرة لويز التي على شاطئها فندقنا وهي الكبرى ، ثم تليها بحيرة المرآة وهي أصغر من الأولى ، ثم بحيرة أجنيس وهي أصغر من كلتيهما . والواقف في مكاننا يحيط نظره بأطراف هذه الجهات ، فتصور أيّها القارئ مجموع هذه المناظر : جنادل تسقط من رؤوس جبال مغطاة بالثلوج فتكوّن بحيرة صغيرة منها ، تسقط جنادل أخرى تكوّن البحيرة الثانية ، ثم جنادل ثالثة تكون بحيرة لويز الجميلة . وإذا التفتَّ إلى اليمين أو إلى الشمال ترى جبالاً مكسوّة بالأعشاب والأشجار . وإذا مددت نظرك إلى ما وراء هذه الجبال ، ترى سهولاً خصبة تخترقها أنهر . فما أبهى وجه الطبيعة في هذا المكان ، إنّنا نشعر بلذّة لا تعلوها لذّة . هنا يتيقّظ الخيال ويتّسع أمامَ الناظر مجال التصوّر . فمن كان إيمانه صحيحاً ، يكثر من تعظيم الله وتسبيحه وحمده على جزيل نعمه على الإنسان . ومن كانت أخلاقه كريمة ينمو في قلبه الحبّ الصادق لكل الفضائل . هنا ينسى الإنسان آلام الحياة التي كلّها شقاء ، وإذا أطلق لوجدانه عنانه يحسّ من نفسه بارتياح عظيم لإزالة الضغائن والحسد والشقاق بين البشر ، فما أجمل الأخلاق العالية . إن كلّ شيء جميل أراه يلطّف من أخلاقي ويرقّق من إحساسي ، ويجعلني أُقدّر عظمة الإله جلّ شأنه ، فيزداد إيماني ويرسخ في نفسي اعتقادي . فيا ليت قومي يشعرون بما أشعر به الآن من الميل إلى رقّة الطباع .

تركنا هذا المكان لنعود إلى فندقنا ، وأخذنا طريقاً آخر أقرب من الطريق الذي أتينا منه ، فاضطررنا أن نمشي في صخور المرور منها صعب ، وقد كنت أتوكأ على مظلة (شمسيّة) كانت في يدي ، وتركت أمر مصطفى لزميله خيري ليساعده حتى لا يسقط . ولله الحمد ، وصلنا إلى البحيرة الثانية . وفي أثناء سيرنا تقابلنا مع رفيق كان معنا في سياحة ألاسكا ، وقد كان ممتطياً جواداً ، فسألنا هل بينه وبين وصوله إلى البحيرة الثالثة مسافة عظيمة ، فأجبته إنها على بعد قليل منه ، ثم قابلنا ركباً آخر من الأمريكيين ، فقال لي من في مقدمتهم : ألم تنتهِ هذه الاستراضة؟ !إننا نصعد كأننا نذهب إلى القطب الشمالي . فأشرت عليه بالاستمرار ، ثم صادفنا ركباً آخر من السيّدات ، فسألتني إحداهن عن الطريق ومسافته ، فشجّعتها أيضاً على تحمّل هذه الأتعاب ، قائلاً : إنّ المنظر في النهاية يستحق هذا العناء . وهكذا صرت كلمّا أقابل ركباً سألني بعض من فيه فأجيبه ، حتى وصلنا إلى أسفل الطريق ، فرأيت حالة

مصطفى قد تغيّرت قليلاً وقد وضع يديه على بطنه كأنّه يشعر بمغص ، فاستأذننا أن يسرع إلى الذهاب إلى الفندق ، وتركنا وذهب يجري . ولما وصلنا إلى ردهة الفندق قابلنا باشاً مسروراً ، وقال : الحمد لله ، لقد زال العناء وحلّت الصحة مكان الألم .

بعد أن استرحنا قليلاً ذهبنا إلى شاطئ البحيرة نحو الساعة الرابعة مساء واستأجرنا زورقين ، وأخذت مصطفى معي في زورق ، وتركنا زميلنا في زورق آخر . وقد كنت أظن رفيقي يعرف التجذيف فيساعدني في تسيير الزورق ، ولكنّي وجدته لا يعرف فيه شيئاً ، فجلس في مؤخر الزورق ليضبط السير ، وصار كلّما يهبّ علينا ريح أو تصادفنا موجة يصيح يا ستّار إني لا أعرف السباحة وأخاف الغرق ، وما السبيل إلى الخلاص من هذه الورطة الأخرى . وأخيراً وصلنا إلى نهاية البحيرة . ولمّا قربنا من الشاطئ سمعنا صياح بعض السيّدات ، فالتفتنا إلى مكانهن ، وإذا بفأر كبير يجري بين الأعشاب ، ففزعن منه وامتلأت قلوبهنّ رعباً . ولا عجب ، فالذعر والجبن حليفا المدنية والرفاهية ، كما أنّ الشجاعة مهدها الخشونة والبداوة . عدنا بعد ذلك وقبل أن نصل إلى المكان الذي استأجرنا منه الزورقين رسونا على كشك صغير على شاطئ البحيرة . وخرجنا نحن الثلاثة إلى البرّ ، ثم قلت لمصطفى : اركب أنت وزميلك هذا الزورق ، وأنا آخذ الزورق الآخر . وبمجرد أن ركب الزورق وتحرّك به فابتعد قليلاً عن الشاطئ أخذ يصيح إليّ يا خيري فإنّي على وشك الغرق ، ونحن نضحك من هذا الخوف الشديد . وأخيراً أنقذناه من حالته وسلّمنا الزورقين لصاحبهما .

بعد أن أتممنا هذه الاستراضة عدنا إلى الفندق وجلسنا في أحد طنوفه ، فرأينا كثيراً من السائحين يعودون من الاستراضة الجبلية الشاقّة ، ولا تسل عن حالة الجياد التي كانوا يركبونها ، فإن التعب كان ظاهراً عليها ، ويا ليتها نجت من قسوة الإنسان وظلمه بعد تسلقها الجبال ونزولها من المنحدرات . فإننا رأينا بأعيننا أن بعض الأولاد الذين كانوا يقودون الجماعات بمجرّد نزول السائحين من فوق ظهورها يرفسونها في بطونها رفسات شديدة ، ويتركونها بعد ذلك تذهب إلى مرابطها ، فيا لشقاوة هذه الدواب ، وأين جمعية الرفق لترى ما يحل بهذه الحيوانات التي تسام من العذاب ألوانا ؟

دخلنا بعد ذلك في غرفة المطالعة فوجدنا كثيراً من السائحين والسائحات مضطجعين على الطنافس (الكنبات) وبعضهم كان يغطّ غطيطاً مزعجاً ، فأدهشنا هذا المنظر ، ولكنّنا لم نرَ على وجه الحاضرين من ينكر ذلك ، فكأن النوم عندهم في غرف

المطالعة أو الاستراحة أمر عادي . فهل يعتبر الفندق في نظرهم كالمنزل الخاص الذي يفعل فيه صاحبه ما يشاء؟ هذا ما لم أره من قبل في جميع البلاد التي زرتها . ولو كنّا في بلادنا نفعل مثلهم لقامت علينا القيامة ، واعتبر ذلك منّا توحّشاً وعدم مراعاة لآداب المعاشرة .

إن انهمار الأمطار لم يمكنّا من الاستراضة ، ولو قليلاً بعد أن تناولنا العشاء . كذلك كثرة زحام السائحين في ردهات الفندق اضطرتنا أن نصعد إلى غرفنا لنبتعد عن هذه الجموع ، المؤلّفة من الطبقة الوسطى من الأمريكيين الذين لا يراعون كثيراً الآداب العامّة . ولكن من أين تأتي لي الراحة؟ وزجاج نافذة غرفتي كان مكسوراً والمطر يندفع منه بشدّة ، وحركة الأمريكيين المزعجة الذين كان السرور طافحاً على وجوههم والخمور تلعب برؤوسهم إحياء لذكرى عيد استقلالهم ، أسمعها من فوقي وتحتي ومن الرف المجاورة لغرفتي . فقضيت ليلتي ساهراً أتقلّب على فراشي كالمريض المتألّم ، ولم أذق لذّة النوم إلا قرب الصباح . ولكن لم تأتِ الساعة السابعة من صباح يوم الجمعة 5 يوليه حتى قمت منزعجاً من قهقهة سيّدة كانت تسكن هي وزوجها في الغرفة المجاورة لي ، فكأن الليل الطويل لم يكفهما مداعبة ، فأرادا الاستمرار حتى لا يبقيا من السرور جزءاً لليالي الأنس المقبلة .

إن انهمار الأمطار المستمرّة في هذا اليوم حالت دون خروجنا من الفندق لغاية الساعة الرابعة بعد الظهر ، ولكن بعد ذلك صحبني مصطفى واستأجرنا زورقاً ركبنا فيه ، وأخذ مصطفى يجذف مدّة ساعتين بكل قواه ، وبمهارة عظيمة أدهشتني لأن الخوف كان مستولياً عليه أمس ، وقد أنكر معرفته صناعة التجذيف .

عند عودتنا إلى الفندق وجدنا جمعاً عظيماً محتشداً من الأمريكيين والأمريكيات وعلى رؤوسهم قبعات غُبْر وعلى صدورهم أوسمة ، كل وسام يمثل رأس تيتل ، وهي مصنوعة من الذهب اتخذوها شعاراً لجمعيّتهم ، فمثلهم كمثل جمعيات الألعاب الرياضية في بلاد سويسرا والنمسا . ولكن لم أرَ من بينهم من تظهر عليه علامات القوّة والنشاط ، فإن أغلبهم كانت أجسامهم ضخمة جداً ، وهذا من دلائل الكسل وعدم الحركة ، وربّما كانوا من المولعين بالرياضة البدنية في الزمن السابق ولمّا كثرت عليهم مطالب الحياة انقطعوا عنها وحفظوا لأنفسهم الحق في الانتساب إلى جمعيّتها . لما حلّ ميعاد العشاء دخلنا في غرفة الطعام وأخذنا مكاناً بين الجموع العظيمة ، فعزفت الموسيقى بتلحين لم نفهمه ، فوقف كل من كان في المطعم إجلالاً

وتعظيماً لهذا التلحين ، فوقفنا اقتداء بهم واحتراماً لعاداتهم ، ولكن لم نكد نستقر في الجلوس حتى ابتدئ في تلحين آخر ، وقامت هذه الجموع مرّة ثانية وثالثة ، وهكذا تكرر القيام والقعود عدّة مرار ونحن نفعل مثلهم . وأخيراً عزفت الموسيقى بما يُسمّونه Cake walk فصارت الرجال والسيّدات يغنّون ويرفعون أصواتهم بالغناء والطعام يملأ أشداقهم ، ونحن نلتفت يميناً وشمالاً وننظر إليهم ، ونقول فيما بيننا : لم يبقَ علينا إلا أن نرقص في وسطهم . وقد علمنا أن هؤلاء الزائرين من سكان ولاية مينيزوتا Minnesota وكل ما عزفت به الموسيقى هو من الأناشيد الوطنية ، والحذر من عدم احترامها فإن من لم يحترمها يلاقي من أنواع الإهانة ما يجعله يندم على ما فرط منه . عند ذلك تذكّرت حادثة محمد بك فريد ، فظهر لي الفرق العظيم بين احترامنا لنشيدنا الوطني واحترام باقي الأمم الحيّة لنشيدهم الوطني . وكان الأولى بمن كان مثل رئيس الحزب الوطني أن يظهر بمظهر الاحترام لشعار الأمّة ، ولو كانت خطّته السياسيّة تنافي خطّة الحكومة ، ولكن ما العمل وعادة الشرقيّ ألا يبحث بحثاً دقيقاً في نتيجة أعماله ، وإن اندفع في أمر لا يحسب للعاقبة حساباً ، وبعد أن تحل به المصائب يتأوّه ويندم ، ولكن ما الفائدة وقد سبق السيف العذل .

إن المسألة مسألة آداب وأخلاق وأرى أن اختلاف المذاهب والنزعات لا يؤدّي إلى الخروج عن حدود الآداب خصوصاً إذا كان الغرض شريفاً ، وأرى أن انقسام الأمّة إلى أحزاب يضرُّ بها ، وكفى دليلاً ما نراه الآن من عاقبة الشقاق والتفرّق بين طوائف الأمم الإسلامية . فهل الصادق الوطنية يحب لأمّته عاقبة محزنة كالعاقبة التي تمثل أمام أعيننا الآن؟ إني أتألّم كثيراً من عدم التبصّر في العواقب ، ويزيد آلامي الغرور وحبّ الذّات . ألم تقترب الساعة التي نترك فيها كلّ هذه الأحقاد والضغائن المؤدية إلى الفناء؟ . اللهمّ حقق أغراض المصلحين الصادقين وأبعد عنّا الأشرار المفسدين ، إنك مجيب دعاء المخلصين .

مدينة الفحم والكبريت

في الساعة الثانية بعد ظهر يوم السبت (6 يوليه) أتت العربة التي ستذهب بنا إلى المحطّة لنغادر فندق بحيرة لويز فركبناها ، وبعد أن سرنا نحو ستمائة متر أوقفنا عامل ، وأخبرنا بأنّه وضع لغماً في الجبل على قرب منّا ، فانتظرنا قليلاً ، وإذا بانفجار هائل دوّى في الفضاء ، ورأينا قطعاً كبيرة من الصخور ارتفعت في السماء ارتفاعاً

هائلاً ثم سقطت ، وتبعها قطع أخرى صغيرة اقترب بعضها منّا . وبعد أن انتهت هذه الحادثة استمررنا في طريقنا إلى المحطّة ، فركبنا قطارنا وتحرّك بنا في منتصف الساعة الرابعة ، فأوصلنا إلى محطّة بانف Banff بعد ساعة من الزمن ، وقد كان في انتظارنا المستر ماكدونالد أحد مديري شركة .A.C.R ، ولمّا أردنا أن نركب عربة الفندق وجدناها مكتظّة بالسائحين ، فاضطررنا أن ننتظر قدوم عربة أخرى أرسل في طلبها المستر ماكدونالد المذكور . وفي أثناء ذلك سألته : هل يمكن أن نتبدّل بتذاكرنا التي أخذناها للذهاب إلى تورنتو Toronto بطريق البحيرات غيرها حتى نذهب بالطريق الحديدية؟ فأجابني إن ذلك ميسور له ، فسلّمته ما عندي من التذاكر . وفي أثناء ذلك حضرت العربة فركبناها وسارت بنا إلى أن أوصلتنا إلى الفندق التابع لشركة .P.C.R وأعطيت لنا في الحال غرف جميلة . وبعد أن استرحنا بها قليلاً ووصلتنا حقائبنا نزلنا منها لتفقد حالة الفندق ، فدخلنا المكتبة المعدّة للمطالعة فإذا هي صغيرة بالنسبة لاتساع الفندق . ثم زرنا باقي الغرف والردهات ، واخترنا منها ردهة تطل على مناظر بديعة ، فمكثنا فيها وأمضينا وقتنا بين المسامرة والتنزه إلى أن أتى ميعاد النوم . أصبحنا في يوم الأحد 7 يوليه ونحن نشعر بتمام العافية لأن ليلتنا الماضية كانت هادئة ساكنة ، فأخذنا لأنفسنا من الراحة ما أذهب عنا آثار المتاعب السابقة ، ثم غادرنا الفندق لتفقد مدينة (بانف) فإذا هي شارع واحد عظيم الاتساع به جملة حوانيت ، ويمتد إلى المحطة التي أتينا منها ، فسرنا إلى نهايته . ولمّا كان اليوم يوم أحد وجدنا حوانيت المدينة مقفلة إلا حانوتاً واحداً دخلنا فيه عند عودتنا ، فقابلنا صاحبه وعرض علينا بضائعه ، فاشترينا منه ما اخترناه ، وقبل أن نتركه رجانا ألا نخبر أحداً بما باعه لنا في هذا اليوم لئلا تعاقبه الحكومة بغرامة قدرها 50 دولاراً لمخالفته قانون عدم البيع في أيام الآحاد ، فوعدته بذلك بعد أن أظهرت له أن هذا القانون يخالف مبادئ الحريّة الإنكليزية ، ويدل على التعصب الشديد . سرنا بعض خطوات في الشارع فرأينا مكان به مقعد جلسنا عليه ، فوقفت أمامنا عربة وتقدّم إلينا قائدها ، وعرض علينا أن يذهب بنا إلى حديقة (بانف) العامّة التي بها كثير من الحيوانات ، فقبلنا طلبه وسار بنا إليها ، وفي الطريق صار يحدّثنا عن طريقة تربية هذه الحيوانات ، ومن أين يؤتى بها ، والجبال التي تكثر فيه ، ولمّا وصلنا إليها وجدناها طبيعية أكثر منها صناعية ، وهي كبيرة الاتساع خالية من نظام الحدائق المعتنى بها ، ثم قادنا إلى مكان الجاموس الوحشي ، ولاحظنا ذكراً منفصلاً عن باقي الجاموس ،

وهو كبير الجسم تدلُّ هيئته على القوّة والبطش ، فأخبرنا الحوذي أن السبب في وضعه على انفراد شراسته ، وقد أخبرنا ببعض طبائع هذه الحيوانات المتوحشة ، ومن أعجب أمورها أنّه إذا كثر إيذاء أحدها لغيره يتفق سائرها على مطاردته إلى أن يهلك ويذهب فريسة توحشه ، فكأن هذه الحيوانات أرشدها الله إلى معرفة أن القوّة مهما عظمت تبيد أمام اتحاد الضعفاء ، وإن في ذلك لعبرة لقوم يعقلون . رأينا كل ما في هذه الحديقة ، وبعد ذلك عدنا إلى الفندق .

إن مدينة بانف على صغرها شهيرة بمناجم الفحم الحجري ، وبها ثلاثة ينابيع كبريتيّة يؤمّها كثير من المصابين بالأمراض للاستشفاء بمياهها ، ولذا كثر عدد الوافدين إليها ، وينتظر أن تكبر هذه المدينة إلى أن تصل إلى مصاف أمّهات المدن .

أتى يوم الاثنين 8 يوليه ، وكان يوماً عصيباً إذ فوجئت بنكبة المرض العصبي ، فلازمت سريري لغاية الساعة الأولى بعد الظهر . وفي نحو الساعة الثالثة مساء ركبنا عربة بعد أن ارتديت بمعطف يقيني من تأثير البرد الشديد ، وذهبنا لزيارة بحيرات تبعد عن هذه المدينة بتسعة أميال . وفي الطريق مررنا على مناجم الفحم الحجري ، ورأينا العمّال وقد اسودّت وجوههم ، فما أشقى معيشة هؤلاء البائسين ، إنهم يستحقُّون الشفقة والرحمة والرعاية من ذوي اليسار . استمررنا في طريقنا إلى البحيرات ، ولمّا وصلنا إليها لم نجد شيئاً يستحقُّ الوصف ، ولكنّا لم نندم على إضاعة وقتنا سدى لأن حالتي العصبيّة تستدعي أمثال هذه الاستراضة لتسكين آلامي . إن الإنسان مهما كبر مقامه وعظم جاهه وكثرت ثروته فإنه في احتياج إلى لطف الله ، فهل للذين أعماهم الغرور أن يتنازلوا عن كبريائهم وخيلائهم ويتركوا العظمة والقوّة للواحد القهّار . هذه حقائق ثابتة لا ينكرها إلا جاهل بقيمة نفسه ، فاللّهمّ اكشف الغطاء عن بصيرة هؤلاء الأشقياء حتى يعرفوا منزلتهم الحقيقيّة ولا يكونوا سبباً في تعس من حولهم من أبناء أمّتهم ، إنك على كل شيء قدير .

عدنا إلى الفندق وتسلّمنا تذاكرنا من المستر ماكدونالد ، وفي الساعة العاشرة من صباح يوم الثلاثاء 9 يوليه غادرنا الفندق إلى المحطّة ، فركبنا قطارنا ، فتحرّك بنا في الساعة 11 و30 دقيقة ، وسنمكث به للوصول إلى تورنتو أربعة أيام متوالية . فأمضينا يومنا هذا في اختراق جبال صخرية ووديان خصبة يسكنها بعض أفراد لا يقدرون على زراعتها لاتساعها ، فمستعمرة كندا تسع أضعاف ما بها من السكان ، وحسناً فعلت الحكومة في إباحة المهاجرة وتسهيلها وجعل أراضي كندا رخيصة

الثمن ، فدعا ذلك إلى أن يلجأ إليها كثير من المهاجرين . ولكن لا بدّ أن تمرّ سنين كثيرة حتى يملأ هذا الفضاء المتسع الأرجاء . قبل أن يرخي الليل سدوله وصلنا إلى بلدة كالجاري Calgary ورأينا سكانها خارج البلدة يتنزّهون ، ومن ملابسهم النظيفة علمنا أنّهم في عيد وطني لهم . وفي الساعة 6 و15 دقيقة من صباح اليوم الثاني ، الأربعاء 10 يوليه ، وصلنا إلى بلدة ريجينا Regina ، ورأينا منازلها خالية وعلى عروشها خاوية ، فإن الزوابع دمّرتها قبل أسبوع من يوم مرورنا ، وجعلت عاليها سافلها . وفي الساعة 12 و15 دقيقة وصلنا إلى محطّة براندن Brandon ، ثم استمررنا في طريقنا إلى منتصف الساعة السابعة ، فوقف بنا قطارنا بمحطة وينيبج Winnipeg أكثر من ساعتين ، نزلنا في أثنائهما إلى فندق المحطّة التابع لشركة (C.P.R.) وتناولنا فيه طعامنا . وقد علمنا أنه في هذا اليوم افتتح معرض المصنوعات الوطنية ، وحضر افتتاحه صاحب السموّ الملكي الدوق أف كونوت .

تحرّك بنا القطار بعد أن مضى ربع الساعة العاشرة ، وفي صباح يوم الخميس 11 يوليه وصلنا إلى Port Williams وهي مدينة واقعة على بحيرة Lac Superieur . وكان في خطّتنا قبل تغيير برنامجنا في (بنف) أن نركب منها الباخرة التي توصلنا إلى (تورنتو) ، وقد نزل فيها كثير من السائحين الذين كانوا معنا في القطار للذهاب بحراً ، أما نحن فاستمرّ قطارنا في سيره بعد أن فصل منه عربتان ، وصار ينهب الأرض نهباً متبعاً طريقاً يقرب من شاطئ بحيرة Lac Superieur ونحن ننظر إلى اتساعها العظيم إلى أن أتت الساعة الرابعة بعد الظهر ، فوقف بنا بمحطّة شريبر Schreiber ثم بمحطّة ويت رايفر White River . ولمّا خيّم الظلام افترقنا للراحة والنوم ، وفي الساعة السابعة من صباح يوم الجمعة (12 يوليه) وصلنا إلى محطة سودبوري Sudbury القريبة من بحيرة Huron [121] . ثم ابتدأنا نمرّ على المدن الكبيرة العامرة بالسكان إلى أن وقف بنا القطار بمحطة (تورنتو) ، فنزلنا فيها وركبنا عربة فندق Montreal وهناك أُعطيت لي الغرفة نمرة 750 وهي في الطابق الخامس . أمّا بناء هذا الفندق فهو على الطراز

(121) وردت هذه الجملة في النص كما يلي : وصلنا إلى محطة سودبوري Huronالقريبة من بحيرة Roi Eduward وقد حاولت تصويبها استنادا إلى قاموس Webster وجغرافية Encarta ، ولم أجد اسم بحيرة Roi Eduward في هذه المنطقة ، بل هناك في الشمال King Edward Point وهذه لم يصلها الرحالة .

الأمريكي ، ويحتوى على ألف غرفة . وقد كنت أنفذت في طلب عامل كوك فحضر مسرعاً ، فطلبت منه أن يبدلنا غرفاً غير غرفنا في الطابق الأول ، فأجابني بأن ذلك ميسور له إلا أنّه يخشى أن يزعجنا ويقلق راحتنا المرقص الذي سيقام هذه الليلة في ردهة الفندق ، فقبلنا ما أعطى لنا من الغرف وقضينا ليلتنا في راحة تامّة .

إلى مونتريال

وفي صباح يوم السبت 13 يوليه ذهبنا إلى مكتب كوك لأعمال تتعلق بسفرنا بحراً إلى مونتريال ، ومنه مشينا راجلين في وسط المدينة مخترقين أهم شارع يدعى Young Street ولّما كان الحرّ شديداً أردت شراء حلة (بدلة كاكي) فلم أوفق لما يوافقني . ونحن في الطريق أمطرت السماء مدراراً ، فالتجأنا إلى مكان يقينا شرّ البلل . ولّما انقشعت السحابة استمررنا في طريقنا ، ثم دخلنا في حانوت لشراء بعض بطاقات البريد ، فرأينا غادة كانت تعزف على البيانو ، وصاحب الحانوت يشنّف الأذان بصوته العذب ، وبعد أن قضينا حوائجنا عدنا إلى الفندق ، ثم استأجرنا عربة لزيارة المدينة .

إن مدينة تورنتو كبيرة وشهيرة بكثرة معاملها ومصانعها وهي واقعة على بحيرة أونتاريو Lac Ontario ، وبينها وبين بوفالو Buffalo ونياجارا Niagara مواصلات ، وبها مباني فخمة كمجلسها البلدي ، ومجلس نوابها ، وجامعتها الكبيرة ، ومصنع سفنها ، وسجونها ، وغير ذل . وقد مررنا على جملة تماثيل أهمّها تمثال الملكة فكتوريا ، والتمثال المقام تذكاراً للذين ضحّوا بحياتهم في حروب جنوب أفريقية . رأينا كل مهم في هذه المدينة من منازل جميلة وحوانيت كبيرة ، ولّما قرب الظهر عدنا إلى الفندق على أن نتمم باقي الزيارة بعد الغداء . وفي الساعة الرابعة بعد الظهر استأجرنا عربة أخرى وسارت بنا في وسط المدينة ، ثم أمرنا سائقها أن يذهب بنا إلى شاطئ البحيرة ، ومنه إلى حديقة الحيوانات الشهيرة بكثرة عدد دببها ونسورها وقردتها . وقد أخبرنا الحوذي أن سكان تورنتو يؤملون أن تكون يوماً ما مدينتهم عاصمة كندا لتقدّمها السريع ، وقد يؤمّها كثير من السائحين ، وبها 150 فندقاً و280 كنيسة .

عدنا بعد ذلك إلى فندقنا ، ولولا شدّة الحر لكنّا قد قضينا ليلة هادئة ، وقد استمرّت هذه الحرارة المؤذية حتى صباح يوم الأحد 14 يوليه ، ولّما لم نجد لأنفسنا مخرجاً استأجرنا عربة وأمرنا سائقها أن يذهب بنا إلى مكان نستنشق فيه الهواء .

وفي الطريق أخذ يحدّثنا بتاريخ حياته ، وأنه مكث لغاية السنة العاشرة من عمره ولم يذق للّحوم طعماً لفقره المدقع ، والآن يكتسب عشرة دولارات في الأسبوع ، ولكن يدفع نصفها أجرة مسكنه ، وله من الأولاد ثمانية وتاسعتهم زوجته ، ولا يعرف ماذا يفعل للقيام بمعيشة هذه الأسرة الكبيرة ، وأخيراً انتقل حديثه إلى شدّة ارتباط الإسرائيليين[122] بأبناء طائفتهم خصوصاً الفقراء منهم ، فإن الأغنياء يساعدونهم ولا يضنون عليهم بإعطائهم رأس مال صغير يوصلهم باجتهادهم إلى مصاف ذوي الثروة ، وقد قال أخيراً إنه لا يرى مثل هذه المساعدة من المسيحيين .

استمرّت هذه الاستراضة لغاية الساعة الحادية عشرة ، ولمّا عدنا إلى الفندق وجدنا عامل كوك ينتظرنا ، فاتفقنا معه على الساعة التي يلزم أن نذهب فيها إلى الباخرة لمغادرة هذه المدينة . قبل أن تقلع الباخرة بنصف ساعة كنّا على ظهرها ، فتفقّدنا غرفنا ، فوجدناها جميلة ، وبها كل ما يلزم لراحتنا . وفي منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر تحركت بنا السفينة باسم الله ، وقد كان المنظر عند خروجنا من تورنتو جميلاً جداً إلا أن الحالة تغيّرت بعد ساعة من مغادرة الشاطئ ، فإن ماء البحيرة اشتدّت أمواجه فخيّل إلينا أننا في وسط لجج المحيط الأعظم . ولكن ما أتت الساعة التاسعة مساء حتى كنت أستعدّ للنوم ، ولم أكد أغمض جفني حتى سمعت مصطفى يطرق الباب ، ويقول : انظر مدخل مدينة شارلوت Charlotte الجميل ، ففتحت نافذة غرفتي ، ورأيت المدينة كأنّها شعلة من نار لكثرة مصابيحها الكهربائية ، وقد ألفت نظري كبر وادي القمر[123] Luna Park القريب من شاطئ هذه المدينة الصغيرة ، فرست الباخرة بجانبه وأقامت ساعتين ، ثم أقلعت بنا . وفي الساعة السادسة من صباح يوم الاثنين 15 يوليه كنّا مستعدين لرؤية أول ألف الجزيرة Les 1000 iles . وفي منتصف الساعة الثامنة مررنا على بلدة كليتون Clayton الأميريكية . وبعد أن تركناها أخذنا نمرُّ بين الجزر التي بعضها كبير ، وبعضها متوسّط ، والبعض الآخر صغير جداً ، فليست إحداها إلا صخرة صغيرة ظاهرة على وجه الماء . إن الأمريكيين مضطرون إلى إدخال مثل هذه الصخور في تعداد الجزر لتكملة عددها العظيم وهو الألف ، ولكن هذا لا يمنع أننا رأينا في بعضها حدائق غنّاء وقصوراً شاهقة

---

(122) المقصود هنا الطائفة اليهودية ، وإن اتخذ الاسم دلالته السياسية المعروفة بعد اغتصاب فلسطين .

(123) معنى Park حديقة أو حديقة عامة ، و Luna Park : حديقة ألعاب أو مدينة ملاه .

تسرُّ الناظر إليها . وقد اشترى بعض الأمريكيين الأغنياء بعض هذه الجزر ، وافتنُّوا في جعلها في أحسن حالة ، حتى إننا رأينا كثيراً منها لا تحتوي الجزيرة منه إلا على قصر واحد فخم ، وباقي الجزيرة حديقة منظَّمة تكتنف هذا القصر البديع . ولا تسل عن الحمّامات الخاصّة التي بها ، وعدد الزوارق البخارية وغيرها الراسية على شواطئ هذه الجزر أو التي تجري بينها . وقد سمعت أن هؤلاء الأغنياء يتزاورون بواسطة هذه الزوارق ، فما أحلى هذه المعيشة الطيّبة . إن متوسط الثروة لم يحرم من هذه اللذّة ، فإن في بعض هذه الجزر منازل معدّة للإيجار ، والظاهر أن أجرة السكنى بها ليست عالية . هذا ، وقد أعجبنا جداً رؤية الألف جزيرة ، ولمّا وصلنا إلى Alexandra Bay وجدنا بها كثيراً من الفنادق الكبيرة ذات الحدائق الغنّاء ، هنا أيضاً عدد الجزر عظيم . ولمّا وصلنا إلى بروكويل Brockville التابعة لحكومة كندا كانت انتهت زيارة الألف جزيرة ، وأخذت الباخرة تسير في نهر St Laurent . وفي نحو الساعة العاشرة وصلنا إلى Prescott ، وكانت تنتظرنا باخرة صغيرة انتقلنا إليها حتى يمكن السير في مجرى النهر الشديد السرعة . وقد حُكي لنا أنه يسكن على ضفّتي هذا النهر نحو خمسة آلاف هندي من ذوي اللون الأحمر ، وسنراهم بزوارقهم الوطنيّة يمرُّون في المواقع التي يشتدُّ فيها سرعة مجرى النهر ، ولكن إلى الآن لم يقع نظرنا على شخص واحد من هذا الجنس .

تحركت بنا السفينة الصغيرة في منتصف الساعة الحادية عشرة صباحاً ، وبعد ذلك بزمن قليل تقدَّم إلينا رئيس السفريين ، وسألنا : أأنتم السائحون الوافدون من بلاد بعيدة ؟ فأجبناه : نعم . فقال : إني تحت أمركم وساُعدُّ لكم ما يلزم لتشاهدوا سرعة تيار مياه النهر في الأمكنة التي تشتدُّ فيها ، ولكن يلزم السرعة في تناول غذائكم حتى لا تفوتكم الفرصة . وقد نصحنا ألا نصعد إلى أعلى السفينة ، وقال لنا إننا نصل إلى هذه الأمكنة في الساعة الأولى بعد الظهر ، ويلزم أن نقف من الجهة اليمنى أولاً للباخرة ، ثم ننتقل إلى الجهة اليسرى منها .

رست الباخرة بنا وأقامت في مرساها خمس دقائق أمام Corn wall ثم أقلعت ، وبعد أن سارت بضع دقائق وصلنا إلى المجرى السريع الشهير الذي يُسمّى Long Salt Rapid ، فرأينا الماء يغلي ، فاعترى جميع السائحين هزّة الخوف والفزع من سير السفينة في هذا التيّار الشديد . ولما اقتربت منه اندفعت فيه بسرعة وصارت تتلوّى كالحيّة ، فتارة تعلو على سطح الماء وأخرى تهبط ، فيخيّل إلى الراكب فيها أنّها ذهبت

إلى قاع النهر ، ولكن لا تمضي هنيهة حتى يراها ارتفعت من أحد جانبيها ، فيظن أنّها ستنقلب على الجانب الآخر ، وقبل أن يذهب عن فكره هذا الوهم يرى مقدّمها مغموراً في الماء . فكل هذه التقلبات الرهيبة تمرُّ بسرعة البرق ، والسفينة مستمرّة على السير بسرعتها رغماً من تلاطم الأمواج ، وكثرة الدوامات التي تفتح على سطح الماء فتحات يظن الناظر إليها أنّها ستبتلع السفينة بما فيها ، وتذهب بها إلى قرار ميق . لقد علّلنا هذا الغليان(124) بتعليل عقلي لا نعلم مقدار صحّته من الوجهة العلميّة ، فقلنا ربّما كان في قاع النهر في هذه الجهة هوّات عميقة حولها مرتفعات صخرية بارزة ، فيتصادم تيار النهر فيها ، ثم تندفع المياه بقوّة في هذه المنخفضات ، وتلاقي أمامها حواجز صخرية أخرى عالية ، فتتغلب عليها ، ولم تكد تخرج منها حتى تلاقي هوّات أخرى ، وهكذا . ولو كان قاع النهر مستوياً لما حصل هذا الغليان الشديد . والغريب أن الإنسان لا يمكنه أن يعرف بالدقّة من أين يأتي التيار ، فكان الماء يرد من جملة أمكنة مرتفعة ويصبُّ في جهة واحدة منخفضة ، فتتلاطم المياه الآتية من جهات مختلفة بعضها ببعض ، فيحصل النزاع بينها ، وتنشأ من ذلك هذه الحالة الرهيبة التي وصفتها .

أما نحن فصرنا تارة من الجانب الأيمن للسفينة ، وأخرى ننتقل إلى الجانب الأيسر إلى أن خلصنا من هذه البقعة الخطرة ، وابتدأت الباخرة تسير في ماء هادئ ساكن . أما حالة السائحين ، خصوصاً السيّدات ، فكانت موجبة للنظر ، فإن بعضهن كانت تقبض على حاجز الباخرة بيديها كأنّها على شفا جرف هار وتخاف السقوط في مهوى سحيق . أما الصياح فكان يعلو من كل جهة حتى اختلطت الأصوات رقيقها بخشنها .

بعد أن مضى ربع الساعة وصلنا إلى تيار ثانٍ ، ولكنّه يقلُّ عن الأوّل شدّة ويُدعى Cotran Rapid ثم إلى تيار ثالث اسمه Cedar Rapid ورابع ويُسمّى Split Rock Rapid وخامس ويُدعى Cascade Rapid والحقيقة أن التيارات الأربعة الأخيرة هي تيار واحد ، منفصل بعضه عن بعض بمسافات قصيرة .

إن مهندس الباخرة قبل الوصول إلى كل تيّار كان يوقف حركة الآلة ، ثم يجعلها تسير من الخلف ، ثم يحرّك السفينة إلى جهات مختلفة ليكون على علم من صحّة

(124) تتكرر كلمة (الغليان) هنا ، ولعل الكلمة الدقيقة (فوران) للتعبير عن اندفاع الماء .

جميع الآلات ، وعدم وجود شيء فيها معطّل خوفاً من حصول ما يُسبب عطل السفينة الذي ربّما أدّى إلى ضياعها بين هذه الأمواج المتلاطمة .

رأينا على شاطئ النهر أثناء سيرنا زورقاً بخارياً قد أصيب بعطب فقيل إن صاحبه أمريكي وأراد أن يمرّ من هذه التيّارات بدون مرشد يدلّه على طريقة السير فيها ، فكان نصيبه من هذه المجازفة أن ألقاه اليم على الشاطئ فهشّمه ، وخرج الأمريكي وأصحابه نادمين .

قبل أن نصل إلى مونتريال Montreal مرّت بنا السفينة على تيّار آخر يُسمّى Lachine Rapid وهو أعظم ممّا رأيناه ، وقد مكثت السفينة تكافح صدماته الهائلة مدّة عشرين دقيقة ، ثم خرجت من هذا العراك سالمة من الأذى ، وصارت تقترب من صخور بارزة على وجه الماء ، وفي بعض الأحيان كانت تمرُّ بين صخرتين هائلتين ، ولكن كل ذلك لا يعدُّ شيئاً مذكوراً بالنسبة لاختراقها قلب كل تيّار شديد .

ولقد علمنا أنه ، بالرغم من وجود مرشد في كل سفينة له خبرة كبيرة بطريقة سيرها في هذه التيّارات ، قد أصيب بعضها بالعطب . ولقد رأينا بعد مرورنا على التيار الأخير سفينة تشبه سفينتنا راسية على الشاطئ ، فأشار إليها رئيسُ السفريين ، وقال : انظر ، يا سيدي ، هذه السفينة ؛ إنها تكسّرت ، قبل مرورنا بيومين ، باصطدامها في صخرة بارزة . فحمدنا الله على سلامتنا .



العاصمة الكندية

وصلنا إلى مونتريال بعد عشرين دقيقة من الساعة السابعة مساء ، وكنّا ننتظر أن نرى على الرصيف عامل كوك ، ولكنّنا لم نره ولم نعثر عليه . فصحبني خيري واستأجرنا عربة لتذهب بنا إلى فندق ويندسور Windsor ، وتركنا مصطفى مع حقائبنا حتى ، عند حضوره إلى الفندق ، يجد الغرف مستعدّة ولا نتعب في البحث عن حقائبنا[125] . كنّا أوّل من أخذ عربة من السائحين ، ولكنّ قائدها كان بليداً فأوصلنا إلى الفندق في مؤخّرتهم ، فلم نجد غرفاً موافقة ، فأسرعت بطلب عامل كوك

---

(125) هذه الجملة مضطربة في صياغتها ، ومن الواضح أنها ترجمة غير موفقة . ولا بأس أن نعيد كتابتها كما يلي : وتركنا مصطفى مع حقائبنا حتى لا نتعب في البحث عنها ، فيأتي بها إلى الفندق ويجد الغرف جاهزة .

بالمسرة (التلفون) ، وفي أثناء ذلك حضر رفيقنا مصطفى ومعه الحقائب . ولمّا كان مكتب كوك لا يبعد كثيراً عن الفندق ، لم يطل انتظارنا . ولما حضر صار يعتذر ويقول إنه أرسل لنا أحد رجاله ليكون في خدمتنا ، فلم نعر هذه الاعتذارات التفاتاً ، ثم عزمنا أن نذهب إلى فندق آخر اسمه Viger يتبع شركة .C.P.R بعد ما ذكرت له أنّهم أهملوا في حجز غرفنا ، وما كنت أنتظر منهم ذلك . وفي أثناء الحديث حضر عامل آخر من مكتب كوك بسيّارة ، وتقدّم إلينا وقال إنه ذهب لانتظارنا ولكنّه ما كان يعلم أن الباخرة تصل في هذا الميعاد إذ عادتها الوصول بعد الساعة السابعة . إن عدم الالتفات إلينا في فندق ويندسور جعلني أكره الإقامة فيه ولو كلّفني ذلك أن أغادر المدينة حالاً مع ما نحن عليه من التعب الشديد . فأرسلت أحد هذين العاملين إلى فندق Viger ليعلم أهناك غرف تليق بنا لئلا نذهب إليه ونعود بخفي حنين . ثم خرجنا من فندق ويندسور وجلسنا على مقعد في ساحة عامّة ننتظر ماذا يتم ، ولم يمضِ علينا زمن طويل حتى عاد هذا العامل وأخبرنا أنه حجز لنا غرفاً جميلة في الطابق الأوّل من الفندق المذكور . فأخذنا سيّارة وصحبنا العامل الآخر ، وتركنا الثاني يحضر حقائبنا إلى محل إقامتنا الجديد . وفي الطريق مرّت السيارة في شارع ضيّق جداً به كثير من الأطفال ، فصدمت السيارة طفلاً ألقته على الأرض ، ولكن لحسن الحظ لم يصب بضرر ، فاجتمع علينا حجم غفير ، وكثر الصياح والعويل حولنا . واقترب منّا شرطيّ وأخذ يسأل السائق ويكتب مذكّرة في دفتره الصغير عن الحادثة . وقد تكلّم معنا أحد المشاهدين باللغة الفرنسية ، وقال لنا : مالكم والمرور من هذا الحيّ الضيّق الذي يسكنه الإسرائيليّون؟ فأجبته : إننا غرباء ولا نعرف الطرق ، ومع ذلك فالحادثة صغيرة لا تستوجب الندم ، مادام الطفل لم يحصل له أقل أذى .

وصلنا إلى الفندق فأعجبنا منظره من الخارج ، وقد قابلنا مديره وأحسن وفادتنا ، ثم صعد معنا إلى غرفنا ، فوجدناها كبيرة ونظيفة ، تطل على ساحة متّسعة . وبعد ذلك تناولنا عشاءنا ، وبعد استراضة صغيرة ذهب كل واحد إلى غرفته .

في صباح يوم الثلاثاء 16 يوليه ، ذهبنا أوّلاً إلى مكتب كوك لنخبره بعزمنا على السفر إلى نيويورك في القطار الذي يقوم ليلاً من هنا يوم 17 يوليه . وبعد ذلك صرنا ننتقل من شارع إلى شارع ومن حانوت إلى آخر ، ونحن نسمع أغلب سكان هذه المدينة يتكلّمون باللغة الفرنسية بطريقة غريبة ، ومن الصعب علينا فهمها من أوّل وهلة ، فتعجّبنا من إهمال الفرنسيين ، لهذا الحد ، التفكير في إصلاح لغة هذه

البلاد ، مع أنّهم يرسلون المرسلين إلى بلادنا الشرقيّة لفتح مدارس فيها ، ويساعدون على انتشار لغتهم في الشرق ، ولو كلّفهم ذلك ما كلّفهم من التعب والنفقات . أما كان الأجدر بهم أن يلتفتوا إلى سكان كندا الذين أغلبهم من أصل Bretons et Normands فرنسيٍ ، لاسيّما أنهم يدينون بالدين المسيحي الكاثوليكي . هذا الأمر يجعل عقلاء الشرقيين يفكّرون فيه ، وهل لانتشار لغات بيننا مآرب أخرى يجهلها بعضنا؟ .

إن سكان مدينة مونتريال يظهر عليهم التعصب الشديد لدينهم ، فإن أغلب الشوارع سُمّيت بأسماء القديسين ، ولكن كثرة الواردين عليها من أولي المذاهب المسيحية المختلفة سبّبَ ابتداء التنافس بين المذاهب . والدليل على ذلك أننا مررنا على مكتبة في شارع سنت كاترين فوجدنا بها كتباً ورسوماً معروضة للبيع ، مضمونها الاستهزاء بالمذهب الكاثوليكي وتفضيل المذهب البروتستانتي عن[126] غيره . وهذه ليست أوّل مرة رأيت فيها بعض البروتستانت يهزؤون بالمعتقدات الأخرى ، فإن في بلادنا دخلاء منهم نزحوا إليها ليعرضوا بالدين الإسلامي الحنيف الذي لا يجد العقل السليم سبيلاً إلى الطعن فيه ، فقد حفظه الله نقيّاً رغم أنف الجاهلين .

إن مدينة مونتريال شهيرة بتجارتها في أنواع الفراء ، وموقعها الجغرافي جعل لها مكانة عظيمة في علاقاتها التجارية مع باقي الجهات . وهي مدينة عتيقة وتاريخها قديم ، والجائل فيها يحكم بثروتها من عدد مخازنها ومعاملها ومصارفها . ولمّا حلّ بنا التعب من كثرة السير ، أخذنا عربة أوصلتنا إلى ساحة ويندسور ، ومنها إلى ساحة فكتوريا ، ثم إلى الفندق .

في منتصف الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم أردنا أن نذهب إلى Dominion Park وهي على بعد ثمانية أميال من الفندق ، فركبنا الترام من شارع نوتردام Notre Dame القريب منّا . وسار بنا على شاطئ النهر ، وصرنا نمرّ على معامل غزل القطن ، وعمل الأقمشة ، ومصانع المطاط ، ومعامل السكر ، وغيرها . وبعد عشرين دقيقة وقف بنا أمام الحديقة التي نقصدها ، وإذا هي وادي القمر فدخلنا فيها بعد أن دفعنا رسم الدخول ومقداره 10 سنس عن كل شخص . ولكنّا لم نرَ فيها كثيراً من الزائرين ،

---

(126) الصحيح أن نقول : فضّل (على) .

لأنّهم لا يحضرون عادة في مثل هذا الوقت ، فتفقدناها فإذا هي مقسّمة إلى جملة أمكنة ، بها ألعاب مختلفة ، دخلنا في بعضها كالغرفة المتحرّكة ، وسباق الكاوبوي Cow Boy ، والزوارق الصغيرة التي تسير بقوّة اندفاع الماء بين المغارات والزوارق التي تتزلق من علوّ وتسقط في بحيرة صناعية ، وغير ذلك . ثم تفقدنا باقي الأمكنة فرأينا سودانياً ضخم الجسم يُقدّرون زنته بسبعمائة وخمسين رطلاً[127] ، وامرأة تلاعب الثعابين ، ورجلاً نصفه الأعلى كامل الخلقة أما جزؤه الأسفل فصغير جداً لا يكبر عن جسم طفل حديث الولادة . ثم ذهبنا بعد ذلك إلى مكان به مصعد ، فأراد مصطفى بك أن يرى ما فيه من الغرائب لأن ظاهره لا يدلّ على شيء خارق للعادة ، فتقدّم إلى الرجل الذي يحركه وطلب منه أن يصعد به إلى أعلى مكان لعلّه يرى شيئاً جديداً فيخبرنا به . ولمّا دخل فيه قال له الرجل توكّأ على المسند حتى لا يعتريك تعب ، فعمل بإشارته ، وأدار الرجل حركة المصعد ، فما لبثنا أن رأينا مصطفى مُلقى على ظهره وقدماه مرفوعتان إلى السماء[128] ، فقام يتعثّر في أذيال الخجل ممّا لحقه . أما نحن فكاد أن يُغمى علينا من شدّة الضحك . انتقلنا بعد ذلك إلى مكان به دائرة من الخشب تشبه الرحى ، فجلس عليها مصطفى وحرّك آلتها الرجل الموكل بحراستها ، فدارت بسرعة مدهشة ألقت مصطفى على الأرض على بعد منها ، فانقضّ عليه عدد من الأطفال وطفقوا يلعبون بأيديهم في جسمه ، وهو يصيح وما من مجير يجيره من أيديهم التي لا ترحم . ثم ذهبنا إلى مكان به أنبوبة كبيرة من الخشب ، وكان يتبعنا هؤلاء الأطفال فتقدّموا إلى مصطفى ، وقالوا له : إن من الصعب أن تمرّ من هذه الأنبوبة ، وصاروا يحثّونه على أن يظهر شجاعته واقتداره في المرور منها ، فلبّى طلبهم ودخل فيها ، وتبعه عدد من هؤلاء الأطفال ، ولمّا وصل إلى نهايتها لم يشعر إلا وهو في بؤرة فسقية من خشب لا يمكن الإنسان أن يقف فيها ، أو يخرج منها ، وتهافت عليه الأطفال وأيديهم تلعب في خاصرتيه ، وهو كالسمكة بينهم يتلوّى ويصيح إلى أن خلّصه الرجل الذي يحرسها بأن ألقى إليه حبلاً أمسك طرفه وجذبه إليه ، ولكن بعد أن رماه فيها جملة مرار ، وهو يسترحمه أن يخرجه من هذه الورطة . وقبل أن نخرج من وادي القمر أردنا أن نصعد في الجبال

---

(127) الرطل الإنكليزي Pound = 95,354 غرام ، أي أقل من نصف كيلو غرام .

(128) التعبير العربي السليم أن نقول : قدماه مرفوعتان إلى أعلى ، وليس إلى السماء .

الروسية Montagnes Russes فركبنا في إحدى عرباتها ، وصعدت بنا إلى علوّ شاهق ، فرأينا المدينة ومناظرها البديعة . وبعد أن تركنا هذه الجبال لفت نظرنا رجل يقول : تعالوا لرؤية أشهر السابحات في الدنيا . فأردنا أن نختم الزيارة برؤية تلك الغادات الحسان ، ولمّا تقدّمنا لدفع رسوم الدخول قال لنا هذا الرجل : إن دراهمكم لا تذهب سدى ، فسترون ما يروقكم ويسرّكم . إنّ هذا المكان يحتوي على بحيرة صغيرة صناعية مستديرة ، وحولها مدرج (أنفيتياتر)(129) لجلوس الزائرين . وقد وجدناه غاصّاً بالمشاهدين دون الأمكنة الأخرى ، وهذا ليس بعجيب ، فإن المرأة من طبيعتها أن تجذب الرجل ، فكيف بها وهي عارية ولا يستر جسمها الرقيق الجميل إلا غلالة (فانيلة) سوداء تزيد حسنها وتظهر جميع أجزاء جسمها . وقفنا بجانب المكان الذي تثب منه الغادة إلى هذه البحيرة وتظهر افتنانها في ضروب السباحة . وقد كانت غادة أخرى واقفة في هذا المكان المرتفع وعملها أن تنادي اسم كل غادة يأتي دورها مع عرض معلوماتها الواسعة في فنون السباحة ، وإيضاح صعوبة كل حركة تعملها السابحة ، وقد رأيناها أجمل من رفيقاتها . أما عدد اللاتي عرضن أنفسهن أمامنا فست ، بينهنّ ذات الشعر الأسود ، وذات الشعر الذهبي ، والكستاني ، وبالجملة جميع ألوان الشعر الجميلة . أما أجسامهن فمختلفة ، فمنهنّ من هي هيفاء تتمايل كالغصن إذا هبّ عليه النسيم ؛ ومنهنّ من هي قوية الجسم طويلة القامة ، شديدة الأعصاب ، عضلة تملؤها الصحة والعافية ؛ ومنهنّ من هي متوسّطة القوام ، خفيفة الروح ، سريعة الحركة . وبالجملة ، كان في هذا المعرض كل أنواع الجمال الأمريكي ، لأنهنّ من بنات الولايات المتحدة . إن نفسي لا تكره أن ترى مثل هذا الجمال والدلال ، ولكنّي أشعر أنّ في ذلك انتهاك حرمة الآداب . هذه المناظر هيّجت أعصاب أحد المشاهدين ، فأخذت تبدو عليه حركات تدلّ على شدّة انفعاله وتأثّره ، وهو ينطق بألفاظ لا يليق أن يفوه بها أمام الجمهور ، فاستشاطت إحدى السابحات غضباً ، وجعلت تسمعه من قارص اللام ، وتسدّد إليه من سهام التقريع ما يخرس الألسنة . ولكن أنّى لها ذلك ، وهل تنتظر من جمهور جامع لكل الطبقات آداباً عالية؟ لولا أن رأينا منهنّ ما دلّ على إتقانهنّ جميعاً فن السباحة ، لكنّا حكمنا بأن إنشاء مثل هذا المكان لم يكن إلا لأغراض أخرى سيئة . ولكنّهنّ أبدين من ضروب

---

(129) Amphitheater: مدرّج .

السباحة ما أدهش جميع الحاضرين . ومع ذلك إنّي أنكر عرض هذه المعلومات أمام الجمهور لمخالفتها الآداب . عدنا بعد ذلك إلى الفندق ، وختمنا يومنا باستراضة قليلة بعد تناول العشاء .

وفي صباح يوم الأربعاء 17 يوليه ذهبنا أولاً إلى مكتب كوك لاستلام تذاكر السفر ، ثم أمرنا سائق عربتنا بالذهاب إلى الحديقة التي تدعى Royal Park وهي واقعة خلف المدينة على جبل تكتنفه الأشجار وتكسوه الأعشاب . وفي الطريق مررنا على مدرسة الجيزويت الكبيرة ، ثم على الجامعة التي تُسمّى باسم منشئها الدكتور Magill وهي مكوّنة من خمسة عشر قصراً . وقد سمعنا أنّها ما وصلت إلى هذه العظمة إلا بفضل الهبات الكثيرة التي وهبها لها المستر ماكدونالد MacDonald الكندي التاجر الشهير في أنواع التبغ . ولقد عرف كيف يخدم بلاده ، فلم يبخل عليها بثروته العظيمة ، لاسيّما أنه غير متزوّج ، ويبلغ من العمر الخامسة والستين ، ولا فائدة له في كنزها . مررنا بعد ذلك على مستشفى فيكتوريا العظيم الذي أنشئ بأموال أهل المروءة وتبرعات اللورد Strathcona الذي كان يتجر تجارة صغيرة في أنواع الفراء في الزمن السابق ، وكان اسمه المستر Donald Smith ويزيد عمره الآن عن تسعين سنة . ومع ذلك لا ينقطع عن الأشغال ، فهو يمثّل حكومة كندا في مجلس النوّاب الإنكليزي ، والمدير العام لشركة C.P.R. وإذا رآه الإنسان لا يقدّر عمره بأكثر من ستّين سنة ، فهو قويّ يسافر إلى إنكلترا ليحضر جلسات مجلس النوّاب ، ويعود إلى كندا لإدارة شؤون الشركة التي يرأسها . أما تاريخ حياته فإنه كان تاجراً صغيراً في الفراء فأتته السعادة من هذا الباب . ولا عجب في ذلك ، فإن تجارتها كانت تكسبه 2000 في المائة . ولا يستغرب القارئ ويظن أن في ذلك مبالغة ، فإن الفروة الواحدة التي تساوي ألوفاً من الفرنكات ، كان يشتريها من الهنود وغيرهم بأربعة كيلو جرامات من الدقيق ، أو بعقد من الزجاج الملوّن ، أو بقطعة من الأقمشة الرخيصة . ولّما يجمع من الفراء عدداً كبيراً يرسلها إلى بلاد الصين ويستبدلها بالشاي أو القطن أو الحرير أو غيرها ، فكان يأخذ من هذه الأشياء مقادير عظيمة ثمناً لفروة واحدة لم يدفع ثمناً لها أكثر من أربعة كيلو جرامات من الدقيق ، ثم يبيع هذه الأشياء في أوروبا وأمريكا ، وفي الجهات التي يكون ثمنها فيها عالياً . وإذا بحثنا عن الأسباب التي أوصلت أسرة أستور Astor إلى ثروتها التي تُعدُّ بالمليارات نجدها نفس الأسباب التي أغنت المستر Donald Smith قديماً أو اللورد Strathcona الآن .

مررنا بعد ذلك على عمارة المستر Allan صاحب شركة البواخر الإنكليزية Allan Line Co. ، وهكذا صرنا ننتقل من شارع إلى شارع ومن عمارة إلى عمارة إلى أن وصلنا إلى الجبل ، فصعدنا فيه ولا يبلغ ارتفاعه أكثر من 280 متراً ، فرأينا منه أطراف المدينة ونهر سان لوران العظيم . وبعد أن متّعنا نظرنا برؤية كل هذه المناظر عدنا إلى الفندق . وفي منتصف الساعة الثامنة ذهبنا إلى المحطّة لركوب القطار الذي يوصلنا إلى نيويورك ، فتحرّك بنا بعد أن مضى عشر دقائق من الساعة التاسعة . وفي الساعة السادسة من صباح يوم الخميس 18 يوليه وقف بنا القطار في محطة Albany وهي التي ذكرتها سابقاً عند رحلتنا إلى نياجارا Niagara . وفي الساعة الثامنة صباحاً وصلنا إلى محطة نيويورك واستأجرنا سيارة أوصلتنا إلى فندق Gotham بشارع 5h Avenue فدخلنا فيه ، وأعطيت لنا غرف جميلة جداً ، خصوصاً غرفة الاستقبال التي اختارها لي مدير الفندق ، فإنها كانت تطلُّ على أهم شوارع المدينة . وعلى أثر وصولنا ، حضر لمقابلتنا والسلام علينا الخواجه قيصر صبّاغ وأخبرنا أن بعض أعضاء نادي الاتحاد السوري يستأذنون في مقابلتنا بعد الظهر ، فضربنا موعداً لذلك الساعة الثالثة ، وانصرف من عندنا بعد أن شكرناه لرقّة إحساسه . حضر بعده المستر يونج ، مدير محل كوك بنيويورك ومعه رسائلنا ، فاتفقت معه على طريقة السفر ، وبعد ذلك انصرف إلى حيث أراد .

في الموعد المضروب حضر أعضاء نادي الاتحاد السوري ، فقابلناهم مرحبين بهم ، وأبديت عظيم سروري من رؤيتهم وهم متمتعون بالصحة ، وكرّرت على مسامعهم شكري لهم على ما ألاقيه منهم ، ثم دار بيني وبينهم حديث عن لنا اننا نصل الى هذه الأمكنة فى الساعية ممممممتاتالا7عةرحلتنا الطويلة ، فقصصت عليهم بعض ما رأيناه من عجائب هذه البلاد . وبعد ذلك اتفقنا على ما يلزم لإحياء ليلة التكريم التي سيقومون بها في يوم 20 يوليه وانصرفوا مودّعين منّا بما اقتضته آدابهم .

قضينا باقي يومنا في استراضة صغيرة داخل المدينة ، وفي قراءة بعض الجرائد التي تأتي من أوروبا لنقف على مجرى السياسة . وفي اليوم التالي الجمعة 19 يوليه لم نعمل شيئاً مذكوراً سوى كتابة مذكّرات رحلتي ، والذهاب إلى مكتب كوك ، وزيارة بعض الحوانيت . وعند عودتنا إلى الفندق ، وجدنا رسالة من الخواجه تيودور

خيّاط العضو في مكتبة نيويورك العامّة يدعونا فيها لزيارة المكتبة . ثم تسلّمنا هدية نفيسة مرسلة من قبل المسيو ريحاني(130) ، وهي مؤلفاته الكثيرة المفيدة . وبعد الظهر حضرت مدام صبّاغ ومعها زوجها ، فقضينا معهما وقتاً طويلاً في المسامرة . ولقد أعجبني في هذه السيّدة أدبها وذكاؤها ، فإنها أهل لكل مدح وثناء ، وكفى دليلاً على نبوغها أنّها تدير محل تجارة كبيراً خاصّاً بملابس السيدات وسائر مطالبهن ، وأصبحت بجدّها واجتهادها وحسن معاملتها ورقّة ذوقها زعيمة باقي المتاجر التي تشتغل في مثل تجارتها .

إن سيّدة شرقية تتغلب على الأوربيات والأمريكيات وتزاحمهن في أشغالهن وتنال الشهرة بينهن ، وهي غريبة في هذه الأوطان الجديرة بكل إعجاب وفخر . ولقد زاد احترامها في نظري ما رأيته فيها من الوطنية الصادقة والإخلاص العظيم لأبناء جنسها ، فهي واقفة على دخائل أمور بلادها الاقتصادية ، ولا تجعل الفرصة تمرّ بدون أن تبرهن للعالم أنّها من أقدر السيدات . إنّ في تشغيل أبناء جنسها بسوريا في صناعة (الدانتيلا) وإرسالها إليها لتبيعها الأمريكيا لدليل قطعي على معرفتها الواجب عليها لأبناء وطنها . إنّها بذلك تشجعهم على اكتساب رزقهم حلالاً ، وتحبّبهم في الأعمال وتخفّف عنهم وطأة الحياة التي كلّها شقاء .

ذهب بنا الحديث بعد ذلك إلى ذكر بعض أقاربها ومعارفها الذين أعرفهم حقّ المعرفة ، وأحترم آراءهم وأفكارهم السامية ، كسليم أفندي سركيس الشهير بتضلّعه في آداب اللغة العربية ، فإن كتاباته تدلّ على علوّ منزلته في عالم التحرير ، وله فوق ذلك طريقة خاصّة لطيفة في كتابة مقالاته يعرفها كلّ أهل مصر . أما سليم بك ثابت فإنّي أحترمه كثيراً وأحبّه بكلّ قلبي ، فهو خطيب معروف ، وكاتب تحرير يخدم بلاده بكل قواه ، وإذا حصل سوء ظن بين المسلمين والمسيحيين مواطنيه يتداخل في الأمر ويحسم في الحال الخلاف الواقع بينهم ، ولا غرض له في كل أعماله إلا الخدمة الحقيقية ، وتوثيق عرى الاتفاق بين الجميع بدون نظر إلى المعتقدات والمذاهب . ولذا كان محترماً بين الجميع ، معروفاً عند أكابر الموظفين العثمانيين ،

---

(130) أمين الريحاني (1876-1940) : ولد في الفريكة (لبنان) وهاجر إلى نيويورك . ترك لنا آثارا أدبية وتاريخية قيمة وعدة رحلات لعل أهمها : «المغرب الأقصى» .

محبوباً من بطريرقه الجليل ، فهو إذاً واسطة خير وبشير سلام وخادم الأصدقاء . ذكرنا بعد هذين الفاضلين اسم خليل أفندي مطران وما له من المكانة العالية عندنا ، ثم اسم نجيب باشا شكور الذي جمعتني به حادثة تعدّي الإيطاليين على سكان بيروت ، عندما تألّفت اللجنة بمصر لإغاثة من أصابهم هذا التعدّي الفظيع ، وكان من ضمن أعضائها ، فوجدته ذكي الفؤاد رقيق الأخلاق حميد الصفات عالي الهمّة .

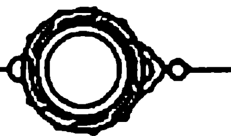
بعد انصراف هذه السيّدة الفاضلة وزوجها المحترم ، وصلتني رسالة من جلال الدين بك قنصل تركيا بنيويورك يدعوني فيها من قبل ضيا باشا سفير الدولة العثمانية بالولايات المتحدة أن أحضر حفلة الدستور العثماني التي ستقام يوم 24 يوليه ، فأرسلت أشكره على هذه الدعوة معتذراً بأنّي لا أستطيع ذلك لأنّي سأسافر قبل هذه الحفلة بيوم .

ومع ذلك لو كنت في نيويورك لما حضرت هذه الحفلة ، لأنّي لا أرى موجباً لإقامتها . فإذا كنّا مسلمين يلزمنا قبل كل شيء احترام الخليفة لأنّه أمير المؤمنين . فإذا احتفلنا نحتفل بعيد ميلاده وعيد ارتقائه على عرش الخلافة ، أما إذا كان بعضهم يعتبر وظيفته صورية فإني بريء منه ومن أفكاره . فحمدت الله إذ لم أكن بينهم في يوم احتفالهم حتى لا أضطر إلى رفض دعوتهم .

في منتصف الساعة الخامسة مساء من يوم السبت 20 يوليه ، ذهبنا لرد الزيارة لمدام صبّاغ في منزلها على شاطئ Riverside ، وهناك الهواء جميل والجوّ معتدل والموقع حسن جداً . وبعد أن شربنا القهوة الشرقية اللذيذة ، وتناولنا شراب عصير الليمون المثلج ، انصرفنا إلى محل إقامتنا لنستعد للذهاب إلى الحفلة الإكرامية . وفي الساعة السابعة حضر أنطون أفندي سمعان ومعه إلياس أفندي ملوك ، فأخبرنا بأنّهما ينتظراننا بقاعة الاستقبال . ولا يظن القارئ أن الخواجه سمعان من أسرة سمعان المعروفة بمصر ، ولكنّه رجل له مكانة رفيعة بين مواطنيه والأمريكيين ، فهو محبوب من الجميع لما اشتهر به من الكمال وعلوّ الهمّة . ركبنا سيارتين ذهبتا بنا إلى فندق والدورف أوستريا ، وقد كنت ورفيقاي مرتدين طرابيشنا حتى نجعل للحفلة صبغة وطنية رسمية ، ودخلنا من مدخل صغير غير مطروق لكيلا نمرّ على ردهة الفندق العامّة التي يكثر فيها عادة الجالسون . ثم ركبنا المصعد فوقف بنا أمام الردهات المتسعة التي زيّنت بأبهى زينة ، وكان ينتظرنا جميع المدعوّين ، وبمجرد أن وضعت

قدمي في باب الردهة الكبيرة عزفت الموسيقى بالسلام الخديوي[131] ، وتبع ذلك تصفيق حاد . وقد كنت أرى على وجوه جميع الحاضرين الفرح والسرور ، فكانت كل حركة يأتون بها تدلّ على عظيم الإخلاص والتعلّق بالأسرة الخديويّة . هذا ، وقد كان أوّل من استقبلنا حضرة رئيس الجمعية داود أفندي حديري ، وهو أحد مؤسسي جمعية الاتحاد السوري ، ومن أعظم العاملين فيها لما له من الخبرة العظيمة في كل ما يرقّي أمته . وقد كنّا سمعنا به وبغزارة معارفه ، فإنّه درس العلوم العالية وتّمها بنجاح كبير ، فابتدأ يقدّم إلي الحاضرين ، وأنا أصافحهم فرداً فرداً إلى أن لفت نظري هيئة شاب يتّقد ذكاء ، فعندما ذكر حضرة حديري أفندي اسمه ، وهو عبد الملك أفندي سعد ، سررت لأنّ نظري لم يخطئ في معرفة جنسه بمجرد أن رأيته ، وقد قال لي عنه رئيس الجمعيّة إنّه يدرس الطب بجامعة (بوسطون) ولمّا سمع بإقامة الحفلة طلب الاشتراك فيها حتى لا يحرم من رؤية أمير مصري في هذه البلاد ، فقبل طلبه ، وتكبّد مشاق السفر لحضور هذه الحفلة ، فشكرت له شرف إحساسه وأظهرت له عظيم سروري برؤيتي أحد المصريين بيننا في هذه الليلة الشائقة . وبعد أن أتممت مصافحة جميع الحاضرين ، ألقى رئيس الجمعية خطبة بليغة رحّبَ بها بقدومي ، وأعرب عن شكر جميع السوريين لي لقبولي دعوتهم . ولّما كنت أعددت خطبة ولم تكن لي عادة أن أخطب في وسط جمهور عظيم ، طلبت أن أقرأها عليهم حتى أكون مستريح البال مدّة وجودي بينهم ، فقابلوا هذه الصراحة بفرح عظيم ، وقال رئيسهم إنّهم يودّون أن أكون في راحة تامّة ، ويسرّهم أن أعمل ما أحب ، فشرعت أقرأها وهم حولي يسمعونها وكلّهم آذان مصغية[132] .

العودة



في يوم 23 يوليه زايلنا نيويورك إلى أوربا فودّعنا على الباخرة قيصر ويلهام Kaiser Wilhelm II قنصل تركيا المحترم ، وحضرات رئيس وأعضاء الاتحاد السوري الذين قدّموا لنا باقة ورد باهرة ، وقدّم لنا حضرة قيصر صبّاغ سلة زهور جميلة .

سارت بنا السفينة تحفّها العناية الإلهية فأخذت تشقّ عباب ذلكم الخضم

---

(131) الخديوي : كلمة فارسية ، معناها : الملك ، كبير القوم .

(132) نص الخطبة وكلمات الاحتفال في الملحق (2) .

راحلة بنا عن عالم الدنيا الجديدة إلى عالم الدنيا القديمة . فإذا نظرت ورائي رأيت أمريكا ، بلاد العجائب ، أمام عيني وشواطئها أخذت تغيب عن ناظري ، وعمّا قليل تتوارى خلف حجاب من البحر لا تخترقه العيون . ولكن كلّما غاب جزء منها عن عيني ظهر خياله في فؤادي ، وما زالت الحقيقة تصفر فتختفي ، والخيال يعظم فيتجلّى حتى توارت أمريكا كلّها عن ناظري ، فتمثّل خيالها أمامي ، أنظره بعين القلب حتى خيّل إليّ أنّي ما زلت في أمريكا ، أجول في أرجائها متنقلاً بين جبالها ووهادها ، وبدوها وحضرها ، وآكامها وآجامها ، وفنادقها وأكواخها ، وجنادلها وأنهارها ، وجزائرها وبحيراتها ، وأبيضها وأحمرها . وإذا نظرت أمامي ووجّهت وجهي شطر بلادي تذكّرت الديار والأهل والخلان ، وتمثّل في فؤادي وطني المحبوب فهاجت الذكرى شوقي إليه ، وحننت إليه حنين ابن الرومي في غربته إلى بغداد وطنه ، إذ يقول فيها :

بلد صحبت به الشبيبة والصبا
ولبست ثوب العيش وهو جديد
فإذا تمثّل في الضمير رأيته
وعليه أغصان الشباب تميد

وبينا أنا غارق في ذكر بلادي والحنين إذا بي ملتفت ورائي ، فأذكر أمريكا ، ثم لا ألبث أن أعود إلى ذكر بلادي ، وهكذا بقيت نفسي بين عاملين يتجاذبانها ، الشوق إلى الديار والحنين إليها ، وذكر أمريكا وأهلها والنازحين إليها من إخواني أبناء الشرق ، وتلك الأيام التي قضيتها فيها بين حلّ وترحال ، باحثاً في العادات ، مقارناً بين الأخلاق ، مشاهداً لآثارها ، مطّلعاً على عجائبها ، متمتعاً برياضها وبديع مناظرها . ولكنّي قلت في نفسي إنّ كل لحظة تمرّ تقصيني عن أمريكا وتدنيني من بلادي ، فبلادي آتية ، وأمريكا ذاهبة ، فجدير بي أن أتفرّغ لتلك الذاهبة لحظة لأناجيها بكلمة وداع ، فأقول :

سلام على الدنيا الحديثة . سلام عليك يا أمريكا ، وعلى أبنائك أولي الجدّ والعمل ، أولي الآمال الواسعة ، والغايات الشاسعة . سلام عليك ما آتيت أبناءك مفاتيح كنوز أرضك ، فجنوا ما على ظهرها وما في بطونها من الخير العظيم ، حتى أوشكوا أن يكونوا جميعاً أولي ألوف مؤلّفة وقناطير مقنطرة من الذهب والفضة . سلام عليك ما أقبلتِ باسمة على أبنائك البيض المحدثين ، وإن أدبرت عابسة عن أبنائك

الحمر الأقدمين (وهذه عاقبة كل قوم أهملوا في استخراج خيرات بلادهم ، إذ يسلّط الله عليهم من يعرفون قيمة تلك الخيرات ، فيتمتّعون بها وأهلها محرومون) . سلام عليك وعلى أبنائك الذين عرفوا أفضل العلم فأنفقوا المال (على حبّه) في إنشاء مدارسك العامرة وجامعاتك الزاهية . سلام عليك ما أمّك من هجروا بلادهم منتجعين فوسعهم صدرك ، وإن جنى جلّ ثمار أعمالهم البيض من أبنائك السائدين . سلام عليك ما افتنّ أبناؤك في أساليب الكسب وضروب الإعلان . سلام عليك ما تنافس أبناؤك في أسواق التجارة حتى ملكوا ناصيتها في سائر بقاع الأرض . سلام عليك ما متّعت أبناءك وبناتك بنعمة الحرية ، وإن كانت مطلقة لا حدّ لها . سلام على قصورك الشامخة التي أوشكت أن تسامي السماء . سلام على ما أخصّك الله به من الآيات الدّالة على عظيم قدرته ، من جبال وأنهار وينابيع وأشجار وجنادل ، مناظرها رائعة ، تقف العقول أمام عظمتها حائرة . سلام عليك ما اتّسع أمام أبنائك مجال الخيال . وفتحت أمامهم أبواب الغلوّ حتى أرونا من الحبّة قبّة ، وخيّلوا إلينا أن الصخور الساكنة نسور طائرة ، والأحجار الصامتة أسود زائرة . سلام عليك مادمت دار هجرة لمن ضاقت به بلاده ونبذته أوطانه فالتقى فيك سائر الأجناس البشرية . سلام عليك ما وفد إليك الوافدون ورحل عنك الراحلون . أحييك تحية الوداع ولي فيك وديعة ، فأوصيك بها خير حتى تردّ إلى أهلها . أما تلك الوديعة فهي أنتم إخواني أبناء الشرق السوريين . هاأنا ذا راحل الآن عنكم ولكن صلات الودّ تربطني بكم ، ولو شطّ المزار . فأستودعكم الله الذي أسأله أن يكلأكم بعين عنايته ، ويوفّقكم إلى ما فيه سعادتكم ، ويسدّد خطاكم في سبل النجاح في جميع أعمالكم . ويديم بينكم الألفة والتعاون على الخير ، وينمّي في نفوسكم ما قرأته على وجوهكم ونطقتْ به ألسنتكم من الحب العظيم لبلادكم ، والإخلاص لدولتكم ، وأتمنّى أن تعودوا بعد أن تنالوا غاياتكم إلى أوطانكم سالمين حتى تعملوا فيها بما رأيتكم عليه من الجد في دار هجرتكم ، وتتظافروا على إسعادها ورفع شأنها ، فتقيموا من أعمالكم العظيمة حجّة بيّنة على من ينكر على الشرقيّ استعداده للقيام بجلائل الأعمال ، والسلام .

قد فرغت الآن من أمريكا ووداع أبنائها والنازحين إليها ، فلأعد إلى ذكر بلادي وأهلها لأخاطبهم من وراء البحار بكلمة صغيرة في السياحة ، وما يجب أن يقصد منها ، و لأجعل تلك الكلمة خاتمة رحلتي ، فأقول :

السائح يجب أن يكون همّه الأوّل من سياحته منصرفاً إلى تثقيف عقله وتوسيع نطاق معارفه بدروس السياحة العملية ، فكل يوم يمرّ عليه دون أن يزداد فيه علماً نافعاً له أو لبني أمّته ، فلا بورك له في طلوع شمس ذلك اليوم . ولا يتم ذلك لسائح إلا إذا راض نفسه ودرّبها على اليقظة والتنبه لكل ما يقع تحت حسّه ﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون﴾[133] مع إنعام النظر ودقّة البحث حتى لا يكتفي في حكمه على ما يرى بالوقوف عند ظواهره دون أن ينفذ فكره إلى ما وراءه من بواطن كثيراً ما تخالف تلك الظواهر ، فيبني حكمه على خطأ في النظر ، فيكون مضلاً ، وخليق به أن يكون هادياً . (يعلم حقيقة ما أقول كل من وقف على ما كتبه السائحون من أبناء الغرب عن الشرق وعوائد أهله وأخلاقهم ، فقد نسبوا للشرقيين كثيراً من عوائد وأخلاق لا يعرفونها لأنهم كتبوا ما أملته عليهم الظواهر) عليه إذا ما حل بأرض قوم أن يبحث في عوائدهم وأخلاقهم ، والجامعات التي تجمعهم من دين أو جنس أو مصلحة ، وبالجملة يبحث ما استطاع في سائر أعمالهم وشؤونهم لا سيّما الاجتماعية منها ، ولا يألو جهداً في التفكير لردّ كلّ شيء من ذلك إلى أصله الذي بُني عليه ، والوقوف على آثار تلك العوائد والأخلاق ، والجامعات في شؤونهم العامّة من رقيّ أو انحطاط وقوّة أو ضعف ، مراعياً في كل ذلك أحكام الزمان والمكان ، حتى إذا ما ملأت نفسه آيات العبر واهتدى إلى معرفة وسائل النجاح كما علم دواعي الفشل عاد إلى بلاده بشيراً ونذيراً ، فأرشدهم إلى سبل الهدى ، وحثّهم على سلوكها ، ونبّههم إلى مهاوي الضلال وحذّرهم من الوقوع فيها . لا أريد بذلك أن يقتل السائح كل وقته في التفكير ، فينهك قواه العقلية ، ويحرم نفسه من التمتّع بما يسرّها ، فإن ذلك إفراط ، وكل إفراط حليفه العجز دون الوصول إلى الغايات «إن المُنْبَتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»[134] وربّما كان السائح في بلاده من أولى الأعمال العقلية ، وما رحل عن بلاده إلا بعد أن بلغ منه الجهد ، وطلبت نفسه الراحة من عناء التفكير . فإذا لم يجد في سياحته من دواعي السرور ما يشرح الصدور ويردّ إليه ما ذهب به التعب من قوّة عقله وبدنه ، فلا سبيل إلى الاستفادة من سياحته .

---

(133) يوسف : 105

(134) حديث شريف .

- فنعم لهو البال لمكدود - وإنما أريد إلا يجعل السائح همّه في سياحته منصرفاً إلى اللهو واللعب، والانهماك في اللذّات، والانغماس في الشهوات، حتى إذا رجع إلى بلاده رجع خاوي العقل من كل فائدة بعد أن أنفق وقته وماله، بل ربّما عاد إلى أهله وقد خلف قلبه عند من لا يحفظه رهنا بموافاته في عام مقبل.

وإنّي ليحزنني أن أرى كثيراً من إخواني أبناء الشرق الأغنياء، ولا سيّما المصريين، يرحلون عن بلادهم في صيف كل سنة إلى الأقطار الأوروبيّة ولا همّ لهم إلا أن يطلقوا لأنفسهم هنالك أعنّتها، تتسابق في ميادين الشهوات، وتسبح في لجج الملاهي، حيث الحرية مطلقة، وألسنة النقد موثقة، وعيون الإنكار مغضية فلا زاجر إلا فضيلة راسخة وضمير طاهر، وأنّى لفضيلة لا تذهب وضمير طاهر لا يدنس مع هذا الانغماس في حمأة الرذائل، فيعودون إلى بلادهم وقد خسروا الفضيلة والمال، مع أنّ من بينهم العلماء الأجلاء أولي العقول الراجحة والآراء الناضجة ممّن لا يعجزهم الإصلاح لو أرادوه، ولا يستعصي عليهم الإرشاد لو قصدوه. فكأنّهم نسوا أن لبلادهم في أعناقهم حقوقاً تطالبهم بأدائها، مع أن الأمم الشرقية اليوم أمام هذا السيل الجارف من المدنيّة الغربيّة التي التبس على أبناء الشرق أمرها، فلم يميّزوا بين محاسنها ومساوئها، ولم يعرفوا إلى أين يُذهب بهم، هي في أشدّ الحاجة إلى أبنائها المتعلّمين الذين يميّزون لإخوانهم الخبيث من الطيب ويبحثون عن أدوائها، لا سيّما داء التفرّق وأمراض الأخلاق وعلل الجهل التي كادت تفتك بها، فيستأصلونها بالعلاج الناجع وينبهونها إلى مهاوي الفناء التي حفرت لها حتى تأخذ حذرها قبل السقوط فيها.

فهل منّا من ساح في بلاد الغرب، والسائحون كثيرون، فبحث هنالك عن وسائل نهوض تلك الأمم وأسباب رقيّها، ثم عاد إلى بلاده، فأخذ يوقف أهلها على تلك الأسباب، ويحث قومه على التمسك بها.

لو قام السائحون منّا بذلك وأخلصوا في عملهم لأصبحنا اليوم نرى المعامل الصناعية الوطنية منتشرة في بلادنا، والشركات التجارية مؤسسة بأموالنا، والجامعات العلميّة تخرّج العلماء الأجلاء في كل علم من أبنائنا، وهناك يتم لنا الاستقلال الاقتصادي، ولنا من ورائه كل خير وسعادة.

فعار علينا، ونحن أبناء أمم ذات مجد باهر وتاريخ عاطر، أن نموت بداء الغفلة وتبيدنا علّة الجهل. هذه نصيحتي قد أخلصتها لكم، وأسأله تعالى أن يؤلّف بين

قلوبنا ، ويرشدنا إلى طريق النجاح في دنيانا ، والفوز برضاه ونعيمه في أخرانا ، إنه على كل شيء قدير . وصلّى الله على سيّدنا محمد خاتم الأنبياء وعلى آله وصحبه المرشدين الأتقياء .

تمت الرحلة

ملاحق

ملحق - 1

مقدمة الكتاب[135]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مكون الأكوان ومدبرها، ومبدع الحوادث ومغيرها، لا إله إلا هو، جعل الآثار دالة على باهر قدرته، ودقيق حكمته. والصلاة والسلام على نبينا، خير من أقلته الأرض، وسيد من أظلته السماء. أمر بالهجرة، طلبا للعلم ودعا إليها. ورغب في الرحلة اتساعا للمدارك والرزق، وحض عليها. وعلى آله وصحابه الذين جابوا القفار، واقتحموا لجج البحار، وضربوا في الأرض هادين، وجابوها مرشدين، فكانوا كالنجوم هداية في الظلمات، برا وبحرا، أو كالماء مبعثا للحياة تكوينا ونشرا.

وبعد، فإن ما بلغته الإنسانية من الحضارة والعمران، وكل ما نشاهد بإعجاب في أنحاء المعمورة: ابن فكرة. والفكرة قد زين الخالق بها عقل الإنسان، وحلاه بسمو المدركة، وأعطاه النطق لتكون له السيادة المطلقة على جميع ما ظهر على سطح الأرض، وما استتر في باطنها من حيوان ونبات وجماد.

وإظهاراً لتلك السيادة اقتضت حكمة الخالق أن يجعل مخلوقاته كلها من جهة المدار درجات متفاوتة، بعضها أعلى من بعض، وأعد للإنسان المرتبة العليا. اتخذ هذا النظام قاعدة عمرانية لفائدة الإنسان، لينفذ ما قضاه في حكمه السابق لدى تكوين الوجود، من ضرورة وضع الإنسان في مركز ممتاز سام مشرف على مخلوقاته أجمعين، كما وضع الحيوان في درجة أعلى من النبات، والنبات أعلى من الجماد. على ذلك كان ما يدركه النبات لا يدركه الجماد، وما يدركه الحيوان لا يدركه النبات، وما يدركه الإنسان تعجز حتما باقي المخلوقات عن إدراكه. ولأجل هذا كان الإنسان، بحق، سيدها وسلطانها.

تدرج الإنسان، بما أودع فيه بالفطرة من قوى المدارك والفكر والنطق، في مدارج النمو والارتقاء. فكر أولا في الوسائل والطرق التي تضمن له قوام حياته، وسط

---

(135) بقلم: عثمان مرتضى ـ مصر في أول مايو سنة 1913

معترك الوجود . وفكر ثانيا في ما يدفع به الغوائل والعوادي ، دفاعا عن نفسه . ثم فكر ، فيما بعد ، في الحصول على شيء من الهناء والسعادة ، وتخفيف آلام ومتاعب الحياة بقدر الاستطاعة .

كان الإنسان منذ نشأته الأولى محاطا بالجهالة من كل جوانبه ، وفي كل حوائجه . وكان مختلطا بالوحوش الضارية التي معظمها اندثر مع تقادم العصور والأزمان . يعيش عيشتها من القشافة والخشونة ، عاري الجسم مثلها ، لا يعرف إلا الثمار مأكلا ، وبطون المغارات والكهوف مرقدا . مضطر للرحيل ، عند فراغ تلك الثمار ، إلى مكان آخر يجد فيه قوته وقوام حياته . وإلا كان يصادف حتما حتفه ، لجهله فلاحة الأرض ، واستثمار خيراتها لمصلحته . ولكن ، عند ما استخدم ما أودعه الله فيه من المدارك وقوة التفكير ، انتقل من حالة الهمجية هذه إلى المدنية ، ومن حالة الرحلة إلى الاستكانة والاستقرار في إقليم سماه ، فيما بعد ، وطنا . ثم تعلم كيف يبتني له مساكن اتقاء الحر والبرد سماها بعد قرية ، فمدينة ، فمملكة . ثم تعلم الزراعة وفلاحة الأرض ، ثم الصناعة ، ثم تحليل المعادن واستخدامها لفوائده ، وتعلم الملاحة والتجارة ، وتمكن شيئا فشيئا من توفير أسباب الراحة والهناء في عيشته .

أوجد العلوم والمعارف ، وغرضه منها معرفته كيف يعيش ، فقوّى بها وبالتربية مداركه حتى كادت تزول الغشاوة التي كانت تمنع نظره من أبصار هذا الكون الغامض المحفوف بالأسرار العديدة المتنوعة . تمكن بالفكر والاستنتاج وقدح القريحة والنشاط والصبر والدأب على العمل من كشف بعض تلك الأسرار ومن إيجاد الوسائل التي سد بها احتياجاته الكثيرة الضرورية والكمالية حتى وصل لدرجة العمران الموجودة فيها الأمم الحاضرة المتمدنة فهو لذلك مدين في مدنيته لتلك الصفات وعلى الأخص لقوة الأفكار .

فنيت الأجيال وبقيت الأفكار التي سيرتها ، فتوارثتها العصور من بعدها . هكذا تفنى الأمم ، وتبقى الفكرة مضيئة طريق العصور التالية .

وما كانت قوة الفكر تختلف اختلافاً بيِّناً بين الأفراد وبين الأمم ، ظهرت بقدر ختلافها ميزة فرد على فرد ، وتفوق أمة على أمة . وما نشاهده في عصرنا الحالي ، من الفروق العظيمة بين درجات التمدن والحضارة والعمران بين أمم الأرض بأسرها ، إنما هو نتيجة طبيعية لازمة للمدارك ، قوة وضعفا ، وحركة وسكونا ، وأصالة وخطلا .

بالفكر تمكن الإنسان من قهر الطبيعة على إفشاء الأسرار التي تخفيها ، فكأن

الفكر سراج كشف به مخبأتها ، ومفتاح فتح به كنوزها ، فأخرج لنا منها قوى لولاه للبثت في عالم الغيب . بالفكر ، أظهر الإنسان أسرار البخار والكهرباء والمغناطيس ، وعرف خواص الأجسام وأدرك عالم الميكروب .

ومن الواضح الجلي ، المشاهد في جميع أطوار الإنسان وحياته منذ نشأته ، أن من كانت فكرته وقادة ومداركه واسعة ، وكان ذا جد ونشاط ومثابرة وجلد ، ارتقى في مدارج الإنسانية ، وأنقذ نفسه وأمته من حمأة[136] الهمجية ، وسار بها شوطاً بعيداً في مراقي الحضارة والعمران . وأما من كان فكره كاسداً وهمته فاترة ، فإنه وقف بالطبيعة عند حد النشأة الأولى ، وبقي إلى الحيوانية أقرب منه إلى الإنسانية .

هذه النظرية تجلت في الشرق والغرب ، قديماً وحديثاً . فقد كان الشرق ، في قرونه الأولى والوسطى ، مهبط الأديان ، ومقر العرفان ، ومطلع بدور الأنبياء والمرسلين ، كما كان زاهياً زاهراً ببدائع الصنائع والمخترعات ، حالياً بمكارم الأخلاق وجميل الصفات ، يكاد يكون منفرداً في الدنيا بسن القوانين الاجتماعية والنظامات العمرانية . وبالجملة ، فقد كان على سطح الأرض شمساً تنبعث منها أنوار الحضارة ، وتنتشر منها أضواء المدنية ، كما كان كعبة يقصدها طلاب العلم من أمم الغرب ، فيجدون ضالتهم المنشودة من علم مفيد وعمل نافع ، وصناعة متقنة وزراعة نامية وتجارة رائجة ، وقوانين محكمة ونظامات قويمة . كانوا يجيئون الشرق خِماصا[137] ويرجعون إلى بلادهم بطانا ، بين طبيب حاذق ومهندس بارع ، وفلكي مطلع وصانع متضلع ، وزارع خبير وتاجر قدير . وما وصل الشرق إلى هذه الدرجة ، التي أكسبته السلطان والسيطرة على باقي الأمم ، إلا باستعماله قوة المدارك واستخدامها بجد ونشاط في مصلحته وفائدته . ولا يتيسر لمن يريد معرفة مقدار ما كانت عليه مدارك الشرقيين من النور والعرفان ، وأفكارهم من الإصابة والأصالة ، وعزائمهم من المضاء والقوة ، إلا إذا تتبع آثار ذكائهم ، واستقرى المجهودات الفائقة العظيمة التي بذلوها في فائدة وتقدم الإنسانية ، والوسائل الكبرى التي استخدموها لقشع الحجب الكثيفة التي كانت تستر ما اكتشفوه من أسرار الطبيعة .

ظهر في الشرق مدنيات كثيرة ترجع كلها إلى مصدرين : أحدهما رقي تدريجي

---

(136) الحمأة : الطين الأسود ، الوحل .

(137) خماص (بكسر الخاء ، ضد بطان) : ضامرو البطون من الجوع .

وراثي في الهيئات الاجتماعية ، وثانيهما رقي منبعث عن الفكرة الدينية .

فمن النوع الأول مدنية المصريين القديمة ، التي من أهم مميزاتها رقي الفكر وتوجيهه إلى إتقان الصناعة ، واتجاه العقول إلى نور العلم في عصور مطبقة الظلام .

ويكفي زيارة معاهد الآثار المصرية والمعابد المنتشرة في مصر ، وعلى الخصوص في الوجه القبلي ، لمعرفة مقدار الإتقان الذي بلغته تلك المصنوعات ، وللاستدلال على أن جميع الهياكل والأهرامات والبنايات الأثرية قامت على أدق القواعد العلمية والفلكية .

ومن الأول كذلك مدنيات اليونانيين المقتبسة عن المدنية المصرية ، ثم مدنيات الآشوريين والفينيقيين والقرطاجيين .

أما مدنيات النوع الثاني فقد ظهر في الشرق ثلاثة خضع لمبادئهم الدينية القسم المتمدن في العالم .

ظهر أحدهم في مصر وهو موسى (عليه السلام) . أرسله الله تعالى ليضع للعالم القوانين التي تلائم ذلك العصر ، هدايةً من الخالق ونوراً لبني البشر .

وظهر الاثنان الأخيران في الشام وبلاد العرب .

أحدهما عيسى عليه السلام ، أقام للناس قبساً سطع نوره حتى بهر العرب إذ كان سراج هذا القبس مستخرجاً من معدن الآداب العالية والأخلاق الكريمة والرحمة ، هدايةً كذلك من الخالق ونوراً لبني البشر أجمعين . ثم ظهر بعده هذا العربي الهاشمي الذي فاق الأنام في علوّ المدارك وسموّ الأفكار ، كما كان أكبر وأقوى من خدم الإنسانية بأسرها ، بإرشاد الناس بالحكم القويمة والتعاليم الراقية الكريمة التي بعثه الله لنشرها في كل الكون ، سلاماً وبركةً ورحمةً للعالمين . بزغ نور تعاليمه الإسلامية من سماء بلاد العرب ، ثم انتشر في أرجاء آسيا ، وسرعان ما انتقل إلى إفريقية الشمالية مبتدئاً بمصر ، ماراً ببلاد المغرب ، مجتازاً الروم ، حتى وصل إلى أوروبا من مطالع الأندلس . ففكّ العقول من أسرها ، وأرشدها إلى أنّ لها حقوقاً ، وعليها واجبات ، وأضاء لها الحياة العلمية والعملية ، وعلّمها كيف تنتهجها ، فخرجت بذلك من الظلمات إلى النور ، ومن الموت إلى الحياة . بتلك الروح الجديدة ، روح التمدن الإسلامي والذكاء الشرقي .

طافت هذه الروح على البشر منذ ثلاثة عشر قرناً تدعو الناس إلى الإخاء والتعارف بين جميع أفراد المعمورة ، على اختلاف أجناسهم ومعتقداتهم ، وتباين

مذاهبهم ومشاربهم ؛ تدعوهم إلى جعل التضامن الإنساني في كل أطوار حياتهم ؛ تدعوهم إلى جعل العدل أساساً في معاملاتهم الاجتماعية والسياسية ، كما تدعوهم إلى استعمال الرحمة والحنان ، حاثّة على مكارم الأخلاق ، حاضّة على التمسك بوسائل العمران ، وقد رسمت لهم طريقاً جديداًلم يسبق له مثال في السواء والسهولة وتقريب المسافة في تحقيق وصول الآمال للسعادة الدنيويّة والنعيم الأبدي .

تنادي تلك الروح الجنس البشري بأعلى صوتها :

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا﴾(138)

وتقول لهم :

﴿وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾(139)

تقول لهم

﴿إنّ اللهَ يأمُرُ بالعَدْلِ والإحْسَانِ وإيتَاءِ ذي القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ والبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(140)

كما تقول لهم حاضّة على الحركة والعمل :

﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إلاّ مَا سَعَى وأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾(141)

ويقول مهبط تلك الروح صلوات الله عليه «اطلبوا العلم ولو بالصين»(142) و«ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»(143) .

دين كله تعارف وإخاء وعدل «وعلم ورحمة» و«حركة وعمل وفكر وتنبيه» . كان من شأن انتشاره في أرجاء الدنيا أن تيقظ لحكمه الناس أجمعون ، المؤمنون به وغير المؤمنين .

وليس من الغريب أن هذه الحركة الإسلامية ، كما مدّنت الشعوب المتبربرة

---

(138) الحجرات : 13 .

(139) المائدة : 2 .

(140)النحل : 90 .

(141) النجم : 40 .

(142) حديث شريف .

(143) حديث شريف .

أكسبتهم مدنية أقرّ لهم بها التاريخ ، كان لها صدى في الغرب الذي كان حينئذ تائهاً في ظلمات الجهالة ، غارقاً في لجج الهمجية ، لا يبصر الضوء إلا من سم[144] الخياط ، ولا يتنسم الحياة إلا من مطالع الشرق ، لأن تلك الحركة الإسلامية لم تجئ لتخلص بمزاياها أقواماً معينين بل هي جاءت لسعادة الإنسان من حيث هو إنسان .

أفاقت[145] كل هذه الحركات التمدنيّة الشرقية الغرب من رقدته الطويلة التي كان تائهاً فيها ، كما أيقظت عزيمته التي طال عليها الفتور ، فارتحل النشيطون من أبنائه إلى بلاد المشرق ، واغترفوا من بحاره العذبة ومناهله الرطبة كل ما كان غريباً منهم مجهولاً لديهم من أنوع المصنوعات والحرف ، وأخذوا من ذلك الحين يشمّرون عن ساعد جدهم ، مشتغلين على الأخص في الماديات ، متنقلين في الصناعة والتجارة والزراعة والملاحة ، من سيئ إلى حسن ، ومن حسن إلى أحسن ، ومن كامل إلى أكمل .

سار الغرب على هذا النمط المرغوب فيه جداً في جميع مرافق الحياة الضرورية والحاجية والكمالية حتى نال من المنعة والقوّة والسلطان الدرجة التي هو عليها الآن ، وسبق الشرق في الماديّات بعد أن كان مسبوقاً ، وساده بعد أن كان مسوداً ، وحقّق الحكمة الشرقية «لكل مجتهد نصيب» .

وعجيب أن الغرب ، في سيره إلى الحضارة ، لم يطرق إلا نفس الطريق الذي بذل الشرقيون وأجدادهم الكرام مهجهم الغالية في تمهيده وتنسيقه . وهم لوقوف الفكر الشرقي عند الحدّ الذي وصلت إليه مصنوعاتهم ومتاجرهم وملاحتهم وعدم تقدّمهم فيها إلى الأمام بنفس الخطا السريعة التي خطوها في الأدبيات بوجه أعم ، وفي علوم الفلسفة والبلاغة والمنطق وعلم الكلام بوجه أخص ، مضافاً على ذلك تفريط الخلف في المحافظة على متروكات السلف ، سيّما المادية منها ، كانوا قد ضلّوا عنه وجعلوا غيرهم من هؤلاء الغربيين الذين كانوا وراءهم فيه بمراحل يسبقونهم إليه ، واكتفوا بقبول تعويض بسيط تاريخي عمّا فقدوا بأن نالوا من الغربيين إقراراً لهم بفضل السبق عليهم فيه .

كبا الشرق في الماديات أو وقف ساكناً عند حد جهاد أبنائه الأولين . وخصص

---

(144) سَمُّ الخياط : ثقب الإبرة .

(145) أفاق (فعل لازم وليس متعديا) : انتبه واستيقظ ، والصحيح أن نقول : أيقظ أو نبه .

النفيس من أوقاته الغالية في الاشتغال بتلك الأدبيات، مهملاً الماديات التي عليها قوام الحياة، والتي هي موارد الثروة الحقيقية. فبعد أن كان مطلع شمس الفنون وينبوع الصنائع والعلوم، وبعد أن كان أستاذ الغرب فيها من غير مراء، انقلب حاله من أحسن إلى حسن، ومن حسن إلى سيئ، على العكس تماماً من الخطة العمرانية الحديثة التي اختطّها الغرب لنفسه، بل أصبح الشرق يلتمس نوره من زهراء الغرب. كل ذلك لأن الشرق وجّه التفاته للأدبيات دون الماديّات التي أهملها كل الإهمال، ولأنّه خفّف سيره إلى الأمام في موارد الرزق والثروة، في حين أن الغرب كان ينهب الأرض نهباً، طلباً للاتساع في الممتلكات والمقتنيات، لا يعرف للقناعة حداً، ولا تحجبه عن نيل غاياته ومطامعه شمّ الجبال ولا لجج البحار، بل حملق إلى السماء يريد استخدامها أيضاً حتى خضعت لمشيئته الأرض وما فيها وما عليها.

بعد ذلك كان حقّاً على الشرق أن يترك للغرب تراثه القديم، تراث العزّ والسلطان، تراث العلم والعرفان، والثروة والسعادة في اليوم الذي تخلّى فيه عن تلك الصفات والميزات التي ضمنت له قديماً جمع هذا التراث.

نعم نام الشرق نوماً عميقاً، واستغرق فيه حتى أيقظه من أوروبا ومن أمريكا حركة قوية تحمل عجائب المصنوعات وغرائب المخترعات برّاً وبحراً وهواء، وأرهقه مناد يناديه: كيف حلا لك النوم وهو مرٌّ علقم ولذّ لك الرقاد وهو السم الزعاف؟ ثم ذكّره بنظرية تنازع البقاء وبقاء الأنفع، فلقي هذا الصوت في بلاد اليابان آذانا صاغية وقلوباً واعية في أمة نشيطة، كانت خير مثال يتمنى كل شرقي أن يحذو حذوه وأن يتتبع خطاه. رنّ هذا الصوت في مصر فتداركه هذا الرجل الكبير الجليل القدر، المعدود واحداً من اثنين نبغا في عصره هو الحاج محمد علي باشا رئيس عائلتنا المصرية الملوكية الكريمة، فالتفت للأدبيات والماديّات على السواء، ووجّه لهما عنايته الفائقة النادرة المثال، فانتشل الأمة مما كانت واقعة فيه من المهاوي السحيقة. فالمدارس أنشأها والإرساليات العلمية قرّرها وتعهّدها والفاوريقات[146] من جملة أنواع أسسها وبناها وأنجحها، والترسانات والأرصفة والجسور والترع والقناطر وكل شيء حيوي في البلاد باشره بنفسه واستخدمه لفائدة بلاده. والجيش والبحرية

---

(146) الفاوريقات (جمع فاوريقة): لم أعثر على أصل هذه الكلمة، ولعلها مأخوذة من (الفابريكات) Fabrica وهي المشاغل المهنية.

قوّاهما بعد أن رباهما على النسق الحديث المتين . وبأصالة حكمه وحسن درايته ، وطّد الأمن في البلاد وافتتح القسم العظيم من الأقطار السودانية ، وضمّها على بلاده العزيزة . وعليه فإن مصر مدينة بتمدّنها الحديث لتلك العائلة الخديويّة الكريمة ، وتاريخ مدنيتها الحديثة مقترن بتاريخ الحكم العلوي من غير مراء ولا نزاعٍ .

سارت البلاد على هذا النمط حتى تبوّأ عرشها ، من حسن حظّها ، عباسها الثاني فضاعف قواها وبثّ فيها حياة جديدة أخرى من نشاط وهمّة وإقدام ، حتى إنها تاقت في عصره الزاهر لاسترداد مجدها القديم وعزّها التالد ، فأخذت تعمل على ذلك باحثة على أسباب الرقيّ الأدبيّ والماديّ بكافة الوسائل ، وعلى الأخص بمضاعفة موارد الصناعة والتجارة والزراعة ، وتعميم العلوم والمعارف بين طبقات الأمة .

وجدير في الواقع بأمة لها تاريخ مجيد ومدنية عريقة ، بأمة ملكها العبّاس الذي لا تعرف قواه الملل ولا مداركه السامية الواسعة الكلل ، أن تتمكن من الوجود في مصاف الأمم الراقية ، وأن تحوز قصب السبق في مضمار الحياة العلمية والعملية ، خصوصاً وبين أبنائها الأماجد من يعرفون بواسع بصيرتهم وجليل رأيهم كيف يبعثون فينا هذه الحياة من جديد ، في مثل هذا الزمن الذي صعّب فيه التزاحم الحيوي أمر المعيشة على الناس .

في مقدمة أولئكم الأبناء ، حفيد محمد علي باشا وسميّه ، وشقيق الجناب العالي الخديوي ، قام وأخذ على نفسه الأبيّة أمر الرحلات في أنحاء المعمورة ، ليحيي في البلاد صفاتها القديمة لتعود لها سيرتها الأولى ، فلا تكون دون غيرها في السعي والتطلّع لعجائب الأعمال العظيمة والمدهشة في الأقطار المترامية الأطراف ، والمتنائية الأكناف . ورأى أبناء الملوك يسبقون رجال العلم في هذه الرحلات الشاقّة ، فتاقت نفسه العالية إلى سبقهم في ذلك . ولقد سبق أغلبهم بالفعل ، فأصبح سمُوه في أوائل الأمراء المعدودين ولعاً بالرحلة إلى كل ما يفيد بلادهم ويرقي شؤون أممهم . وهكذا عرف كيف يرفع رأس مصر . وكيف يبعث في نفوس الشرقيين صفات آبائهم الأولين .

لم يغمض جفنه - حفظه الله - في أي سنة من السنين عن التجوّل في أقطار المعمورة ، في البلاد الغربية وبلاد أمريكا واليابان ، مستطلعاً ما وصلت إليه تلك الأمم من بواعث الحياة الجديدة وأسباب العمران . وقد كان في كل رحلاته يودع ما عنّ له من المشاهدات النفيسة بطون الصحائف ، ويرصدها في أفق السجلات التي صارت

نبراساً يهتدي به كل من طالعها من المصريين الذين هم موقف نظره السامي ، وغيرهم من أبناء الشرق ، بقصد أن يغرس في نفوسهم مبادئ حبّ الاستطلاع والسير في الطريق الموصل للحياة الحقيقية ، حتى لا يكونوا عالة في العلوم والمخترعات والصناعة على غيرهم . ولكي يشغلوا في هذا العالم المكان اللائق بشرفهم العريق .

امتاز سموّ الأمير الجليل محمد علي باشا بصفات غاية في الجلال والجمال ، وخلال كريمة نبيلة تزيّن كل من تحلّى بها ، فهو صادق العزيمة ، قوي الإرادة ، صبور على تحمل المشاق مهما بلغت ، إذ رأى في تحمّلها بلوغ مأربه وتحقيق بغيته .

شرع دولته في زيارة أمريكا عقب حادثة التيتانيك ، فلم تثنه عن عزيمته الماضية القوية المصائب الكبرى التي أحدقت بالكثير من الأنفس البشرية بغرق تلك الباخرة ، ولا النصائح الكثيرة من أصدقائه العديدين . ويكفي لمن تصفح رحلته أن يقف على ما تكبده من مشاق الانتقال ومتاعب السفر الطويل ، متى أمعن نظره في الآلاف من الكيلومترات التي قطعها في تنقيبه وبحثه في الآثار النفيسة التي صنعتها يد الإنسان ، وهي عجائب جديرة بالتدوين والنشر بين الأنام .

وبديهي أن الرحلات العلمية تمتاز بعضها على بعض بقدر ما يمتاز أصحابها من الصفات وقوة الاستعداد كحبّ الاستطلاع ودقّة الملاحظة ، واستيفاء البحث ومتانة الوصف وقوة التصوير وصحة الاستنتاج واختيار الأنفع . وبفضل الله تعالى جاءت الرحلة ناطقة بأن صاحبها المفخم كان ممتازاً بهذه الصفات الجليلة ، وهي التي جعلت لرحلته النفيسة شأناً خاصاً فوق شأن غيرها .

وصفت لنا رحلته في ما وصفت كيف أن الأمريكي إذا شرع في مشروع لا يثنيه عن إنجازه المستحيل والمتعذّر على غيره ، بل هو كثير الثقة في نفسه والاعتماد على ذاته ، يبذل عند اللزوم بسخاء حاتمي ، لا يكاد يضارعه سخاء في الوجود من غال ومرتخص ، حتى يبلغ في النهاية مبتغاه وينال حظوته في ما شرع فيه . خلال جميلة وأخلاق حميدة من شأنها الازدراء باليأس والقنوط .

وصف لنا الأعمال العظيمة والعمارات الشاهقة والقناطر والكباري التي لا يضارعها غيرها في الكبر والطول في كل بلاد الدنيا لتصبو نفسنا للعمل على منوالها . وليتعشّق بعظمها وفخامتها قلبنا فنأتي على بلادنا على نسقها ، ونتعلّم صنعها ومتانة ودقّة هندامها وذوقها . وبالاختصار فقد جاءت الرحلة أنفع سفر يقتنى وأشهى ثمر يجتنى بل وخير كتاب دوّن في هذا الباب .

ملحق - 2

وقائع حفلة التكريم[147]

أ - نص خطبة الأمير

أيها السادة

إنّي أقف بينكم لا لأريكم منّي خطيباً يريد أن يظهر براعته ومقدرته ، بل لأريكم أنّي شرقيّ صميم ، محبّ لبلاده وأمّته ، له شعور حيّ يودُّ من صميم فؤاده أن يشرحه لأبناء الشرق الأعزاء .

إني أنطق الآن بلسان المودّة والارتباط ، ولا حرج عليّ إن أظهرت للملأ شدّة إعجابي بمروءة وشهامة إخواني السوريين ، الذين لقيت من حسن ضيافتهم في أثناء سياحتي في سوريا ما يجعلني أكرّر ثنائي وعظيم شكري لأبناء الأمة العربية الكرماء .

إنّ الصلات التي تربط بلادي ببلادكم قويّة ، ورأيتها مجسّمة لّما كنت في وسط أهلكم وعشيرتكم الذين لم يتركوا أيّة فرصة لإظهار ارتباطهم ومحبّتهم لأسرتي وجدودي . وطالما سمعت منهم المدح العظيم لمؤسّس الأسرة العلوية الذي أحمل مع عظيم الفخر اسمه الشريف ، فهو الذي دوّن التاريخُ في صحائفه البيضاء أعماله الجليلة وحياته العظيمة .

إنّ الثلاثين سنة التي قضيت معظمها جائلاً في أنحاء أوربا ، والتي لا أنكر المزايا التي اكتسبتها فيها بمعاشرتي واختلاطي بكبراء رجالها المفكرين والمصلحين ، قد زادت في قلبي حب بلادي وتعلّقي بالشرق والشرقيين ، فبكلّ جوارحي أنادي : «فليعش الشرق وأبناؤه» .

جدير بنا أن نفتخر ببلادنا العزيزة مهبط الأنبياء ، ومنبع الأديان ، وأصل التاريخ ، ومصدر التمدن ، فذكر مجد الشرق السالف يحزنني ، فأين نحن الآن من عظمتنا الماضية؟ ألقوا معي نظرة في تاريخ حياة أجدادنا ، إنّه كان مجيداً ، فكم من بلاد فتحوها بشفار سيوفهم ، وكم أمم أخضعوها بقوّتهم وشدّة بأسهم ؟ إنهم لم يتركوا

---

(147) وقائع حفلة التكريم التي أقامها الاتحاد السوري في نيويورك للأمير محمد علي باشا ، مساء السبت 1912/7/20 .

أية وسيلة لإعلاء شأنهم ، وإظهار عظمتهم ، ونشر سلطانهم إلا اتخذوها مقدمين بلا خوف ولا وجل . ولا أي باب يوصلهم إلى غايتهم الشريفة إلا طرقوه بدون تردد أو تهاون ، فالتاريخ يشهد إذاً بما كانوا عليه من صفات الفاتحين ، كالشهامة والإقدام ، لاسيّما التفاف بعضهم حول بعض ، وجمع شملهم ، ووحدة كلمتهم ، وإخلاصهم ، وشدّة حبّهم لبلادهم . فيا للّه ، ماذا جرى لنا حتى أصبحنا في مؤخّرة الأمم المتمدنة ؟ إنّ بلادنا لم تتغير رجالها ، هم أبناء أولئك الأمجاد ، وأحفاد أولئك الأبطال ، فماذا دهانا حتى وصلنا إلى هذه الدرجة التي لا تسر؟ أظنُّ أنّنا تهاونّا في أمورنا فحلّت علينا المسكنة والمذلّة ، وتركنا شؤوننا فغشينا من التعس ما غشينا .

إنّي بالرغم مما نحن عليه الآن لست يائساً ، ولكن قبل كل شيء أرجو أن يحمل كل من سمع خطبتي هذه محمل الإخلاص ، فإنّني أريد الخير لجميع الشرقيين ، ولست ممّن يسعون في التفرقة بين الأجناس كما اتهمت بهذه التهمة التي أردّها عني بكل صراحة يوم كنت في سوريا ، فإن أعداء الحقيقة رجال السوء هم الذين أشاعوا هذه الإشاعة الباطلة ، والله أعلم بضميري . وبودّي أن تجتمع كلمة عامة الشرقيين على اختلاف أجناسهم ومعتقداتهم لصدّ هجمات أعدائنا الذين يريدون ابتلاعنا وأخذ بلادنا بدون حقٍّ أو مسوّغ شرعي . فأشهدكم جميعاً أنني محبٌ للاتحاد والوئام ، وعدوّ لكل من يسعى في أسباب التفرقة المؤدّية للهلاك والفناء ، واللّه على ما أقول شهيد . أمّا أنتم يا أرباب الأقلام ويا أصحاب الجرائد ، فعلى فصاحتكم وقوّة بيانكم نعتمد ، قوّوا الشعور وانشروا في صحفكم أسباب سرّ تقدم الأمم حتى نأخذ مكاننا اللائق بنا . فإن أردتم كنتم السبب في تقوية الرابطة بين أبناء العرب وغيرهم ، مهما اختلفت الأديان والأجناس ، ومهما بعدت الأمكنة .

وجّهوا أنظاركم إلى كل ما يُعلي شأننا ، إنّنا نريد أن نرفع رؤوسنا أمام العالم . إنّنا نريد أن نفتخر بجنسنا وبما وهبنا اللّه من الشجاعة والإقدام والذكاء ، فلقد جاء الوقت لنهبّ من سباتنا ونتحرّك من جمودنا . إن السعادة في هذه الحياة ليست بالثروة فقط ، فكم من رجل أنفق وقته في جمع الدرهم والدينار ولم يؤدِّ فرائضه الوطنية وحقوق بلاده ، فبالرغم ممّا وصل إليه من الثروة ذهب بعد موته نسياً منسيًا .

لست ممّن يودّون المعيشة الهادئة بدون أداء واجبات الأمّة . لأنّي أرى عدم الالتفات إلى هذه الحقوق المقدّسة من أكبر الذنوب وأعظم العيوب والنقائص . إن مهمتنا ليست في الحقيقة من الصعوبة بمكان إن اجتمعت كلمتنا ، وقويت الإرادة في

الحصول على المركز العالي الذي نريد أن نختاره بين الأمم . والطريقة الوحيدة التي أعتقد أنها توصلنا إلى غايتنا ، هي أن يعتقد كل فرد منا أنه قادر على خدمة بلاده بصدق وأمانة ، يتحمّل الصعوبات مهما كبرت والمشقات مهما كثرت .

وأنتم يا من تركتم بلادكم وتغرّبتم بعيدين عن الأهل والأحباب ، إنّي أهنئكم بإقدامكم وعظيم نشاطكم وثباتكم ، فقد برهنتم للملأ جميعه باجتهادكم وذكائكم أننا شعب حيّ قادر أن يحافظ على اسم أمّته الكريمة . فمن كان منكم قد وصل إلى الدرجة التي يتمنّاها فليعد إلى وطنه مسقط رأسه ، فإن بلادنا في حاجة إلى الرجال العاملين . إن بلادنا الواسعة فيها من الخيرات مالا يقلُّ عن هذه البلاد ، والدليل على ذلك طمع الشعوب في التقرّب إلينا لابتزاز هذه الخيرات ، وليس تقرّبهم حبّاً لنا ، بل طمعا في ثروتنا المكنوزة التي لا نشتغل لاستخراجها . فأنتم يا إخواني السوريين أحقُّ من هؤلاء الأجانب الذين ينالون الامتيازات الكثيرة ويبتزّون أموالنا ، ونحن عن ذلك غافلون . إن طريقة الاستعمار ليست خافية عليكم ، فبعد أن يحصل الأجانب على هذه الامتيازات بأيّة طريقة كانت يصبحون أرباب السيادة ، فأخاف أن تضيع البلاد بهذه الواسطة ، وكفانا ما فقدناه حتى الآن . فلنحافظ على البقيّة الباقية من وطننا العزيز . لقد درستم الحياة وعرفتم أسباب وأسرار تقدُّم الأمم باختلاطكم بالشعوب الراقية العاملة ، وأتممتم ما ينقصكم من الاختبار ، فارجعوا إلى بلادكم غانمين واستثمروا خيراتها بما تعلّمتموه ، ولا تجعلوا للأجنبي باباً للتداخل في شؤونكم ، فأنتم أولى من الغريب بهذه الثروة الموروثة من أجدادكم ، وإن وجدتم صعوبات فتحمّلوها فداء وطنيتكم ، واللّه ينصركم ويوصلكم إلى كل ما تحبُّونه .

ولكن بأي جنس تعودون؟ عودوا بجنسكم العثماني رافعين الرأس حاملين اسمكم السوري ، لا بجنس أجنبيّ . فإن عدتم إلى أوطانكم بالحالة الأولى يكون وقتئذ لكم الحق في مشاركة حكومتكم في كل ما يعود عليها وعليكم بالخير ، وإن تكن الأخرى (ولا أخالكم ترضونها لأنفسكم) فعدتم منتحلين جنساً أجنبيّاً لمعاكسة الحكومة ، وعدم احترام قوانينها وشرائعها ، والصياح في وجهها بدون حقّ ، فهي إن عاملت هؤلاء الخارجين عن طاعتها معاملة الأجانب ، ولم تلتفت إلى طلباتهم ولم تعنَ براحتهم ، كانت محقّة في ذلك . وهذا أقلّ جزاء يناله من تبرأ من جنسه ، إذ يُعدُّ خارجاً على أمّته .

هذه آمالي فتقبّلوها منّي بإخلاص . وأختم خطبتي بأن أشكركم من صميم

فؤادي لما لقيته منكم من حسن الوفادة والكرم ، وأهنئ رجال الصحافة ناشري لغتنا المحبوبة بين إخواننا السوريين البعيدين عن الأوطان ، ومسبّبي الارتباط الدائم بين الشرقيين ، لاسيّما السوريين المقيمين في الممالك المحروسة ، وبين الساكنين الآن في هذه الدنيا الجديدة ، وإنّي أدعو الله أن يوفّقنا إلى كلّ ما فيه صلاحنا وفلاحنا .

ب - مرآة الغرب

هنا يجدر بي كتابة ما نشرته جريدة «مرآة الغرب» الغرّاء ، التي تصدر بنيويورك باللغة العربية ، لصاحبها نجيب أفندي موسى دياب عن وصف هذه الحفلة الإكرامية :

الأمير محمد علي في نيويورك .

جمعية الاتحاد السوريّ تحتفي بسموّه وتكرّم مصر في شخص شقيق الجناب العالي .

ج - المأدبة الإكرامية في ولدروف أوستوريا

تجلّت ليلة القدر مساء السبت الفائت في نزل ولدروف الشهير في نيويورك ، إذ طلع الأمير الكريم محمد على شقيق خديوي مصر بدراً في سماء الحفلة الإكرامية التي أقامتها جمعية الاتحاد السوري باسم السوريين احتفاء بسموّه ، وهو ضيف الجالية السوريّة ، بل ضيف الأفئدة الشرقية في ديار كولمبس على ضفاف الهدسون .

كان أعضاء الاتحاد السوري قد اجتمعوا في القاعة المخصّصة لاستقبال الضيف العظيم عند الساعة السابعة مساء ، وكانت الجمعية قد أوفدت حضرتي الفاضلين أنطون أفندي سمعان وإلياس أفندي ملوك بسيارتين ، فأقبلا مع الأمير وحاشيته . وما أزفت الساعة السابعة ونصف حتى أشرقت أنوار طلعة الأمير وبطانته الكريمة المؤلّفة من الماجور محمود خيري بك ياور الجناب العالي الخديوي ، ومصطفى رضا بك كاتم أسراره ، وعلى رؤوسهم الطرابيش العثمانية . فصدحت الموسيقى بالسلام الخديوي واصطفّ الأعضاء على الجانبين ، فأخذ سموّه يصافحهم فرداً فرداً ، وتصدّر المجلس ، فاستقبله حضرة رئيس الجمعية الفاضل داود أفندي حداري[148] بخطاب بليغ رحّبَ

---

(148) ورد هذا الاسم من قبل (حديري) ، ولعل سبب الاختلاف هو إمالة حرف الألف A في اللفظ الإنكليزي .

به وبمن معه باسم الاتحاد السوري والجالية السورية ، وحيّاه باسم الناطقين بالضاد من شاطئ الاتلانتيك إلى شاطئ الباسفيك ، فوقف سموّه وألقى خطاباً بليغاً كالدر النضيد ، كُتِبَتْ آياته بقلم الوطنية ، وخُطَّتْ سطوره بيراع الصدق ، ولا غرو فهو خطاب الأمير المؤلف والرجل الكبير الذي حقق الخُبْرَ(149) عنه الخَبَرَ.(150)

وما كاد سموّه ينتهي من خطابه حتى اهتزّت أرجاء المحفل بالتصفيق والهتاف . ثم فُتح الباب الفاصل بين حجرة المائدة ، فدخل سموّه والجمع المعجب به ، وتصدّر المائدة التي كانت مزدانة بالأزهار والأنوار فزادها نوراً ، وأنعش لطفه ما فيها من الزهور .

جلس الأمير في ظلّ العلمين المصريّ والأميركيّ ، وفي وسطها خمسة رسوم مكبّرة ، هي رسوم جدّه الأكبر محمد علي الكبير ، وإبراهيم باشا الغازي أو نابليون الشرق ، وإسماعيل باشا جدّه ، وتوفيق باشا والده ، وسموّ شقيقه الأمير عبّاس الثاني خديوي مصر . جلس الأمير وإلى يمينه حضرة الفاضل داود أفندي حداري رئيس الجمعية ، وإلى يساره حضرة العالم الخطيب والنطاسي البارع الدكتور رزق أفندي حدّاد رئيس الجمعية الأول ورئيس هذه الحفلة ، وإلى يمين الرئيس حضرة العالم الفاضل والنطاسي البارع الدكتور اسكندر بك جريديني أحد ضيوف تلك الليلة الساطعة بأنوار طلعة الأمير . وأخذ الحاضرون مراكزهم ، وكانت راية الجمعيّة وشعارها الأرزة تخفق أمام الضيف العظيم الذي كانت أنوار اللطف تفيض من محيّاه ، فيحدّث من حوله ويبسم للجميع ابتسامة تشفُّ عن سروره برؤية أبناء سوريا ومصر ، ملتفّين حوله محدقين به ، يقومون بواجب مقدّس نحو أمير الفضل والعلى .

ولم تمضِ ساعة حتى وقف رئيس الحفلة الدكتور رزق أفندي حدّاد مستأذنا الضيف الخطير ، فافتتح الكلام على المائدة بذكر محاسن الشرق والشرقيين ، ومن

---

(149) الخبر الأولى (بضم الخاء وسكون الباء) : التجربة والاختبار ، والأخيرة (بفتح الخاء والباء) : النبأ المسموع .

(150) هنا أورد المؤلف بين هلالين النص الآتي : ولقد نُشر هذا الخطاب في الصفحة الأولى من الجريدة وكُتب في مقدمته : إنه أوّل خطاب ألقاه سموّ الأمير في حفلة رسميّة ، وحريّ بجمعية الاتحاد السوريّ ، جمعيتنا الكبرى ، أن تنال هذا الشرف من أمير العلم والجد ، ورب السيف والقلم ، حفيد سميّه محمد علي الكبير .

جملة ما قاله : (إنّ الغربَ أمسى يحيط بوجودنا ، وأما الشرق فهو مقيم في وجداننا) . ثم شرب نخب من هو رجاء الشرق وعماد الأمّة العثمانية النجيبة جلالة السلطان المعظّم (فوقف الحضور دفعة واحدة وشربوا نخب جلالته بمزيد الوقار والاحترام) وما لبث الخطيب أن أنشد :

سلطاننا محمد[151] المقتدى
وتاج عثمان السني المجيد
حامي حمى الدستور في شرقنا
وركن ذاك الاتحاد الوطيد
يدعو له في الغرب أبناؤه
بالنصر والملك السعيد المديد
فتبسم الأيام حتى نرى
عصر رشاد فاق عصر الرشيد

ثم عاد رئيس الحفلة إلى الكلام عند شرب النخب الثاني ، فذكر الديار التي هي أقرب الديار إلينا ، والأمّة التي هي أعزّ الأمم لدينا - أي الأمة المصريّة الكريمة - فتمنّى لمصر أن تبقى مدى الزمن كما كتب عنها عمرو إلى الخليفة عمر في صدر الإسلام إذ قال : «فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء إذا هي عنبرة سوداء ، فإذا هي زمرّدة خضراء ، فإذا هي ديباجة زرقاء ، فتبارك الخالق لما يشاء»[152] . ثم رفع الكأس على ذكر رئيس الأسرة الخديويّة ومليك الأمّة المصريّة ونصير العربيّة والعثمانيّة سموّ الخديوي (عبّاس باشا حلمي الثاني) وأنشد هذه الأبيات :

يا مصر مهد العلى والمجد من قدم
ومطلع العلم والعرفان للناس
للّه كم حزت من حسن ومن حسب
وحاز أهلك من لطف وإيناس
أنت السعيدة في الأمصار قاطبة
لازلت باسمة في ظل عباس

---

(151) السلطان العثماني محمد (الخامس) رشاد .

(152) وردت هذه العبارة في صيغة مختلفة قليلا في «النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي .

ثم تقدّم الدكتور حداد إلى نخب الزائر الكريم فقال : إن مصر وسوريا شقيقتان منذ بدء الزمان ، وهما أقدم البلدان ومهبط الحكمة والأديان . مصر أم العلى ، وسوريا أم الهدى . وإن السوريّ الهابط إلى مصر من سفح لبنان لا يعدُّ نفسه فيها غريباً أو دخيلاً ، بل يعتبرها وطناً ثانيا له ، ويحبّها كذلك . ثم أخذ يعدّد مآثر الأسرة الخديويّة من عهد محمد علي الكبير إلى عهد عبّاسها الثاني ، الذي أحيا ذكر العباسيين القدماء ، فأضحت الكنانة مقرُّ العلم والعلماء والأدب والأدباء ، كما كانت الرصافة في عهد هارونها ومأمونها . إلى أن قال : (تلك الأسرة النبيلة التي أخرجت في وقت واحد بسمارك الشرق ونابليون الشرق ، وأشار بذلك إلى منشئ الوحدة المصرية محمد علي الكبير وإلى إبراهيم القائد الخطير والبطل الشهير) . ثم قال : إنَّ أجدادنا في أوائل القرن التاسع عشر قد تألّبوا حول ذلك الأمير الفاتح ، ونحن اليوم في أوائل العشرين نتألّب حول الأمير السائح . ذاك قد افتتح بلادنا ، وأما الأمير فقد غزا ولكن قلوبنا . وبعد ما أفاض الخطيب في تعداد مآثر تلك الأسرة الكريمة خاطب الأمير الزائر ، فحيّاه باسم الاتحاد السوري ، وبالنيابة عن مئات الألوف من السوريين المهاجرين ، ثم اشترك الكلُّ في شرب نخب الأمير . وختم الخطيب كلامه بهذه الأبيات :

ألا فاسقنا كأس الأمير فإنّها
لكأس العلى والمجد والفضل والندى
سليل العلى من أسرة علوية
تصون لها الأيام مجدا مخلّدا
أعادت إلى مصر القديمة عزّها
وللعرب العرباء فخراً وسؤددا
وكم أطلعت في منبت الفضل دوحة
وكم أطلعت في قبّة المجد فرقدا
وكم رفعت للعلم صرحاً مشيداً
وكم شيدت للبرّ داراً ومعهدا
فيا سيّداً أحيا القلوب بزورة
فكانت كنبت ذابل زاره الندى

نحـــيـك عن دار الشـــأم وأهلهـــا
وكم حـــفـظت دار الشـــأم لكم يدا
ومـــأثرة في الشـرق قـد سـار ذكـرها
وفي العـــالم الغـربي رنَّ لهـا الصـدى
أبى اللّه أن ننسى صنيـــعك والوفـا
غـداة رمت بيـروت صـاعـقـة العـدى
فكنت حليف البــائسين على الضنا
وكنت لهــاتيك الجــراح مـضـــمـدا
لئن نحن جــزنا كل قطر ومــعـــشـر
وتاهت بنا الأسفار في الأرض سرمدا
فنحـــفظ مـــا أوليـــتنا من مكارم
وهيـهـات أن ننسى الأمـيـر محـمـدا

ثم وقف رئيس الحفلة وشرب بسر الراية الأميركية راية النجوم الزاهرة ، ورئيس الولايات المتحدة ، والشعب الأمريكي العظيم ذي الوطنيّة الحقّة ، فصدحت الموسيقى بالنشيد الوطني ، ووقف الجميع إجلالا وتعظيماً .

وقدّم رئيس الحفلة للضيف والحضور الشاب الأديب فيليب أفندي كاتسفليس ، فأنشدهم بعذوبة صوته الأنشودة الآتية ، وهي من نظم رئيس الحفلة الدكتور رزق أفندي الحدّاد :

بدر تمّ في ســـمـــا المجـــد ســـمـــا
وكـــــــانا من سناه حـلـلا
وبأرض الغــرب أضحى مشـرقـا
فــجــلا الهمّ وأحـــيـــا الأمـــلا
يا أمـــيـــر الشـرق شـرفت الحـمى
فـــانتـــشى كل فـــؤاد جـــذلا
وبنو الشـــام لديك اليـــوم كم
ذكـــروا مـــصـــر وذيّاك الولا
فلتـــعش مـــصـــر ومن ســادوا بهـــا
ورعــــــاك اللـه يا بدر العـلى

فطرب بها سموّه وانشرح لها صدراً ، وهنا وقف الأمير متكلّماً باللغة الإنكليزية ، فذكر رجلاً من خيرة رجال أميركا في مصر هو المستر تجاي قنصل جنرال[153] الولايات المتحدة ، فقال يوم ساعدنا ببيروت المنكوبة بقنابل الإيطاليين لم نرَ مساعدة من أوربي أو أميركي ، عدا المستر تجاي الذي تبرّع لمساعدة المنكوبين بمائة ليرة إنكليزية ، وهو رجل طيّب القلب يحبّ الخير للناس جميعاً . وإنّني أسألكم أن تكرموه إذا زار الولايات المتحدة الأمريكية ، وأنا معكم الآن أشرب بسر ذلك الرجل الكبير القلب المشفق على الضعفاء . وما كاد سموّه ينتهي من كلامه حتى صدحت الموسيقى بالسلام الخديوي ، فوقف الحاضرون إجلالاً .

وأخذ رئيس الحفلة يستدعي الخطباء ، فاستدعى أوّلاً حضرة رئيس الجمعية داود أفندي حداري ، الذي تلا خطاباً فيه ما فيه من بيان العلائق الولائية بين مصر وسوريا ، وحبّ السوريين للأسرة الخديوية . وهنا استدعى حضرة الكاتب الفاضل والشاعر المجيد ندره أفندي الحدّاد نائب رئيس جمعية الاتحاد السوري ، فتلا قصيدة من نظمه المتين مؤلّفة من سبعة عشر بيتاً ، وكل بيت منها كأنّه الصرح المشيّد منها .

يا ابن الملوك الصيد من شادوا لنا
مجداً رفيعاً قد تعالى شأنه
أحييتم للشرق بعد هبوط الـ
ـعز الذي باهت به سكانه
يسمو بعباس العلى وشقيقه
قطر سعيد تزدهي وِدْيانه
والنيل معتز على أقرانه
إن العزيز قليلة أقرانه
حرس الإله محمداً وأخا العلى
عباسنا الثاني وطال زمانه
ما أشرقت شمس ولاحت أنجم
والروض مالت فوقه أغصانه

(153) قنصل جنرال : القنصل العام .

ثم استدعى حضرة النطاسي الفاضل الدكتور اسكندر بك جريديني الطبيب المعروف في طنطا ومصر، والعائد إلى الوطن في الوقت القريب.

فوقف وقفة الخطيب وشكر لجمعية الاتحاد السوري دعوتها له ليقوم بواجب مقدّس نحو سموّ الأمير، واسترسل في خطابه إلى ذكر مصر وسوريا الشقيقتين العزيزتين. فقال: لا يفصل بينهما سوى ذلك القنال، قنال السويس. فإذا وقف السوريّ في ضفّة والمصريّ في الضفّة المقابلة يتحادثان بالودّ والولاء، وإذا مدّ الآخر يده إلى الثاني يتصافحان مصافحة الإخاء. وذكر ما لمصر من الفضل على السوريّ، وما في فؤاد السوري من الشعور الحيّ نحو أبناء النيل وحكومته، والاحترام والحب للأسرة العلويّة المحمديّة ولا سيّما عزيز مصر وخديويها الحالي عباس الثاني. ولقد أجاد الدكتور كثيراً وأعرب عن صدق في وطنيته دلّت عليها لهجته وأقواله الصادرة عن وجدانٍ حيّ.

واستدعى للخطابة نجيب دياب صاحب هذه الجريدة، فوقف وحيّا الأمير، وذكر ما لمصر من الأيادي البيضاء على شقيقتها سوريا، فقد كانت ملجأ اللاجئين إليها منذ أيام السيد المسيح وأمّه العذراء مريم إلى اليوم. ثم ذكر ما للأسرة الخديوية من الأيادي البيضاء على سوريا ومعاهد العلم فيها، ومساعدة العلامة البستاني بالأموال الطائلة يوم ألّف محيط المحيط ويوم اشتغل في دائرة المعارف. وأتى على ذكر القصر العيني، ذلك المعهد الطبي الذي أسّسه جدّ الأسرة الخديوية، وما له من الأفضال على السوريين. ورحّبَ بالضيف الكريم باسم الصحافة العربية في الولايات المتحدة، وذكر بالخير الصحافة العربية المصرية والسورية، وما أظهرته من الاهتمام في رحلة سموّ الأمير وسياحته، واحتفاء أبناء سوريا، وغير ذلك.

واستدعى رئيس الحفلة جناب الكاتب الفاضل وليم أفندي كاتسفليس الرئيس السابق لجمعية الاتحاد السوري، فألقى خطاباً نفيساً امتدح به الضيف الكريم، وأثنى على ديمقراطيته وتسامحه ولطفه، ودعاه أميرَ الأدباء وأديبَ الأمراء، وقد جال وليم أفندي جولاته المعروفة بالفصاحة والافتنان في الموضوعات، ولا بدع في ذلك فله وقفات شَهِدَ له بها حتى خصومه.

وهنا قدّم الدكتور حدّاد حضرة الكاتب الفاضل والشاعر المجيد الشيخ عبّاس أفندي أبو شقرا أحد محرّري هذه الجريدة، وكاتم أسرار جمعية الاتحاد السوري، فتلا قصيدة عصماء من نظمه أعجب بها سموّه والحاضرون ومنها:

أعظم بمجدك مجد الترك والعرب
أخا العزيز أمير النيل والنسب
حللت في بلد تاجاً على ملك
حيناً ينافس فيه سائر الحقب
فمرحباً بفتى العليا محمدها
ركن الأريكة وابن السادة النجب
أقبلت بدراً ينير الغرب طالعه
بساطع من جلال القدر والحسب
في هالة تأخذ الأبصار زاهية
تألفت من لباب العلم والأدب
لئن تنكّرت فالأفعال معلنة
كما تنكّر قرن الشمس في الحجب
أو سرت منفرداً لا تبتغي حرساً
تظل من همم في جحفل لجب

وقدّم رئيس الحفلة حضرة الفاضل الشاعر المطبوع توفيق أفندي فخر الذي لا ينسى الأدباء رقّة نظمه وسلاسته وافتنانه ، فتلا قصيدة غرّاء نالت استحسان الأمير .

واستدعى أيضاً فتى الشيوخ وشيخ الشعراء حضرة الفاضل ميخائيل أفندي رستم ، فتلا قصيدتين من نظمه الرستمي ، سرَّ بهما سموّ الأمير سروراً لا مزيد عليه ، وأعجبه من رستم أفندي خفّة روحه ، فإنه بمناسبة تنكر الأمير باسم رستم بك في رحلته قال (ميخائيل أفندي رستم) في أبياته :

ردّ لي اسمي مع فائض مستحق
ولك الشكر من مداع صغير

فاستلطف سموّ البرنس هذا الشاعر الشيخ واستحسن مداعبته وأجابه : لا أردّ الاسم إليك ، وأيّ ضرر لحق بك من استعمالي إياه؟ فقال رستم أفندي :

بل أنا أطالب بحقّي وأطلب أن تردّ لي اسمي مع الفرط ، فأجابه البرنس على الفور :

هو أنت يهودي؟!

ظهر بعد ذلك شيخ أبناء الذكاء وربّ القول في الزجل والشعر العامي الفاضل إلياس أفندي الفران ، فألقى في حضرة الأمير أبياتاً زجلية هي الفصاحة والبيان .

وقدّم رئيس الحفلة حضرة الفاضل عبد الملك أفندي سعد ، أحد طلبة الطب في جامعة هرفرد الشهيرة في بوسطن ، وهو مصريّ ومن أعيان الأقباط ، فتلا خطاباً فصيحاً رحّب فيه بسموّ شقيق عزيز مصر ، ولفت أنظاره إلى عظمة هذه البلاد وعلومها وفنونها وما فيها من الرقيّ ، وتفاءل بسياحته خيراً للديار المصرية ، فسُرّ الأمير به سروراً عظيماً .

وهنا استدعي صاحب هذه الجريدة مرة ثانية ، فناب عن حضرة الكاتب المفتن الفاضل سليم أفندي سركيس صاحب مجلة سركيس المشهورة في العالم العربيّ ، وتلا عنه خطاباً كان قد أرسله إلى جمعية الاتحاد السوري ليتلى في هذه المأدبة ، ولا يخفى أن سركيس أفندي وحضرة الفاضل صاحب العزّة سليم بك أيوب ثابت كانا في طليعة المهتمّين بهذه الحفلة الكبرى ، ومن أوّل المعجبين بها ، فتلا صاحب هذه الجريدة الخطاب الآتي :

مصر في 15 يونيه سنة 912

حضرات الإخوان الأفاضل رئيس وأعضاء جمعية الاتحاد السوري حفظكم الله .

كتابي هذا إليكم لتقرؤوه في الحفلة التي تقيمونها لإكرام دولة الأمير محمد علي ، ليعلم دولته حفظه الله أن السوريّ في بلاد محمد علي الكبير يشترك مع أخيه في بلاد واشنطون العظيم في إكرام حفيد الرجل الشرقيّ وشقيق العبّاس وابن توفيق ، الذي قال فيه شاعر سوريا اليازجي(154) :

الخصم ليس له إليك طريق
أنّى يفوز وخصمه التوفيق

أنتم أيها الأخوان قد تشرفتم في ديار الغربة بضيافة أمير مصريّ من الأسرة العلوية الشريفة ، التي شرّفت أبناء سوريا منذ أيام رأسها محمد علي حتى الآن بإكرامهم وتقديرهم حقّ قدرهم . هذا الأمير محمد علي شقيق أفندينا عبّاس الثاني ،

---

(154) الشاعر إبراهيم بن ناصيف اليازجي (1847 - 1906)

وفيهما يقول شوقي شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية مخاطباً ساكن الجنان الخديوي توفيق :

وترى ابنك العبّاس مبتسماً
يلقى وفود العُجْم والعرب
ويقول جدّي في سماحته
جدي وتوفيق الزمان أبي
والله شدّ بفضله عضدي
بأخي عليّ المجد والحسب

وفي ضيفكم اليوم وفي أخيه العباس يقول شوقي :

أعزّة أينما حلّت ركائبهم
لهم مكان كما شاؤوا وإمكان
تأبى السعادة إلا أن تسايرهم
لأنهم لملوك الأرض ضيفان
نجلان قد بلغا فيالمجد ما بلغا
معظم لهما بين الورى شان
يكفيهما في سبيل الفخر أن شهدت
بفضل سبقهما روس وألمان
هما هما تعرف العلياء قدرهما
كلاهما كَلِفٌ بالمجد يقظان
ما الفرقدان إذا يوماً هما طلعا
في موكب بهما يزهو ويزدان

أيها الإخوان . لا ريب أنكم تريدون من صديقكم القديم الدائم أن يوافيكم بشيء عن أخلاق ضيفكم الكريم ، فنحن بطبيعة الحال أدرى منكم بها لأننا نقيم حيث يقيم دولته .

دولة الأمير ممتاز بصدق وطنيّته العثمانيّة أوّلاً ، فالمصرية ثانياً ، ويلتهب فؤاده غيرة على الشرق ومجده وعاداته . يعشق تقدّم العلم وإحياء الصناعة ، ويميل إلى مجاراة الغرب ، وأن يأخذ من عاداته أحسنها ، على شريطة أن لا نهمل عاداتنا

الممدوحة ، وآدابنا العربية ، والشهامة التي امتاز بها قومنا . يريد أن نكون كاليابانيين الذين زار بلادهم ، محافظين على تقاليدنا في الملابس والمآكل والعادات ، وأن نكون على أهبة لردّ غارات الأمم التي تدّعي المدنية وهمّها ابتلاع الأمم الضعيفة . يسوءه كثيراً وجود الضغائن والأحقاد بين الترك والعرب ، والمصريّ والسوريّ ، والجركسيّ والألباني ، الذين تجمعهم راية واحدة وعادات واحدة .

وأما أخلاق دولة الأمير فحدّث بما شئت من الكرم والإخلاص ، وحبّ إغاثة الملهوف ، وجميل المعاشرة ، والابتعاد عن الكبرياء مع المحافظة على مقامه العالي .

ودولة الأمير محمد علي قويّ الاعتقاد بدينه ، فهو مسلم غيور ولكن بدون شيء من المغالاة ، وهو لا يعرف الخمر ولا التدخين ولكنه مولع بالقهوة الجيّدة ، وله مآثر خفيّة ، فهو ينفق على كثير من الأسرات المحتاجة ، وعلى تربية وتعليم بعض أبنائها في مدارس أوربا ومصر بقدر ما تسع له ثروته .

ويسرّني أن أقول : إن دولته امتاز في كل زمان ومكان بحبّه الصحيح لأخيه سموّ الخديوي المعظم .

إن دولة الأمير الذي يشرّف حفلتكم أيها الإخوان له فضل سابق على سوريا وأبنائها فيها وفي مصر ، شأن جميع أفراد هذه الأسرة القديمة . وقد سمعتم ، ولا ريب ، بما كتبه في رحلته السوريّة عن وطنكم وقومكم ، وسمعتم أيضاً ما أبداه من الأريحية السامية في إعانة أهل بيروت يوم فاجأهم الطليان بالعداء ، ودولته يرى الآن أن السوريّ عارف فضائل دولته في كل مكان لأننا إخوان حقاً ، يشعر كل فرد منّا في كل البلاد بالإحسان إلى كل فرد آخر . فأنتم بإكرام دولة الأمير الكريم قد رفعتم رأسنا وحفظتم كرامتنا ، وتركتم في نفس دولته أجمل تأثير سيبقى فيها إلى ما شاء الله . وخليق بي ، وأنا أكتب من مصر ، أن أختتم رسالتي بقول الشاعر المصريّ الكبير حافظ إبراهيم :

هذي يدي عن بني مصر تصافحكم
فصافحوها تصافح نفسها العرب

هذا وقد طُبع الخطاب على حدة مصدّراً برسم سموّ الخديوي عبّاس الثاني وشقيقه ضيف الجالية ، ووزعت نسخه على الحاضرين . وكان مسك الختام قصيدة من نظم شاعر السوريين في وادي النيل حضرة الفاضل خليل أفندي المطران بعثها لتُتلى في هذه الحفلة ، فانتدبت الجمعية لتلاوتها حضرة الفاضل ندره أفندي الحدّاد

نائب الرئيس الذي استدعي فلبّى ، وتلاها بفصاحة وحسن إلقاء ، وقد سُرّ بها سموّه كثيراً ، وما وصل ندره أفندي إلى البيت الأخير من قصيدة شاعر السوريين في وادي النيل القائل :

جـذلين ننعم في صـبـيـحـتنا وليلتكم سـعـيـدة

حتى نهض الأمير وحاشيته وتبعهم الجمهور إلى حجرة الاستقبال ، وهناك ودّع سموّه رئيس الجمعية وأعضاؤها ، وشيّعوه بالإكرام اللائق بمقامه العالي .

في منتصف الساعة الثامنة من مساء يوم الأحد 21 يوليه لبّينا دعوة قيصر أفندي صبّاغ وقرينته السيدة نجلاء إلى المأدبة التي أُعدّت لنا في فندق ريجنس العظيم ، فقابلتنا السيدة نجلاء وشقيقتها السيدة نبيهة عقيلة سليم أفندي مغبغب بالترحيب والإكرام ، وصدحت الموسيقى بالنشيد الخديوي ، وبعد أن جلسنا قليلاً في حجرة جميلة معدّة لاستقبالنا فتح باب قاعة المائدة ، فدخلناها ، وجلست وعن يميني السيّدة نجلاء ، وإلى يساري شقيقتها السيدة نبيهة ، ثم أخذ المدعوّون مراكزهم .

وكانت المائدة مفروشة بالورد والأزهار ، وفي وسطها مصباح كهربائي ياباني ، ومن فوقها تتدفق المياه من نافورة كما تتدفق مياه الجندل ، والرايات المصرية والأمريكية تزيّن الحجرة ، ورسوم الخديويين العظام في وسطها . وقد كانت الزينة أبهى وأجمل زينة ، ولا عجب في ذلك ، فهي نتيجة ترتيب وذوق النجلاء .

وكانت المائدة وما عليها من أفخر وأبهج ما صنعته الأيدي . فالملاعق والسكاكين و(الفراتيك)[155] كلها من الذهب الإبريز ، والآنية من صنع الصين الحقيقي .

وما لبثنا قليلاً حتى رأينا النجلاء قد نهضت تكرمنا وتحتفي بنا ، فلفظت الخطاب الآتي ، وكلّه درر ، ويشفّ عن أدب عالٍ ورقيّ نادر .

قالت أكثر الله من أمثالها :

مولاي الأمير

إنّ تعطفكم وقبول دولتكم دعوتنا هذه الليلة مما يشير إلى روحكم الديمقراطية الشريفة ، التي هي مصدر حياة البلاد وفلاح العباد .

فبمثلكم تعتزّ الأمة الشرقية ، وتجاري بأفرادها الآن وبمجموعها غداً سائر الأمم الغربية .

---

(155) فراتيك (جمع فورك) : وهي تعريب حرفي لـ Fork : شوكة .

مولاي . لقد زرت القاهرة في السنة المنقضية فملأ مسمعي ثناء إخواني فيها على الأسرة الخديوية المعظمة وعطفها عليهم . وسرّني ما سمعته من سموكم من جميع إخواني ، ومن صديقي المفضال صاحب السعادة إسماعيل باشا أباظه ، من الصفات الممتازة التي اتصفت بها دولتكم . وعلمت من ابن عمي خليل مطران ، وهو في مقدمة المعجبين بدولتكم ، أنّ حفيد محمد علي الكبير كبير بفضائله السامية ، وبأخلاقه الراقية ، وبعطفه على المساكين . وعلمت أيضاً من صديقي الكريم رجل الحزم والعزم سليم بك ثابت أنّ دولتكم كانت أوّل من مدّ يد المساعدة للبيروتيين يوم فاجأهم الطليان بالنكبات ، واتصل بي من صديقي الفاضل سليم أفندي سركيس أن الأسرة الخديوية - حفظها الله -هي بمثابة شجرة عظيمة مسترسلة الأغصان ، يستظل بظلها أبناء وطني في وادي النيل .

وبلغني أن دولتكم استحسنت زحلة مسقط رأسي ووطني الأول ، وتكرّمتم بإطرائها ، خاصّة في كتاب رحلتكم . فابنة زحلة السورية ترحب بدولتكم في هذه الديار ، وتقدم إلى سموكم شكراً ممتزجاً بشعائر الإكرام والاحترام ، يكون عبارة عن وردة تزهو في ظلال الأمير ، وتنتعش في حديقة سموّ العزيز . وإنّي أسأل دولة الأمير - رعاه الله - ليثق بأن همّته العالية مصادفة إعجاباً واعتباراً من المرأة السوريّة ، كما أنّها نائلة قدراً ومكانة في قلب الرجل السوري . فألتمس من دولتكم أن تكونوا في طليعة الآخذين بناصر المرأة الشرقية ودفعها إلى الأمام ، لأنّها قد برهنت في المدة الأخيرة التي أعطيت فيها حقوقها على مقدرة عقلية وكفاءة لمجاراة أخواتها الأوربيّات في كل الأعمال العظيمة .

فبلسان شقيقاتي الشرقيّات في هذه البلاد أرحب بكم ، وأثني على دولتكم لتعطّفكم وتشريفكم ، وأهتف بالدعاء قائلة : ليحيى عبّاس الثاني ، وليعش محمد علي . مردّدة هتاف مواطنيّ في وادي النيل .

ألقت السيّدة خطابها هذا بثبات ورباطة جأش ، وقد كان لكلامها وقع حسن جداً في نفسي ، فجاهرتُ أمام الحاضرين بشدّة إعجابي بفصاحة هذه السيّدة الشرقية النادرة المثال ، ثم هنأتها وقلت لها : إنّ أمة فيها أمثالك لا تخاف مستقبلاً مظلماً ، فكوني في راحة ضمير واطمئنان على شقيقاتك الشرقيات ، ولقد ابتدأنا نحن الشرقيين نعرف علل تأخرنا وأهمّها تربية المرأة ، وسنصل بإذن الله إلى الطرق الغربيّة الموصلة إلى تثقيف المرأة وجعلها في مستوى مثيلاتها الغربيّات ، وتزيد عنهنّ

بالأخلاق الصالحة الشرقية . إن شاء الله .

خطب بعد ذلك قيصر أفندي صبّاغ خطاباً كلّه أدب وفصاحة وبيان ، ثم أعقبه الدكتور رزق أفندي حدّاد ، فالدكتور اسكندر جريديني . وبعد الفراغ من تناول الطعام انتقلنا إلى غرفة الجلوس ، وهناك أنشدنا فيليب أفندي كاتسفليس نشيد مريض يحب وطنه سوريا ، فطربنا منه واستعدناه مراراً . وأخيراً انصرفنا بعد أن شكرنا لطف الداعية وهمّة قرينها الفاضل .

في صباح يوم الاثنين 22 يوليه ركبنا عربة ، وذهبنا لشراء كتب هندسيّة تختصُّ بالعمارات الأمريكية لإهدائها لصديقي محمود بك فهمي باشمهندس الأوقاف . وعند عودتنا إلى الفندق أُخبرت أن فضيلة العالم الشرقي الجليل عباس أفندي زعيم البهائيين يريد مقابلتي ، فضربت له موعداً في الساعة الثالثة بعد ظهر هذا اليوم . وفي الساعة الثانية حضر عندي جلال بك قنصل تركيّا بالولايات المتحدة ، فوجدته رجلاً كاملاً تدلُّ هيئته على الرزانة والكمال ، ومن حديثه وثقت من اقتداره وكفاءته ، ففرحت به ، ودعوت الله أن يُكثر من أمثاله العثمانيين ، خصوصاً بين موظّفي السفارات بأوروبا .

حضر بعد ذلك عبّاس أفندي ، فقابلته مرحّباً به معظّماً له ، ولم تؤثّر الشيخوخة في ذكائه المفرط ، فإنه مكث معي نحو ساعة من الزمن ، وهو يحدّثني في موضوعات شتّى مفيدة جداً دلّت على سعة اطلاعه وكثرة اختباره ، فهو إذاً رجل العلم وعظيم من عظماء الشرق .

بعد انصراف هذا الشيخ الجليل استأجرنا سيارة ذهبت بنا إلى منزل قيصر أفندي صبّاغ وقرينته المحترمة لنشكرهما على دعوتهما ، ولمّا لم نجدهما تركت لهما بطاقة زيارتي ومعها الخطاب الآتي :

حضرة المصونة الفاضلة مدام صبّاغ ،

أقدّم لحضرتك عظيم شكري على الدعوة الإكرامية الجميلة التي دعوتني إليها أمس ، وأعترف لك بكل ما سمعته عن آدابك العالية ومكانتك الراقية ، فقد رأيته فيك بمجرّد أن تعرّفتُ بحضرتك . وقد أعجبني منك كثيراً قلب السيدة الكاملة الذكية المحبّة لبلادها ووطنها ، فتقبّلي أيّتها السيّدة المهذبة خالص سلامي وشكري لما سمعته منك البارحة من العبارات الرقيقة ، والثناء الحسن عليّ وعلى أسرتي وبلادي .

ذهبنا بعد ذلك لردّ الزيارة لعبّاس أفندي فوجدنا منزله صغيراً ولكنه جامع لكل أسباب الراحة والنظام ، وقد كانت حاشيته مؤلّفة من عشرة أشخاص ، وعلى رؤوسهم (القلبق الفارسي) فعرفت من هذا الترتيب أن هذا الشيخ المحترم وقف على موضع ضعف الأمريكيين ، فاستصحب معه هذا العدد الكبير ليلفت أنظارهم إليه ، ولم أرد بذلك أن أحطّ من قدر الرجل ، فإن صنيعه هذا يدلّ على ذكائه ومعرفته الطرق التي بها يؤثّر في نفوس القوم فيقتادهم إليه . أما خطاباته الكثيرة المؤثّرة فإنّها أخذت دوراً عظيماً في أمريكا ، وقد كانت إذ ذاك حديث الجرائد ينشرونها ويعلّقون عليها آراء علمائهم الدينيين ، وبالجملة قد توصّل باقتداره إلى بلوغ الدرجة التي يحسده عليها الحاسدون . وقد مكثت معه زمناً أحادثه ويحادثني فيطربني بلذيذ كلامه ، ثم انصرفت من عنده وأنا أحفظ له في قلبي المودّة والاحترام . قبل أن نزايل مدينة نيويورك أرسلت لحضرات رئيس وأعضاء جمعية الاتحاد السوري الكتاب الآتي :

إنّ ليلة الحفلة التي قمتم بها كانت بالغة غاية الكمال والجمال . وما قاله شعراؤكم وخطباؤكم ورجال صحافتكم أثناء حضوري أثّر في نفسي أعظم تأثير وقد وثقت أن احتفاءكم بي كان صادراً عن إخلاص صحيح ووداد متين ، وكان ذلك ظاهراً على وجوهكم الفرحة الناطقة بما تكنّه أفئدتكم من السرور . فشكراً لكم على ما أبديتموه من التجلة والإكرام لي ولأسرتي وجدودي ولذكركم بلادي المحبوبة مصر بكل افتخار وإعظام وإعجاب ، وكما أنّي رأيت هذا السرور العظيم بادياً عليكم كنت من نفسي في سرور عظيم لوجودي بين إخواني الشرقيين في موقف ظهرت فيه صلات الوداد بأجلى مظاهرها ، والإخلاص الحقيقي في أبهى حلله . فأدعو الله أن يزيد هذه الصلات متانة ويقوّي بيننا الاتحاد والألفة حتى يصلا إلى الدرجة التي أتمنّاها ويتمنّاها كلّ شرقيّ محبّ لبلاده وأمته . وأختتم كتابي بوداعكم في حفظ الله وحراسته ، مؤكداً أنني لا أنسى هذه الذكرى الحسنة ، وأتوسّل إليه سبحانه وتعالى ألا تكون هذه المظاهرة الودادية خاتمة المظاهرات التي تحكم الروابط والعلاقات بيننا ، والسلام .

كشّاف حضاري وفهارس

آيات قرآنية:

(أ)

أحاديث نبوية:

(ب)

أجناس ودول وقبائل:

(أ)

أسلحة:

أسواق:

أشعار:

أعلام:[156]

(أ)

(ب)

---

(156) الأقواس من وضع المحرر ، والكلمات ضمنها لا تدخل في التسلسل الأبجدي للتصنيف ، كما أن بعض الأسماء في النص تتكرر أحيانا بلا ألقاب .

(ي)

أماكن:

(أ)

(هـ)

(و)

(ي)

أمثال وأقوال:

(أ)

(ع)

أمراض وكوارث:

جواهر وحلي:

حيوانات:

(أ)

(ب)

مصطلحات:

معابد:

معالم أثرية:

معلومات هامة:

(غ)

(ك)

(م)

منشآت وهيئات:

(ب)

(ت)

(ج)

مواد ومعادن:

مواسم وعادات:

نباتات:

نقود:

وسائل وأدوات

(أ)

(ب)

المحتويات

صدر ضمن سلسلة ارتياد الآفاق

اسم الكتاب	المؤلف	المحقق / المحرر
تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار 1182-1185	محمد بن جبير الأندلسي	علي أحمد كنعان
الذهب والعاصفة . . رحلة الياس الموصلي إلى أميركا ، أول رحلة شرقية إلى «العالم الجديد» 1668-1683	إلياس الموصلي	نوري الجرّاح
رحلتان إلى سوريا 1908-1920	الشيخ محمد رشيد رضا «صاحب المنار»	زهير أحمد ظاظا
رحلة الحبشة . . من الأستانة إلى أديس أبابا 1896	صادق باشا المؤيد العظم	نوري الجرّاح
الديوان النفيس في إيوان باريس أو «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»	رفاعة رافع الطهطاوي	علي أحمد كنعان
رحلة إلى أعالي النيل الأبيض 1839-1840	البكباشي سليم قبطان	نوري الجرّاح
رحلة إلى أوروبا 1912	جرجي زيدان	قاسم وهب
الرحلة الشامية 1910	الأمير محمد علي باشا	علي أحمد كنعان
الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف 1929	شكيب ارسلان	أيمن حجازي
رحلة باريس 1867	فرنسيس فتح الله المرّاش	قاسم وهب
الرحلة التتويجية إلى عاصمة البلاد الإنجليزية 1902	الحسن بن محمد الغسّال	د . عبدالرحيم موذن
رحلة الوزير في افتكاك الأسير 1690-1691	محمد الغسّاني الأندلسي	نوري الجرّاح
خطرة الطيف . . رحلات في المغرب والأندلس 1347-1362	لسان الدين بن الخطيب	د . أحمد مختار العبادي
رحلة ابن خلدون 1352-1401	محمد بن تاويت الطنجي	نوري الجرّاح
رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة 921	أحمد بن فضلان	شاكر لعيبي

اسم الكتاب	المؤلف	المحقق / المحرر
رحلة الغرناطي . . تحفة الألباب ونخبة الإعجاب ورحلة إلى أوروبة وآسيا	أبو حامد محمد الغرناطي	قاسم وهب
رحلة إلى الهند 1899-1900	مار أثناسيوس أغناطيوس نوري	نوري الجرّاح
رحلة أفوقاي الأندلسي . . مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب 1611-1613	أحمد بن قاسم الحجري «أفوقاي»	د . محمد رزوق
رحلة المقدسي . . أحسن التقاسم في معرفة الأقاليم 985-990	محمد بن أحمد المقدسي	شاكر لعيبي
سياحتي في بلاد الهند الإنجليزية وكشمير 1913-1914	الأمير يوسف كمال	جمال ملحم
النزهة الشهية في الرحلة السليمية 1855	سليم بسترس	قاسم وهب
رحلة الشتاء والصيف 1629	الشيخ محمد عبدالله الحسيني	سامر الشنواني
الرحلة الأوروبية 1919	محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي	د . سعيد الفاضلي
رحلة المكناسي . . إحراز المعلم والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس والخليل والتبرك بقبر الحبيب 1785	محمد بن عبدالوهاب المكناسي	محمد بوكبوط
الواسطة في معرفة أحوال مالطة . . كشف المخبأ عن فنون أوروبا 1834-1857	احمد فارس الشدياق	قاسم وهب
الرحلة الأمريكية	الأمير محمد علي باشا	علي أحمد كنعان
الرحلة اليابانية	الأمير محمد علي باشا	علي أحمد كنعان
رحلة شيخ الأزهر إلى أوروبة . . مذكرات مسافر 1909-1914	الشيخ مصطفى عبدالرازق	أشرف أبو اليزيد
خمس رحلات إلى الجزائر 1904-1932	محمد الخضر حسين وآخرون	د . محمد صالح الجابري
رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال 1743-1748	ابن حمادوش	د . أبو القاسم سعد الله
رحلة محمد الكبير . . باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري	احمد التلمساني	محمد عبدالكريم

اسم الكتاب	المؤلف	المحقق / المحرر
بيروت - برلين - بيروت . . مشاهدات في أوروبا وألمانيا اثناء الحرب العالمية الثانية	كامل مروة	كريم مروة
رحلة إلى صحراء ليبيا	محمد حسين باشا	
اسبوع في بارس 1922	محمد بن عبدالسلام السائح	د . سليمان القرشي
البرنس في باريس - رحلة إلى فرنسا وسويسرا 1913	محمد المقداد الورتتاني	د . سعيد الفاضلي
سياحتي في بلاد التيبت الغربية وكشمير 1915	الأمير يوسف كمال	جمال ملحم

